

# اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لِلْيَسْرَى

بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصَطَّفِينَ



لِلْقَنْاطِيْرِ عَيَاضُ  
أَبِي الْفَضْلِ عَيَاضُ بْنُ سُورَى بْنُ عَيَاضِ الْمَصْبِيِّ

٤٧٦-٥٤٤

دَارُ الْكِتَابِ  
القاهِرَةُ

نَدِيمُ وَعَقِيقُ

سَامِرُ الْجَزَّارُ

# الشقا

بتعریف حقوق المصطفی

للقاضی عیاض  
أبی لفظیل عیاض بن موسی بن عیاض البصیری

٤٧٦-٥٤٤هـ

نقدیم و تحقیق  
عاصم راجرز

الجزء الأول

دارالکتب  
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتاب : الشفاعة

اسم المؤلف : القاضي عياض

اسم المحقق : عامر الجزار

القطع : ٢٤×١٧ سم

عدد الصفحات : ٥٠٤ صفحة

عدد المجلدات : مجلد واحد

سنة الطبع : ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ١٥٩٣٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي : ٩٧٧ - ٣٠٠ - ٠٧٥ - ٢



طبع . نشر . توزيع



١٤. شارع جوهر الصقلي أمام جامعة الأزهر تليفون: ٥٨٩٩٤٠٩ / ٥٩١٨٧١٩ / ٥٩١٩٦٩٧ فاكس:

[www.darelhadith.com](http://www.darelhadith.com)

E-mail: [info@darelhadith.com](mailto:info@darelhadith.com)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

### التعريف بالقاضي عياض

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي .

ولد بسبتة ، وهو أندلسي الأصل ، كان أجداده بالأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ، واستقروا بعد ذلك بالقيروان ، وكان مولده في شعبان سنة ست وتسعين وأربعين .

كان القاضي أبو الفضل عالماً بالحديث وعلومه ، والتفسير وعلومه ، فقيها عالماً بالأصول ، له تبحر في علوم العربية وأيام العرب ، حافظاً لمذهب مالك ، شاعراً أدبياً .

- رحل إلى الأندلس سنة تسعة وخمسين طلباً للعلم فأخذ عن علمائها ومنهم : القاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين ، وأبي الحسن بن سراج ، وأبي محمد بن عتاب ، كما أخذ عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي ، كما أجاز له الطرطوشى ، كما تلمذ على القاضي أبي الوليد بن رشد ، وبالجملة فقد اجتمع له من الشيوخ سمائعاً وإجازة مائة شيخ ، عاد من الأندلس إلى سبتة بالغرب وعمره ثلاثون عاماً فأجله أهلها ووليَّ القضاء بها مدة ، ثم انتقل إلى غرناطة فولى القضاء بها .

بادر في الدخول إلى طاعة الموحدين لما ظهر أمرهم ، ولكن سرعان ما أفل نجمهم واضطربت أمورهم وذلك عام ثلاثة وأربعين وخمسة ، فاضطربت أمور القاضي ، ثم لحق بمراكب مشرداً عن وطنه فكانت بها وفاته .

تصانيفه :

كان للإمام اهتمام بشتى العلوم وإن برع اهتمامه وعنايته بالحديث وعلومه جمعاً وتصنيفاً وشرعاً ، ومن أهم تصانيفه :

إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم ، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ،

وتفسیر غریب حدیث الموطا والبخاری ومسلم ، وكتاب التنبیهات المستنبطة في شرح مشکلات المدونة ، وكتاب ترتیب المدارک وتقرب السالک لمعرفة أعلام مذهب مالک ، وكتاب بغية الرائد لما تضمنه حدیث ام الزرع من الفوائد ، وكتاب سر السراة في أدب القضاة ، وكتاب السیف المسلول على من سب أصحاب الرسول ، وغير ذلك من المؤلفات.

توفي القاضی براکش في جمادی الآخرة ، وقيل : في رمضان سنة أربع وأربعين وخمسماة .

رحم الله القاضی ونفع المسلمين بعلمه ، ونفعه بما علم ، وجعل علمه له صدقة جاریة ، وجزاه عن الإسلام وال المسلمين خيرا .

## عملنا في الكتاب

- ١ - ضبط النص ومراجعته على نسخ أخرى ، كما رجعنا إلى كتب اللغة فيما اشتبه من الألفاظ حتى نطمئن إلى صحتها .
- ٢ - الضبط اللغوي للألفاظ التي يشكل على القارئ نطقها تسهلاً عليه .
- ٣ - اتبعنا في تحرير الأحاديث المنهج التالي :
  - (أ) عزو أحاديث الصحيحين إلى موضعها من الكتابين مكتفين بهما عن غيرهما .
  - (ب) ما لم نجده في الصحيحين عزوناه إلى مصادره .
  - (ج) ما ليس في الصحيحين حكمنا عليه من المصادر التي خرجناه منها معتمدين على القواعد التي وضعها كل إمام حديث لنفسه حتى لا نعتمد في الحكم على مشايخ الحديث من مصادر غير من رووا عنهم ؛ لأن كل إمام أعلم بشيوخه .
- ٤ - شرح ما هو غريب من ألفاظ الكتاب معتمدين في ذلك على مراجع اللغة . هذا الكتاب قد حوى كمّا كبيراً من الأحاديث على اختلاف درجاتها بين الصحة والحسن والضعف ، ولكنها جمِيعاً زادت الموضوع الذي أراد القاضي عياض بيانه وضوحاً وبهاءً وحسناً .

والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا ، وأن ينفع به .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والله من وراء القصد .

المحقق

عامر الجزار

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**  
**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلِّمْ**

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي<sup>ت</sup> : الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأحلى ، الذي ليس دونه ممتهن ، ولا وراءه مرمى ، الظاهر لا تخيلاً ووهمًا ، الباطن تقدساً لا عدمًا ، وسع كل شيء رحمة وعلماً ، وأسبغ على أوليائه نعمًا عُمَّا ، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم عربًا وعجمًا ، وأزكاهم محتداً ومنمى ، وأرجحهم عقلاً وحلماً ، وأوفرهم علمًا وفهمًا وأقواهم يقيناً وعزمًا ، وأشددهم بهم رأفة ورحمة ، وزakah روحًا وجسمًا ، وحاشه عيًّا ووصمًا ، وآتاه حكمة وحُكْمًا ، وفتح به أعيناً عميًّا ، وقلوبًا غلْفًا وأذانًا صمًا ، فآمن به وعزره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسمًا ، وكذب به وصدق عن آياته من كتب الله عليه الشقاء حتمًا ، « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَانِ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَانِ وَأَضَلُّ سَبِيلًا » [الإسراء : ٧٢] . **بِسْمِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** تنمو وتنمى ، وعلى آل الله وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد : أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين ، ولطف لي ولنك بما لطف لأوليائه المتقين ، الذين شرفهم الله بنزل قدره ، وأوحشهم من الخلقة بأنسه وخصهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملوكه وأثار قدرته بما ملأ قلوبهم حَبَرَةً ، وولله عقولهم في عظمته حيرة ، فجعلوا همهم به واحدًا ، ولم يروا في الدارين غيره مشاهدًا ، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتعمون ، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يتزدرون ، والانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون ، لهجين بصدق قوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسًا تُبَدِّلُونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خُوضِبِهِ يَلْعَبُونَ » [الأنعام : ٩١] .

فإنك كررت علىَّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما يجب له من توقير وإكرام ، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في حق منصبه الجليل قلامه ظفر ؟ وأن أجمع لك ما لأسلامنا وأئمتنا في ذلك من مقال وأبيه بتزويل صور وأمثال .

فاعلم - أكرمك الله - أنك حملتني من ذلك أمراً إمراً ، وأرهقتني في ما ندبتي إليه عسراً ، وأرقني بما كلفتني مرتفقى صعباً ملأ قلبي رعباً ، فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول وتحrir فصول ، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق ، مما يجب للنبي ﷺ ويضاف إليه ، أو يمتنع أو يجوز عليه ، ومعرفة النبي والرسول ، والرسالة والنبوة ، والمحبة والخلة ، وخصائص هذه الدرجة العلية ، ورهنها مهامة فيح<sup>(١)</sup> تحر فيها القطا ، وتقصر بها الخطأ ، ومجاهل تضل فيها الأحلام إن لم تهتد بعلم عليم ونظر سديد ، ومداحضن تزل بها الأقدام إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأيد .

لكني لما رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب بتعريف قدره الجسيم ، وخلقه العظيم ، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق ، وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق « لِيَسْتِيقْنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا » [المثاثر : ٣١] ولما أخذ الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب ليبيته للناس ولا يكتمنوه لما حدثنا به أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه ، قال : حدثنا الحسين بن محمد ، حدثنا أبو عمر النمري حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر محمد علي بن الحكم ، عن عطاء ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَجْهَمَ اللَّهُ بِلْجَامَ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »<sup>(٢)</sup> .

فبادرت إلى نكت مسفة عن وجه الغرض ، مؤدياً من ذلك الحق المفترض ، اختلستها على استعجال ، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال ، بما طُوّقه من مقاليد المحنّة التي ابْتُلِي بها ، فكادت تشغل عن كل فرض ونفل ، وترد بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل ، ولو أراد الله بالإنسان خيراً لجعل شغله وهمه كله في ما يحمد غالباً أو يذم محله ، فليس ثم سوى حضرة النعيم أو عذاب الجحيم ، ولكن عليه بخُوريَّصته ، واستنقاذ مهجته وعمل صالح يستزيده ، وعلم نافع يفيده أو يستفيده .

جبر الله صَدْع قلوبنا ، وغفر عظيم ذنوبنا ، وجعل جميع استعدادنا لمعادنا ، وتتوفر

(١) مهامة فيح: المهام جمع مهمّة وهي المفازة الصعبة الاجتياز ، وفيح: واسعة .

(٢) أبو داود في العلم (٣٦٥٨) والترمذني في العلم (٣٦٤٩) وقال : حسن . وابن ماجه في المقدمة (٢٦١) .

دواعينا في ما ينجينا ويقربنا إليه زلفى ، ويحظينا بهنّ وكرمه ورحمته .

ولما نويت تقربيه ، ودرجت تبوبيه ، ومهدت تأصيله ، وخلصت تفصيله ، وانتحست حصره وتحصيله ، ترجمته بـ : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » وحضرت الكلام فيه في أقسام أربعة :

القسم الأول : في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قوله وفعلا ، وتوجه الكلام فيه في أربعة أبواب :

الباب الأول : في ثنائه تعالى عليه ، وإظهاره عظيم قدره لديه ، وفيه عشرة فصول .

الباب الثاني : في تكميله تعالى له المحسن خلقاً وخلقنا ، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدينوية فيه نسقاً ، وفيه سبعة وعشرون فصلا .

الباب الثالث : في ما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومتزنته ، وما خصه به في الدارين من كرامته ، وفيه اثنا عشر فصلا .

الباب الرابع : فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات ، وشرفه به من الخصائص والكرامات ، وفيه ثلاثون فصلا .

القسم الثاني : فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام ، ويتربّ القول فيه في أربعة أبواب :

الباب الأول : في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته ، وفيه خمسة فصول .

الباب الثاني : في لزوم محبته ومناصحته ، وفيه ستة فصول .

الباب الثالث : في تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره ، وفيه سبعة فصول .

الباب الرابع : في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته ، وفيه عشرة فصول .

القسم الثالث : فيما يستحيل في حقه ، وما يجوز عليه شرعاً ، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه .

وهذا القسم - أكرمك الله - هو سر الكتاب ، ولباب ثمرة هذه الأبواب ، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نورده فيه من النكت البينات ، وهو الحاكم على ما

بعده ، والمنجز من غرض هذا التأليف وعده ، وعند التقصى لموعدته ، والتفضي عن عهده ، يُشرق<sup>(١)</sup> صدر العدو للعين ، ويُشرق قلب المؤمن باليقين ، وتملاً أنواره جوانح صدره ، ويقدر العاقل النبيَّ حق قدره . ويتحرر الكلام فيه في بابين :

الباب الأول : فيما يختص بالأمور الدينية ، ويثبت به القول في العصمة ، وفيه ستة عشر فصلًا .

الباب الثاني : في أحواله الدنيوية ، وما يجوز طروءه عليه من الأعراض البشرية ، وفيه تسعه فصول .

القسم الرابع : في تصرف وجوه الأحكام على من تنتَصَه أو سبَه بِعَذَابِهِ ، وينقسم الكلام فيه في بابين :

الباب الأول : في بيان ما هو في حقه سب ونقص ، من تعريض أو نص ، وفيه عشرة فصول .

الباب الثاني : في حكم شانه ومؤذيه ومنتقصه وعقوبته ، وذكر استتابته ، والصلة عليه ، وورأته ، وفيه عشرة فصول .

وختمناه بباب ثالث جعلناه تكملةً لهذه المسألة ووصلةً للبابين اللذين قبله : في حكم من سب الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه ، وأآل النبيِّ بِعَذَابِهِ وصحبه .

واختصر الكلام فيه في خمسة فصول ، ويتمامها بتجزِّ الكتاب ، وتم الأقسام والأبواب ، وتلوح في غرة الإيمان لمعة منيرة ، وفي تاج الترجم درة خطيرة ، تزيح كل لبس ، وتوضح كل تخمين وحدس ، وتشفي صدور قوم مؤمنين ، وتصدح بالحق وتعرض عن الجاهلين ، وبالله تعالى - لا إله سواه - أستعين .

### القسم الأول

## في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلاً

قال الفقيه القاضي الإمام أبو الفضل بْنُ حَمْزَةَ : لا خفاء على من مارس شيئاً من العلم أو

(١) يُشرق : يضيق .

خُصّ بأدئني لحنة من فهم بتعظيم الله تعالى قدر نبينا عليه الصلاة والسلام ، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لإمام ، وتنويهه من عظيم قدره بما تُكيلُ عنه الآلة والآلة :

فمنها: ما صرَحَ به تعالى في كتابه ، ونبيه به على جليل نصَابِه<sup>(١)</sup> ، وأثنى عليه من أخلاقه وأدابه ، وحضر العباد على التزامه وتقلد إيجابه ، فكان جل جلاله هو الذي تفضل وأولى ، ثم ظهر وذكر ، ثم مدح بذلك وأثنى ، ثم أثاب عليه الجزاء الأولي ، فله الفضل بدهاً وعوداً ، والحمد أولى وأخرى .

ومنها: ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال ، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة ، والأخلاق الحميدة ، والمذاهب الكريمة ، والفضائل العديدة ، وتأييده بالمعجزات الباهرة ، والبراهين الواضحة ، والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره ، ورآها من أدركه ، وعلمتها علم يقين من جاء بعده ، حتى انتهى عِلمُ حقيقة ذلك إلينا ، وفاضت أنواره علينا ، بِكَلِيلٍ كثِيرًا .

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الحسين بن محمد الحافظ - رحمة الله - قراءةً مني عليه قال أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار وأبو الفضل أحمد بن خيرون : قالا : حدثنا أبو يعلى البغدادي ، قال : حدثنا أبو علي السنخي ، قال : حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب ، قال : حدثنا أبو عيسى بن سورة الحافظ ، قال : حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرزاق ، أبناه معمر ، عن قتادة ، عن أنس : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُلْجَمًا مُسْرَجًا ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : أبِحَمْدٍ تَفْعَلُ هَذَا ؟ فما ركبَ أحد أكرم على الله منه . قال : « فَارْفَضْ عَرْقًا »<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

(١) نصَابِه : منصبه .

(٢) الترمذى في التفسير (٣١٣١) وقال : حسن غريب ، وابن حبان في الإسراء (٤٦) ، وأحمد / ٣

الباب الأول  
في ثناء الله تعالى عليه  
واظهاره عظيم قدره لديه

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحة  
بجميل ذكر المصطفى ، وعد محسنه ، وتعظيم أمره  
وتنويه قدره ، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه ،  
وبان فحواه ، وجمعنا ذلك في عشرة فصول :

## الفصل الأول

### فيما جاء في المدح والثناء

فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وعدد المحسن ، كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبه : ١٢٨] .

قال السمرقندى : وقرأ بعضهم : من أنفسكم - بفتح الفاء . قراءة الجمهور بالضم .

قال القاضي الإمام أبو الفضل وفقه الله : أعلم الله المؤمنين ، أو العرب ، أو أهل مكة ، أو جميع الناس ، على اختلاف المفسرين : من المواجه بهذا الخطاب أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه ، ويتتحققون مكانه ، ويعلمون صدقه وأمانته ، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم ، لكونه منهم ، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول ﷺ ولادة أو قرابة ، وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمَوْدَةُ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : ٢٣] وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم ، على قراءة الفتح ، وهذه نهاية المدح ، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة ، وأثنى عليه بمحامد كثيرة ، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم ، وشدة ما يُعْتَهُم ويُضْرَبُ بهم في دنياهم وأخراهم وعزته ورأفته ورحمته بمؤمنهم .

قال بعضهم : أعطاه اسمين من أسمائه : رءوف ، رحيم .

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيَهُمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] . وفي الآية الأخرى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيَهُمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتَلَوُ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

وروي عن علي بن أبي طالب ، عنه عليه السلام في قوله تعالى : « مَنْ أَنْفَسْكُمْ » - قال : « نسباً وصهراً وحسباً ليس في آبائِي من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح » <sup>(١)</sup> .

قال ابن الكلبي : كتبت للنبي عليه السلام خمسماة أم ، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان عليه الجاهلية .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ » [الشعراء : ٢١٩] قال : « مِنْ نَبِيٍّ إِلَى نَبِيٍّ ، حَتَّى أَخْرُجَكَ نَبِيًّا .

وقال جعفر بن محمد : علم الله عجز خلقه عن طاعته ، فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته ، فأقام بينهم وبينه مخلوقاً من جنسهم في الصورة ، وألبسهم من نعنه الرأفة والرحمة ، وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً ، وجعل طاعته طاعته ، وموافقته موافقته ، فقال تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » [النساء : ٨٠] وقال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » [الأنبياء : ١٠٧] .

قال أبو بكر بن طاهر : زين الله تعالى محمداً عليه السلام بزينة الرحمة ، فكان كونه رحمة ، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق ، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكره ، والواصل فيهما إلى كل محظوظ ، ألا ترى أن الله يقول : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » [الأنبياء : ١٠٧] ، فكانت حياته رحمة ، وماته رحمة ، كما قال عليه السلام : « حِيَاتِي خَيْرٌ لَّكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَّكُمْ » <sup>(٢)</sup> وكما قال عليه الصلاة السلام : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً بِأَمْةٍ قَبَضَ نِبِيَّاً قَبْلَهَا ، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرْطًا وَسَلْفًا » <sup>(٣)</sup> .

وقال السمرقندى : « رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » : يعني للجن والإنس .

وقيل : لجميع الخلق ، رحمة للمؤمن بالهداية ، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل ، ورحمة للكافر بتأخير العذاب .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو رحمة للمؤمنين وللكافرين ، إذا عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة .

(١) الطبرى في التفسير ٦ / ٥٢٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى (٣٧٧٠) وأشار إليه بالضعف .

(٣) مسلم في الفضائل (٢٢٨٨) / ٢٤ عن أبي موسى .

وحكى أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام : « هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ » قال : نعم ، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله : « ذي قُوّةٍ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ . مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ » [ التكوير : ٢٠ ، ٢١ ].

وروى عن جعفر بن محمد الصادق في قوله تعالى : « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » [ الواقعة : ٩١ ] أي : بك ، إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالى : « اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مثَلُ نُورِهِ كَمَشْكَاهٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ فِي زُجَاجَةِ الرُّجَاجَةِ كَانَهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقَيَّةٍ وَلَا غَرَبَيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسِهِ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » [ النور : ٣٥ ].

قال كعب وابن جبیر : المراد بالنور الثاني هنا محمد عليه السلام . قوله تعالى : « مثَلُ نُورِهِ » أي : نور محمد ﷺ.

وقال سهل بن عبد الله : المعنى : الله هادي أهل السموات والأرض ؛ ثم قال : مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة . صفتها كذا ؛ وأراد بالصبح قلبه ، وبالزجاجة صدره ؛ أي : كأنه كوكب دري لما فيه من الإيّان والحكمة ، توقد من شجرة مباركة ، أي : من نور إبراهيم . وضرب المثل بالشجرة المباركة .

وقوله : « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ » أي : تكاد نبوة محمد ﷺ تبيّن للناس قبل كلامه كهذا الزيت .

وقيل في هذه الآية غير هذا . والله أعلم .

وقد سماه الله تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نوراً وسراجاً منيراً ، فقال تعالى : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » [ المائدة : ١٥ ].

وقال تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » [ الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ ].

ومن هذا قوله تعالى : « أَلَمْ نَسْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْيُسْرِ عُسْرًا . فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى

رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿ [الشرح ١ - ٨] ، شرح : وسَعْ . والمراد بالصدر هنا: القلب .

قال ابن عباس : شرحه بالإسلام .

وقال سهل : بنور الرسالة .

وقال الحسن : ملأه حكماً وعلمًا .

وقيل : معناه ألم نُظْهِرْ قلبك حتى لا يؤذيك الوسوس . ووضَعْنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك؟!

قيل : ما سلف من ذَبْنك - يعني قبل النبوة .

وقيل : أراد ثَقْلَ أيام الجاهلية .

وقيل : أراد ما أثْقَلَ ظَهَرَهُ من الرسالة حتى بلَغَها . حكاه الماوردي والسلمي .

وقيل : عَصَمْتَنَاكَ ، ولو لا ذلك لاذْتَلَ الذُّنُوبُ ظهرك ، حكاه السَّمَرْقَنْدِي .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ : قال يحيى بن آدم : بِالنُّبُوَّةِ . وقيل : إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي ؛ قَوْلَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . وقيل : في الأَذَانِ .

قال القاضي أبو الفضل : هذا تقريرٌ منَ الله جَلَّ اسْمُهُ لَنْبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى عَظِيمِ نَعْمَهِ لَدِيهِ ، وشَرِيفِ مِنْزَلَهِ عَنْهُ ، وكرامتَه عليه ، بِأَنَّ شَرِحَ قَلْبَهُ لِلإِعْلَانِ وَالْهُدَى ، ووَسَعَهُ لِوَعْيِ الْعِلْمِ ، وَحَمَلَ الْحِكْمَةَ ، وَرَفَعَ عَنْهُ ثَقْلَ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ ، وَيَغْضَبُهُ لِسِيرِهَا وَمَا كَانَ عَلَيْهِ ، بِظَهُورِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَحَطَّ عَنْهُ عُهْدَةَ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ لِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَتَنْرِيَّهُ بِعَظِيمِ مَكَانِهِ ، وَجَلِيلِ رُتُبَتِهِ ، وَرَفَعَةِ ذِكْرِهِ ، وَقِرَائِهِ مَعَ اسْمِهِ .

قال قتادة : رفع الله ذِكْرَهُ في الدنيا والآخرة فليس خطيبٌ ولا متشهدٌ ولا صاحب صلاة إلا يقول : أشهد أن لا إله الله وأن محمداً رسول الله .

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « أتاني جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فقال : إن رَبِّي وربِّكَ يقولُ : تدري كيف رفعتُ ذِكْرَكَ؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي » (١) .

(١) الجامع الصغير (٨٣) وأشار إليه بالصحة .

قال ابن عطاء : جعلت تمام الإيمان بذكرِي معك .

وقال أيضًا : جعلت ذكري ، فمن ذكرك ذكرني .

وقال جعفر بن محمد الصادق : لا يذكر أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية . وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة .

ومن ذكره معه تعالى أن قرن طاعته بطاعته واسمها باسمه ، فقال تعالى : « أطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ » [آل عمران : ٣٢] « آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » [النساء : ١٣٦] .

فجمع بينهما بواو العطف ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه عليه السلام .

حدثنا الشيخ أبو علي الحسين بن محمد الجياني الحافظ فيما أجازنيه وقرأه على الثقة عنه ، قال : حدثنا أبو عمر النمري ، قال حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر بن داسة ، حدثنا أبو داود السجسي ، حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن عبد الله بن يسار ، عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي صلوات الله عليه قال : « لا يقولن أحدكم : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن : ما شاء الله ثم شاء فلان » (١) .

قال الخطابي : أرشدهم صلوات الله عليه إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه ، واختارهم بضم التي هي للنسق والتراخي ، بخلاف الواو التي هي للاشتراك .

ومثله الحديث الآخر : أن خطيباً خطب عند النبي صلوات الله عليه ، فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصها . فقال له النبي صلوات الله عليه : « بنس خطيب القوم أنت ! قم » أو قال « اذهب » (٢) . قال أبو سليمان : كره منه الجمع بين الاسمين بحرف الكتابة لما فيه من التسوية . وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على « يعصها » .

وقول أبي سليمان أصح . لما روي في الحديث الصحيح أنه قال : ومن يعصها فقد غوى ، ولم يذكر الوقوف على « يعصها » .

وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ » [الأحزاب : ٥٦] هل « يُصَلِّونَ » راجعة على الله تعالى والملائكة أم لا ؟

(١) أبو داود في الأدب (٤٩٨٠) ، وأحمد ٥ / ٣٨٤ .

(٢) مسلم في الجمعة (٤٨ / ٨٧٠) عن عدي بن حاتم .

فأجازه بعضهم ، ومنعه آخرون ، لعلة التشريك وخصوصاً الضمير بالملائكة ، وقدروا الآية : إن الله يصلني ، وملائكته يصلون .

وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تعالى : « مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ » [ النساء : ٨٠ ] .

وقد قال تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » [آل عمران : ٣١ ، ٣٢] .

روي أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : إن محمداً يريد أن تتخذه حناناً كما اتخذت النصارى عيسى ، فأنزل الله تعالى : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » فقرن طاعته بطاعته رغمًا لهم .

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في ألم الكتاب : « أهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » [ الفاتحة : ٦ ، ٧ ] ، فقال أبو العالية ، والحسن البصري : « الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ » هو رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم وخيار أهل بيته وأصحابه ، حكاه عنهما أبو الحسن الماوردي . وحكي مكي عنهما وقال : هو رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم وصاحباه ، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

وحكي أبو الليث السمرقندى مثله عن أبي العالية ، في قوله تعالى : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » [ الفاتحة : ٧ ] ، عن عبد الرحمن بن زيد .

وحكي أبو الرحمن السلمي عن بعضهم ، في تفسير قوله تعالى : « فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوهَ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ » [ البقرة : ٢٥٦ ] - أنه محمد صلوات الله عليه وآله وسالم . وقيل : الإسلام . وقيل : شهادة التوحيد .

وقال سهل في قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْدُوا نَعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا » [ إبراهيم : ٣٤ ] - قال : نعمته محمد صلوات الله عليه وآله وسالم .

وقال تعالى : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » [ الزمر : ٣٣ ، ٣٤ ] .

أكثر المفسرين على أن الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ .

وقال بعضهم : وهو الذي صدق به . وقرئ : صدق - بالتحفيف .

وقال غيرهم : الذي صدق به المؤمنون . وقيل : أبو بكر . وقيل : علي . وقيل : غير هذا من الأقوال .

وعن مجاهد - في قوله تعالى : « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ » [الرعد : ٢٨] -

قال : محمد ﷺ وأصحابه .

## الفصل الثاني

### في وصفه تعالى له بالشهادة

في وصفه تعالى له بالشهادة وما يتعلّق بها من الثناء والكرامة . قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » [الاحزاب : ٤٥، ٤٦] جمع الله تعالى في هذه الآية ضرورياً من رتب الآثرة ، وجملة أوصاف من المدح ، فجعله شاهداً على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة ، وهي من خصائصه ﷺ ، وبشيراً لأهل طاعته ، ونذيراً لأهل معصيته ، وداعياً إلى توحيده وعبادته ، وسراجاً منيراً يهتدى به للحق .

حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتاب - رحمه الله ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن القابسي ، حدثنا أبو زيد المروزي ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف ، حدثنا البخاري ، حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا هلال ، عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ ، قال : أجل ، والله إنه لم يوصف في التوراة ببعض صفاتـه في القرآن : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » [الاحزاب : ٤٥] وحرزاً للأمين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك الم وكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخباً في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وأذاناً صماً ، وقلوباً غلقاً (١) .

(١) البخاري في البيوع (٢١٢٥) .

وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكتب الأنجيارات ، وفي بعض طرقه عن ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق ، ولا مترين بالفحص ، ولا قال للخنا ، أسلدده لكل جميل ، وأهاب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، وأهدي به بعد الصلاة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأمؤلف به بين قلوب مختلفة ، وأهواء متشتة ، وأمم متفرقة ، وأجعل أمه خير أمة أخرجت للناس .

وفي حديث آخر : أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفتة في التوراة : « عبدى أَحْمَدَ الْمُخْتَارَ ، مُولَدُه بَكَةَ ، وَمَهَاجِرَه بِالْمَدِينَةِ » أو قال : « طيبة أمة الحمادون لله على كل حال » <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجْدُونَهُ مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحِرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَنْهَاهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَامْتُو بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَبُعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » [ الأعراف : ١٥٨ ، ١٥٧ ] .

وقد قال تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَأْوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » [آل عمران : ١٥٩] .

قال السمرقندى : ذكرهم الله متنه أنه جعل رسوله رحيمًا بالمؤمنين رؤوفًا لين الجانب ، ولو كان فظا خشنًا في القول لتفرقوا من حوله ، ولكن جعله الله تعالى سمحاً سهلاً طلقاً برأ لطيفاً . هكذا قال الضحاك .

(١) الدارمي في المقدمة (٧) بأطول منه .

وقال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » [ البقرة : ١٤٣ ] .

قال أبو الحسن القابسي : أبان الله تعالى فضل نبينا صلوات الله وآله وسلامه وفضل أمته بهذه الآية ، وفي قوله في الآية الأخرى : « وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » [ الحج : ٧٨] وكذلك قوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هُؤُلَاءِ شَهِيدًا » [ النساء : ٤١ ] .

قوله تعالى : « وَسَطَا » أي : عدلاً خياراً . ومعنى هذه الآية : وكما هديناكم فكذلك خصصناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمة خياراً وعدولاً ، لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أنهم ، ويشهد لكم الرسول بالصدق .

وقيل : إن الله جل جلاله إذا سأله الأنبياء : هل بلغتم ؟ فيقولون : نعم . فتقول أئمهم : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فتشهد أمة محمد صلوات الله وآله وسلامه للأنبياء ، ويزكيهم النبي صلوات الله وآله وسلامه .

وقيل : معنى الآية : إنكم حجة على كل من خالفكم ، والرسول حجة عليكم ، حكاها ، السمرقندى .

وقال الله تعالى : « وَيَسِّرْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » [ يومن : ٢ ] ، وقال قتادة ، والحسن ، وزيد بن أسلم : « قَدَمَ صِدْقٍ » : هو محمد صلوات الله وآله وسلامه ، يشفع لهم .

وعن الحسن أيضاً : هي مصيبةهم بنبيهم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : هي شفاعة نبئهم محمد صلوات الله وآله وسلامه ، هو شفيع صدق عند ربهم .

وقال سهل بن عبد الله التستري : هي سابقة رحمة أودعها الله في محمد صلوات الله وآله وسلامه .

وقال محمد بن علي الترمذى : هو إمام الصادقين والصديقين ، الشفيع المطاع ، والسائل المجاب محمد صلوات الله وآله وسلامه ، حكاها عنه السلمى .

### الفصل الثالث

#### فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرة

من ذلك قوله تعالى : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ » [التوبه : ٤٣] . قال أبو محمد مكي : قيل : هذا افتتاح كلام منزلة : أصلحك الله ، وأعزك الله ، وقال عون بن عبد الله : أخبره بالعفو قبل أن يخبر بالذنب .

وحكى السمرقندى عن بعضهم أن معناه : عافاك الله يا سليم القلب : لم أذنت لهم ؟ قال : ولو بدأ النبي ﷺ بقوله : « لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ » لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام ، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ، ثم قال له : لم أذنت لهم بالتلخف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب ؟

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب .

ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايتها نياط القلب . قال نفطويه : ذهبناس إلى أن النبي ﷺ معاذب بهذه الآية ، وحاشاه من ذلك ، بل كان مخيراً فلما أذن لهم أعلمهم الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لتفاقهم ، وأنه لا حرج عليه في الإذن .

قال القاضي أبو الفضل : يجب على المسلم المجاهد نفسه الرائض (١) بزمام الشريعة خلقه أن يتأنب بأدب القرآن في قوله وفعله ، ومعاطاته ومحاوراته ، فهو عنصر المعارف الحقيقة ، وروضة الآداب الدينية والدنيوية ، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب ، المنعم على الكل ، المستغنى عن الجميع ، ويستثر ما فيها من الفوائد ، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب ، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب .

وقال تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا » [الإسراء : ٧٤] .

قال بعض المتكلمين : عاتب الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بعد الزلات ، وعاتب نبينا عليه السلام قبل وقوعه ؛ ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة وهذه غاية العناية .

(١) الرائض : الذي روض نفسه لشريعة الله .

ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه ، ففي أثناء عتبه براءته ، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته .

ومثله قوله تعالى : « قَدْ نَعْلَمْ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » [ الأنعام : ٣٣ ] .

قال علي رضي الله عنه : قال أبو جهل للنبي صلوات الله عليه : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » (١) [ الأنعام : ٣٣ ] .

وروي : أن النبي صلوات الله عليه لما كذبه قومه حزن ، فجاءه جبريل عليه السلام قال : ما يحزنك ؟ قال : « كذبني قومي ! » فقال : إنهم يعلمون أنك صادق ، فأنزل الله تعالى الآية .

ففي هذه الآية متنع لطيف المأخذ ، من تسلية تعلى له عليه السلام ، وإلطفافه به في القول ، بأن قرر عنده أنه صادق عندهم ، وأنهم غير مكذبين له ، معترفون بصدقه قوله واعتقاداً ، وقد كانوا يسمونه - قبل النبوة - الأمين ، فدفع بهذا التقرير ارتكاض (٢) نفسه بسمة الكذب ، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين ، فقال تعالى : « وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » [ الأنعام : ٣٣ ] .

فحاشاه من الوصم ، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم ؛ إذ الجحد إنما يكون من علم علم الشيء ثم أنكره ، قوله تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنْتُهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » [ النمل : ١٤ ] .

ثم عزّاه وأنسه بما ذكره عنمن قبله ، ووعده النصر بقوله تعالى : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيًّا الْمُرْسَلِينَ » [ الأنعام : ٣٤ ] .

(١) الترمذى في التفسير (٣٠٦٤) الحاكم في المستدرك في التفسير (٣٢٨) وقال : على شرط الشيختين ولم يخرجا .

(٢) ارتكاض : مصدر ارتكض بمعنى اشتد عليه وأقلقه .

فمن قرأ : « لا يكذبونك » بالتحفيف ، فمعناه : لا يجدونك كاذبًا ، وقال الفراء والكسائي : لا يقولون : إنك كاذب .

وقيل : لا يحتجون على كذبك ، ولا يثبتونه .

ومن قرأ بالتشديد فمعناه : لا ينسبونك إلى الكذب . وقيل : لا يعتقدون كذبك .

وما ذكر من خصائصه ويرث الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى : يا آدم ، يا نوح ، يا موسى ، يا داود ، يا عيسى ، يا زكريا ، يا يحيى ، ولم يخاطب هو إلا بـ : « يا أَيُّهَا الرَّسُولُ » « يا أَيُّهَا النَّبِيُّ » « يا أَيُّهَا الْمُزَمِّلُ » « يا أَيُّهَا الْمُدَثَّرُ » .

## الفصل الرابع

### في قسمه تعالى بعظيم قدره

قال الله تعالى : « لَعَمِرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » [الحجر : ٧٢] . اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بعدة حياة محمد ﷺ . وأصله ضم العين ، من العمر ، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه : وبقائك يا محمد . وقيل : وعيشك . وقيل : وحياتك .

وهذه نهاية التعظيم ، وغاية البر والتشريف ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره . وقال أبو الجوزاء : ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد ﷺ ؛ لأنه أكرم البرية عنده .

وقال تعالى : « يَسْ . وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ » [يس : ١ ، ٢] .

اختلف المفسرون في معنى « يس » على أقوال : فحكى أبو مكي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لي عند ربِي عشرة أسماء » ذكر منها : « طه ويس » - اسمان له <sup>(١)</sup> .

(١) القرطبي في التفسير ١٥ / ٤ .

وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق : أنه أراد : يا سيد ، مخاطبة

لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وعن ابن عباس : « يسٰ » - يا إنسان ، أراد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال : هو قسم ، وهو من أسماء الله تعالى .

وقال الزجاج : قيل معناه : يا محمد . وقيل : يا رجل . وقيل : يا إنسان .

وعن ابن الحنفية : « يسٰ » : يا محمد .

وعن كعب : « يسٰ » قسم أقسم الله تعالى به قبل أن يخلق السماء والأرض بالقى عام : يا محمد إنك من المرسلين . ثم قال : « وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

فإن قرر أنه بين أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وضح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم . وبؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه ، وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدایته : أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه من المرسلين بوجهه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ، أي : طريق لا اعوجاج فيه ، ولا عدول عن الحق .

قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلا له ، وفيه من تعظيمه ومجده - على تأويل من قال : إنه يا سيد - ما فيه ، وقد قال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : « لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ » [البلد: ٢، ١] .

قيل : لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه ، حكاها مكي .

وقيل : « لا » زائدة ، أي : أقسم به وأنت به يا محمد حلال . أو : حل لك ما فعلت فيه على التفسيرين . والمراد بالبلد عند هؤلاء مكة .

وقال الواسطي : أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيّا ، وبركتك ميتاً . يعني المدينة . والأول أصح ؛ لأن السورة مكية ، وما بعده يصححه قوله تعالى :

(١) مسلم في الفضائل (٣ / ٢٢٧٨) ، والترمذى في التفسير (٣١٤٨) كلاماً عن أبي سعيد ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلْدِ . وَأَنْتَ حُلُّ بِهَذَا الْبَلْدِ﴾ [البلد: ١ ، ٢] ، ونحوه قول ابن عطاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَهَذَا الْبَلْدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] قال : أمنها الله تعالى بمقامه فيها وكونه بها ، فإن كونه أمان حيث كان .

ثم قال : ﴿وَوَالدِّي وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣] ومن قال : أراد آدم فهو عام ، وقال : هو إبراهيم وما ولد - إن شاء الله - إشارة إلى محمد ﷺ - فتتضمن السورة القسم به ﷺ في موضعين .

وقال تعالى : ﴿الَّمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ، ٢] .  
قال ابن عباس : هذه الحروف أقسام الله تعالى بها . وعنده وعن غيره فيها غير ذلك .  
وقال سهيل بن عبد الله التستري : الألف هو الله تعالى واللام جبريل والميم محمد

ﷺ

وحكى هذا القول السمرقندى ، ولم ينسبه إلى سهل وجعل معناه : الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه .

وعلى الوجه الأول يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه ، ثم فيه من فضيلة اسمه باسمه نحو ما تقدم .

وقال ابن عطاء في قوله تعالى : ﴿قَوَالْقُرْآنُ الْمَجِيد﴾ [ق: ١] : أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب المشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله .  
وقيل : هو اسم للقرآن . وقيل : هو اسم الله تعالى . وقيل : جبل محيط بالأرض .  
وقيل غير هذا .

وقال جعفر بن محمد في تفسير : ﴿وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] : إنه محمد ﷺ ، قال : النجم قلب محمد ﷺ : انشرح من الأنوار . وقال : انقطع عن غير الله .  
وقال ابن عطاء في قوله تعالى : ﴿وَالفَجْرُ . وَلَيَالٍ عَشَرٍ﴾ [الفجر: ١ ، ٢] الفجر : محمد ﷺ ؛ لأن منه تفجر الإيمان .

## الفصل الخامس

### في قسمه تعالى جده له : ليحقق مكانته عندـه

قال جل اسمه : « والضَّحْيَ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَنَ . مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلآخرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجْدُكَ يَتِيمًا فَأَوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَعْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمُ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَهْرَ . وَأَمَّا بِنْعَمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » [الضحى : ١ - ١١] .

اختلف في سبب نزول هذه السورة ، فقيل : كان ترك النبي ﷺ قيام الليل لعذر نزل به ، فتكلمت امرأة في ذلك بكلام . وقيل : بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي ، فنزلت السورة <sup>(١)</sup> .

قال القاضي الإمام أبو الفضل : تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له ، وتنويعه به وتعظيمه إياه ستة وجوه :

الأول : القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى : « والضَّحْيَ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَنَ » [الضحى : ١ ، ٢] ، أي : ورب الضحى ، وهذا من أعظم درجات المبرة .

الثاني : بيان مكانته وحظوظه لديه بقوله تعالى : « مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » [الضحى : ٣] ، أي : ما تركك وما أبغضك . وقيل : ما أهملك بعد أن اصطفاك .

الثالث : قوله تعالى : « وَلَلآخرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » [الضحى : ٤] ، قال ابن إسحاق : أي : ما لك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا .

وقال سهل : أما ما ذخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا .

الرابع : قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » [الضحى : ٥] .

وهذه آية جامدة لوجوه الكرامة ، وأنواع السعادة ، وشتات الإنعام في الدارين والزيادة .

(١) البخاري في التفسير (٤٩٥٠) عن جنديب بن سفيان وعنه مسلم في الجهد (١٧٩٧ / ١١٤) .

قال ابن إسحاق : يرضيه بالفلج في الدنيا ، والثواب في الآخرة .  
وقيل : يعطيه الحوض والشفاعة .

وروي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال : ليس آية في القرآن أرجى منها ، ولا يرضي رسول الله ﷺ أن يدخل أحد من أمته النار .

الخامس : ما عدده تعالى من نعمه ، وقرره من آلاته قبله في بقية السورة ، من هدایته إلى ما هداه له ، أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير ، ولا مال له ، فأغناه بما آتاه ، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى ، ويتيمًا فحذب عليه عمه وأواه إليه .  
وقيل : آواه إلى الله . وقيل : **«يتيمًا»** : لا مثال لك ، فآواك إليه .

وقيل : المعنى : ألم يجده فهدي بك ضالا ، وأغنى بك عائلا ، وأوى بك يتيمًا .  
ذكره بهذه المتن ، وأنه على المعلوم من التفسير لم يهمله في حال صغره وعيته ويتمه وقبل معرفته به ، ولا ودعه ، ولا قلاه ، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه !

السادس : أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرفه بنشره وإشادة ذكره بقوله تعالى : **«وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَّثَ»** [الضحى : ١١] ، فإن من شكر النعمة الحديث بها ، وهذا خاص له ، عام لأمته .

وقال : **«وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَىٰ** . **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** . **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** .  
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ  
دَنَّا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسِينَ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا  
رَأَىٰ . أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِنْدَ سَدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ .  
إِذْ يَغْشِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصْرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ »  
[النجم : ١ - ١٨] .

اختلاف المفسرون في قوله تعالى : **«وَالنَّجْمٌ**» بأقاويل معروفة ، منها التجم على ظاهره ، ومنها القرآن .

وعن جعفر بن محمد عليه السلام قال : هو قلب محمد .  
وقد قيل في قوله تعالى : **«وَالسَّمَاءُ وَالْطَّارِقُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ**

الثَّاقِبُ》 [الطارق : ١ - ٣] : إن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ ، حكاه السلمي .

تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العَدُّ (١) ما يقف دونه العَدُّ ، وأقسم جلَّ اسمه على هداية المصطفى ، وتنزيهه عن الهوى ، وصدقه في ما تلا ، وأنه وحي يوحى أوصله إليه - عن الله - جبريل ، وهو الشديد القوى .

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء ، وانتهائه إلى سدرة المتهى ، وتصديق بصره في ما رأى ، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى . وقد نبه على مثل هذا في أول سورة الإسراء .

ولما كان ما كاشفه به عليه السلام من ذلك الجبروت ، وشاهده من عجائب الملائكة لا تحيط به العبارات ، ولا تستقبل بحمل سماع أدناه العقول رمز عنه تعالى بالإيماءة والكتابية الدالة على التعظيم ، فقال تعالى : «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوْحَى» [النجم : ١٠] .

وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة ، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز .

وقال تعالى : «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّ الْكَبَرَى» [النجم : ١٨] . انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أُوحى ، وتأهت الأحلام في تعين تلك الآيات الكبرى .

قال القاضي أبو الفضل : اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكية جملته عليه السلام ، وعصمتها من الآفات في هذا المجرى ، فزكي فؤاده ولسانه وجوارحه؛ فزكي قلبه بقوله : «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» [النجم : ١١] . ، ولسانه بقوله : «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى» [النجم : ٣] . وبصره بقوله «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» [النجم : ١٧] .

وقال تعالى : «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنْسِ . الْجَوَارِ الْكُسْنِ . وَاللَّيلِ إِذَا عَسْعَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَسَّ . إِنَّهُ لَقُولُ رَسُولٌ كَرِيمٌ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأَقْوَى الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَيْنِ . وَمَا هُوَ بِقُولٍ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ» [التكوير : ١٥ - ٢٥] .

«لا أقسم» أي : أقسم «إِنَّهُ لَقُولُ رَسُولٌ كَرِيمٌ» أي كريم عند مرسله . «ذِي

(١) العَدُّ : الذي لا ينقطع .

فُوَّةٍ» : على تبليغ ما حمله من الوحي ، «مَكِينٌ» أي : متمكن المنزلة من ربه ، رفيع محل عنده ، «مَطَاعٌ ثُمَّ» أي : في السماء . «أَمِينٌ» على الوحي .

قال علي بن عيسى وغيره : الرسول الكريم هنا محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه ، فجميع الأوصاف بعد على هذا له .

وقال غيره : هو جبريل ، فترجع الأوصاف إليه .

ولقد رآه - يعني محمداً - قيل : رأى ربه . وقيل : رأى جبريل في صورته .

«وَمَا هُوَ عَلَى الْفَيْبِ بِضَيْنٍ» ، أي : بعثتهم . ومن قرأها بالضاد فمعناه : ما هو يبخيل بالدعاء به ، والتذكير بحكمه وبعلمه ، وهذه لـ محمد عليه السلام باتفاق .

وقال تعالى : «نَّ وَالْقَلْمَ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأْجَرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسْتَبْصُرُ وَيَصْرُونَ . بِأَيْكُمُ الْمُفَتَّونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَدِّدِينَ . فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَدُدُوا لَوْ تُدْهَنُ فِي دُهْنِهِنُونَ . وَلَا تُطِعِ كُلُّ حَلَافِ مَهِينِ . هَمَّازَ مَشَاءَ بَنِيَمِ . مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِلَ أَثِيمِ . عَتَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمِ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسْمُهُ عَلَى الْخَرُوطِمِ» [القلم : ١ - ١٦] .

أقسم الله تعالى بما أقسم به من تعظيم قسمه على تزييه المصطفى بما غمضته <sup>(١)</sup> الكفرة به ، وتكذيبهم له ، وأنسه وبسط أمله بقوله - محسنا خطابه : «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» [القلم : ٢] .

وهذه نهاية المبرة في المخاطبة ، رأى على درجات الآداب في المحاورة ، ثم أعلمها بما له عنده من نعيم دائم ، وثواب غير منقطع ، لا يأخذه عبد ، ولا يمتن به عليه ؛ فقال تعالى : «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم : ٤] .

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته ، ودهاء إليه ، وأكذ ذلك تتميماً للتمجيد ، بحرفية التأكيد ؛ فقال تعالى : «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم : ٤] . قيل : القرآن ، وقيل : الإسلام ، وقيل : الطبع الكريم ، وقيل : ليس لك همة إلا الله .

(١) غمضته : من الغموض وهو الاحتقار .

قال الواسطي : أثني عليه بحسن قوله لما أسداه إليه من نعمة ، وفضله بذلك على غيره ؛ لأنه جبله على ذلك الخلق ؛ فسبحان اللطيف الكريم ، المحسن الججاد ، الحميد الذي يسر للخير وهدى إليه ، ثم أثني على فاعله ، وجازاه عليه سبحانه ما أغمى نواله وأوسع إفضاله ، ثم سلاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقباهم ، وتوعدهم بقوله : «**فَسْتَبْرُ وَيَصْرُونَ** . **بِأَيْكُمُ الْمَفْتُونُ** . **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ** بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ **وَهُوَ أَعْلَمُ** **بِالْمُهَتَّدِينَ** » [القلم : ٥ - ٧] .

ثم عطف بعد مدحه على ذم عدوه ، وذكر سوء خلقه ، وعد معايهه ، متواлиًا ذلك بفضله ، ومتصرًا لنبيه ؛ فذكر بعض عشرة خصلة من خصال الذم فيه بقوله : «**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ** . **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فِي دُهُونَ** . **وَلَا تُطِعِ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينَ** . **هَمَّازَ مَشَاءَ بَنَمِيمِ** . **مَنَاعَ لِلْخَيْرِ** **مُعْتَدِلُ أَثْيَمِ** . **عَتَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمِ** . **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ** . **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا** قَالَ **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** » [القلم : ٨ - ١٥] .

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله : «**سَنَسِمُهُ عَلَى** **الْخُرُوطِمِ** » [القلم : ١٦] . فكانت نصرة الله له أتم من نصرته لنفسه ، ورده تعالى على عدوه أبلغ من ردّه وأثبتت في ديوان مجده .

## الفصل السادس

### فيما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام

#### مورد الشفقة والإكرام

قال تعالى : «**طَه .. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَقَنِي** » [طه : ١ ، ٢] .

قيل : طه : اسم من أسمائه عليه السلام . وقيل : هو اسم الله ، وقيل : معناه : يا رجل . وقيل : يا إنسان . وقيل : هي حروف مقطعة لمعان .

وقال الواسطي : أراد : يا طاهر ، يا هادي . وقيل : هو أمر من الوطء ، والهاء كنایة عن الأرض ؛ أي اعتمد على الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم

واحدة ، وهو قوله تعالى : « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقِيَ » [ طه : ٢ ] . نزلت الآية في ما كان النبي ﷺ يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل .

أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، وغير واحد ، عن القاضي أبي الوليد الباقي إجازة ، ومن أصله نقلت ، قال : حدثنا أبو ذر الحافظ ، حدثنا أبو محمد الحموي ، حدثنا إبراهيم بن خزيم الشاشي ، حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا هاشم بن القاسم ، عن أبي جعفر ، عن الربيع بن أنس ؛ قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ؛ فأنزل الله تعالى : « طه » يعني طا الأرض يا محمد ، « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقِيَ . إِلَّا تَذَكَّرَ لَمَنْ يَخْشَى . تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىِ . الرَّحْمَنُ عَلَىِ الْعَرْشِ اسْتَوَى » <sup>(١)</sup> [ طه : ٢ - ٤ ] . ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة .

وإن جعلنا « طه » من أسمائه عليه السلام كما قيل ، أو جعلت قسماً لحق الفضل بما قبله .

ومثل هذا - من نعث الشفقة والبرة - : قوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ بَاخْعُ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا » [ الكهف : ٦ ] ؛ أي : قاتل نفسك لذلك غضباً أو غيظاً أو جزعاً .

ومثله : قوله تعالى أيضاً : « لَعَلَكَ بَاخْعُ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » [ الشعرا : ٣ ] ؛ ثم قال : « إِنْ نَشَاءُ نَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » [ الشعرا : ٤ ] .

ومن هذا الباب : قوله تعالى : « فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْرِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضْعِفُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ » [ الحجر : ٩٤ - ٩٧ ] .

وقوله : « وَلَقَدِ اسْتَهْزَئَ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » [ الأنعام : ١٠ ] .

(١) لباب النقول للسيوطى (ص: ٢٩١) .

قال مكي : سلاه بما ذكر ، وهوَّ عليه ما يلقى من المشركين ، وأعلمه أن من تمايى على ذلك يحل به ما حل بن قبله .

ومثل هذه التسلية قوله تعالى : «وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» [فاطر : ٤] .

ومن هذا قوله تعالى : «كَذَّلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْحُونٌ» [الذاريات : ٥٢] .

عزاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالهم لأنبيائهم قبله ، ومحتحتهم بهم ؛ وسلاه بذلك من محنته بمثلها من كفار مكة . وأنه ليس أول من لقي ذلك ، ثم طيب نفسه وأبان عذرها بقوله تعالى : «فَتُولَّ عَنْهُمْ» [الذاريات : ٥٤] أي : أعرض عنهم ؛ «فَمَا أَنْتَ بِمُلُومٍ» [الذاريات : ٥٤] ، أي : في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت .

ومثله قوله تعالى : «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» [الطور : ٤٨] ، أي اصبر على أذاهم فإنك بعيث نراك ونحفظك .

سلاه الله تعالى بهذا في آي كثيرة من هذا المعنى .

## الفصل السابع

فيما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره

وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته

قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتَؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَصْرُنَّهُ قَالَ أَفَقَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ» [آل عمران : ٨١] .

قال أبو الحسن القابسي : استخصل الله تعالى محمداً عليه السلام بفضل لم يؤته غيره ، أبانه به ، وهو ما ذكره في هذه الآية ، قال المفسرون : أخذ الله الميثاق بالوحى ، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته ، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمن به .

وقيل : أن يبينه لقومه ، ويأخذ ميثاقهم أن يبيّنوه لمن بعدهم .

وقوله : **﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾** : الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لـ محمد ﷺ .

قال علي بن أبي طالب ؓ : لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمن به ولينصرنه ، ويأخذ العهد بذلك على قومه .

ونحوه عن السدي وقتادة في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد .

قال الله تعالى : **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرِيمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾** [الأحزاب : ٧] .

وقال تعالى : **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعَيْسَى وَأَيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاؤُودَ زَبُورًا . وَرَسُلًا قَدْ فَصَّلَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَرَسُلًا لَمْ نَفْصُلْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَهَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . لَكِنَّ اللَّهُ يَشْهُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِعِلْمٍ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهُدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** [النساء : ١٦٣ - ١٦٦] .

وروي عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال في كلام ذكي به النبي ﷺ ، فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك في أولهم ، فقال : **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرِيمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾** [الأحزاب : ٧] .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده أنَّ أهل النار يودُون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطياقها يُعذبون يقولون : **﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾** [الأحزاب : ٦٦] .

قال قتادة : إن النبي ﷺ قال : **«كنت أول الأنبياء في الخلق ، وأخرهم في البعث»** فلذلك وقع ذكره مقدماً هنا قبل نوح وغيره .

قال السمرقندى : في هذا تفضيل نبينا ﷺ ، لتخصيصه بالذكر قبلهم ، وهو آخرهم .

المعنى : أخذ الله تعالى عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذرّ .

وقال تعالى : « تلکَ الرُّسُلُ فَضَلَّا بِعَضَّهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَنْ كَلَمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدْسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيْنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا » [ البقرة : ٢٥٣ ] .

قال أهل التفسير : أراد بقوله : « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » محمدًا عليه السلام ؛ لأنّه بعث إلى الأحمر والأسود ، وأحلّت له الغنائم ، وظهرت على يديه المعجزات ، وليس أحد من الأنبياء أعطى فضيلة أو كرامة إلا وقد أعطى محمد عليه السلام مثلها .

قال بعضهم : ومن فضلته أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم ، ومخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ » ، و « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ » .

وحكى السمرقندى عن الكلبى في قوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ » [ الصافات : ٨٣ ] أن الهاء عائدة على محمد ؛ أي : إن من شيعة محمد لإبراهيم ؛ أي : على دينه ومنهاجه . وأجازه الفراء ، وحکاه عنه مكي . وقيل : المراد نوح عليه السلام .

## الفصل الثامن

في إعلام الله تعالى خلقه بصلواته عليه

وولايته له ورفعه العذاب بسببه

قال الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » [ الأنفال : ٣٣ ] ؛ أي : ما كنت بمحنة ، فلما خرج النبي عليه السلام من مكة ، وبقي فيها من بقى من المؤمنين نزل : « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » [ الأنفال : ٣٣ ] .

وهذا مثل قوله : « لَوْ تَرَيَلُوا لِعَذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » [ الفتح : ٢٥ ] .

وقوله تعالى : « وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنَّ تَطْوِهُمْ فَتُصِّيكُمْ مِّنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » [ الفتح : ٢٥ ] . فلما هاجر المؤمنون نزلت : « وَمَا لَهُمْ أَلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ » [ الأنفال : ٣٤ ] .

وهذا من أبين ما يُظهر مكانة ﷺ ، ودرأته العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ، ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم ، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم ، وغلبتهم إياهم ، وحكم فيهم سيوفهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم . وفي الآية أيضاً تأويل آخر .

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمة الله - بقراءتي عليه ، قال : حدثنا أبو الفضل ابن خيرون ، وأبو الحسين الصيرفي ، قالا : حدثنا أبو يعلى ابن زوج الحرة ، حدثنا أبو علي السنجي ، حدثنا محمد بن محبوب المروزي ، حدثنا أبو عيسى الحافظ ، حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا ابن نمير ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ، عن عباد بن يوسف ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِيًّا لِأُمَّتِي : 『 وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ 』 » [الأنفال : ٢٣] ؛ فإذا مضيت تركتُ فيكم الاستغفار » <sup>(١)</sup> .

ونحو منه قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » [الأنبياء : ١٠٧] .  
وقال عليه السلام : « أنا أمان لأصحابي » <sup>(٢)</sup> . قيل : من البدع . وقيل : من الاختلاف والفتن .

قال بعضهم : الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش ، وما دامت سنته باقية فهو باق فإذا أتيت سنته فانتظروا البلاء والفتن .

وقال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُوا تَسْلِيْمًا » [الأحزاب : ٥٦] .

أبان الله تعالى فضل نبيه ﷺ بصلواته عليه ، ثم بصلوة ملائكته ، وأمر عباده بالصلوة والتسليم عليه .

وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض العلماء أولاً قوله عليه السلام : « وَجَعَلْتُ قُرْآنَ

(١) الترمذى في التفسير (٣٠٨٢) وقال : حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث .

(٢) مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣١ / ٢٠٧) عن أبي موسى الأشعري .

عني في الصلاة » (١) على هذا ؟ أي : في صلاة الله تعالى على ملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيمة . والصلاحة من الملائكة استغفار ، ومنا له دعاء ، ومن الله عز وجل رحمة .

وقيل : رحمة . وقيل : يصلون : يباركون .

وقد فرق النبي ﷺ حين علم الصلاة بين لفظ الصلاة والبركة .

وستذكر حكم الصلاة عليه .

وذكر بعض المتكلمين في تفسير حروف **﴿كَهِيَعَصَ﴾** : أن الكاف من «كاف» ؛ أي : كفاية الله تعالى لنبيه ، قال تعالى : **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَه﴾** [الزمر : ٣٦] . والهاء هدایته له ، قال : **﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾** [الفتح : ٢] . والياء تأييده ، قال : **﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرٍ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال : ٦٢] . والعين عصمته له ، قال : **﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾** [المائدة : ٦٧] . والصاد : صلواته عليه ؛ قال : **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الاحزاب : ٥٦] .

وقال تعالى : **﴿وَإِنْ تَظَاهِرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجَرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾** [التحريم : ٤] ؛ مولاه أي : وليه . وصالح المؤمنين : قيل : الأنبياء وقيل : الملائكة ، وقيل : أبو بكر ، وعمر . وقيل : علي ، وقيل : المؤمنون على ظاهره .

## الفصل التاسع

### فيما تضمنته سورة «الفتح» من كراماته ﷺ

قال الله تعالى : **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرَ وَيُتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيًّا حَكِيمًا. لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾**

(١) الجامع الصغير (٣٦٦٩) عن أنس ، ورمز إليه بالحسن .

وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَيْنَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَنْهُمْ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاعَاتٌ مَصِيرًا . وَلَلَّهِ جَنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِرُوهُ وَتَوَقِّرُوهُ وَتَسْبِحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . إِنَّ الَّذِينَ يَأْبَى عَوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴿٤٦﴾

[الفتح : ١٠ - ١]

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه وكرمه منزلته عند الله تعالى ، ونعمته لديه - ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه ؛ فابتداً جل جلاله - بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين . بظهوره ، وغلبته على عدوه ، وعلو كلمته وشريعته ، وأنه مغفور له ، غير مأخذ بما كان وما يكون .

قال بعضهم : أراد غفران ما وقع وما لم يقع ؛ أي : إنك مغفور لك .  
وقال مكي : جعل الله المنة سبباً للمغفرة ، وكل من عنده ، لا إله غيره ، منه بعد منه ، وفضلاً بعد فضل .

ثم قال : «وَيُتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» [الفتح : ٢] . قيل : بخضوع من تكبر عليك .  
وقيل : بفتح مكة والطائف وقيل : يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك ، فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له ، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له ، ورفع ذكره ، وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة ، ونصره النصر العزيز ، و منه على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم ، وبشارتهم بما لهم بعد ، وفوزهم العظيم ، والعفو عنهم ، والستر لذنباتهم ، وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة ولعنهم وبعدهم من رحمته ، وسوء منقلبهم .

ثم قال : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجًا مُنِيرًا» [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] ، «لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِرُوهُ وَتَوَقِّرُوهُ وَتَسْبِحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» [الفتح : ٩] .

فعد محاسنه وخصائصه ؟ من شهادته على أمنه لنفسه ، بتبليغه الرسالة لهم .

وقيل : شاهدًا لهم بالتوحيد ، ومبشراً لأمنه بالثواب . وقيل : بالمغفرة . ومنذراً عدوه بالعذاب .

وقيل : محذراً من الضلالات ليؤمن بالله ، ثم به بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من سبقت له من الله الحسنة .

ويعزروه أي : يجلونه ، وقيل : ينصرونه ، وقيل : يبالغون في تعظيمه . ويوقروه أي : يعظموه .

وقرأه بعضهم : تعززوه - بزاءين : من العز ، والأكثر والأظاهر أن هذا في حق محمد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ ثم قال : « وَتَسْبِحُوهُ » ؛ فهذا راجع إلى الله تعالى .

قال ابن عطاء : جمع للنبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في هذه السورة نعم مختلفة ؛ من الفتح المبين ، وهو من أعلام الإجابة . والمغفرة ، وهي من أعلام المحبة . و تمام النعمة ، وهي من أعلام الاختصاص . والهداية ، وهي من أعلام الولاية ، فالمغفرة تَبَرِّئَةً من العيوب ، و تمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة ، والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة .

وقال جعفر بن محمد : من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه ، وأقسم بحياته ، ونسخ به شرائع غيره ، وعرج به إلى محل الأعلى ، وحفظه في المراج حتى ما زاغ البصر وما طغى ، وبعثه إلى الأحمر والأسود ، وأحل له وأمنه الغنائم ، وجعله شفيعاً مشفعاً ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله أحد ركني التوحيد .

ثم قال : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » [الفتح : ١٠] يعني بيعة الرضوان ؟ أي : إنما يبايعون الله بيعتهم إياك .

« يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » [الفتح : ١٠] يريده عند البيعة . قيل : قوة الله ، وقيل : ثوابه ، وقيل : منته وقيل : عقده ، وهذه استعارة ، وتجنيس في الكلام ، وتأكد لعقد بيعتهم إياه . وعظيم شأن المبايع بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وقد يكون من هذا قوله تعالى : « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

ولَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ [الأنفال : ١٧] ؛ وإن كان الأول في باب المجاز ، وهذا في باب الحقيقة؛ لأن القاتل والرامي بالحقيقة هو الله ، وهو خالق فعله ورميه ، وقدرته عليه ومسبيه ؛ ولأنه ليس في قدرة البشر توصيل تلك الرمية حيث وصلت ، حتى لم يبق منهم من لم تملأ عينيه ، وكذلك قتل الملائكة لهم حقيقة .

وقد قيل في هذه الآية الأخرى: إنها على المجاز العربي ، ومقابلة اللفظ و المناسبة ، أي : ما قتلتهمهم ، وما رميتهم أنت إذ رميت وجوههم بالحصاء والتراب ، ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع ، أي : إن منفعة الرمي كانت من فعل الله ؛ فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم .

## الفصل العاشر

### فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده وما خصه الله به من ذلك سوى ما انتظم في ما ذكرناه قبل

من ذلك ما قصه تعالى في قصة الإسراء في سورة : «سبحان» ، و «التجم» وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته وقربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب .

ومن ذلك عصمه من الناس بقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَعُصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» [المائدة : ٦٧] . قوله تعالى : «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» [الأنفال : ٣٠] .

وقوله : «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلِيَاٰ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [التوبه : ٤٠] . وما دفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحريفهم لهلكه وخلوصهم نحياناً في أمره ، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم ، وذهولهم عن طلبه في الغار ، وما ظهر في

ذلك من الآيات ، وننزل السكينة عليه ، وقصة سراقة بن مالك حسب ما ذكره أهل الحديث والسير في قصة الغار ، وحديث الهجرة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ . إِنَّ شَانِثَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

[الكوثر : ٣-١]

أعلم الله تعالى بما أطعاه . والكوثر حوضه ، وقيل : نهر في الجنة ، وقيل : الشير الكبير ، وقيل : الشفاعة ، وقيل : العجزات الكثيرة ، وقيل : النبوة ، وقيل : المعرفة .

ثم أجاب عنه عدوه ، ورد عليه قوله ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِثَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر : ٣] . أي : عدوك ومحضك . والأبتر : الحقير الذليل ، أو المفرد الوحيد ، أو الذي لا خير فيه .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ ﴾ [الحجر : ٨٧] .

قيل : السبع الثاني السور الطوال الأول . والقرآن العظيم : أم القرآن . وقيل : السبع الثاني : أم القرآن . والقرآن العظيم : سائره . وقيل : السبع الثاني : ما في القرآن من أمر ونهي وبشرى وإنذار وضرب مثل وإعداد نعم ، وآتيناك نبأ القرآن العظيم .

وقيل : سُمِّيت أم القرآن مثاني لأنها تثنى في كل ركعة ، وقيل : بل الله تعالى استثنها لمحمد ﷺ ، وذخرها له دون الأنبياء . وسمى القرآن مثاني ؛ لأن القصص تثنى فيه . وقيل : السبع الثاني : أكرمناك بسبع كرامات : الهدى ، والنبوة ، والرحمة ، والشفاعة ، والولاية ، والتعظيم ، والسكينة . قال : ﴿ وَأَنَّزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] . وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سـ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَامْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الاعراف : ١٥٨] .

قال القاضي : فهذه من خصائصه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَهُ لِيُبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ [ابراهيم : ٤] ؛

فخصهم بقومهم ، وبعث محمداً صلوات الله عليه إلى الخلق كافة ، كما قال عليه السلام : « بعثت إلى الأحمر والأسود » <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أَمْهَاتُهُمْ » [الأحزاب : ٦] .  
قال أهل التفسير « أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ » أي : ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماضٍ  
عليهم كما يمضي حكم السيد على عبده .

وقيل : اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس .

وأزواجه أمهاتهم ؛ أي : هنَّ في الحرمة كالأمهات ؛ حرم نكاحهن عليهم بعده ؛  
تكرمة له وخصوصية ، ولأنهن له أزواج في الآخرة .

وقد قرئ : وهو أب لهم . ولا يقرأ به الآن لخالفته المصحف . وقال الله تعالى :  
« وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا »  
[ النساء : ١١٣ ]

قيل : فضله العظيم بالنبوة ، وقيل : بما سبق له في الأزل . وأشار الواسطي إلى أنها  
إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى ، صلى الله عليهما .

(١) الدارمي في السير (٢٤٦٧) عن أبي ذر ، والجامع الصغير (١١٧٤) عن جابر بلفظ : وبعثت إلى الناس عامة ، ورمز إليه بالصحة .

## الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له المحسن  
خلقًا وخلقاً، وقرانه جميع  
الفضائل الدينية  
والدنيوية نسقاً

## الباب الثاني

### في تكميل الله تعالى له المحسن خلقاً وخلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية نسقاً

اعلم أيها المحب لهذا النبي ﷺ، الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم - أن خصال الخلال والكمال في البشر نوعان : ضروري دنيوي اقتضيه الجبلة وضرورة الحياة الدنيا ، ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب إلى الله تعالى زلفى .

ثم هي على فئتين أيضًا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين. ومنها ما يتمازج ويتداخل. فأما الضروري المحسن فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب ، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه وأعضائه ، واعتدال حركاته ، وشرف نسبه ، وعزوة قومه ، وكرم أرضه ؛ ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه ، من غذائه ونومه ، وملبسه ومسكنه ، ومنكحه ، وماله وجهه .

وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قُصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها ، وكانت على حدود الضرورة وقوانين الشريعة .

وأما المكتسبة الأخروية فسائل الأخلاق العلية ، والأداب الشرعية : من الدين ، والعلم والحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزهد ، والتواضع ، والعفو ، والغففة ، والجحود ، والشجاعة ، والحياء ، والمرءة ، والصمت ، والتؤدة ، والوقار ، والرحمة ، وحسن الأدب ، والمعاشة ، وأخواتها ، وهي التي جماعها حُسن الخلق .

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة لبعض الناس ، وبعضهم لا تكون فيه ، فيكتسبها ، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة كما سنينه إن شاء الله .

وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة ؛ ولكنهما كلها محسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة ، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها .

## الفصل الأول

### الكمال والجمال

قال القاضي : إذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرناه ، ووجدنا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو باثنتين إن اتفقت له - في كل عصر ، إما من نسب أو جمال ، أو قوة ، أو علم ، أو حلم ، أو شجاعة ، أو سماحة ، حتى يعظم قدره ، ويضرب باسمه الأمثال ، ويترعرر له بالوصف بذلك في القلوب أثرة وعظمة ، وهو منذ عصور خوال رم بوال ، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد ، ولا يعبر عنه مقال ، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال ، من فضيلة النبوة والرسالة ، والخلة والمحبة ، والاصطفاء والإسراء ، والرؤبة ، والقرب والدُّنُو ، والوحى ، والشفاعة والوسيلة ، والفضيلة والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والبراق والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، والصلة بالأنبياء ، والشهادة بين الأنبياء والأمم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد ، والبشرة ، والزيارة والمكانة عند ذي العرش والطاعة ثمَّ ، والأمانة والهداية ورحمة للعلميين . وإعطاء الرضا والسؤال ، والكوثر ، وسماع القول ، وإنعام النعمة والعفو عما تقدم وما تأخر ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزَّة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبعين الثاني والقرآن العظيم ، وتزكية الأمة والدعاة إلى الله ، وصلة الله تعالى والملائكة ، والحكم بين الناس بما أراه الله ، ووضع الإصر والأغلال عنهم ، والقسم باسمه ، وإجابة دعوته ، وتکليم الحمادات والعمجم ، وإحياء الموتى ، وإسماع الصم ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتکثیر القليل ، وانشقاق القمر ، ورد الشمس ، وقلب الأعيان ، والنصر بالرعب ، والاطلاع على الغيب ، وظلل الغمام ، وتسويح الحصا ، وإبراء الآلام ، والعصمة من الناس ، إلى ما لا يحويه محتفل ، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به ، لا إله غيره ، إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكراهة ، ودرجات القدس ، ومراتب السعادة والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول ويحار دون إدراكتها الوهم .

## الفصل الثاني

### صفاته الخلقية

إن قلت - أكرمك الله : لا خفاء على القطع بالجملة أنه عَزَّلَهُ اللَّهُ أعلى الناس قدرًا ، وأعظمهم مهلاً ، وأكملهم محسن وفضلاً ، وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلاً شوقي إلى أن أقف عليها من أوصافه عَزَّلَهُ اللَّهُ تفصيلاً ... فاعلم - نور الله قلبك وقلب ، وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك - أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدها صلٍ حائزًا لجميعها ، ومحيطًا بشتات محسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك ؛ بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع .

أما الصورة وجمالها ، وتناسب أعضائه في حسنها ، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك ، من حديث عليّ ، وأنس بن مالك ، وأبي هريرة ، والبراء بن عازب ، وعائشة أم المؤمنين ، وابن أبي هالة ، وأبي جحيفة وجابر بن سمرة ، وأم عبد ، وابن عباس ، ومعرض بن معيقib ، وأبي الطفيلي ، والعداء بن خالد ، وخريم بن فاتك ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم ، من أنه عَزَّلَهُ اللَّهُ كان أزهراً اللون ، أدعج ، أنجل ، أشكال ، أهدب الأشفار ، أبلج ، أرجح ، أثني ، أفلج ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية تملأ صدره ، سواه البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عَلَى العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجدد ، دقيق المسربة ، ربعة القدّ ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، ومع ذلك فلم يكن يماشي أحد ينسب إلى الطول إلا طاله عَزَّلَهُ اللَّهُ ، رجل الشعر ، إذا افترض صاحبًا افترًا عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام ، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من ثنياه ، أحسن الناس عنقًا ، ليس بعُطَّمَهُ ولا مكثتم ، متماسك البدن ، ضرب اللحم <sup>(١)</sup> .

قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي ملة في حلة حمراء أحسن من رسول الله

عَزَّلَهُ اللَّهُ <sup>(٢)</sup> .

(١) الترمذى في المناقب (٣٦٣٨) عن علي ، وقال : حسن غريب ليس إسناده متصل .

(٢) مسلم في الفضائل (٢٢٣٧ / ٩٢) ، والترمذى في المناقب (٣٦٣٥) وقال : حسن صحيح .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ، كأن الشمس تجري في وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر <sup>(١)</sup> .

وقال جابر بن سمرة - وقال له رجل : كان وجهه يُنير مثل السيف ؟ فقال : لا ، بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً <sup>(٢)</sup> .

وقالت أم معبد - في بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب <sup>(٣)</sup> .

وفي حديث ابن أبي هالة : يتلألأ وجهه تلائلاً القمر ليلة البدر .

وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له : من رأه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله يُنير .

والأحاديث في بسط صفتة مشهورة كثيرة ، فلا نطول بسردها .

وقد اختصرنا في وصفه نكت ما جاء فيها ، وجملة ما فيها الكفاية في القصد إلى المطلوب ، وختمنا هذه الفصول بحديث جامع لذلك تقف عليه هناك إن شاء الله .

### الفصل الثالث

#### نظافته يُنير

وأما نظافة جسمه ، وطيب ريحه وعرقه ، ونراحته عن الأقدار وعورات الجسد - فكان قد خصه الله في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ، ثم تمها بنظافة الشرع وخاصال الفطرة العشرة ، وقال : « بنى الدين على النظافة » <sup>(٤)</sup> .

حدثنا سفيان بن العاصي وغير واحد ، قالوا : حدثنا أحمد بن عمر . حدثنا أبو العباس الرازى ، حدثنا أبو أحمد الجلوسى ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم ، قال :

(١) أحمد / ٢ / ٣٥٠ .

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٥٢) عن البراء ، ومسلم في الفضائل (٢٣٤٤ / ١٠٩) عن جابر .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (ص: ٣٣٩) ط دار الفتاوى .

(٤) الجامع الصغير (٣٠٦٥) عن عائشة بنته ، وأشار إليه بالضعف .

حدثنا قتيبة ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : ما شمنت عنبراً  
قط ، ولا مسكاً ، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ (١) .

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده ، قال : فوجدت ليده برداً وريحاً ، كأنما  
أخرجها من جحونه عطار (٢) .

قال غيره : مسها بطيب أو لم يمسها ، يصافح المصالح فيظل يومه يجد ريحها ،  
ويوضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها .

ونام رسول الله ﷺ في دار أنس فعرق ، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه ،  
فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقالت : نجعله في طينا ، وهو من أطيب الطيب (٣) .

وذكره البخاري في تاريخه الكبير ، عن جابر : لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق  
فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيه . وذكر إسحاق بن راهويه أن تلك كانت رائحته  
بلا طيب ﷺ .

وروى المزني عن جابر : أردفني النبي ﷺ خلفه ، فالتفت خاتم النبوة بفمي ،  
فكان ينم على مسكاً .

وقد حكى بعض المعتنين بأخباره وشمائله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يتغوط انشقت  
الأرض فابتلعت غاطته وبوله ، وفاحت لذلك رائحة طيبة ﷺ .

وأورد محمد بن سعد كاتب الواقدي في هذا خبراً عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي  
ﷺ : إنك تأتي الخلاء فلا نرى منك شيئاً من الأذى ! فقال : « يا عائشة ، أو ما علمت  
أن الأرض تتبع ما يخرج من الأنبياء ، فلا يرى منه شيء » .

وهذا الخبر وإن لم يكن مشهوراً فقد قال قوم من أهل العلم بظهوره الحديث منه ﷺ .  
وهو قول بعض أصحاب الشافعي ، حكاه الإمام أبو نصر بن الصباغ في شامله .

وقد حكى القولين عن العلماء في ذلك أبو بكر بن سابق المالكي في كتابه « البديع في

(١) مسلم في الفضائل (٢٢٣٠ / ٨١ ، ٨٣) .

(٢) مسلم في الفضائل (٢٢٢٩ / ٨٠) .

(٣) البخاري في الاستذان (٦٢٨١) بلفظ مقارب .

فروع المالكية وتخریج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاصیل الشافعیة » .

وشاهد هذا: أنه رسول الله لم يكن منه شيء يكره، ولا غير طیب .

ومنه حديث علی رسول الله: غسلت النبي رسول الله، فذهب أنظر ما يكون من الميت لم أجده شيئاً؛ فقلت: طبت حیاً ومتاً . قال: وسطعت منه ریح طیة لم نجد مثلها قط .

ومثله قال أبو بکر رضي الله عنه حين قبل النبي رسول الله بعد موته <sup>(١)</sup> .

ومنه: شرب مالک بن سنان دمه يوم أحد ، ومصبه إیاه ، وتسويغه رسول الله ذلك له وقوله: «لن تنصبیه النار» .

ومثله: شرب عبد الله بن الزبیر دم حجامته؛ فقال له عليه السلام: «ویل لك من الناس، ویل لهم منك» <sup>(٢)</sup> . ولم ینكره عليه .

وقد روى نحو من هذا عنه في امرأة شربت بوله؛ فقال لها: «لن تستكى وجع بطنك أبداً» ولم یأمر واحداً منهم بغسل فم ، ولا نهاء عن عودة .

وحدثت هذه المرأة التي شربت بوله صحيح ، ألزم الدارقطنی مسلماً والبخاري إخراجه في «الصحيح» ، واسم هذه المرأة: برکة . وانختلف في نسبها .

وقيل: هي أم أئین ، وكانت تخدم النبي رسول الله ، قالت: وكان لرسول الله رسول الله قدح من عیدان يوضع تحت سریره یبول فيها من اللیل ، فبال فیه لیلة ، ثم انتقده ، لم یجد فيه شيئاً . فسأل برکة عنه؛ فقالت: قمت وأنا عظشانة فشربته وأنا لا أعلم .

روى حديثها ابن جریح وغيره .

وكان رسول الله قد ولد مختوناً مقطوع السرة .

وروى عن أمه آمنة أنها قالت: قد ولدته نظیئاً ما به قدر .

وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأیت فرج رسول الله رسول الله قط <sup>(٣)</sup> .

وعن علی رسول الله: أوصاني النبي رسول الله لا یغسله غيري: «فإنه لا یرى أحد عورتي إلا طمست عيناه» .

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٧) عن عائشة من حديث طویل .

(٢) الدارقطنی في الحیض (٨٧١) عن أسماء بنت أبي بکر .

(٣) ابن ماجه في الطهارة (٦٦٢) ، وفي الرواائد: هذا إسناد ضعیف .

وفي حديث عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ نام حتى سمع له غطيط ، فقام فصلى ولم يتوضأ<sup>(١)</sup> . قال عكرمة : لأنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ كان محفوظاً .

## الفصل الرابع

### فصاحة لسانه عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ

وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم .

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله ، وبديع سيره ، فضلاً عما أفضاه من العلم ، وقرره من الشرع دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه ، لم يمتر في رجحان عقله ، وثقوب فهمه لا أول بديهة ؛ وهذا ما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه .

وقد قال وهب بن منبه : قرأت في أحد وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها أن النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم رأياً .

وفي رواية أخرى : فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدأ الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا .

وقال مجاهد : كان رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، وبه فسر قوله تعالى : « وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ » [الشعراء : ٢١٩] .  
وفي « الموطأ » عنه عليه السلام : « إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » <sup>(٢)</sup> .

ونحوه عن أنس في الصحيحين ، وعن عائشة مثله ؛ قالت : زيادة زاده الله إياها في حجته .

وفي بعض الروايات : « إِنِّي لَأَنْظُرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أَنْظُرُ إِلَيْيَّ مِنْ بَيْنِ يَدِيِّي » .  
وفي أخرى : « إِنِّي لَأَبْصُرُ مِنْ قَفَاعِي كَمَا أَبْصُرُ مِنْ بَيْنِ يَدِيِّي » .

(١) البخاري في العلم (١١٧) .

(٢) البخاري في الصلاة (٤١٨) ، ومسلم في الصلاة (٤٢٤ / ١٠٩) عن أبي هريرة .

وحكى بقى بن مخلد ، عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يرى في الظلمة كما يرى في الضوء <sup>(١)</sup> .

والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين .

ورفع التجاشي له حتى صلى عليه ، وبيت المقدس حين وصفه لقريش ، والكعبة حين بنى مسجده .

وقد حكى عنه ﷺ أنه كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً .

وهذه كلها محمولة على رؤية العين ، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره .

وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم ، والظواهر تخالفه ، ولا إحالة في ذلك ، وهي من خواص الأنبياء وخصالهم ، كما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه ؛ حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغاني ، حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر ، عن أبيها ، حدثنا الشريف أبو الحسن عليّ بن محمد الحسني ، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد ، حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان ، حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا همام ، قال : حدثنا الحسن ، عن قتادة ، عن يحيى بن وثاب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ» ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى .

وقد جاءت الأخبار بأنه صرع ركانة - أشد أهل وقته - وكان دعاء إلى الإسلام ، وصارع أبا ركانة في الجahلية ، وكان شديداً ، وعاوده ثلاث مرات ، كل ذلك يصرعه رسول الله ﷺ .

وقال أبو هريرة : ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث <sup>(٢)</sup> .

وفي صفتة : أن ضحكه كان تبسمًا ، إذا التفت التفت معًا ، وإذا مشى مشى تقلعاً كأنما ينحط من صبب .

(١) الجامع الصغير (٧٠٢٧) وأشار إليه بالحسن .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٦٤٨) وقال : هذا حديث غريب .

## الفصل الخامس

فصاحة لسانه وبلاعته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما فصاحة اللسان وبلاعثة القول فقد كان بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من ذلك بال محل الأفضل والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم ، وشخص بيدانع الحكم ، وعلم السنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثيراً من أصحابها يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله . ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ؛ وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد كلامه مع ذي المشعار الهمданى ، وطهفة النهدي ، وقطن بن حارثة العليمي ، والأشعث بن قيس ، ووائل بن حجر الكندي ، وغيرهم من أقبال<sup>(١)</sup> حضرموت وملوك اليمن .

وانظر كتابه إلى همدان : « إن لكم فراعها<sup>(٢)</sup> ووهاطها<sup>(٣)</sup> وعزازها<sup>(٤)</sup> ، تأكلون علاتها وترعون عفاءها ، لنا من دفنهم وصرامهم ما سلموا بالمبثق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثلب والناب<sup>ُ</sup> والفصيل والفارض والداجن والكبش الحوري ، وعليهم فيها الصالغ والقارح<sup>ُ</sup> .

وقوله لنهد : « اللهم بارك لهم في محسنها ومخضها ومذنثها ، وابعث راعيها في الدثّر ، وانجّر له الشمد ، وبارك له في المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً ، لكم يا بني نهد وداع الشرك ، ووضائع الملك ، لا تلطف في الزكاة ، ولا تلحد في الحياة ، ولا تتناقل عن الصلاة » .

وكتب لهم في الوظيفة الفريضة : « ولهم الفارض والفريش<sup>(٥)</sup> ، ذو العنان

(١) أقبال: جمّع قيل وهو الملك .

(٢) فراعها: ما علا من الأرض .

(٣) وهاطها: ما سهل من الأرض .

(٤) عزازها: ما حشن وغلظ .

(٥) الفارض: المسنة . والفريش: حديثة الولادة .

الركوب ، والفلُوُ الضبيس <sup>(١)</sup> ، لا يمنع سُرُّحُكُم ، ولا يُعْضَد طَلْحُكُم ، ولا يُجْبِس درُّكُم ما لم تُضْمِرُوا الرِّمَاق ، وتأكلوا الرِّبَاق ، من أَقْرَأَ فله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أَبَى فعلية الربوة <sup>.</sup>

ومن كتابه لوايل بن حجر :

### «إلى الأقىال العباءلة ، والأرواع المشايب»

و فيه «في التّيّعة شاء ، لا مُقْوَرَّة الألياط ، ولا ضناك ، وأنطُوا الثّبجة ، وفي السُّيُوب الخمس . ومن زنى مم بكر فاصعقوه مائة ، واستوفضوه عاماً ، ومن زنى مم ثَبَبْ فضرّ جوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا غُمة في فرائض الله ، وكل مُسْكُر حرام ، ووائل بن حجر يترقب على الأقىال <sup>.</sup>» .

أين هذا من كتابه لأنس في الصدقة المشهور ، لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد ، وبلاغتهم على هذا النّمط ، وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم ، ليبين للناس ما نزل إليهم ، وليحدث الناس بما يعلمون .

وكقوله في حديث عطية السعدي : «إِنَّ الْيَدَ الْعُلِيَا هِيَ الْمُنْطَهِيَةُ ، وَالْيَدَ السُّفْلِيَّ هِيَ الْمُنْتَهَا» <sup>(٢)</sup> . قال : فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا . وقوله في حديث العامر حين سأله ، فقال له النبي ﷺ «سل عنك» . أي : سل عما شئت ، وهي لغة بني عامر .

وأما كلامه المعتمد ، وفصاحته المعلومة ، وجوامع كلمه ، وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ، وفيها ما لا يوازي فصاحة ، ولا يبارى بلاغة ؛ كقوله : «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُ دَمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذَمَتِهِمْ أَدَنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدْعُونَ عَلَى مِنْ سَوَاهُمْ» <sup>(٣)</sup> .

وقوله : «الناس كأسنان المشط» <sup>(٤)</sup> و«والمرء مع من أحب» <sup>(٥)</sup> و«لا خير في

(١) الفلو : المهر . والضبيس : الصعب الركوب .

(٢) الحاكم في المستدرك في الرقاق (٧٩٣٠ / ٨٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي على شرط البخاري . والطبراني في الأوسط (٢٩٩٢) .

(٣) أبو داود في الجهاد (٢٧٥١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٤) لم أقف عليه .

(٥) البخاري في الأدب (٦٦٨) عن أبي وائل .

صحبة من لا يري لك ما ترى له <sup>(١)</sup> . و « الناس معادن » <sup>(٢)</sup> و « ما هلك امرؤ عرف قدره » ، و « المستشار مؤمن ، وهو بالخير مالم يتكلم » <sup>(٣)</sup> ، و « رحم الله عبداً قال خيراً فغم أو سكت فسلم » <sup>(٤)</sup> .

وقوله : « أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين » <sup>(٥)</sup> . و « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيمة ، أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكناها الذين يألفون ويؤلدون » <sup>(٦)</sup> .

وقوله : « لعله كان يتكلّم بما لا يعنّيه ، وبيخل بما لا يغّنه » .

وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا » . ونهيه عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ومنع وهات ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات <sup>(٧)</sup> .

وقوله : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحّها ، وخالف الناس بخلق حسن » <sup>(٨)</sup> .

وقوله : « وخير الأمور أوساطتها » <sup>(٩)</sup> .

وقوله : « أحبب حبيبك هوّناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما » <sup>(١٠)</sup> .

وقوله : « الظلم ظلمات يوم القيمة » <sup>(١١)</sup> .

(١) لم أقف عليه .

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٣) عن أبي هريرة وعن مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٦) / (١٩٩) .

(٣) أبو داود في الأدب (٥١٢٨) عن أبي هريرة ، والترمذني في الأدب (٢٨٢٢) وقال : حسن .

(٤) الجامع الصغير (٤٤٢٥) عن أنس وأشار إليه بالحسن .

(٥) البخاري في التفسير (٤٥٥٣) ، ومسلم في الجهاد (١٧٧٣) / (٧٤) عن ابن عباس .

(٦) الطبراني في الأوسط (٤٤٢٢) عن أبي سعيد الخدري .

(٧) البخاري في الاستقراض (٢٤٠٨) عن المغيرة بن شعبة .

(٨) الترمذني في البر والصلة (١٩٨٧) عن أبي ذر . وقال : حسن صحيح .

(٩) كشف الخفاء (١٢٤٧) .

(١٠) الترمذني في البر والصلة (١٩٩٧) وقال : غريب .

(١١) البخاري في المظالم (٢٤٤٧) عن ابن عمر ، ومسلم في البر (٥٧ / ٢٥٧٩) .

وقوله في بعض دعائه : « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتحجّم بها أمري ، وتلم بها شعّي ، وتصلح بها غائي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها أفتني ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » <sup>(١)</sup> .

إلى ما روتة الكافة عن الكافة من مقاماته ، ومحاضراته ، وخطبه ، وأدعنته ، ومخاطباته وعهوده ، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره ، وحاز فيها سبقاً لا يقدر قدره .

وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبه عليها : قوله : « حَمِيَ الْوَطِيسُ » <sup>(٢)</sup> . و « مات حتف أنفه » <sup>(٣)</sup> . و « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » <sup>(٤)</sup> . و « السعيد من وُعْظَ بغيره » <sup>(٥)</sup> . . . وفي أخواتها مما يدرك الناظر العجب في مضمونها ، ويدهّب به الفكر في أدنى حكمها .

وقد قال له أصحابه : ما رأينا الذي هو أفصح منك . فقال : « وما يعنی ؟ وإنما أنزل القرآن بلساني ، لسان عربي مبين » .

وقال مرة أخرى : « بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد » <sup>(٦)</sup> فجمع له بذلك حَكَمَ اللَّهُ قوة عارضة البدية وجزالتها ، ون الصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشري .

وقالت أم معبد في وصفها له : حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزاتٍ نُظِّمَنْ . وكان جهير الصوت ، حسن النغمة حَكَمَ اللَّهُ .

(١) الترمذى في الدعوات (٣٤١٩) عن ابن عباس .

(٢) مسلم في الجهاد (١٧٧٥) / ٧٦ .

(٣) أحمد ٤ / ٣٦ عن عبد الله بن عتىك .

(٤) البخارى في الأدب (٦١٣٣) ، ومسلم في الزهد (٢٩٩٨ / ٦٣) عن أبي هريرة .

(٥) مسلم في القدر (٢٦٤٥) عن ابن مسعود موقفاً عليه .

(٦) الهيثمى في المجمع في علامات النبوة (١٣٨٣٣) عن أبي سعيد ، وقال : رواه الطبرانى ، وفيه مبشر بن عبيد وهو متروك .

## الفصل السادس

### شرف نسبه وكرم بلده ومنتشه

وأما شرف نسبه وكرم بلده ومنتشه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ، ولا بيان مشكل ولا خفي منه ؛ فإنه نخبة بنى هاشم ، وساللة قريش وصهيمها ، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده .

حدثنا قاضي القضاة حسين بن محمد الصدفي - رحمه الله ، قال : حدثنا القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف ، حدثنا أبو ذر عبد بن أحمد ، حدثنا أبو محمد السرخسي ، وابن إسحاق ، وأبو الهيثم : قالوا : حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا محمد بن إسماعيل ، قال : حدثنا قتيبة بن سعيد ؛ قال : حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرنا ، حتى كنت من القرن الذي كنت منه » (١) .

وعن العباس ، قال : قال النبي ﷺ : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ، من خير قرنهم ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً ، وخيرهم بيّنا » (٢) .

وعن واثلة بن الأسعق قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » (٣) .

قال الترمذى : وهذا حديث صحيح .

وفي حديث عن ابن عمر ، رواه الطبرى - أنه ﷺ قال : « إن الله اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً ، ثم اختار قريشاً فاختار منهم بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاختارني منهم ، فلم

(١) البخاري في المناقب (٣٥٥٧) .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٦٠٧) ، وأحمد ١ / ٢١٠ .

(٣) مسلم في الفضائل (١/٢٢٧٦) ، والترمذى في المناقب (٣٦٠٥) عن واثلة بن الأسعق .

أزّل خياراً من خيار ، ألا من أحب العرب فبحبّي أحّبّهم ، ومن أبغض العرب فبغضّي  
 أبغضّهم»<sup>(١)</sup> .

وعن ابن عباس : إن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم باليقى  
 عام ، يسبح ذلك النور ، وتسبح الملائكة بتسبيحه ، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في  
 صلبه ، فقال رسول الله ﷺ : « فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم ، وجعلني في  
 صلب نوح ، وقدف بي في صلب إبراهيم ، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب  
 الكريمة والأرحام الطاهرة ، حتى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط » .

ويشهد لصحة هذا الخبر شعر العباس في مدح النبي ﷺ المشهور .

## الفصل السابع

### حالته في الضروريات

وأما ما تدعوا ضرورة الحياة إليه مما فصلنا فعلى ثلاثة ضروب : ضربُ الفضل في  
 قلته ، وضربُ الفضل في كثرته ، وضربُ تختلف الأحوال فيه :  
 فاما ما التمداد والكمال بقلته اتفاقاً ، وعلى كل حال وعادة وشريعة ، كالغذاء  
 والنوم ، ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلتهم ، وتدمن بكثراهم ؛ لأن كثرة الأكل  
 والشراب دليل على النهم والحرص والشره وغيبة الشهوة ، مسبب لمضار الدنيا والآخرة ،  
 جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس<sup>(٢)</sup> وامتلاء الدماغ . وقلته دليل على القناعة وملك  
 النفس ؛ وقمع الشهوة مسبب للصحة ، وصفاء الخاطر ، وحدة الذهن ، كما أن كثرة  
 النوم دليل على الفسولة ، والضعف ؛ وعدم الذكاء والفتنة ، مسبب للكسل ، وعادة  
 العجز ، وتضييع العمر في غير نفع ، وقساوة القلب وغفلته وموته .

والشاهد على هذا ما يعلم ضرورة ، ويوجد مشاهدة ، وينقل متواتراً من كلام الأمم  
 المتقدمة ، والحكماء السابقين ، وأشعار العرب وأخبارها ، وصحيح الحديث ، وآثار من  
 سلف وخلف ، مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه اختصاراً واقتصاراً على اشتهر العلم به .

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفين بالأقل .

(٢) ثقلها وعدم طيبها .

(١) لم أقف عليه .

هذا ما لا يدفع من سيرته ، وهو الذي أمر به ، حض عليه ، لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر .

حدثنا أبو علي الصدفي الحافظ بقراءتي عليه ، حدثنا أبو الفضل الأصبهاني ، حدثنا أبو نعيم الحافظ ، حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أبو بكر بن سهل ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » <sup>(١)</sup> .  
ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب .

قال سفيان الثوري : بقلة الطعام يملأ سهر الليل .

وقال بعض السلف : لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً ، فترقدوا كثيراً ، فتخسروا كثيراً .  
وقد روي عنه ﷺ أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف ؛ أي: كثرة الأيدي .  
ومن عائشة <sup>رض</sup> لم يمتلى جوف النبي ﷺ شيئاً قط ، وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاء ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .

ولا يعترض على هذا بحديث بريرة ، قوله : « ألم أر البرمة فيها لحم ؟ إذا لعل سبب سؤاله ظنه <sup>رض</sup> اعتقادهم أنه لا يحل له ؛ فأراد بيان سنته ، إذ رأهم لم يقدموه إليه ، مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به ، فصدق عليهم ظنه ، وبين لهم ما جعلوه من أمره بقوله : « هو لها صدقة ولنا هدية » <sup>(٢)</sup> .

وفي حكمة لقمان : يا بني ، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ،  
وقدت الأعضاء عن العبادة .

وقال سحنون : لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع .

وفي صحيح الحديث قوله <sup>رض</sup> : « أما أنا فلا أكل متكتناً » <sup>(٣)</sup> .

(١) الترمذى في الزهد (٢٣٨٠) وقال : حسن صحيح ، وأحمد / ٤ / ١٣٢ .

(٢) البخارى في النكاح (٥٠٩٧) عن عائشة وعنها مسلم في الزكاة (١٠٧٥ / ١٧١) .

(٣) البخارى في الأطعمة (٥٣٩٨) عن أبي جعيفية .

الاتكاء : هو التمكّن للأكل ، والتقدّم في الجلوس له كالترفع وشبيهه من تمكّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته ، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثّر منه .

والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفر معيّناً ، ويقول : « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين .

وكذلك نومه ﷺ كان قليلاً ، شهدت بذلك الآثار الصحيحة ، ومع ذلك فقد قال : « إن عيني تنام ولا ينام قلبي » <sup>(١)</sup> .

وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم ؛ لأنّه على الجانب الأيسر أهناً لهدوء القلب وما يتعلّق به من الأعضاء الباطنة حيث إنّه ينام على الجانب الأيسر ؛ فيستدعي ذلك الاستيقاظ فيه والطّول .

وإذا نام النائم على الأيمن تعلق القلب وقلق ، فأسرع الإفادة ولم يغمره الاستغراف .

## الفصل الثامن

### زواجه

والضرب الثاني : ما يتفق المدح بكثّرته ، والفخر بوفوره ، كالنّكاح والجاه . أما النّكاح فمتفق فيه شرعاً وعادة ؛ فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية ، ولم يزل التفاخر بكثّرته عادة معروفة ، والتّمادح به سيرة ماضية .

وأما في الشرع فسنة مؤثرة ؛ وقد قال ابن عباس : أفضل هذه الأمة أكثرها نساء - يشير إليه <sup>ﷺ</sup> .

وقد قال عليه السلام : « تناكحوا تناسلوا ، فإني مباه بكم الأمم يوم القيمة » <sup>(٢)</sup> .

ونهى عن التّبتل مع ما فيه من قمع الشهوة وغض البصر للذين نبه عليهما <sup>ﷺ</sup> .

(١) البخاري في التهجد (١١٤٧) عن عائشة وعنها مسلم في صلاة المسافرين (٧٣٨ / ١٢٥) .

(٢) الجامع الصغير (٣٣٦٦) عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً .

بقوله: « من كان ذا طول فليتزوج؛ فإنه أبغض للبصر، وأحسن للفرج »<sup>(١)</sup> ، حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد .

قال سهل بن عبد الله : قد حبين إلى سيد المرسلين ، فكيف يزهد فيهن ؟ ونحوه لابن عبيدة . وقد كان زهاد الصحابة كثيري الزوجات والسراري ، كثيري النكاح . وحكي في ذلك عن عليّ ، والحسن ، وابن عمر ، وغيرهم غير شيء . وقد كره غير واحد أن يلقى الله عزياً .

فإن قلت : كيف يكون النكاح وكثره من الفضائل ، وهذا يحيى بن زكريا عليه السلام قد أثني الله تعالى عليه أنه كان حصوراً ؟ فكيف يثنى الله بالعجز عما تعلمه فضيلة ؟ وهذا عيسى عليه السلام تبتل عن النساء ، ولو كان كما قررته لنكح ؟

فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم : إنه كان هيباً ، أو لا ذكر له . بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء ، وقالوا : هذه نفيضة وعيب ، ولا تليق بالأنبياء . وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي : لا يأتيها ، كأنه حصر عنها .

وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات .

وقيل : ليست له شهوة في النساء .

فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ، ثم قمعها ؛ إما بمجاهدة ، كعيسى عليه السلام ، أو بكفاية من الله تعالى ، كيحيى عليه السلام - فضيلة زائدة لكونها شاغلة في كثير من الأوقات حاطة إلى الدنيا .

ثم هي في حق من أقدر عليها وملكتها وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا ، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم تشغله كثرتها عن عبادة ربه ؛ بل زاده ذلك عبادة ، لتحقينهن ، وقيامه بحقوقهن ، واكتسابه لهن ، وهدايته إياهن بل صرخ أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، إن كانت من حظوظ دنيا غيره ؛ فقال : « حبب إليّ من دنياكم... » فدل على أن حبه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمور دنيا غيره ،

(١) النسائي في النكاح ٦ / ٥٦ ، ٥٧ عن عثمان بن عفان ، وأحمد ١ / ٥٨ .

واستعماله لذلك ليس لدنياه ، بل لأنخرته ؛ للفوائد التي ذكرناها في التزويج ، وللقاء الملائكة في الطيب ؛ ولأنه أيضاً ما يحضر على الجماع ، ويعين عليه ، ويحرك أسبابه .

وكان حبه لهاتين الخصلتين لأجل غيره وقمع شهوته ؛ وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته ؛ ولذلك ميز بين الحبين ، وفصل بين الحالين ؛ فقال : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » <sup>(١)</sup> ؛ فقد ساوي يحيى وعيسى في كفاية فتنتهن ، وزاد فضيلة بالقيام بهن .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقدر على القوة في هذا ، وأعطي الكثير منه ؛ ولهذا أبى له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره .

وقد رويانا عن أنس أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار ، وهن إحدى عشر <sup>(٢)</sup> .

وعن طاوس : أعطي عليه السلام قوة أربعين رجلاً في الجماع .

ومثله عن صفوان بن سليم .

وقالت سلمى مولاته : طاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة على نسائه التسع ، وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرى ؛ وقال : « هذا أطيب وأظهر » .

قال أنس : وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً . خرجه النسائي <sup>(٣)</sup> ، وروي نحوه عن أبي رافع .

وقد قال سليمان عليه السلام : « لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين » ، وأنه فعل ذلك <sup>(٤)</sup> .

قال ابن عباس : كان في ظهر سليمان ماء مائة رجل أو تسع وتسعين ، وكان له ثلاثة امرأة وثلاثمائة سرية .

(١) النسائي في السنن الكبرى في عشرة النساء (٨٨٨٧) / (١) عن أنس ، وأحمد / ٣ / ١٢٨ .

(٢) البخاري في الغسل (٢٦٨) .

(٣) انظر السابق .

(٤) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٤) عن أبي هريرة بن حمودة .

وحكى النقاش وغيره : سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية .

وقد كان لداود عليه السلام على زهذه وأكله من عمل يده تسع وتسعون امرأة ، ومت بزواج « أوريا » مائة .

وقد نبه على ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعُ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً » [ ص : ٢٣ ] .

وفي حديث أنس عنه عليه السلام : « فضلت على الناس بأربع : بالسخاء ، والشجاعة ، وكثرة الجماع ، وقوة البطش » (١) .

وأما الجاح فمحمود عند العقلاء عادة وبقدر جاهه عظمه في القلوب .

وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام : « وَجِيَهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » [ آل عمران : ٤٥ ] ، لكن آفاته كثيرة : فهو مضر لبعض الناس لعقبي الآخرة فلذلك ذمه من ذمه ، ومدح ضده .

وورد في الشع مدح الخمول ، وذم العلو في الأرض .

وكان ﷺ قد رزق من الحشمة ، والمكانة في القلوب ، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها ، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ، ويقصدون أذاه في نفسه خفية حتى إذا واجههم أعظموه أمره وقضوا حاجته ، وأخباره في ذلك معروفة سيأتي بعضها .

وقد كان يبهر ويفرق لرؤيته من لم يره ، كما روي عن قيلة أنها لما رأته أرعدت من الفرق ، فقال : « يا مسكينة ، عليك السكينة » (٢) .

وفي حديث أبي مسعود أن رجلا قام بين يديه فأرعد ؛ فقال : « هون عليك فإني لست بملك ... » (٣) الحديث .

فأما عظم قدره بنبأه ، وشرف منزلته بالرسالة ، وإنابة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية ، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم .

وعلى معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم بأسره .

(١) الجامع الصغير (٥٨٨٤) وأشار إليه بالضعف .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) ابن ماجه في الأطعمة (٣٣١٢) ، وفي الزوائد : إسناد صحيح ، ورجاله ثقات .

## الفصل التاسع

### ما يتعلّق بالمال والمتاع

وأما الضرب الثالث، فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسيبه ، والفضيل لأجله ، كثرة المال - فصاحبها على الجملة معظم عند العامة ؛ لاعتقادها توصلها به إلى حاجاتها ، وتمكنها أغراضها بسيبه ، وإنما فليس فضيلة في نفسه ، فمتى كان المال بهذه الصورة ، وصاحبها منفّعاً له في مهامات من اعتراه وأمله ؛ وتصريفه في مواضعه مشترياً به المعالي والثناء الحسن ، والمتزلة في القلوب - كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا ، وإذا صرفه في وجوه البر ، وأنفقه في سبيل الخير ، وقصد بذلك الله والدار الآخرة ، كان فضيلة عند الكل بكل حال ، ومتى كان صاحبه مسّكاً له غير موجهه وجوهه ، حريصاً على جمعه ، عاد كثرة كالعدم ، وكان منقصة في صاحبه ، ولم يقف به على جدد السلامة ؛ بل أوقعه في هوة رذيلة البخل ، ومذمة النذالة ؛ فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضليه ليست لنفسه ، وإنما هو للتوصّل به إلى غيره ، وتصريفه في متصرفاته ، فجماعه إذا لم يضبه مواضعه ولا وجهه وجوهه غير مليء بالحقيقة ولا غني بالمعنى ، ولا تتمدح عند أحد من العقلاء ؛ بل هو فتير أبداً غير واصل إلى غرض من أغراضه ؛ إذا ما يبده من المال الموصّل لم يسلط عليه ، فأشبّه خازن مال غيره ولا مال له ، فكأنه ليس في يده منه شيء .

والمنفّع مليء وغنى بتحصيله فوائد المال ، وإن لم يبق في يده من المال شيء . فانظر سيرة نبينا صلوات الله عليه وآله وسالم وخلقه في المال تجده قد أوتى خزائن الأرض ، ومتاحات البلاد ، وأحلت له الغنائم ، ولم تخل لنبي قبله ، وفتح عليه في حياته صلوات الله عليه وآله وسالم بلاد الحجاز واليمن ، وجميع جزيرة العرب ، وما دانى ذلك من الشام والعراق ، وجلبت إليه من أخّamasها وجزيتها وصدقاتها ما لا يجيء للملوك إلا بعضه ، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم ، فما استأثر بشيء منه ، ولا أمسك منه درهماً ؛ بل صرفه مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين ؛ وقال « ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منها دينار ، إلا ديناراً أرصده للدين »<sup>(١)</sup> . وأتته دنانير مرة فقسمها ، وبقيت منها ستة ؛ فدفعها لبعض نسائه ، فلم

(١) البخاري في الاستقرار (٢٣٨٩) عن أبي هريرة وعن مسلم في الزكاة (٣١/٩٩١) .

يأخذه نوم حتى قام وقسمها ، وقال : « الآن استرحت » .

ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله <sup>(١)</sup> .

واقتصر من نفقة وملبسه ومسكته على ما تدعو ضرورته إليه .

وزهد فيما سواه ، فكان يلبس ما وجده ؛ فلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخصوص بالذهب ، ويرفع لمن لم يحضره ؛ إذ المباهة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة ، وهي من سمات النساء .

والمحمود منها نقاوة الثوب ، والتوسط في جنسه ، وكونه ليس مثله غير مسقط لمرءة جنسه مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين .

وقد ذم لشرع ذلك ؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود ، ووفر الحال .

وكذلك التباهي بجودة المسكن ، وسعة المنزل ، وتكثير آلاته وخدمه ومركمباته .

ومن ملك الأرض ، وجبي إليه ما فيها ، فترك ذلك زهداً وتزهاً ، فهو حائز لفضيلة المالية ، ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانت فضيلة زائد عليها في الفخر ، ومعرق في المدح بإضرابه عنها ، وزهده في فانيها ، وبذلها في مظانها .

## الفصل العاشر

### الأخلاق الحميدة

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها ، وتعظيم المتصرف بالخلق الواحد منها ، فضلاً عما فوقه ، وأئنني الشرع على جميعها ، وأمر بها ، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها ، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة ، وهي المسماة بحسن الخلق ، وهو الاعتدال في قوى النفس

(١) ابن ماجه في الرهون (٢٤٣٩) عن ابن عباس ، وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

وأوصافها ، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطراها ؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد ﷺ على الانتهاء في كمالها ، والاعتدال إلى غايتها ، حتى أتني الله بذلك عليه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

قالت عائشة ؓ : كان خلقه القرآن ، يرضي برضاه ، ويُسخط بسخطه <sup>(١)</sup> .

وقال ﷺ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » <sup>(٢)</sup> .

قال أنس : كان رسول الله ، أحسن الناس خلقاً <sup>(٣)</sup> .

وعن عليّ بن أبي طالب ؓ مثله .

وكان في ما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي ، وخصوصية ربانية . وهكذا لسائر الأنبياء ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حرق ذلك ، كما عرف من حال عيسى وموسى ، ويحيى ، وسليمان ، وغيرهم عليهم السلام . بل غُرِّزَتْ فيهم هذه الأخلاق في الجبلة ، وأودعوا العلم والحكمة في الفطرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾

[مرىم : ١٢]

قال المفسرون : أعطي يحيى العلم بكتاب الله تعالى في حالة صباه .

وقال معمر : كان يحيى ابن ستين أو ثلث ، فقال له الصبيان : لم لا تلعب ؟  
قال : اللَّعْبُ خُلُقتْ ! .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلْمَةِ مِنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] صدق يحيى  
يعيسى وهو ابن ثلاث سنين فشهد له أنه كلمة الله وروحه .

وقيل : صدقه وهو في بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد ما في  
بطنِي يسجد لما في بطنك ؛ تحية له .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩/٧٤٦) .

(٢) أحمد ٢ / ٣٨١ ، والجامع الصغير (٢٥٨٤) عن أبي هريرة ، وأشار إليه بالصحة .

(٣) مسلم في المساجد (٦٥٩ / ٦٦٧) .

وقد نصّ الله تعالى على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾

[مريم: ٢٤] على قراءة من قرأ «مَنْ تَحْتَهَا» ، وعليه قول من قال : إن المنادي عيسى .

ونص على كلامه في مهده فقال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠] .

وقال : ﴿فَفَهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّاً أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] .

وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبي ما افتدى به داود أبوه . وحكي الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنا عشر عاماً .

وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ﴾ [الأنبياء: ٥١] ،

أى : هديناه صغيراً ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل إبداء خلقه .

وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم عليه السلام بعث الله تعالى إليه ملكاً يأمره عن الله أن يعرفه بقلبه ، ويدكره بلسانه ؛ فقال : قد فعلت ، ولم يقل : أفعل ، فذلك رشده .

وقيل : إن إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة ،

وإن ابتلاء إسحاق بالذبح <sup>(١)</sup> كان وهو ابن سبع سنين ؛ وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمسة عشر شهراً .

وقيل : أُوحى إلى يوسف وهو صبي عندما هم إخوته بإلقائه في الجبّ ، يقول الله

تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لِتُبَيَّنُهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] .

إلى غير ذلك مما ذكرنا من أخبارهم .

وقد حكى أهل السير : أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدًا صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد حين ولد

باسطا يديه إلى الأرض ، رافعاً رأسه إلى السماء .

وقال في حديثه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لما نشأت بُغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهم

شيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، فعصمني الله منها ، ثم لم أعد » .

ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترافق نفحات الله عليهم ، وتشرق أنوار المعارف في

(١) الصحيح أن الذبح إسماعيل .

قلوبهم ، حتى يصلوا الغاية ، وبلغوا - باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة - النهاية دون ممارسة ولا رياضة ؛ قال تعالى : «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**» [يوسف : ٢٢].

وقد نجد غيرهم يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها ، ويولد عليها ، فيسهل عليه اكتساب قامها عنابة من الله تعالى .

كما نشاهد من خلقة بعض الصبيان على حسن السمت ، أو الشهامة ، أو صدق اللسان ، أو السماحة ؛ وكما نجد بعضهم على ضدتها ؛ فالاكتساب يكمّل ناقصها ، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها ويعتدل منحرفها ، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها ، و«**كُلُّ مِيسُرٍ لِّمَا خَلَقَ لَهُ**» (١). ولهذا ما قد اختلف السلف فيها : هل هذا الخلق جبلاً أو مكتسبة ؟ فحكى الطبرى عن بعض السلف أن الخلق الحسن جبلاً وغريزة في العبد ، وحكاه عن عبد الله بن مسعود والحسن ، وبه قال هو . والصواب ما أصلناه .

وقد روى سعد عن النبي ﷺ قال : «**كُلُّ الْخِلْلَالِ يَطْبَعُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ إِلَى الْخَيْانَةِ وَالْكَذَبِ**» (٢).

وقال عمر بن الخطاب في حديثه : والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء . وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة ، ولكننا نذكر أصولها ، ونشير إلى جميعها ، ونحقق وصفه **بِتَائِبِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى** .

## الفصل الحادى عشر

### العقل في بيان أصول هذه الأخلاق

#### وتحقيق وصف النبي بها

أما أصل فروعها ، وعنصر ينابيعها ، ونقطة دائرتها : فالعقل الذي منه ينبع العلّم

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٥١) عن عمران بن حصين وعن مسلم في القدر (٩/٢٦٤٩).

(٢) أحمد ٥ / ٢٥٢ ، والجامع (٦٣٠٠) عن سعد .

والمعرفة ، ويترنّع عن هذا ثقوب الرأي ، وجودة الفطنة والإصابة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ومصالح النفس ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل ، وتجنب الرذائل .

وقد أشرنا إلى مكانه منه عليه السلام ، وبلغوه منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه ، وإذا جلالة محله من ذلك ، وما تترنّع منه - متحقق عند من تتبع مجاري أحواله ، واطراد سيره ، وطابع جوامع كلامه وحسن شمائله وبدائع سيره ، وحكم حديثه ، وعمله بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الحالية ، وأيامها وضرب الأمثال ، وسياسات الأئمّة ، وتقدير الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة ، والشيم الحميدة ، إلى فنون العلم التي اتخذ أهلها كلامه عليه السلام فيها قدوة ، وإشاراته حجة ، كالعبارة ، والطب ، والحساب ، والفرائض ، والنسب ، وغير ذلك مما سنبينه في معجزاته إن شاء الله ، دون تعليم ولا مدارسة ، ولا مطالعة كتب من تقدم ، ولا الجلوس إلى علمائهم ؛ بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك ، حتى شرح الله صدره ، وأبان أمره ، وعلمه ، وأقرأه ، يعلم ذلك بالطالعة والبحث عن حاله ضرورة ، وبالبرهان القاطع على نبوته نظراً ؛ فلا نطول بسرد الأقصيّص ، وأحاديث القضايا ؛ إذ مجموعها ما لا يأخذه حصر ، ولا يحيط به حفظ جامع ، وبحسب عقله كانت معارفه عليه السلام إلى سائر ما علمه الله تعالى ، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان ، وعجب بقدراته ، وعظيم ملكته ، قال تعالى: ﴿وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

حارّت العقول في تقدير فضله عليه ، وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهي إليه .

## الفصل الثاني عشر

### الحلم والعضو

وأما الحلم والاحتمال ، والعفو مع القدرة ، والصبر على ما يكره ، وبين هذه الألقاب فرق :

فإن الحلم : حالة توفر وثبات عند الأسباب المحرّكات .

والاحتمال : حبس النفس عند الآلام والمؤذيات . ومثلها الصبر ، ومعانيها متقاربة .  
وأما العفو : فهو ترك المواجهة .

وهذا كله مما أدب الله به نبيه ﷺ ، فقال : «**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**» [الأعراف : ١٩٩] .

روي أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأله جبريل عليه السلام عن تأويلها ،  
قال له : حتى أسأله العالم . ثم ذهب فأتاه ، فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من  
قطلك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عن ظلمك <sup>(١)</sup> .

وقال له : «**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**» [لقمان : ١٧] .

وقال تعالى : «**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**» [الأحقاف : ٣٥] .

وقال : «**وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفُحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**»

[[النور : ٢٢]

وقال : «**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**» [الشورى : ٤٣] .

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله ، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت  
عنه هفوة ، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً .

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن علي التغلبي وغيره ، قالوا : حدثنا محمد بن  
عتاب ، حدثنا أبو بكر بن وافد القاضي وغيره ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا عبيد الله ، قال :  
حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا مالك ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها  
قالت : ما خير رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان  
إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى ،  
فینتقم الله بها <sup>(٢)</sup> .

(١) الطبرى ٦ / ١٥٤ .

(٢) البخارى في الحدود (٦٧٨٦) ، ومسلم في الفضائل (٧٧/٢٣٢٧) .

وروي أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شيئاً شديداً ، وقالوا : لو دعوت عليهم ! فقال : « إني لم أبعث لعاناً ، ولكنني بعثت داعياً ورحمة . اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » <sup>(١)</sup> .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال في بعض كلامه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه قال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا » [نوح: ٢٦] . ولو دعوت علينا مثلها هلكنا من عند آخرنا ، فلقد وطئ ظهرك ، وأدمي وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبىت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون » .

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله : انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الإحسان ، وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم ؛ إذ لم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ، فقال : « اغفر » أو « اهد » ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله : « لقومي » ، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال : « فإنه لا يعلمون » .

ولما قال له الرجل : اعدل ، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه أن بين ما جهل ، وواعظ نفسه ، وذكرها بما قال له ، فقال : « ويحك ، فمن يعدل إن لم أعدل ؟ ! خبت و خسست إن لم أعدل » ونهى من أراد من أصحابه قتله <sup>(٢)</sup> .

ولما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ، ورسول الله ﷺ متبدئ تحت شجرة وحده قائلًا والناس قائلون ، في غزاة ، فلم يتتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتا في يده ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : « الله » فسقط السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ وقال : « من يمنعك مني ؟ » قال : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه . فجاء إلى قومه فقال : جتنكم من عند خير الناس <sup>(٣)</sup> .

ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سمته في الشاة بعد اعترافها - على

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٩٩ / ٨٧) عن عائشة .

(٢) البخاري في فرض الحمس (٣١٥٠) عن عبد الله بن مسعود وعن مسلم في الزكاة (١٠٦٢ / ١٤٠) .

(٣) البخاري في الجهاد (٢٩١٠) عن جابر وعنه مسلم في صلاة المسافرين (٣١١ / ٨٤٣) .

الصحيح من الرواية . وأنه لم يؤخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره ، وقد أعلم به وأوحى إليه بشرح أمره ، ولا عتب عليه فضلا عن معاقبته .

وكذلك لم يؤخذ عبد الله بن أبي وأشيه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قوله وفعلا ، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم : « لا يتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه » .

وعن أنس رضي الله عنه : كنت مع النبي صلوات الله عليه ، وعليه برد غليظ الحاشية فجذبه الأعرابي برداه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال : يا محمد ، أحمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لاتحمل لي من مالك ومال أبيك . فسكت النبي صلوات الله عليه ثم قال : « المال مال الله ، وأنا عبده » ، ثم قال : « ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي » . قال : لا ، قال : « لم » ؟ قال : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة . فضحك النبي صلوات الله عليه ؛ ثم أمر أن يحمل على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر <sup>(١)</sup> .

قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت رسول الله صلوات الله عليه متصرّاً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما ضرب خادماً قط ولا امرأة <sup>(٢)</sup> .

وجيء إليه برجل ، فقيل : هذا أراد أن يقتلك . فقال له النبي صلوات الله عليه : « لن ترّاع ، لن ترّاع ، ولو أردت ذلك لم تسلط علي » .

وجاءه زيد بن سمعة قبل إسلامه يتقدّم عليه ، فجذب ثوبه عن منكبه ، وأخذ بجامع ثيابه ، وأغلظ له ، ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مطل ، فانتهروه عمر ، وشدد له في القول ، والنبي صلوات الله عليه يبتسم . فقال رسول الله صلوات الله عليه : « أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي » .

ثم قال : « لقد بقي من أجله ثلاثة » ، وأمر عمر يقضي ما له ويزيده عشرين صاعاً لما روعه ؛ فكان سبب إسلامه <sup>(٣)</sup> .

وذلك أنه كان يقول : ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا

(١) أبو داود في الأدب (٤٧٧٥) .

(٢) مسلم في الفضائل (٧٩/٢٣٢٨) .

(٣) الحاكم في المستدرك (١٠٨/٢٢٣٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

والحديث عن حلمه عليه السلام وصبره وعفوه عند القدرة أكثر من أن نأتي عليه ، وحسبك ما ذكرناه مما في «الصحيح» والمصنفات الثابتة إلى ما بلغ متواتراً مبلغ اليقين : من صبره على مقاساة قريش ، وأذى الجahلية ، ومصابرته الشدائـد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله عليهم وحكمه فيهم ، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم ، وإيادة خضرائهم : فما زاد على أن عفا وصفح ، وقال : «ما تقولون أني فاعل بكم؟» قالوا : خيراً ؛ أخـرـ كـرـيمـ ، وابنـ أـخـ كـرـيمـ ، فقال : «أقول كما قال أخي يوسف : ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء» <sup>(١)</sup> .

وقال أنس : هبط ثمانون رجلاً من التعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ ، فأخذوا ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : «وَهُوَ الَّذِي كَفَأَ يَدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيهِمْ عَنْهُمْ بِيَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» <sup>(٢)</sup> .

[الفتح : ٢٤]

وقال لأبي سفيان - وقد سيق إليه بعد أن جلب إليه الأحزاب ، وقتل عمه وأصحابه ، ومثل بهم ، ففدا عنه ، ولاطفه في القول : «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله» : فقال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأوصلك وأكرمك <sup>(٢)</sup> .

وكان رسول الله ﷺ أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضا <sup>ع</sup> .

## الفصل الثالث عشر

### الجود والكرم

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة - فمعانيها متقاربة . وقد فرق بعضهم بينها بفرق ؛ فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه ، وسموه أيضاً حرية ، وهو ضد النذالة .

والسماحة: التجافي بما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس ، وهو ضد الشكاشة <sup>(٣)</sup> .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٤ / ٢١٩ .

(٢) الهميـميـ فيـ المـجـمـعـ (١٠٢٣٤)ـ وـقـالـ : رـوـاهـ الطـبـرـانـيـ وـرـجـالـ الصـحـيـحـ .

(٣) الشكاشة: صعوبة الخلق .

والسخاء : سهولة الإنفاق ، وتجنب اكتساب ما لا يحمد ، وهو الجود ، وهو ضد التقتير .

وكان عليه السلام لا يوازي في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه .

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الصدفي - رحمه الله ، حدثنا القاضي أبو الوليد الباقي ، حدثنا أبو ذر الهروي ، حدثنا أبو الهيثم الكُشميهني ، وأبو محمد السرّاحسي ، وأبو إسحاق البلخي ؟ قالوا : حدثنا أبو عبد الله الفربري ؟ قال : حدثنا البخاري ، قال : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن ابن المنكدر ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : ما سئل النبي عليه السلام عن شيء فقال : لا <sup>(١)</sup> .

وعن أنس وسهل بن سعد مثله .

وقال ابن عباس : كان النبي عليه السلام أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان في شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة <sup>(٢)</sup> .

وعن أنس : أن رجلا سأله فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى بلده وقال : أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقه <sup>(٣)</sup> . وأعطى غير واحد مائة من الإبل . وأعطى صفوان مائة ثم مائة <sup>(٤)</sup> . وهذه كانت حاله عليه السلام قبل أن يبعث . وقد قال له ورقة ابن نوفل : إنك تحمل الكل وتكتسب المعدوم <sup>(٥)</sup> . ورد على هوازن سباياها ، وكانوا ستة آلاف وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما رد سائلًا حتى فرغ منها .

وجاءه رجل ، فسأله ، فقال : « ما عندي شيء ، ولكن اتبع عليًّا ، فإذا جاءنا شيء قضيئناه » . فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره النبي عليه السلام ذلك . فقال

(١) البخاري في الأدب (٦٠٣٤) ، ومسلم في الفضائل (٢٣١١) / ٥٦ .

(٢) البخاري في الصوم (١٩٠٢) ، (٢٣٠٩) / ٥٠ .

(٣) البخاري في الصوم (٥٧) / ٢٣١٢ .

(٤) مسلم في الفضائل (٢٣١٣) / ٥٩ .

(٥) البخاري في بده الخلق (٣٢٦٨) .

رجل من الأنصار : يا رسول الله ؛ أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا . فتبسم النبي ﷺ ، وعرف البشر في وجهه وقال : « بهذا أمرت » ، ذكره الترمذى .

وذكر عن معاذ بن عفرا قال : أتيت النبي ﷺ بقناع من رطب - يريده طبقة - وأجر زُغب - يريده قثاء ، فأعطاني ملء كفه حلياً وذهبًا .

وقال أنس : كان النبي ﷺ لا يدخل شيئاً لغد (١) .

والخبر بجوده ﷺ وكرمه كثير .

وعن أبي هريرة : أتى رجل النبي ﷺ يسأله ، فاستسلف له رسول الله ﷺ نصف وست ، ف جاء الرجل يتلاطف ، فأعطاه وسقاً وقال : « نصفه قضاء ونصفه نائل » .

## الفصل الرابع عشر

### الشجاعة والنجدية

وأما الشجاعة والنجدية فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل . والنجدية : ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف .

وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل ؛ قد حضر المواقف الصعبة ، وفر الكماة والإبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يربح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح . وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرّة ، وحفظت عنه جولة ، سواه .

حدثنا أبو علي الجياني فيما كتب لي : حدثنا القاضي سراج ، حدثنا أبو محمد الأصيلي ، قال : حدثنا أبو زيد الفقيه ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا ابن شمار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق : سمع البراء وسأله رجل : أفررت يوم حنين عن رسول الله ﷺ ؟ قال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلحامها والنبي ﷺ يقول : « أنا النبي لا كذب » ، وزاد غيره : « أنا ابن عبد المطلب » (٢) .

(١) الترمذى في الزهد (٢٣٦٢) وقال : غريب .

(٢) البخارى في الجهاد (٢٨٦٤) ومسلم في الجهاد (٧٧٧٦/٧٨) .

قيل : فما رئي يومئذ أحد كان أشد منه .

وقال غيره : نزل النبي ﷺ عن بغلته .

وذكر مسلم عن العباس قال : فلما التقى المسلمين والكفار ولـى المسلمين مدربين ، فطقق رسول الله ﷺ يركض بـغلته نحو الكفار ، وأنا آخذ بلجامها أـكفـها إـرـادـةـ أـلـاـ تـسـرـعـ ، وأـبـوـ سـفـيـانـ آـخـذـ بـرـكـابـهـ ، ثـمـ نـادـيـ : « يا لـلـمـسـلـمـيـنـ ... » الحديث (١) .

وقيل : وكان رسول الله ﷺ إذا غضـبـ - ولا يغضـبـ إـلـاـ اللهـ - لمـ يـقـمـ لـغـضـبـهـ شـيءـ .

وقال ابن عمر : ما رأـيـتـ أـشـجـعـ ، ولا أـنـجـدـ ، ولا أـجـودـ ، ولا أـرـضـيـ ، ولا أـفـضـلـ منـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ .

وقال علي رضا : إنـاـ كـنـاـ إـذـاـ حـمـيـ الـبـأـسـ - وـيـرـوـيـ : اـشـتـدـ الـبـأـسـ - وـاحـمـرـتـ الـحـدـقـ اـتـقـيـنـاـ بـرـسـوـلـ اللهـ ؛ فـمـاـ يـكـوـنـ أـحـدـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـعـدـوـ مـنـهـ ، وـلـقـدـ رـأـيـتـيـ يـوـمـ بـدـرـ وـنـحـنـ نـلـوـذـ بـالـبـيـعـ ، وـهـوـ أـقـرـبـنـاـ إـلـىـ الـعـدـوـ ، وـكـانـ مـنـ أـشـدـ النـاسـ يـوـمـنـدـ بـأـسـاـ .

وقيل : كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو ، لقربه منه .

وعن أنس كان النبي ﷺ أـحـسـنـ النـاسـ ، وأـجـودـ النـاسـ ، وأـشـجـعـ النـاسـ ، لـقـدـ فـزـعـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ لـيـلـةـ ، فـانـطـلـقـ نـاسـ قـبـلـ الصـوـتـ ، فـتـلـقـاهـمـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ رـاجـعـاـ ، قـدـ سـبـقـهـمـ إـلـىـ الصـوـتـ ، وـاسـتـبـرـأـ الـخـبـرـ عـلـىـ فـرـسـ لـأـبـيـ طـلـحـةـ عـرـيـ ، وـالـسـيـفـ فـيـ عـنـقـهـ ، وـهـوـ يـقـوـلـ : « لـنـ تـرـاعـواـ » (٢) .

وقال عمران بن حصين : ما لـقـيـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ كـتـيـةـ إـلـاـ كـانـ أـوـلـ مـنـ يـضـرـبـ . وـلـمـ رـأـهـ أـبـيـ بـنـ خـلـفـ يـوـمـ أـحـدـ وـهـوـ يـقـوـلـ : أـيـ مـحـمـدـ ؟ لـاـ نـجـوـتـ إـنـ نـجـاـ .

وـقـدـ كـانـ يـقـوـلـ لـلـنـبـيـ ﷺ - حـيـنـ اـفـتـدـيـ يـوـمـ بـدـرـ : عـنـدـيـ فـرـسـ أـعـلـفـهـ كـلـ يـوـمـ فـرـقـاـ مـنـ ذـرـةـ أـقـتـلـكـ عـلـيـهـ . فـقـالـ لـهـ النـبـيـ ﷺ : « أـنـاـ أـقـتـلـكـ إـنـ شـاءـ اللهـ » .

فـلـمـ رـأـهـ يـوـمـ أـحـدـ شـدـ أـبـيـ عـلـىـ فـرـسـهـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ ، فـاعـتـرـضـهـ رـجـالـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ ، فـقـالـ النـبـيـ ﷺ هـكـذـاـ ، أـيـ : خـلـوـاـ طـرـيـقـهـ ، وـتـنـاـوـلـ الـحـرـبـةـ مـنـ الـحـارـثـ بـنـ

(١) مسلم في الجهاد (٧٦/١٧٧٥).

(٢) البخاري في الأدب (٦٠٣٣) .

الصمة ، فانتقض بها انتفاضة تطابروا عنه تطابير الشّعّراء<sup>(١)</sup> عن ظهر البعير إذا انتقض ، ثم استقبله النبي ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تبدأ<sup>(٢)</sup> منها عن فرسه مراراً .

وقيل : بل كسر ضلعاً من أصلاعه - فرجع إلى قريش يقول : قتلني محمد ، وهم يقولون : لا بأس بك . فقال : لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال : «أنا أقتلك » ؟ والله لو بصرت على لقتلي ، فمات بسرف في قبورهم إلى مكة<sup>(٣)</sup> .

## الفصل الخامس عشر

### الحياء والإغضاء

وأما الحباء والإغضاء : فالحياء : رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراحته ، أو ما يكون تركه خيراً من فعله .

والإغضاء : التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته .

وكان النبي ﷺ أشد الناس حياءً ، وأكثرهم من العورات إغضاءً ؛ قال الله سبحانه : «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحُقْقَ» [الأحزاب : ٥٣] .

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه ؛ قال : حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن القابسي ، حدثنا أبو زيد المروزي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا عباد ، حدثنا عبد الله مولى أنس ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، سمعت عبد الله مولى أنس ، يحدث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه<sup>(٤)</sup> .

وكان ﷺ لطيف البشرة ، رقيق الظاهر ، لا يشافه أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفس . وعن عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول

(١) الشّعّراء : ذبابة تقع على ظهر البعير .

(٢) تبدأ : تدحرج .

(٣) ابن هشام ٣ / ١٦ ، ١٧ ط دار المنار .

(٤) البخاري في الأدب (٦١٠٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٠) / ٦٧ .

كذا؟ ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟!» ينهى عنه ولا يسمى فاعله<sup>(١)</sup>.

وروى أنس أنه دخل عليه رجل به أثر صُفرة ، فلم يقل له شيئاً - وكان لا يواجه أحداً بما يكره - فلما خرج قال: «لو قلت له يغسل هذا» - ويرى: «ينزعها»<sup>(٢)</sup>.

قالت عائشة في «ال الصحيح»: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا مفاحشاً ، ولا سخاباً بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح<sup>(٣)</sup>.

وقد حكى مثل هذا الكلام عن التوراة ، من رواية عبد الله بن سلام وعبد الله بن عمرو بن العاص .

وروى عنه أنه كان من حياته لا يثبت بصره في وجه أحد ، وأنه كان يكتفي بما أضطره الكلام إليه مما يكره .

ومن عائشة: ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط .

## الفصل السادس عشر

### حسن العشرة والأدب ويسط الخلق

وأما حسن عشرته وأدبه ويسط خلقه<sup>عليه السلام</sup> مع أصناف الخلق فبحيث انتشرت به الأخبار الصحيحة .

قال علي<sup>عليه السلام</sup> في وصفه عليه الصلة السلام: كان أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة .

حدثنا أبو الحسن علي بن مشرق الأنطاكي فيما أجازنيه ، وقرأته على غيره ، قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال ، حدثنا أبو محمد بن النحاس ، حدثنا ابن الأعرابي ، حدثنا أبو داود ، حدثنا هشام أبو مروان ومحمد بن المشتى ، قالا: حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا

(١) أبو داود في الأدب (٤٧٨٨).

(٢) أحمد ٣ / ١٦٠.

(٣) البخاري في المناقب (٣٥٥٩) بآخر من هذا .

الأوزاعي ، سمعت يحيى بن أبي كثیر يقول : حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن قيس بن سعد ، قال : زارنا رسول الله ﷺ - وذكر قصة في آخرها : فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً ، وطأ عليه بقطفية ، فركب رسول الله ﷺ ، ثم قال سعد : يا قيس ، اصحاب رسول الله ﷺ . قال قيس : فقال رسول الله ﷺ : « اركب » ، فأيّت ، فقال : « إما أن تركب وإما أن تصرف » . فانصرفت .

وفي رواية أخرى : « اركب أمامي ، فصاحب الدابة أولى بقدمها » .

وكان رسول الله ﷺ يؤلفهم ، ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ، ويعطي كل جلساً نصيحة لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بيسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء .

بهذا وصفه ابن أبي هالة ، قال : وكان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب ، ولا فحاش ولا عياب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيّس منه .

وقال الله تعالى : « فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيلًا قَلْبٌ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ » [آل عمران : ١٥٩] . وقال تعالى : « ادْفِعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » [المؤمنون : ٩٦] .

وكان يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية ولو كانت كراعاً ، ويكافئ عليها ، قال أنس : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي : أَفْ ، قَطْ ، وما قال لشيء صنعته : لَمْ صنعته ؟ وَلَا لَشَيْءَ تَرَكْتَه ؟ (١) .

وعن عائشة زوج النبي : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : « لبيك » .

وقال جرير بن عبد الله : ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ، ولا رأني إلا  
تبسم (١) .

وكان يمازح أصحابه ، ويختال لهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم في  
حجره ، ويجبب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة  
ويقبل عنده المعذر .

قال أنس : ما التقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي  
ينحي رأسه ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، ولم ير مقدمًا ركبته بين  
يدي جليس له (٢) .

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويدأ أصحابه باللمسة ، ولم ير قط ماداً رجليه بين  
 أصحابه حتى يضيق بهما على أحد . يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويرثره  
بالوسادة التي تحته ، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي ، ويكتفي أصحابه ، ويدعوهم  
بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام -  
ويروى : بانتهاء أو قيام .

ويروى : أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلی إلا خفف صلاته ، وسأله عن  
 حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

وكان أكثر الناس تبسمًا ، وأطيبهم نفساً ، ما لم يتزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب .

قال عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحداً أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ .

وعن أنس : كان خدم المدينة يأتون رسول الله ﷺ إذا صلوا العدالة بآيتهم فيها الماء ،  
فما يؤتى بآية إلا غمس يده فيها ، وربما كان ذلك في الغدala الباردة - يريدون به  
الثبرك (٣) .

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٥ / ١٣٤) .

(٢) الترمذى في صفة القيامة (٢٤٩٠) وقال : غريب .

(٣) مسلم في الفضائل (٢٣٢٤ / ٧٤) .

## الفصل السابع عشر

### الشفقة والرحمة

وأما الشفقة والرأفة والرحمة بجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[التوبه : ١٢٨]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧].

قال بعضهم : من فضله عليه السلام أن الله تعالى أطعاه اسمين من اسمائه ، فقال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبه : ١٢٨].

وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فورك . حدثنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد الحشنبي بقراءتي عليه ، حدثنا إمام الحرمين أبو علي الطبرى ، حدثنا عبد الغافر الفارسي ، حدثنا أبو أحمد الجلودي ، حدثنا إبراهيم بن سفيان ، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا أبو الطاھر ، أَنْبَأَنَا يُونَسُ ، عَنْ أَبْنَى شَهَابٍ قَالَ : غَرَّا رَسُولُ اللَّهِ عَزَّلَهُ غَزَوَةً ، وَذَكَرَ حَنِينًا ، قَالَ : فَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ عَزَّلَهُ صَفْوَانَ بْنَ أَمْيَةَ مَائَةً مِّنَ النَّعْمَ ، ثُمَّ مَائَةً ، ثُمَّ مَائَةً (١).

قال ابن شهاب : حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال : والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلى ، فما زال يعطيه حتى إنه لأحب الخلق إلى .

وروي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال : « أحسنت إليك » ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمين وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ، وزاده شيئاً ، ثم قال : « أحسنت إليك » ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل عشيرة خيراً .

فقال له النبي عَزَّلَهُ : « إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن

(١) سبق تخرجه .

أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك » .

قال : نعم . فلما كان الغد أو العشي جاء ، فقال ﷺ : « إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه فزعم أنه رضي ، أكذلك » ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال ﷺ : « مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزدودها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإنني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » (١) .

وروي عنه أنه ﷺ قال : « لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (٢) .

ومن شفنته على أمته عليه السلام تخفيفه وتسهيله عليهم ، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم ، كقوله : « لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء » (٣) .  
وخبر صلاة الليل ، ونهيهم عن الوصال ، وكراهته دخول مكة لثلا يعنت أمته ورغبة ربيه أن يجعل سببه ولعنه لهم رحمة بهم ، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته (٤) .

ومن شفنته ﷺ أن دعا ربه وعاذه ، فقال : « أئما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وظهوراً ، وقربة إليك يوم القيمة » (٥) .

ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام ، فقال له : إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداه ملك الجبال وسلم عليه ، وقال : مني بما شئت وإن شئت أن أطبق عليهم الأحشين .

(١) البهشمي في المجمع (١٤٩٣) وقال : رواه البزار وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبيان وهو متروك .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٨٩٦) عن ابن مسعود وقال : غريب من هذا الوجه .

(٣) البخارى في الجمعة (٨٨٧) ، ومسلم في الطهارة (٤٩/٢٥٧) عن أبي هريرة بلفظ : « عند كل صلاة » .

(٤) البخارى في الأذان (٧٠٧ ، ٧٠٨) ، ومسلم في الصلاة (٤٧٠ / ١٩١) عن أنس .

(٥) البخارى في الدعوات (٦٣٦١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠١ / ٩٠ - ٩٣) عن أبي هريرة .

قال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » (١) .

وروى ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : إن الله تعالى أمر السماء ، والأرض والجبال أن تطيعك . فقال : « أؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم » .

قالت عائشة : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرین إلا اختار أيسرها .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا . وعن عائشة أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة ، فجعلت تردد ، فقال رسول الله ﷺ : « عليك بالرفق » (٢) .

## الفصل الثامن عشر

### الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم

وأما خلقه ﷺ في الوفاء ، وحسن العهد ، وصلة الرحم - فحدثنا القاضي أبو عامر محمد بن إسماعيل بقراءتي عليه ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن محمد ، حدثنا أبو إسحاق الحبالي ، حدثنا أبو محمد بن النحاس ، حدثنا ابن الأعرابي ، قال : حدثنا أبو داود ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ، قال : حدثنا محمد بن سنان ، قال : حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن بديل ، عن عبد الكري姆 بن عبد الله بن شقيق ، عن ابنه ، عن عبد الله بن أبي الحمساء ، قال : بایع النبي ﷺ بيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فوعدت أن آتية بها في مكانه ، فنسخت ، ثم ذكرت بعد ثلث ، فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال : « يا فتى ، لقد شفقت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك » (٣) .

وعن أنس : كان النبي ﷺ إذا أتى بهدية قال : « اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة » (٤) .

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١) ، ومسلم في الجهاد (١١١/١٧٩٥) عن عائشة .

(٢) مسلم في البر والصلة (٢٥٩٤/٧٩) .

(٣) أبو داود في الأدب (٤٩٩٦) .

(٤) الحاكم في البر والصلة (٧٣٣٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجه ، وقال الذهبي : صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكّرها ، وإن كان لذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها <sup>(١)</sup> . واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها .

ودخلت عليه امرأة ، فهش لها ، وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حُسن العهد من الإيمان » <sup>(٢)</sup> .

ووصفه بعضهم فقال : كان يصل ذوي رحمة من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وقال عليه السلام : « إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحمة سأبلها بيلالها » .

وقد صلّى عليه السلام بأمامه ابنة ابنته يحملها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها .

وعن أبي قتادة : وفد وفد للنجاشي ، فقام النبي عليه السلام يخدمهم ، فقال له أصحابه : نكفيك . فقال : « إنهم كانوا لأصحابنا مُكرمين ، وإنني أحب أن أكافئهم » .

ولما جيء بأخته من الرضاعة الشيماء في سبايا هوازن ، وتعرفت له بسط لها رداءه ، وقال لها : « إن أحببت أقمت عندي مُكْرمة محببة ، أو متعنك ورجعت إلى قومك » فاختارت قومها فمتعها .

وقال أبو الطفْيل : رأيت النبي عليه السلام وأنا غلام إذا أقبلت امرأة حتى دنت منه ، فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التي أرضعته <sup>(٣)</sup> .

وعن عمر بن السائب - أن رسول الله عليه السلام كان جالساً يوماً ، فاقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام رسول الله عليه السلام فأجلسه بين يديه .

(١) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٧ / ٧٨) .

(٢) فتح الباري ٤٥٠ / ١٠ عن عائشة وعزاه إلى الحاكم ، ولم أقف عليه في المستدرك .

(٣) الحاكم في المستدرك في البر والصلة (٧٢٩٤) عن أبي الطفْيل ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ولم يذكره الذهبي .

وكان يبعث إلى ثوبية مولاً أبي لهب مرضعته بصلةٍ وكسوة ، فلما ماتت سأله : «من بقي من قرابتها؟». فقيل : لا أحد .

وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له عليه السلام : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق <sup>(١)</sup> .

## الفصل التاسع عشر

### تواضعه عليه السلام

وأما تواضعه عليه السلام على علو منصبه ورفة رتبه - فكان أشد الناس تواضعًا، وأقلهم كبرًا . وحسبك أنه خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، فقال له إسرافيل عند ذلك : فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيمة ، وأول من تشق الأرض عنه ، وأول شافع .

حدثنا أبو الوليد بن العواد الفقيه - رحمه الله - بقراءتي عليه في منزله بقرطبة سنة سبع وخمسين ، حدثنا أبو علي الحافظ ، حدثنا أبو عمر ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا ابن داسة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الله بن غمير ، عن مسمر ، عن أبي العنبس ، عن أبي العدبس ، عن أبي مرزوق ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة ، قال : خرج علينا رسول الله عليه السلام متوكلاً على عصاً ، فقمنا له . فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضها بعضاً » <sup>(٢)</sup> .

وقال : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجبب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس .

وفي حديث عمر عنه : « لا تُطُرُونِي كما أطَرَ النَّصَارَى إِبْنَ مَرِيمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ

(١) مسلم في الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) وهو جزء من حديث طويل .

(٢) أبو داود في الأدب (٥٢٣٠) وأحمد ٥ / ٥٢٣ .

قولوا : عبد الله ورسوله <sup>(١)</sup> .

وعن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته ، فقالت : إن لي إليك حاجة . قال : « اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك » .

قال : فجلست ، فجلس النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها حتى فرغت من حاجتها .

قال أنس : كان رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركب الحمار ، ويجب دعوة العبد ، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوط بحبل من ليف عليه إكاف . قال : وكان يدعى إلى خبز الشعير ، والإهالة السنّحة <sup>(٢)</sup> فيجب .

وقال : وحج صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رحل رث ، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم ، فقال : « اللهم اجعله حجا لا رباء فيه ولا سمعة » <sup>(٣)</sup> . هذا ، وقد فتحت عليه الأرض ، وأهدى في حجه ذلك مائة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطا على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمه تواضعًا لله تعالى .

ومن تواضعه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله : « لا تفضلوني على يونس بن متى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء ، ولا تخironني على موسى ، ونحن أحق بالشك من إبراهيم ولو لبست ما لبى يوسف في السجن لأجبت الداعي » <sup>(٤)</sup> .

وقال للذى قال له : يا خير البرية : « ذاك إبراهيم » <sup>(٥)</sup> .

وسيأتي الكلام على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله .

وعن عائشة ، والحسن ، وأبي سعيد ، وغيرهم - في صفتة ، وبعضهم يزيد على بعض : كان في بيته في مهنة أهله يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرفع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويعرف ناصحه ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) .

(٢) السنّحة : المغيرة الرايحة .

(٣) لم أقف عليه في الجامع .

(٤) مسلم في الفضائل (٢٣٧٣ / ١٥٩) .

(٥) مسلم في الفضائل (٢٣٦٩ / ١٥٠) .

وعن أنس : إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ يد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضي حاجتها <sup>(١)</sup> . ودخل عليه رجل فأصابته من هيته رعدة ، فقال له : « هون عليك ، فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » <sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة : دخلت السوق مع النبي ﷺ ، فاشترى سراويل وقال للوزان : « زن وأرجح » - وذكر القصة - قال : فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها ، فجذب يده ، وقال : « هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم » . ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحمله ، فقال : « صاحب الشيء أحق بشيءه أن يحمله » <sup>(٣)</sup> .

## الفصل العشرون

### عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته

وأما عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته - فكان <sup>عليه السلام</sup> آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان ، اعترف له بذلك محاددوه وعداه .  
وكان يسمى قبل نبوته : الأمين .

قال ابن إسحاق : كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة . وقال تعالى : « مطاع ثم أمن » [ التكوير : ٢١ ] : أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ .  
ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخلي لهم ، فإذا بالنبي ﷺ داخلي - وذلك قبل نبوته ، فقالوا : هذا محمد الأمين قد رضينا به .

عن الريبع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام . وقال <sup>عليه السلام</sup> : « والله إني لأمين في السماء أمن في الأرض » <sup>(٤)</sup> .

(١) البخاري في الأدب (٦٠٧٢) .

(٢) ابن ماجه في الأطعمة (٣٣١٢) وفي الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٣) الجامع للسيوطى (٤٩٨٠) ورمز إليه بالضعف .

(٤) الهيثي في المجمع (٦٦١٩) وقال : رواه الطبراني في الكبير والبزار ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف .

حدثنا أبو علي الصدفي الحافظ بقراءتي عليه ، حدثنا أبو الفضل بن خiron ، حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة ، حدثنا أبو علي السنخي ، حدثنا محمد بن محبوب المروزي ، حدثنا أبو عيسى الحافظ ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن ناجية بن كعب ، عن علي : أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : إننا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكِنْدِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (١) [الأنعام : ٣٣] .  
وروى غيره : لا نكذبك ولا أنت فينا بمكذب .

وقيل : إن الأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقَ لَقِي أَبَا جَهْلَ يَوْمَ بَدْرَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا الْحَكْمَ ، لَيْسَ هَذَا غَيْرِكَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا ، وَتَخْبِرُنِي عَنْ مُحَمَّدٍ ، صَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ ؟ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ <sup>(٢)</sup> .

وَسَأَلَ هَرْقُلَ عَنْهُ أَبَا سَفِيَّانَ ، فَقَالَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَهْمِنُونَهُ بِالْكَذْبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟

قال : لَا <sup>(٣)</sup>

وقال النضر بن الحارث لقریش : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، وأرضناكم فيكم ، وأصدقكم حدثاً ، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدّعَيْه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر . لا والله ، ما هو ساحر .

وفي الحديث عنه : ما لمست يده يد امرأة قط لا يلمس رقّها .

وفي حديث على - في وصفه صلوات الله عليه : أصدق الناس لهجة .

وقال في «الصحيح» : «ويحك ! فمن يعدل إن لم أعدل ، خبت وخرست إن لم أعدل » (٤) .

قالت عائشة : ما خير رسول الله ﷺ في أمرین إلا اختار أیسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه <sup>(٥)</sup> .

(١) الطبرى ٥ / ١٨١ . (٢) انظر السابق .

(٣) البخاري في الإيمان (٧)، ومسلم في الجهاد (١٧٧٣ / ٧٤).

(٤) البخاري في فرض الخامس (٣١٣٨) عن جابر بن عبد الله وعن مسلم في الزكاة (١٤٢/٦٣).

٥) سبق تخيجه .

قال أبو العباس المبرد : قسم كسرى أيامه ، فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج .

قال ابن خالويه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ، « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » [الروم: ٧] ، ولكن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزأ نهاره ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزأ جزء بينه وبين الناس ، فكان يستعين بالخاصة على العامة ، ويقول : « أَبْلَغُوا حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِعُ إِبْلَاغَيْ » ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر » <sup>(١)</sup> .

وعن الحسن : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأخذ أحداً بقرف أحد ، ولا يصدق أحداً على أحد .

وذكر أبو جعفر الطبرى عن عليّ عن عائشة : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيئي وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرت لي غني حتى أدخل مكة فأسمّر بها كما يسمّر الشباب ، فخرجت كذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم . فجلست أنظر ، فضرب على أذني فنمت ، مما أيقظني إلا مَسُّ الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهُمَّ بعد ذلك بسوء » <sup>(٢)</sup> .

## الفصل الحادى والعشرون

### وقاره وصمتة

وأما وقاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصمتة وتوّدته ومرءوته وحسن هديه فحدثنا أبو عليّ الجياني الحافظ إجازة ، وعارضت بكتابه ، قال : حدثنا أبو العباس الدلائى ، أئبنا أبو ذر الھروي ، أخبرنا أبو عبد الله الوراق ، حدثنا المؤلئي ، حدثنا أبو داود ، حدثنا عبد الرحمن بن سلام ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عمر بن عبد العزيز

(١) الجامع الصغير (٥٩) عن أبي الدرداء وأشار إليه بالحسن .

(٢) لم أقف عليه .

ابن وهيب : سمعت خارجة بن زيد يقول : كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه <sup>(١)</sup> .

وروى أبو سعيد الخدري : كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه ، وكذلك كان أكثر جلوسه ﷺ محتبباً <sup>(٢)</sup> .

وعن جابر بن سمرة : أنه تربع <sup>(٣)</sup> وربما جلس القرصاء <sup>(٤)</sup> ، وهو في حديث قيلة ، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عن تكلم بغير جميل ، وكان ضحكه تبسمًا ، وكلامه فضلا ، لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيراً له ، واقتداء به مجلسه مجلس حلم وحياة وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تُؤْبَنُ في الحرم ، إذا تكلم أطرق جلساً كأنما على رؤوسهم الطير .

وفي صفتة : يخطو تكُفُّراً ، ويمشي هوناً ، كأنما ينحط من صبب .

وفي الحديث الآخر : إذا مثى مجتمعاً ، يعرف في مثيته أنه غير غرِّضٍ ولا وكلٍ ؛ أي: غير ضجر ولا كسلان . وقال عبد الله بن مسعود : إن أحسن الهدي هدي محمد ﷺ . وعن جابر بن عبد الله <sup>رض</sup> : كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أو ترسيل . قال ابن أبي هالة : كان سكوته على أربع : على الحلم ، والحدر ، والتقدير ، والتفكير .

قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عده العاد أحصاه <sup>(٥)</sup> .

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة ، ويستعملها كثيراً ، ويحضر عليها ، ويقول : « حبِّي من دنياكم النساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » <sup>(٦)</sup> .

ومن مروءته <sup>رض</sup> نهيه عن النفح في الطعام والشراب ، والأمر بالأكل مما يلي ، والأمر

(١) أبو داود في المراسيل (٥٠٥) عن خارجة بن زيد .

(٢) أبو داود في الأدب (٤٨٤٦) وقال : عبد الله بن إبراهيم شيخ منكر .

(٣) أبو داود في الأدب (٤٨٥٠) .

(٤) السابق (٤٨٤٧) عن قيلة بنت مخرمة .

(٥) البخاري في المناقب (٣٥٦٧) .

(٦) الجامع الصغير (٣٦٦٩) عن أنس ، وأشار إليه بالحسن .

بالسواء<sup>(١)</sup> ، وإنقاء البراجم والرواجب ، واستعمال خصال الفطرة .

## الفصل الثاني والعشرون

### زهده في الدنيا

وأما زهده في الدنيا فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي . وحسبك من تقلله منها ، وإعراضه عن زهرتها ، وقد سبقت إليه بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله ، وهو يدعوه ويقول : « اللهم أجعل رزق آل محمد قوتاً »<sup>(٢)</sup> .

حدثنا سفيان بن العاصي ، والحسين بن محمد الحافظ ، والقاضي أبو عبد الله التميمي ، قالوا : حدثنا أحمد بن عمر ، قال : حدثنا أبو العباس الرازي : قال : حدثنا أبو أحمد الجلودي ، حدثنا أبو سفيان ، حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة ، قالت : ما شبع رسول الله عليه السلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسيله<sup>(٣)</sup> . وفي رواية أخرى : من شبع شعير يومين متوالين<sup>(٤)</sup> ، ولو شاء الله لاعطاه ما لا يخطر ببال . وفي رواية أخرى : ما شبع آل رسول الله عليه السلام من خبز برا حتى لقي الله تعالى .

وقالت عائشة : ما ترك رسول الله عليه السلام ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً<sup>(٥)</sup> .

وفي حديث عمرو بن الحارث : ما ترك إلا سلاحه وبغلته وأرضًا جعلها صدقة<sup>(٦)</sup> .

قالت عائشة : ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي .

(١) البخاري في الجمعة (٨٨٧) ، ومسلم في الطهارة (٤٢ / ٢٥٢) عن أبي هريرة .

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٦٠) ، ومسلم في الزكاة (١٠٥٥ / ١٢٦) عن أبي هريرة .

(٣) مسلم في الزهد (٢٤ / ٢٩٧٠) .

(٤) مسلم في الزهد (٢٣ / ٢٩٧٠) .

(٥) مسلم في الوصية (١٦٣٥ / ١٨) .

(٦) البخاري في الوصايا (٢٧٣٩) .

وقال لي : « إني عرضت على أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت : لا يا رب ، أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك » <sup>(١)</sup> .

وفي حديث آخر إن جبريل نزل عليه ، فقال له : إن الله تعالى يقرئك السلام ، ويقول لك : أتَحَبُّ أَنْ أَجْعَلَ هَذِهِ الْجَبَالَ ذَهَبًا ، وَتَكُونُ مَعَكَ حِيشَمًا كَنْتَ ، فَأَطْرَقَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « يَا جَبَرِيلُ ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارَ مِنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالَ مِنْ لَا مَالَ لَهُ ، قَدْ يَجْمِعُهَا مِنْ لَا عَقْلَ لَهُ » .

فقال له جبريل : ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت .

وعن عائشة قالت : إن كنا آل محمد لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا إن هو إلا التمر والماء .

وعن عبد الرحمن بن عوف : هلك رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير <sup>(٢)</sup> . وعن عائشة وأبي أمامة ، وابن عباس نحوه .

قال ابن عباس : كان صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبيت هو وأهله الليلية المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء .

وعن أنس رضي الله عنه : ما أكل رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خوان ولا في سُكُرُجَةٍ ، ولا خبز له مرقق ، ولا رأى شاة سميطاً قط <sup>(٣)</sup> . وعن عائشة : إنما كان فراشه الذي ينام عليه أدمًا حشوه ليف <sup>(٤)</sup> .

وعن حفصة رضي الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته مسحًا نثنية ثنتين فينام عليه ، فتثنية له ليلة باربع ، فلما أصبح قال : « ما فرستم لي الليلة » ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال : « ردوه بحاله ، فإن وَطَأْتَه منعنتي الليلة صلاتي » .

وكان صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينام أحياناً على سرير مزمول بشرط حتى يؤثر في جنبه <sup>(٥)</sup> .

(١) الترمذى في الزهد (٢٣٤٧) وقال : حسن .

(٢) سبق تخرجه .

(٣) البخارى في الأطعمة (٥٣٨٦) .

(٤) مسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٢) / (٣٨) .

(٥) أحمد / ٣ ١٣٩ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يمتئ جوف النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قطًّا ولم يُبَثَّ شكوى إلى أحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعاً يتلوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ، ولو شاء سأله ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغم عيشها ، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك ، فيقول : « يا عائشة ، ما لي وللدنيا ، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدني أستحيي إن ترفة في معيشتي أن يُقصَّر بي غداً دونهم ، وما من شيء هو أحب إلى من اللحوق بإخواني وأخلاقني » .

قالت : فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفي صلوات الله عليه وآله وسلامه (١) .

### الفصل الثالث والعشرون

#### خوفه ربه وطاعته له صلوات الله عليه وآله وسلامه

وأما خوفه ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه بربه ، ولذلك قال في ما حدثناه أبو محمد بن عتاب قراءة مني عليه ، قال : حدثنا أبو القاسم الطراويسى ، حدثنا أبو الحسن القابسي ، حدثنا أبو زيد المروزى ، حدثنا أبو عبد الله الفريبرى ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا يحيى بن بکير ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب - أن أبا هريرة كان يقول : قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيرتم كثيراً » (٢) .

زاد في روايتنا ، عن أبي عيسى الترمذى - رفعه إلى أبي ذر : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطأ السماء وحق لها أن تَنْتَطَ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضح جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيرتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ، وخرجتم إلى الصعدات تجاؤرن إلى الله » لوددت أنني شجرة تعضد (٣) .

(١) لم أقف عليه .

(٢) البخاري في الكسوف (١٠٤٤) عن عائشة ومسلم في الصلاة (٤٢٦ / ١١٢) عن أنس .

(٣) الترمذى في الزهد (٢٣١٢) وقال : حسن غريب .

روي هذا الكلام : وددت أني شجرة تعضد - من قول أبي ذر نفسه . وهو أصح .  
وفي حديث المغيرة : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه <sup>(١)</sup> .

وفي رواية : كان يصلی حتى ترم قدماه ، فقيل له : أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ! قال : « أفلأ أكون عبداً شكوراً » <sup>(٢)</sup> . ونحوه عن أبي سلمة ، وأبي هريرة . وقالت عائشة : كان عمل رسول الله ﷺ دية ، وأيكم يطيق <sup>(٣)</sup> .

وقالت : كان يصوم حتى يقول : لا يفطر ، ويفطر حتى يقول : لا يصوم . ونحوه عن ابن عباس ، وأم سلمة ، وأنس .

وقالت : كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته مصلياً ، ولا نائماً إلا رأيته نائماً .

وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ ، ثم قام يصلی ، فقامت معه ، فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع ، فمكث بقدر قيامه ، يقول : « سبحان ذي الجبروت والملائكة والعظمة » ، ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة سوراً يفعل مثل ذلك <sup>(٤)</sup> .

وعن حذيفة مثله ، وقال : سجد نحواً من قيامه ، وجلس بين السجدين نحواً منه ،  
وقال : حتى قرأ البقرة ، وأل عمران ، والناساء ، والمائدة <sup>(٥)</sup> .

وعن عائشة : قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة <sup>(٦)</sup> .

وعن عبد الله بن الشخير : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلی ، وجلوفه أزيز كأزيز  
المرجل <sup>(٧)</sup> .

(١) مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٩) / ٧٩ . (٢) انظر السابق .

(٣) البخاري في الصوم (١٩٨٧) .

(٤) أبو داود في الصلاة (٨٧٣) وأحمد ٦ / ٢٤ .

(٥) أبو داود في الصلاة (٨٧٤) .

(٦) الترمذى في الصلاة (٤٤٨) وقال : حسن غريب ، وعلق عليه الشيخ شاكر فصححه .

(٧) ابن خزيمة (٩٠٠) .

وقال ابن أبي هالة : وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة .

وقال عليه السلام : « إني لاستغفر لله في اليوم مائة مرة » ، وروي : « سبعين مرة »<sup>(١)</sup> .  
وعن علي عليه السلام قال : سألت رسول الله ﷺ عن سنته ، فقال : « المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفقي ، والعلم سلامي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتني ، والعجز فخري ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقني ، وقرأني في الصلاة » .

وفي حديث : « وثمرة فؤادي في ذكره ، وغمي لأجل أمتي ، وشوقى إلى ربى عز وجل » .

## الفصل الرابع والعشرون

### صفات الأنبياء والرسل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، من كمال الخلق ، وحسن الصورة ، وشرف النسب ، وحسن الخلق ، وجميع المحسن ، هي هذه الصفة ، لأنها صفات الكمال ، والكمال والتمام البشري والفضل الجميع لهم صلوات الله عليهم ، رتبتهم أشرف الرتب ، ودرجاتهم أرفع الدرجات ، ولكن فضل الله بعضهم على بعض ، قال الله تعالى : « تلک الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » [ البقرة : ٢٥٣ ] .  
وقال : « وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » [ الدخان : ٣٢ ] .

وقد قال عليه السلام : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر » ، ثم قال آخر الحديث : « على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، طوله ستون ذراعاً في السماء »<sup>(٢)</sup> . وفي حديث أبي هريرة : « رأيت موسى فإذا هو رجل ضرب رجل أثني ، كأنه من رجال شنوة ، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة ، كثير خيلان الوجه ،

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٠٧) عن أبي هريرة .

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٦ ، ٣٣٢٧) ، ومسلم في الجنة (٢٨٣٤ / ١٥) عن أبي هريرة .

أحمر كأنه خرج من ديماس» .

وفي حديث آخر : «مُبْطَنٌ مثُلُ السيف» ، قال : «وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدَ إِبْرَاهِيمَ بِهِ» . وقال في حديث آخر في صفة عيسى : «كَأَحْسَنَ مَا أَنْتَ رَاءَ مِنْ أَدَمَ الرَّجَلَ» <sup>(١)</sup> . وفي حديث أبي هريرة ، عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَعْدِ لَوْطٍ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» <sup>(٢)</sup> ويروى : «فِي ثُرْوَةٍ» ، أي : كثرة ومنعة .

وحكى الترمذى ، عن قتادة ، ورواه الدارقطنى من حديث قتادة عن أنس : ما بعث الله نبىًّا إلَّا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبىكم أحسنهم وجهًا ، وأحسنهم صوتًا . وفي حديث هرقل : وسألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى في أىوب : «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعَمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» [ص : ٤٤] . وقال تعالى : «يَا يَحْيَىٰ حُذْكَتَابَ بُقُوَّةٍ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَّا نَّا مَنْ لَدُنَّا وَزَكَّاَةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدِيهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَلَدٌ وَيَوْمٌ يَمُوتُ وَيَوْمٌ يُبَعْثَرُ حَيًّا» [مريم : ١٢ - ١٥] . وقال : «أَنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» [آل عمران : ٣٩] .

وقال : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ» [آل عمران : ٣٣ ، ٣٤] .

وقال في نوح : «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» [الإسراء : ٣] .

وقال : «إِنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرِيمٍ وَجِيَهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ» [آل عمران : ٤٥ ، ٤٦]

وقال : «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ

(١) مسلم في الإياع (١٦٩ / ٢٧٣ ، ٢٧٤) عن ابن عمر .

(٢) الترمذى في التفسير (٣١١٦) وقال : حسن .

(٣) سبق تخرجه .

وأوصاني بالصلة والزكاة ما دمت حياً» [مريم: ٣٠، ٣١].

وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تكُونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا و كان عند الله وجيهًا» [الأحزاب: ٦٩].

وقال النبي ﷺ: «كان موسى رجلاً حياً سثيراً ما يرى من جسده شيء استحياءٌ...»  
الحديث (١).

وقال تعالى عنه: «فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ»

[الشعراء: ٢١]

وقال في وصف جماعة منهم: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» [الشعراء: ١٠٧].

وقال: «إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرَتِ الْقَوْيُ الْأَمِينُ» [القصص: ٢٦].

وقال: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» [الأحقاف: ٣٥].

وقال: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلَّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ ذُرْيَتِهِ دَأْوَدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلُّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلُّا فَضَلَّنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذَرِيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِيطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أُولُئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالثُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرُ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلَّا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ. أُولُئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِدَاهُمُ اقْتُدِهُ» [الأنعام: ٩٠ - ٨٤].

فوصفهم بأوصاف جمة من الصلاح والهدى والاجتباء والحكم والنبوة.

وقال: «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ» [الصفات: ١٠١] و «عَلِيمٍ» [الذاريات: ٢٨].

وقال: «وَلَقَدْ فَتَّا قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ وَجَاءُهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» [الدخان: ١٨، ١٧].

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٤) ٣٤٠٤ عن أبي هريرة.

وقال **﴿سَتَجَدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** [الصافات : ١٠٢].  
 وقال في إسماعيل : **﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عَنْ دِرِّهِ مَرْضِيًّا﴾** [مريم : ٥٤ ، ٥٥].  
 وفي سليمان : **﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [ص : ٣٠].

وقال : **﴿وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَئِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾**  
 [ص : ٤٥ - ٤٧].

وفي داود : **﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [ص : ٣٠]. ثم قال : **﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾** [ص : ٢٠].

وقال عن يوسف : **﴿فَالَّذِي جَعَلَنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظٌ عَلَيْمٌ﴾**  
 [يوسف : ٥٥].

وفي موسى : **﴿قَالَ سَتَجَدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾** [الكهف : ٦٩].  
 وقال تعالى عن شعيب : **﴿سَتَجَدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [القصص : ٢٧].  
 وقال : **﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِلَصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** [هود : ٨٨].  
 وقال : **﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾** [الأنبياء : ٧٤].

وقال : **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا حَاشِعِينَ﴾**  
 [الأنبياء : ٩٠].

قال سفيان : هو الحزن الدائم .

في آي كثيرة ، ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم .  
 وجاء من ذلك في الأحاديث كثير ، كقوله : **«إِنَّا الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ**

الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، نبي ابن نبي ابن نبي »<sup>(١)</sup> .  
وفي حديث أنس : « وكذلك الأنبياء تمام أعينهم ولا تمام قلوبهم »<sup>(٢)</sup> .

وروي أن سليمان كان مع ما أعطي من الملك لا يرفع بصره إلى السماء تخشعًا وتواضعًا لله تعالى . وكان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ويأكل خبز الشعير .  
وأوحى الله إليه : يا رأس العبادين ، وابن مجحة الزاهدين .

وكانت العجوز تعترضه وهو على الرياح في جنوده ، فيأمر الرياح فتقف فينظر في حاجتها ويضي . وقيل ليوسف : مَا لَكَ تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

وروى أبو هريرة عنه عليه السلام : « خفف على داود القرآن ، فكان يأمر بـ بدابته فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تُسرج ، ولا يأكل إلا من عمل يده »<sup>(٣)</sup> .  
وقال الله تعالى : « وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدَرْ فِي السَّرْدِ »

[سبأ: ١١، ١٠]

وكان سُلَيْمَانَ رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ عَمَلاً يَدِهِ يَغْنِيهُ عَنْ بَيْتِ الْمَالِ .

وقال عليه السلام : « أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاؤِدَ ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاؤِدَ : كَانَ يَنَمُ نَصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلَثَةَ ، وَيَنَمُ سَدْسَهُ ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا »<sup>(٤)</sup> .

وكان يلبس الصوف ، ويفترش الشعر ، ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد ، ويزج شرابه بالدموع ، ولم يُرِ ضاحكًا بعد الخطيئة ، ولا شاحصًا ببصره إلى السماء ، حياءً من ربِّه ، ولم يزل باكيًا حياته كلها .

وقيل : بكى حتى نبت العشب من دموعه ، وحتى اتخذت الدموع في خده أخدودًا .

وقيل : كان يخرج متذمِّرًا يتعرَّفُ سيرته ، فيستمع الثناء عليه ، فيزداد تواضعًا .

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٣) ، (٣٣٩٠) عن ابن عمر .

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٥٧٠) .

(٣) البخاري في الصوم (٢٠٧٣) .

(٤) البخاري في التهجد (١١٣١) ، ومسلم في الصيام (١١٥٩) / (١٨١) عن عبد الله بن عمرو .

وقيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت حماراً ؟ قال : أنا أكرم على الله من أن يشغلني بحمار . وكان يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، ولم يكن له بيت ، أينما أدركه النوم نام . وكان أحب الأسامي إليه أن يقال له : مسكين . وقيل : إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين كانت ترى خضراء البقل في بطنه من الهزال .

وقال عليه السلام : « لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر والقمل وكان ذلك أحب إليه من العطاء إليكم » . وقال عيسى عليه السلام لخنزير لقيه : اذهب بسلام . فقيل له في ذلك ، فقال : أكره أن أعود لساني المنطق بسوء . وقال مجاهد : كان طعام يحيى العشب . وكان يبكي من خشية الله حتى اتخذ الدمع مجرى في خده ، وكان يأكل من الوحش لثلا يخالط الناس . وحکى الطبری ، عن وهب : أن موسى كان يستظل بعرش ، ويأكل في نقرة من حجر ، ويکرر فيها إذا أراد أن يشرب كما تکرر الدابة ، تواضعاً لله بما أكرمه الله به من كلامه . وأخبارهم في هذا كله مسطورة ، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشمائل معروفة مشهورة ، فلا نطول بها ، ولا تلتفت إلى ما تجده ما في كتب بعض جهله المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا .

## الفصل الخامس والعشرون

### جمع الشمائل

قد أتبناك - أكرمك الله - في ذكر الأخلاق الحميدة ، والفضائل المجيدة ، وحصل الكمال العديدة ، وأربناك صحتها له بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وجلينا من الآثار ما فيه مقنع ، والأمر أوسع ، فمجال هذا الباب في حقه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ متعدد ، تقطع دون نفاده الأدلة ، وبحر علم خصائصه زاخر لا تکدره الدلائل ، لكننا أتبنا فيه بالمعروف مما أكثره في « الصحيح » المشهور من المصنفات ، واقتصرنا في ذلك بقلل من كُلّ ، وغَيْضٍ من فَيْضٍ ، ورأينا أن نختتم هذه الفصول بذكر حديث الحسن عن أبي هالة ، لجمعه من شمائله وأوصافه كثيراً ، وإدامجه جملة كافية من سيره وفضائله ، ونصله بتبنيه لطيف على غريبه ومشكله .

حدثنا القاضي أبو علي الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله - بقراءتي عليه سنة ثمان وخمسين ، قال : حدثنا الإمام أبو القاسم عبد الله بن طاهر التميمي قراءة عليه ، أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابوري ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله

محمد بن أحمد بن الحسن المحمدي ، والقاضي أبو علي الحسن بن عليّ بن جعفر الوحشى ، قالوا : حدثنا أبو القاسم عليّ بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي ، أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كلبي الشاشي ، أئبنا أبو عيسى بن سورة الحافظ ، قال : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا جمیع بن عمر بن عبد الرحمن العجلی إملاءً من كتابه ، قال : حدثني رجل من بنی تمیم من ولد أبي هالة زوج خدیجة أم المؤمنین رض ، يكنی أبا عبد الله ، عن ابن لأبی هالة ، عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب - رحمة الله - قال : سألت خالی هند بن أبي هالة .

قال القاضي أبو عليّ - رحمة الله : وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد بن خذاداد الکرجي الباقلاني ، قال : وأجار لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون ، قالا: حدثنا أبو عليّ الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد ابن شاذان بن حرب بن مهران الفارسي قراءة عليه فاقر به ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله ابن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوى ، قال حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ ابن أبي طالب ، قال : حدثني عليّ بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين ، عن أخيه موسى بن جعفر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه محمد بن عليّ ، عن عليّ بن الحسين ، قال : قال الحسن بن عليّ - والله لفظ لهذا السند : سألت خالی هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلی الله علیه وسَلَّمَ - وكان وصافاً - وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، قال : كان رسول الله صلی الله علیه وسَلَّمَ فخماً مفخماً ، يتلاًّ وجّهه تلاؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشذب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، إن انفرقت عقيقته فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سواعيغ ، من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغب ، أقنى العينين ، له نور يعلوه ، ويعسّبه من لم يتأمله أسم ، كث اللحية ، أدعج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشتب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا ، متمسكاً ، سواه البطن والصدر ، مشيّع الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور التجدد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين ، ما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين ، وأعلى الصدر ، طوبل الزنددين ، رحب الراحة ، شَنَّ

الكفين والقدمين ، سائل الأطراف - أو قال : سائن الأطراف ، سبط العصب ، خُمسان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهم الماء ، إذا زال زال تقلعاً ، ويختyro تكتفاً ، ويمشي هوئاً ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة يسوق ، أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام . قلت : صف لي منطقه .

قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة ، ولا يتكلّم في غير حاجة ، طويل السكت ، يفتح الكلام ويختتمه بأشدّاته ، ويتكلّم بجموع الكلم فضلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافي ولا المهين ، يعظ النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ذواقاً ، ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى يتصرّف له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبه ، وإذا تحدث اتصل بها ، فضرب بإيمانه اليمني راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جُلّ ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

قال الحسن : فكتمتها الحسين بن عليّ زماناً ، ثم حدثه فوجده قد سبقني إليه ، فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله ، فلم يدع منه شيئاً .

قال الحسين : سأّلت أبي عن دخول رسول الله ﷺ ، فقال : كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك ، فكان إذا أوى إلى منزله جزاً دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزء جزء بينه وبين الناس ، فيرد ذلك على العامة بالخاصة ، ولا يدخل عنهم شيئاً ، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمته على قدر فضلهم في الدين ، منهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحاجتين ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما أصلحهم ، والأمة من مسألته عنهم وإنبّارهم بالذى ينبعى لهم ، ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته ، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدّمه يوم القيمة ، لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره . وقال في حديث سفيان بن وكيع : يدخلون رواداً ، ولا يتفرقون إلا عن ذوق ، ويخرجونه أدلة - يعني فقهاء . قلت : فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟

قال : كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا ما يعنّيهم ويؤلّفهم ولا يفرّقهم ، يكرم كريم

كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقع القيح ويوجهه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة . فسألته عن مجلسه : عما كان يصنع فيه .

فقال : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن ، وينهي عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسائه نصيحة حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه فيه ، من جالسه أو قاومه حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بيسور من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، متقاربين متفضلين فيه بالتقوى . وفي الرواية الأخرى : صاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياة وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تُنشي<sup>(١)</sup> فلتاته . وهذه الكلمة من غير الروايتين . يتعاطون فيه بالتقوى متواصفين ، يوافرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويرحمون الغريب .

فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه .

فقال : كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ . ولا سخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مداح ، يتعاطف عما لا يشتهي ولا يؤيَسُ منه ، قد ترك نفسه من ثلاثة : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاثة : كان لا يذم أحداً ، ولا يعيده ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرب جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولئك ، يضحك ما يضحكون منه ، ويتعجبون مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحجة يطلبها فأرفوه ، ولا يطلب الثناء إلا من

(١) تُنشي : تُنشَأ .

مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام .

هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع .

وزاد الآخر : قلت : كيف كان سكوته بِكَلَّتِهِ ؟

قال : كان سكوته على أربع : على الحلم ، والخذر ، التقدير ، والتفكير . فأما تقريره في تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى .

وجمع له الحلم بِكَلَّتِهِ في الصبر ، فكان لا يغضبه شيء يستفزه . وجمع له في الخدر أربع : أخذه بالحسن ليقتدى به ، وتركه القبيح ليتهى عنه ، واجتهد الرأي بما أصلح أمره والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة .

انتهى الوصف بحمد الله وعonne .

## الفصل السادس والعشرون

### في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله

قوله : « **المُشَدَّب** » ، أي : البائن الطول في نحافة ، وهو مثل قوله في الحديث الآخر : « ليس بالطويل المغط » .

والشعر **الرَّجَل** : الذي كأنه **مُشِط** قليلا ، ليس بسيط ولا جعد .

والحقيقة : شعر الرأس . أراد : إن انفرقت من ذات نفسها فرقها ، وإن تركها معقوصة . وروي : « عقيصته » .

وأزهر اللون : نيره . وقيل : حسن . ومن زهرة الحياة الدنيا أي : زيتها .

وهذا كما قال في الحديث الآخر : « ليس بالأبيض الأمهق ، ولا بالأدم ». والأمهق : هو الناصع البياض . والأدم : الأسمر اللون .

ومثله في الحديث الآخر : « **أبيض مُشَرَّب** » ، أي : فيه حمرة .

والحاجب **الأَزْجَ** : **المُقَوَّص** الطويل الوافر الشعر .

والأقنى : **السَّائِلُ الْأَنْفُ** ، المرتفع وسطه .

والأشم: الطويل قصبة الأنف.

والقرن: اتصال شعر الحاجبين . وضده البلع . ووقع في حديث أم معبد وصفه بالقرن .

والأدَعَج: الشديد سواد الحدقة .

وفي الحديث الآخر: «أشْكُل العين ، وأسْجُر العين» ، وهو الذي في بياضها حمرة .  
والضلوع: الواسع .

والشنب: رونق الأسنان ، ومؤها .

وقيل: رقتها وتحزير فيها ، كما يوجد في أسنان الشباب .

والفلج: فرق بين الثنایا .

ودقيق المسُرُبة: خيط الشَّعَرِ الذي بين الصدر والسرة .

بادن: ذو لحم متماسك ، معتدل الخلق ، يمسك ببعضه بعضاً ، مثل قوله في الحديث الآخر: «لم يكن بالطهم ، ولا بالمكثم» أي: ليس بمسترخي اللحم .

والمكثم: القصير الذقن .

وسواء البطن والصدر ، أي: مستويهما .

ومُشَيْحُ الصدر، إن صحت هذه اللفظة فتكون من الإقبال ، وهو أحد معاني «أشَاحَ» ، أي: إنه كان بادي الصدر ، ولم يكن في صدره قعس ، وهو تطامن فيه . وبه يتضح قوله قبل: «سواء البطن والصدر» ، أي: ليس بمتقاعد الصدر ، ولا مفاضن البطن .

ولعل اللفظة: مسيح - بالسين ، وفتح الميم - بمعنى عريض ، كما وقع في الرواية الأخرى ، وحكاه ابن دريد .

والكراديس: رؤوس العظام ، وهو مثل قوله في الحديث الآخر: «جليل المشاش والكتد» .

والشاش : رؤوس المناكب . والكتد : مجتمع الكتفين . وشن الكفين والقدمين : لشيئهما .

والزندان : عظام الذراعين . وسائل الأطراف ؛ أي : طويل الأصابع .

وذكر ابن الأنباري أنه روي : سائل الأطراف ، أو قال : سائن - بالنون ، قال : وهما بمعنى ، تبدل اللام من النون ، إن صحت الرواية بها . وأما على الرواية الأخرى : وسائل الأطراف - فإشارة إلى فخامة جوارحه كما وقعت مفصلة في الحديث .

ورحب الراحة ، أي : واسعها . وقيل : كني به عن سعة العطاء والجود . وخمصان الأخمصين : أي : متاجاني أخمص القدم ، وهو الموضع الذي لا تطاله الأرض من وسط القدم .

مسيح القدمين : أي أملسهما ، ولهذا قال : ينبو عنهم الماء .

وفي حديث أبي هريرة خلاف هذا ، قال فيه : إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ، ليس له أخمص . وهذا يوافق معنى قوله : مسيح القدمين ، وبه قالوا : سمي المسيح عيسى ابن مريم ، أي : إنه لم يكن له أخمص . وقيل : مسيح : لا لحم عليهما . وهذا أيضاً يخالف قوله : شن القدمين .

والتلع : هو رفع الرجل بقوه .

والتكفؤ : الميل إلى سنن المشي ، وقصده .

والهون : الرفق والوقار .

والذرريع : الواسع الخطرو ؛ أي : إن مشيه كان يرفع فيه رجليه بسرعة ، ويد خطوه ، خلاف مشية المختال ، ويقصد سنته ، وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة ، كما قال : «كأنما ينحط من صبب » .

وقوله : «يفتح الكلام ويختمه بأشداقه » ؛ أي : لسعة فمه . والعرب تتمادح بهذا وتذم بصغر الفم .

وأشاح : مال وانقبض .

وحب الغمام : البرد .

وقوله : فيرد ذلك بالخاصة على العامة ؛ أي : جعل من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه فتوصل عنه لل العامة . وقيل : يجعل منه لل خاصة ، ثم يبدلها في جزء آخر بال العامة .

ويدخلون رؤاداً ؛ أي : محتاجين إليه وطالبين لما عنده .

ولا يتفرقون إلا عن ذوّاق ؛ قيل : عن علم يتعلمونه ، ويشبه أن يكون على ظاهره ؛ أي : في الغالب والأكثر .

والعتاد : العدة ، والشيء الحاضر المعد .

والمؤازرة : المعاونة .

وقوله : لا يوطن الأماكن ، أي : لا يتخذ لصلاحه موضعًا معلوماً .

وقد ورد نهيه عن هذا مفسراً في غير هذا الحديث .

وصابره ؛ أي : حبس نفسه على ما يريد صاحبه .

ولا تؤبن فيه الحرم ، أي : لا يذكرون فيه بسوء .

ولا تنشى فلتاته ؛ أي : لا يتحدث بها ، أي : لم تكن فيه فلتة ، وإن كانت من أحد سرّت .

ويرفدون : يُعينون .

والسخاب : الكثير الصياغ .

وقوله : « ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ » ، قيل : مقتضى في ثنائه ومدحه .

وقيل : إلا من مسلم . وقيل : إلا من مكافئ على يد سبقت من النبي ﷺ له .

ويستفذه : يستخفه .

وفى حديث آخر في وصفه : « منهوس العقب » ؛ أي : قليل لحمها <sup>(١)</sup> .

وأهدب الأسفار ؛ أي : طويل شعرها .

(١) سبق تخریجه .

### الباب الثالث

**فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها  
بعظيم قدره عند ربها ومنزلته ، وما  
خصه به في الدارين من كرامته**

لا خلاف أنه أكرم البشر ، وسيد ولد آدم ، وأفضل  
الناس منزلة عند الله ، وأعلاهم درجة ، وأقربهم زلفى .  
واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً ،  
وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومتشرها ، وحصرنا  
معاني ما ورد منها في اثنى عشر فصلاً .

## الفصل الأول

### مكانته

فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه ، والاصطفاء ، ورفة الذكر ، والتفضيل ، وسيادة ولد آدم ، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب .

أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل إذنًا بلفظه ، قال : حدثنا أبو الحسن الفرغاني ، حدثنا أم القاسم بنت أبي بكر بن يعقوب ، عن أبيها ، قال : حدثنا حاتم - هو ابن عقيل ، عن يحيى - هو ابن إسماعيل ، عن يحيى الحمانى ، قال : حدثنا قيس ، عن الأعمش ، عن عبایة بن ربعی ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَّ الْخَلْقَ قَسْمَيْنِ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قَسْمًا، فَلَذِكْرِ قَوْلِهِ : «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ» [الواقعة : ٢٧] و «وَأَصْحَابُ الشَّمَاءِ» [الواقعة : ٤١] فَأَنَا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَنَا خَيْرُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ : ثُمَّ جَعَلَ الْقَسْمَيْنِ أَثْلَاثًا ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا ثَلَاثًا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «فَأَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ» [الواقعة : ٨] ، «وَأَصْحَابُ الْمَشَامَةِ» [الواقعة : ٩] ، و «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ» [الواقعة : ١٠] ، فَأَنَا مِنِ السَّابِقِينِ ، وَأَنَا خَيْرُ السَّابِقِينِ، ثُمَّ جَعَلَ الْأَثْلَاثَ قَبَائِلَ ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا قَبِيلَةً ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِخَيْرِكُمْ» [الحجرات : ١٣] . فَأَنَا أَنْقَى وَلَدَ آدَمَ ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَا فَخْرٌ . ثُمَّ جَعَلَ الْقَبَائِلَ بَيْوَاتًا ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا بَيْتًا ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَهِّبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» (١) [الأحزاب : ٣٣] .

وعن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ، متى وجبت لك النبوة؟ قال : «وَآدَمَ بَنْ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» (٢) .

(١) الهيثمي في المجمع ٨ / ٣٩٦ (١٣٨٢٢) وقال : رواه الطبراني وفيه يحيى الحمانى ، وعبایة بن ربعی وكلاهما ضعيف .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٦٠٩) وقال : حسن صحيح غريب .

وعن وائلة بن الأسعق قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى من بنى هاشم » <sup>(١)</sup> .

ومن حديث أنس : « أنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » <sup>(٢)</sup> .

وفي حديث ابن عباس « أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » <sup>(٣)</sup> .

وعن عائشة رضي الله عنها عنه عليه السلام : « أتاني جبريل ، فقال : قلبت مشارق الأرض وغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ، ولم أر بني أبٍ أفضل من بنى هاشم » .

وعن أنس : أن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسرى به ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : بِمَحْمَدْ تَفْعَلُ هَذَا ؟ فَمَا رَبَّكَ أَحَدَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ . فَارْفَضْ عَرْقًا .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عنه عليه السلام : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَهْبَطَنِي فِي صَلْبِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَجَعَلَنِي فِي صَلْبِ نُوحٍ فِي السَّفِينةِ ، وَقَذَفَنِي فِي النَّارِ فِي صَلْبِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ لَمْ يَزِلْ يَنْقُلُنِي فِي الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى أَخْرَجْنِي بَيْنَ أَبْوَيْ لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سَفَاحِ قَطٍّ » <sup>(٤)</sup> . وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بقوله :

مُسْتَوْدِعٌ حِبْثُ يُخْصِفُ الْوَرَقُ  
مِنْ قِبْلِهَا طَبْتُ فِي الظِّلَالِ وَفِي  
ثُمَّ هَبَطْتُ الْبَلَادَ لَا بَشَرَّ  
أَنْتُ وَلَا مُضْنَفٌ وَلَا عَلَقٌ  
بَلْ نَطْفَةٌ تَرَكَ السَّفَينَ وَقَدْ  
أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْفَرَقُ  
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ  
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ

فِي بَعْضِ النَّسْخِ أَيَّاتٌ أُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ :

ثُمَّ احْتَوَى بَيْتَكَ الْمَهِيمَنُ مِنْ  
خَنْدَقَ عَلَيْهِ تَحْتَهَا النُّطُقُ  
وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ الْأَرْضَ  
ضَ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْقَ

(١) مسلم في الفضائل (٢٢٧٦) / (١) .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٦١٠) وقال : حسن غريب .

(٣) الترمذى في المناقب (٣٦١٦) وقال : غريب .

(٤) لم أقف عليه .

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِيَاءِ وَفِي النُّورِ وَسَبِيلِ الرَّشادِ نَخْتَرِقُ  
بِاَبْرَدِ نَارِ الْخَلِيلِ يَا سَبِيلًا لِعَصْمَةِ النَّارِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ  
النَّطَقُ : أَوْسَطِ الْجَبَالِ الْعَالِيَةِ .

وروى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أبو ذر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وجابر بن عبد الله : أنه قال : « أُعطيت خمساً - وفي بعضها : ستة - لم يعطهن النبي قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لنبي قبلي ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة » <sup>(١)</sup> .

وفي رواية بدل هذه الكلمة : « وقيل لي : سل تعطه » .

وفي رواية : « وعرض عَلَيَّ أَمْتِي فَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَبَعِ » .

وفي رواية : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . قيل : السُّودُ الْعَرَبُ ؛ لأنَّ الغالب على لوانهم الأدمة ، فهم من السود ، وال أحمر : العجم . وقيل : البيض والسود من الأمم .  
وقيل : الحمر : الإنس ، والسود : الجن .

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة : « نصرت بالرعب ، وأوتيت جوامع الكلام ، وبينما أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي » <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية عنه : « وختم بي النَّبِيُّونَ » .

وعن عقبة بن عامر أنه قال : قال عليه السلام : « إني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرَ إِلَى حَوْضِي الْآنَ ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ خَزَانَتِ الْأَرْضِ ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بِعْدِي ، وَلَكُنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافِسُوا فِيهَا » .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « أنا محمد النبي الأمي ، لا نبي بعدي ، وأوتيت جوامع الكلم وخواتمه ، وعلمت خزنة النار وحملة العرش » <sup>(٣)</sup> .

(١) البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٥٢١) / ٣ .

(٢) البخاري في الجهاد (٢٩٧٧) ، ومسلم في المساجد (٥٢٣) / ٦ .

(٣) أحمد ٢ / ١٧٢ .

وعن ابن عمر : « بعثت بين يدي الساعة » (١) .

ومن رواية ابن وهب : أنه عليه السلام قال : « قال الله تعالى : سل يا محمد . فقلت : ما أسأل يا رب ؟ اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، واصطفيت نوحًا ، وأعطيت سليمان ملكًا لا ينفي لأحد من بعده ، فقال الله تعالى : ما أعطيتك خير من ذلك ، أعطيتك الكوثر ، وجعلت اسمك مع اسمي ، ينادي به في جوف السماء ، وجعلت الأرض ظهوراً لك ولأمتك ، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فأنت تشي في الناس مغفوراً لك ، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك ، وجعلت قلوب أمتك مصافحها ، وخبأت لك شفاعتك ، ولم أخبارها النبي غيرك » .

وفي حديث آخر رواه حذيفة : « بشرني - يعني ربه - بأنني أول من يدخل الجنة ومعي من أمتى سبعون ألفا ، مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب ، وأعطاني ألا تجوع أمتى ولا تغلب ، وأعطاني النصر والعزوة والرعب يسعى بين يدي أمتى شهراً ، وطيب لي ولأمتى المفانيم ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج » .

وعن أبي هريرة ، عنه عليه السلام : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة » .

معنى هذا عند المحققين : بقاء معجزته ما بقيت الدنيا ، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عياناً لا خبراً إلى القيمة . وفيه كلام يطول ، هذا نختبه ، وقد بسطنا القول فيه وفيما ذكر فيه سوى آخر باب المعجزات .

وعن علي عليه السلام : كلنبي أعطي سبعة نجاء ، وأعطي نيكم عليه أربعة عشر نجاء ، منهم أبو بكر ، وعمر ، وابن مسعود ، وعمران (٢) .

وقال عليه السلام : « إن الله قد حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنها

(١) أحمد ٢ / ٥٠ .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٧٨٥) .

لَا تَحْلِ لَأْحَدْ بَعْدِيْ ، وَإِنَّمَا أَحْلَتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » (١) .

وعن العرباض بن سارية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّنَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمْ يَجْدُلْ فِي طِبِّيَّتِهِ ، وَعَدَةُ أَبْيَ إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ابْنُ مَرِيمَ » (٢) .

وعن ابن عباس قال : إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء ، وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم ، قالوا : فما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله تعالى قال لأهل السماء : « وَمَنْ يَقُلُّ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِيَ الظَّالِمِينَ » [ الأنبياء : ٢٩ ]

وقال محمد ﷺ : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ » [ الفتح : ١ ، ٢ ] .

قالوا : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله تعالى قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » [ إبراهيم : ٤ ] .

وقال محمد : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ » [ سباء : ٢٨ ] .

وعن خالد بن معدان أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك - وقد روي نحوه عن أبي ذر ، وشداد بن أوس ، وأنس بن مالك - فقال : « نعم أنا دعوة أبي إبراهيم » - يعني قوله : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ » [ البقرة : ١٢٩ ] . « وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام ، واستر ضعفت فيبني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخي لي خلف بيوتنا نرعى بهمَا لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض - وفي حديث آخر : ثلاثة رجال بسطت من ذهب ملوعة ثلباً ، وأخذاني فشقا بطني » .

قال في غير هذا الحديث : « من نحرى إلى مراق بطيبي ، ثم استخرجا منه قلبي ، فشققا ، فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلوج حتى أنقياه » .

قال في حديث آخر : « ثم تناول أحدهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر

(١) البخاري في الجنائز (١٣٤٩) ، ومسلم في الحج (٤٤٧ / ١٣٥٥) عن ابن عباس .

(٢) أحمد ٤ / ١٢٧ .

دونه ، فختم به قلبي ، فامتلا إيماناً وحكمة ، ثم أعاده مكانه ، وأمر الآخر يده على مفرق صدري فالتأم ». .

وفي رواية : « إن جبريل قال : قلب وكيع - أي : شديد - فيه عينان بصران ، وأذنان سمعتان ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أنته ، فوزنني فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أنته ، فوزنني بهم فوزنهم ، ثم قال : زنه بآلف من أنته ، فوزنني بهم فوزنهم ، ثم قال : دعه عنك ، فلو وزنته بأنته لوزنها ». .

قال في الحديث الآخر : « ثم ضموني إلى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني ، ثم قالوا : يا حبيب لم تر ، إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك ». .

وفي بقية هذا الحديث من قولهم : « ما أكرمك على الله ! إن الله معك وملائكته ». .

قال في حديث أبي ذر : « فما هو إلا أن ولها عنى ، فكأنما أرى الأمر معاينة ». .

وحكى أبو محمد المكي ، وأبو الليث السمرقندى وغيرهما - أن آدم عند معصيته قال : اللهم بحق محمد أغفر لي خططي - ويروى : تقبل توبتي . فقال له الله : من أين عرفت محمداً ؟ فقال : رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبًا : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله - ويروى : محمد عبدي ورسولي - فعلمت أنه أكرم خلقك عليك ، فتاب الله عليه ، وغفر له . .

وهذا عند قائله تأويل قوله تعالى : **«فَلَقَى آدُمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ»** [البقرة: ٣٧]. .

وفي رواية أخرى : فقال آدم : لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدرًا عندك من جعلت اسمه مع اسمك ، فأوحى الله إليه : « وعزتي وجلالي ، إنه لآخر النبئين من ذريتك ولو لاه ما خلقتك ». قال : وكان آدم يكتن بآبي محمد ، وقيل : بآبي البشر . .

وروى عن سريج بن يونس أنه قال : إن الله ملائكة سياحين ، عبادتها كل دار فيها أحمد ، أو محمد ، إكراماً منهم لمحمد صلوات الله عليه . .

وروى ابن قانع القاضي ، عن أبي الحمراء ، قال : قال رسول الله صلوات الله عليه : « لما أسرى بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أيدته بعلی ». .

وفي التفسير ، عن ابن عباس - في قوله تعالى : « وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا » [ الكهف : ٨٢ ] - قال : لوح من ذهب فيه مكتوب : عجباً لمن أيقن بالقدر كيف ينصب ! عجباً لمن أيقن بالنار كيف يص الحق ! عجباً لمن رأى الدنيا وتقبلها بأهلها كيف يطمئن إليها ! أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد عبدي ورسولي .

وعن ابن عباس : على باب الجنة مكتوب : إني أنا الله ، لا إله إلا أنا ، محمد رسول الله ، لا أعبد من قالها . وذكر أنه وجد على الحجارة القديمة مكتوب : محمد تقى مصلح ، وسيد أمين . وذكر السُّمَّنْتَارِيُّ أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولوداً ولد ، على أحد جنبيه مكتوب : لا إله إلا الله ، وعلى الآخر : محمد رسول الله . وذكر الأخباريون أن بلاد الهند ورداً أحمر مكتوباً عليه بالأبيض : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وروي عن جعفر بن محمد ، عن أبيه : إذا كان يوم القيمة نادى مناد : ألا ليقم من اسمه محمد ، فليدخل الجنة لكرامة اسمه عليه السلام .

وروى ابن القاسم في سماعه ، وابن وهب في « جامعه » ، عن مالك ، سمعت أهل مكة يقولون : ما من بيت فيه اسم محمد إلا قد وقرا .

وعنه عليه السلام : « ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة » .

وعن عبد الله بن مسعود : إن الله نظر إلى قلوب العباد ، واختار منها قلب محمد عليه السلام ، فاصطفاه لنفسه ، فبعثه برسالته .

وحكى النقاش أن النبي ﷺ لما نزلت : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » [ الأحزاب : ٥٣ ] قام خطيباً ، فقال : « يا معاشر أهل الإيمان ، إن الله تعالى فضلي عليكم تفضيلا ، وفضل نسائي على نسائكم تفضيلا ... » الحديث .

## الفصل الثاني

### كرامة الإسراء

في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤبة ، وإماممة الأنبياء ، والعروج به إلى سدرة المتنى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى .

ومن خصائصه - عليه السلام - قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبه عليه الكتاب العزيز ، وشرحه صحاح الأخبار ، قال الله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بَعْدَهُ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَنَا حَوْلَهُ لِتُرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » [ الإسراء : ١ ] .

وقال تعالى : « وَالنَّجْمُ إِذَا هُوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مَرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقَى الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَّ فَنَدَّلَى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَقْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سَدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى »

[ النجم : ١ - ١٨ ]

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به عليه السلام ؛ إذ هو نص القرآن ، وجماعات بتفصيله ، وشرح عجائبها ، وخصوص نبينا محمد عليه السلام فيه أحاديث كثيرة منتشرة - رأينا أن نقدم أكملها ، ونشرير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها :

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي والفقير أبو بحر بسماعي عليهما ، والقاضي أبو عبد الله التميمي ، وغير واحد من شيوخنا ، قالوا : حدثنا أبو العباس العذري ، قالوا : حدثنا أبو العباس الرازى ، حدثنا أبو أحمد الجلودى ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم ابن الحجاج ، حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت البنايى ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « أتىت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ،

فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند متهى طرفه » ، قال : « فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصلبت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فجاءني جبريل يبأنيه من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بأدم عليه السلام ، فرحب بي ، ودعا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا ببني الخالة : عيسى ابن مريم ، ويحيى بن ذكريا - عليهما السلام ، فرحا بي ودعوا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة - فذكر مثل الأول - ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن ، فرحب بي ، ودعا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة - وذكر مثله - فإذا أنا بيادريس ، فرحب بي ، ودعا لي بخير ، قال الله تعالى : « وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيًّا » [٥٧] ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة - فذكر مثله - فإذا أنا بهارون ، فرحب بي ، ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة - فذكر مثله - فإذا أنا بموسى فرحب بي ، ودعا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة - فذكر مثله - فإذا أنا بابراهيم مسنداً ظهره إلى البيت العمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه . ثم ذهب بي إلى سدرا المتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال » ، قال : « فلما غشياها من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى ، فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم » .

قال : « فرجعت إلى ربِّي ، فقلت : يا ربِّ ، خف عنِّي خمساً ، فرجعت إلى موسى ، فقلت : حط عنِّي خمساً ، قال : إنْ أمتُك لا يطِقُونَ ذلِكَ ، فارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف . قال : فلم أزل أرجع بين ربِّي تعالى وبين موسى حتى قال : يا محمد ، إنْهنَ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملاها كتبت له حسنة ، فإنْ عملاها كتبت له عشرًا ، ومن هم بسيئة فلم يعملاها لم تكتب له شيئاً ، فإنْ عملاها كتبت سبعة واحدة ».

قال : « فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف ».

قال رسول الله ﷺ : « فقلت : قد رجعت إلى ربِّي حتى استحييت منه » <sup>(١)</sup> .

قال القاضي ثابت رضي الله عنه : جُوَد ثابت رضي الله عنه ثبت هذا الحديث عن أنس ما شاء ، ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا . وقد خلط فيه غيره عن أنس تخليطاً كثيراً ، لا سيما من رواية شريك بن أبي نمر ، فقد ذكر في أوله مجيء الملك وشق بطنه وغسله بماء زمزم ، وهذا إنما كان وهو صبي وقبل الوحي .

وقد قال شريك في حديثه : وذلك قبل أن يوحى إليه ، وذكر قصة الإسراء . ولا خلاف أنها كانت بعد الوحي . وقد قال غير واحد : إنها كانت قبل الهجرة بستة ، وقيل : قبل هذا .

وقد روى ثابت عن أنس ، من رواية حماد بن سلمة أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظهره ، وشقه قلبه ، تلك القصة مفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس فجود في القصتين ، وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرا المتهى كان قصة واحدة ، وأنه وصل إلى بيت المقدس ، ثم عرج به من هناك ، فازاح كل إشكال أو همه غيره .

وقد روى يونس ، عن ابن شهاب عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « فرج سقف بيتي ، وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدرِي ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب متنلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغها في صدرِي ، ثم أطبقه ، ثم

أخذ بيدي فخرج بنا إلى السماء.... » (١). فذكر القصة .

وروى قتادة الحديث بثله عن أنس بن مالك بن صعصعة ، وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات . وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود .

وقد وقعت في حديث الإسراء زيادات نذكر منها نكناً مفيدة في عرضنا : منها في حديث ابن شهاب وفيه : قول كلنبي له : « مرحباً بالنبي الصالح ، والأخ الصالح » ، إلا آدم وإبراهيم فقا : « والابن الصالح » (٢) . وفيه من طريق ابن عباس : « ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » (٣) .

وعن أنس : « ثم انطلق بي حتى أتيت سدراً المتهى ، فغشيتها ألوان لا أدرى ما هي ». قال : « ثم أدخلت الجنة » .

وفي حديث مالك بن صعصعة : « فلما جاوزته » - يعني موسى - « بكى ، فنودي : ما يبكيك ؟ قال : رب ، هذا غلام بعنته بعدى يدخل من أمه الجنة أكثر مما يدخل من أمتى » .

وفي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) : « وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، فحان الصلاة فأمتهم ، فقال قائل : يا محمد ، هذا مالك حازن النار ، فسلم عليه . فالتفت ، فبدأني بالسلام » .

وفي حديث أبي هريرة : « ثم سار حتى أتى إلى بيت المقدس ، فنزل فربط فرسه إلى صخرة ، فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا : يا جبريل من هذا معك ؟ قال : هذا محمد رسول الله خاتم النبيين . قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياة الله من أخ و الخليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة » ! ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثروا على ربهم وذكر كلام كل واحد منهم ، وهم : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان .

ثم ذكر كلام النبي ﷺ ، فقال : وإن محمداً عليه السلام أثني على ربه عز وجل فقال : « كلكم أثني على ربه ، وأنا أثني على ربى : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة

(١) البخاري في الصلاة (٣٤٩) ، ومسلم في الإيمان (١٦٣/٢٦٣).

(٢، ٣) انظر السابق .

للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزمري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً.

فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد .

ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا ، ومن سماء إلى سماء ، نحو ما تقدم .

وفي حديث ابن مسعود : « وانتهي بي إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يرجع به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها » ، قال : « إِذْ يَغْشِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » [ النجم : ١٦ ] . قال : « فراش من ذهب » (١) .

وفي رواية أبي هريرة ، من طريق الربيع بن أنس : « فقيل لي : هذه السدرة المنتهى ينتهي إليها كل أحد من أمتك خلا على سيلك ، وهي السدرة المنتهى ، يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً ، وإن ورقة منها مظلة الخلق ، فغشيتها نور ، وغشيتها الملائكة » .

قال : « فهو قوله : « إِذْ يَغْشِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » [ النجم : ١٦ ] . فقال الله تبارك تعالى لي : سل . فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً . وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيت داود ملكاً عظيماً ، وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً ، وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح ، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل ، فقال لي ربي تعالى : قد اتخذت خليلاً . فهو مكتوب في التوراة : محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولون ، وهم الآخرون ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي ، وجعلتكم أول النبيين خلقاً ، وأخرهم بعثاً ، وأعطيتكم سبعاً من الثاني ، ولم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتكم خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبياً قبلك ، وجعلتكم فاتحاً وخاتماً » .

وفي الرواية الأخرى قال : فأعطي رسول الله ﷺ ثلثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته الم Harmat .  
وقال : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ [النجم : ١١ ، ١٢]. رأى جبريل في صورته ، له ستمائة جناح .

وفي حديث شريك : أنه رأى موسى في السابعة - قال : بفضل كلام الله .  
قال : ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، فقال موسى : لم أظن أن يرفع على أحد .

وقد روي عن أنس : أنه ﷺ صلى بالأنبياء بيت المقدس .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أنا قاعد ذات يوم إذ دخل جبريل ، فوكز بين كتفي ، فقمت إلى شجرة فيها مثل وكري الطائر ، فقعد في واحدة وقعدت في الأخرى ، فنمت حتى سدت الخافقين . ولو شئت لمسست السماء ، وأنا أقلب طرفي نظرت جبريل كأنه حلس لآخر ، فعرفت فضل علمه بالله علي ، وفتح لي باب السماء ، ورأيت النور الأعظم ، ولط دوني الحجاب ، وفرجه الدر والياقوت ثم أوحى الله إلي ما شاء أن يوحى » .

وذكر البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان جاء جبريل بدبابة يقال لها : البراق ، فذهب يركبها ، فاستصعبت عليه ، فقال لها جبريل : اسكنني . فوالله ما ركب عبد أكرم على الله من محمد صلوات الله عليه ، فركبها حتى أتى إلى الحجاب الذي يلي الرحمن تعالى ، فبينا هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب ، فقال رسول الله صلوات الله عليه : « يا جبريل من هذا ؟ »

قال : والذي يبعثك بالحق ، إني لأقرب الخلق مكاناً ، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه . فقال الملك : الله أكبر . الله أكبر . فقيل له - من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنا أكبر . أنا أكبر . ثم قال الملك : أشهد أن لا إله إلا الله . فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنا الله لا إله إلا أنا .

وذكر مثل هذا في بقية الأذان ، إلا أنه لم يذكر جواباً عن قوله : حي على الصلاة .  
حي على الفلاح . وقال : ثم أخذ الملك يد محمد ، فقدمه ، فأن أهل السماء ، فيهم آدم ونوح .

قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين ، راويه : أكمل الله تعالى لمحمد عليه السلام الشرف على أهل السموات والأرض .

قال القاضي رحمه الله : ما في هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق ، فهم المحجوبون ، والباري جل اسمه متزه عما يحجبه . إذ **الحُجُبُ إِنَّمَا تُحِيطُ بِمَقْدِرِ مَحْسُوسٍ** ، ولكن حجبه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء ، وكيف شاء ، ومتى شاء ، كقوله تعالى : **﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنِ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ يَحْجُبُوْنَ﴾** [المطففين: ١٥].

قوله في هذا الحديث : « **الحجاب** » ، و« **إِذْ خَرَجَ مَلْكُ الْجَهَنَّمَ** » : يجب أن يقال : إنه حجاب حجب به من وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته وعجائب ملكته وجبروته . ويدل عليه من الحديث قول جبريل عن الملك الذي خرج من ورائه : إن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه . فدل على أن هذا الحجاب لم يختص بالذات . ويدل عليه قول كعب في تفسير : **﴿سَدْرَةُ الْمُنْتَهَى﴾** [النجم: ١٤] . قال إليها ينتهي علم الملائكة ، وعندها يجدون أمر الله ، لا يجاوزها علمهم .

وأما قوله : « **الذِّي يَلِي الرَّحْمَنَ** » فيحمل على حذف المضاف ؛ أي : يلي عرش الرحمن ، أو أمراً ما من عظيم آياته ، أو مبادئ حقائق معارفه ، مما هو أعلم به ، كما قال تعالى : **﴿وَاسْأَلِ الْقَرِيْبَ﴾** [يوسف: ٨٢] ؛ أي : أهلها .

قوله : « **فَقَلِيلٌ مِّنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ** : صدق عبدي ، أنا أكبر » : فظاهره أنه سمع في هذا الوطن كلام الله ، ولكن من وراء حجاب ، كما قال : **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهَ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾** [الشورى: ٥١] ؛ أي : وهو لا يراه ، حجب بصره عن رؤيته .

فإن صح القول بأن محمدًا عليه السلام رأى ربه - عز وجل - فيحتمل أنه في غير هذا الوطن بعد هذا أو قبله ، رفع الحجاب عن بصره حتى رأه . والله أعلم .

### الفصل الثالث

#### حقيقة الإسراء

ثم اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراء بروحه أو جسده ؟ على ثلات مقالات :  
فذهب طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق  
ووحي ، وإلى هذا ذهب معاوية .

وحكى عن الحسن ، والمشهور عنه خلافه ، وإليه أشار محمد بن إسحاق ، وحجتهم  
قوله تعالى : **«وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ»** [الإسراء : ٦٠] .

وما حكوا عن عائشة رضي الله عنها : ما فقدت جسد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وقوله : «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ**» .

وقول أنس : وهو نائم في المسجد الحرام ... . وذكر القصة ، ثم قال في آخرها :  
**فَاسْتَيْقَظْتُ وَأَنَا بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** » .

وذهب معظم السلف وال المسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة ، وهذا هو الحق ،  
وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبي هريرة ، ومالك بن  
صعصعة ، وأبي حبة البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبیر ، وقادة ،  
وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاحد ،  
وعكرمة ، وابن جريح ، وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبرى ، وابن حنبل ، وجماعة  
عظيمة من المسلمين . وقول أكثر المؤخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ،  
واحتجوا بقوله تعالى : **«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعِنْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»** [الإسراء : ١] ، فجعل **«إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»** غاية الإسراء الذي وقع التعجب  
فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .

قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون  
أبلغ في المدح . ثم اختلفت هذه الفرقتان : هل صلى بيت المقدس أم لا ؟

ففي حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته فيه . وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان وقال: والله ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

قال القاضي : والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقتضيه استحالة ؛ إذ لو كان مناماً لقال : بروح عبده ولم يقل : « بِعِبْدِهِ » . وقوله تعالى : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى » [النجم : ١٧] . ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذبوا فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم <sup>(١)</sup> ، وافتتنوا به ؛ إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر ؛ بل لم يكن منهم ذلك إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقتضيه ، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء بيت المقدس في رواية أنس - أو في السماء على ما روى غيره ، وذكر مجيء جبريل له بالبراق ، وخبر المعراج ، واستفتح السماء ، فيقال : من معك ؟ فيقول : محمد ، ولقائه الأنبياء فيها ، وخبرهم معه ، وترحيبهم به ، وشأنه في فرض الصلاة ومراجعة مع موسى في ذلك .

وفي بعض هذه الأخبار : « فأخذ » - يعني جبريل - « فعرج بي إلى السماء ... » إلى قوله : « ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » ، وأنه وصل إلى سدرة المتهى ، وأنه دخل الجنة ، ورأى فيها ما ذكره .

قال ابن عباس : هي رؤيا عين رأها النبي ﷺ لا رؤيا منام .

وعن الحسن فيه : « بينما أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه ، فقمت فلم أر شيئاً ، فعدت لمضجعي » - ذكر ذلك ثلاثاً ، فقال في الثالثة : « فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد فإذا بدبابة ... » وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي ، تلك الليلة صلى العشاء الآخرة ، ونام بيتنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ ، فلما صلى الصبح وصلينا قال : « يا أم هانئ ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت

(١) لم أقف في السير على أن أحداً ارتد بسبب معجزة الإسراء والمعراج ، وإنما لاشتهر اسمه في السير .

بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صلิต الغداعة معكم الآن كما ترون » .

وهذا بين في أنه بجسمه .

وعن أبي بكر من رواية شداد بن أوس عنه : أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجده . فأجابة : « إن جبريل عليه السلام حملني إلى المسجد الأقصى » .

وعن عمر ثقة قال : قال رسول الله ﷺ : « صلิต ليلة أسرى بي في مقدم المسجد ، ثم دخلت الصخرة ، فإذا بملك قائم معه آنية ثلاثة ... ». وذكر الحديث .

وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة ، فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذر ثقة : « فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، فشرح صدرى ، ثم غسله بماء زمم ... » إلى آخر القصة ، « ثم أخذ بيدي ، فعرج بي » .

وعن أنس : « أتيت فانطلق بي إلى زمم ، فشرح عن صدرى » <sup>(١)</sup> .

وعن أبي هريرة ثقة : « لقد رأيتني في الحجر ، وفربش تسلّنى عن مسراي ، فسألتني عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه » <sup>(٢)</sup> .

ونحوه عن جابر . وقد روى عمر بن الخطاب ثقة في حديث الإسراء عنه ﷺ أنه قال : « ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها » .

## الفصل الرابع

### في إبطال حجج من قال : إنها نوم

احتجوا بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فَتَنَّا لِلنَّاسِ » [الإسراء : ٦٠] فسمّاها رؤية قلنا : قوله سبحانه وتعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَدْهِ » [الإسراء : ١] يرده ؛ لأنّه لا يقال في النوم : أسرى .

(١) البخاري في الصلاة (٣٤٩) ، ومسلم في الإيمان (١٦٤ / ٢٦٤).

(٢) ومسلم في الإيمان (١٧٢ / ٢٧٨).

وقوله : **«فِتْنَةُ النَّاسِ»** . يؤيد أنها رؤيا عين ، وإسراء بشخص ؛ إذ ليس في الحلم فتنة . ولا يكذب به أحد ؛ لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباعدة .

على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية ، فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قضية الحديبية ، وما وقع في نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سماها في الحديث مناماً .

وقوله في حديث آخر : **«بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقِظَانِ»** .

وقوله أيضاً : وهو نائم وقوله : **«ثُمَّ اسْتِيقْظَتْ»** فلا حجة فيه ؛ إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم ، أو أول حمله والإسراء به وهو نائم ، وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه : **«ثُمَّ اسْتِيقْظَتْ وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»** ، فلعل قوله : **«اسْتِيقْظَتْ»** يعني أصبحت ، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته .

ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله ، وإنما كان في بعضه .

وقد يكون قوله : **«اسْتِيقْظَتْ وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»** لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملوك السموات والأرض ، وخارج باطنه من مشاهدة الملا الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى ، فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام .

ووجه ثالث : أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه ، ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر ، ورؤيا الأنبياء حق ، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا . قال : تغميض عينيه لثلاثة يشغلها شيء من المحسوسات عن الله تعالى . ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع ، وهو : أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع ، ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد ، عن همام : **«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ»** وربما قال : **«مَضْطَبْجَعٌ»** . وفي رواية هدبة عنه : **«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحَطِيمِ»** - وربما قال : **«فِي الْحَجْرِ - مَضْطَبْجَعٌ»** . وقوله في الرواية الأخرى : **«بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقِظَانِ»** .

فيكون سمي هيته بالنوم لما كانت هيئه النائم غالباً .

وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من : النوم ، وذكر شق البطن ، ودنو الرب عز وجل الواقعة في هذا الحديث إنما هي من رواية شريك عن أنس ، فهبي منكرة من روایته ؛ إذ شق البطن في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صغره عَنْ يَدِهِ قبل النبوة ؛ ولأنه قال في الحديث : « قبل أن يبعث » ، والإسراء بإجماع كان بعد المبعث ، فهذا كله يوهن ما وقع في رواية أنس ، مع أن أنساً قد بين من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره ، وأنه لم يسمعه من النبي عَنْ يَدِهِ ، فقال مرةً : عن مالك بن صعصعة ، وفي كتاب مسلم : لعله عن مالك ابن صعصعة - على الشك . وقال مرةً : كان أبو ذر يحدث .

وأما قول عائشة : « ما فقدت جسده » ، فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة ، لأنها لم تكن حينئذ زوجه ، ولا في سن من يضبط ، ولعلها لم تكن ولدت بعد ، على الخلاف في الإسراء متى كان ، فإن الإسراء كان في أول الإسلام على قول الزهري ومن وافقه بعد المبعث بعام ونصف ، وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام .

وقد قيل : كان الإسراء خمس قبل الهجرة . وقيل : قبل الهجرة بعام . والأشبه أنه لخمس . والحججة لذلك تطول ، وليس من غرضنا ، فإذا لم تشاهد ذلك عائشة دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها ، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها ، وغيرها يقول خلافه مما وقع نصاً في حديث أم هانئ وغيره .

وأيضاً فليس حديث عائشة عَنْ يَدِهِ بالثابت ، والأحاديث الآخر أثبت ، ولسنا نعني حديث أم هانئ ، وما ذكرت فيه خديجة .

وأيضاً فقد روي في حديث عائشة : « ما فقدت » ، ولم يدخل بها النبي عَنْ يَدِهِ إِلَّا بالمدينة .

وكل هذا يوهنه ؛ بل الذي يدل عليه صحيح قوله : إنه بجسده ، لإنكارها أن تكون رؤيا لربه رؤيا عين ، ولو كانت عندها مناماً لم تنكره .

فإن قيل : فقد قال تعالى : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » [النجم : ١١] فقد جعل ما رأه للقلب ، وهنا يدل على أنه رؤيا نوم ووحي ، لا مشاهدة عين وحس .

قلنا : يقابل قوله تعالى : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى » [النجم : ١٧] ، فقد أضاف

الأمر للبصر .

وقد قال أهل التفسير في قوله تعالى : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝ » [النجم : ١١] ، أي : لم يوهم القلب العين غير الحقيقة ، بل صدق رؤيتها . وقيل : ما أنكر قلبه ما رأته عينه .

## الفصل الخامس

### رؤيته لربه

وأما رؤيته بِعَيْنِهِ لربه - جل وعز - فاختل السلف فيها ، فأنكرته عائشة .

حدثنا أبو الحسين سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه ، قال : حدثني أبي وأبو عبد الله بن عتاب الفقيه ، قالا : حدثنا القاضي يونس بن مغيث ، حدثنا أبو الفضل الصقلي ، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت ، عن أبيه وجده ، قالا : حدثنا عبد الله بن علي قال : حدثنا محمود بن آدم ، حدثنا وكيع ، عن ابن أبي خالد ، عن عامر ، عن مسروق : أنه قال لعائشة بِعَيْنِهِ : يا أم المؤمنين ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قفَ شعرى ما قلت ، ثلث من حدثك بهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : « لَا تُدْرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَيْرُ » [الانعام : ١٠٣] ، وذكره الحديث <sup>(١)</sup> .

وقال جماعة بقول عائشة بِعَيْنِهِ ، وهو المشهور عن ابن مسعود .

ومثله عن أبي هريرة أنه قال : إنما رأى جبريل . واختل عنده . وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين .

وعن ابن عباس بِعَيْنِهِ أنه رأه بعينه .

وروى عطاء عنه - أنه رأه بقلبه . وعن أبي العالية ، عنه : رأه بفؤاده مرتين <sup>(٢)</sup> .

وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس بِعَيْنِهِ يسأله : هل رأى محمد ربه ؟

(١) البخاري في التفسير (٤٨٥٥) .

(٢) مسلم في الإيمان (١٧٦ / ٢٨٤ ، ٢٨٥) .

فقال : نعم .

والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينيه ، روي ذلك عنه من طرق ، وقال : إن الله تعالى اختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة ، ومحمدًا بالرؤيا .

وحجته قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَأَهُ نَرْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم : ١١ - ١٣] .

قال الماوردي : قيل : إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ﷺ ، فرأاه محمد مرتين ، وكلمه موسى مرتين .

وحكى أبو الفتح الرازي وأبو الليث السمرقندى الحكاية عن كعب .

وروى عبد الله بن الحارث ، قال : اجتمع ابن عباس وكعب ، فقال ابن عباس : أما نحن بنو هاشم فنقول : إن محمدًا قد رأى ربه مرتين ، فكبير كعب حتى جاوبته الجبال ، وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى ، فكلمه موسى ، ورأاه محمد بقلبه .

وروى شريك عن أبي ذر رض في تفسير الآية ، قال : رأى النبي ﷺ ربه .

وحكى السمرقندى ، عن محمد بن كعب القرظى ، وربيع بن أنس - أن النبي ﷺ سئل : هل رأيت ربك ؟ قال : « رأيته بفؤادي ، ولم أره بعيني » .

وروى مالك بن يُخَامِرَ ، عن معاذ ، عن النبي ﷺ قال : « رأيت ربي ... » وذكر كلمة ، « فقال : يا محمد ، فيم يختص الملائكة ؟ ... » <sup>(١)</sup> الحديث .

وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه . وحكاه أبو عمر الطلمنكى عن عكرمة .

وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود .

وحكى ابن إسحاق أن مروان سأله أبا هريرة . هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم .

وحكى النقاش ، عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس : بعينيه رأاه . حتى انقطع نفسه - يعني نفس أحمد .

وقال أبو عمر : قال أحمد بن حنبل : رأه بقلبه ، وجبن عن القول برأيته في الدنيا  
بإبصار .

وقال سعيد بن جبیر : لا أقول : رأه ، ولا : لم يره .

وقد اختلف في تأویل الآية عن ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، وابن مسعود ،  
فحکی عن ابن عباس وعكرمة : رأه بقلبه . وعن الحسن وابن مسعود : رأى جبریل .  
وحكى عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه ، أنه قال : رأه .

وعن ابن عطاء في قوله تعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » [الشرح : ١] قال : شرح  
صدره للرؤیة ، وشرح صدر موسى للكلام .

وقال أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من أصحابه أنه رأى الله  
تعالى بيصره وعيني رأسه ، وقال : كل آية أوتيها نبی من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتي  
مثلها نبینا ، وخاص من بينهم بتفضیل الرؤیة .

ووقف بعض مشايخنا في هذا ، وقال : ليس عليه دلیل واضح ، ولكن جائز أن  
يكون .

قال القاضی أبو الفضل : والحق الذي لا امتراء فيه : أن رؤیته تعالى في الدنيا جائزه  
عقلا ، وليس في العقل ما يحيلها .

والدلیل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها . ومحال أن يجهل نبی  
ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه ، بل لم يسأل إلا جائزًا غير مستحیل ، ولكن وقوعه  
ومشاهدته من الغیب الذي لا يعلمه إلا الله ، فقال له الله تعالى : « لَنْ تَرَانِي »  
[الأعراف: ١٤٣] أي : لن تطیق ، ولا تحتمل رؤیتی ، ثم ضرب له مثلاً ما هو أقوى من  
نبی موسى وأثیت ، وهو الجبل .

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤیته في الدنيا ، بل فيه جوازها على الجملة ، وليس في  
الشرع دلیل قاطع على استحالتها ولا امتناعها ؛ إذ كل موجود فرؤیته جائزه غير مستحیلة .  
ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » [الأنعام :  
١٠٣] ، لاختلاف التأویلات في الآیة ؛ وإذا لم يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة .

وقد استدل بعضهم بهذه الآيات نفسها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة .

وقد قيل : لا تدركه أبصار الكفار . وقيل : « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » : لا تحيط به ، وهو قول ابن عباس . وقد قيل : لا تدركه الأبصار ، وإنما يدركه المبصرون . وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها .

و كذلك لا حجة لهم بقوله تعالى : « لَنْ تَرَانِي » [الأعراف : ١٤٣] . و قوله : « تُبْتُ إِلَيْكَ » [الأعراف : ١٤٣] لما قدمناه ، ولأنها ليست على العموم ، ولأن من قال : « معناها : لَنْ تَرَانِي في الدنيا » إنما هو تأويل . وأيضاً فليس فيه نص الامتناع ، وإنما جاءت في حق موسى ، وحيث تطرق التأويلات وتسلط الاحتمالات فليس للقطع إليه سبيل .

وقوله : « تُبْتُ إِلَيْكَ » ؛ أي : من سؤالي ما لم تُقدرْ لي .

وقد قال أبو بكر الهمذاني في قوله : « لَنْ تَرَانِي » ؛ أي : ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلى في الدنيا ، وإن من نظر إلى مات .

ولقد رأيت لبعض السلف والمتاخرين ما معناه : إن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة ، لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة غرضاً للآفات والفناء ، فلم تكن لهم قوة على الرؤية ، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر ، ورزقوا قوى ثابتة باقية ، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية . وقد رأيت نحو هذا مالك بن أنس - رحمة الله ، قال : لم ير في الدنيا ؛ لأنه باق ، ولا يرى الباقى بالفانى ، فإذا كان في الآخرة ورزقاً أبصاراً باقية رئي الباقى بالباقى .

وهذا الكلام حسن مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالات إلا من حيث ضعف القدرة ، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدرها على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه .

وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية منحها لإدراك ما أدركاه ورؤية مارأياه . والله أعلم .

وقد ذكر القاضي أبو بكر - في أثناء أجبته عن الآيتين - ما معناه : إن موسى عليه

السلام رأى الله ؛ فلذلك خرّ صعقاً ، وإن الجبل رأى ربه فصار دكّاً بإدراكه خلقه الله له . واستنبط ذلك - والله أعلم - من قوله : « **وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** » [الأعراف : ١٤٣] .

ثم قال : « **فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً** » [الأعراف : ١٤٣] .

وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رأه على هذا القول .

وقال جعفر بن محمد : شغله بالجبل حتى تجلّى ، ولو لا ذلك لما صعقاً بلا إفادة . قوله هذا يدل على أن موسى رأه .

وقد وقع لبعض المفسرين - في الجبل - أنه رأه ، وبرؤية الجبل له استدل من قال ببرؤية محمد نبينا له ؛ إذ جعله دليلاً على الجواز . ولا مريء في الجواز ؛ إذ ليس في الآيات نص بالمنع .

وأما وجوبه لنبينا صلوات الله عليه ، والقول بأنه رأه بعينه فليس فيه قاطع أيضاً ولا نص ؛ إذ المعلو فيه على آيتي « **النَّجْم** » ، والتنازع فيما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن ، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي صلوات الله عليه بذلك .

وحدث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي صلوات الله عليه ، فيجب العمل باعتقاده . ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية .

وحدث معاذ محتمل للتأويل ، وهو مضطرب الإسناد والمقن .

وحدث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل . فروي : « **نُورٌ أَنِّي أَرَاهُ** » .

وحكى بعض شيوخنا أنه روي : « **نُورٌ أَنِّي أَرَاهُ** » (١) .

وفي حديث الآخر : سأله ، فقال : « **رَأَيْتْ نُورًا** » . وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية ، فإن كان الصحيح : « **رَأَيْتْ نُورًا** » فهو قد أخبر أنه لم ير الله ، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله . وإلى هذا يرجع قوله : « **نُورٌ أَنِّي أَرَاهُ** » ؛ أي : كيف أراه مع حجاب النور المغشى للبصر ؟ وهذا مثل ما في الحديث الآخر : « **حِجَابَهُ النُّورُ** » (٢) .

(٢) سبق تخرجه .

(١) مسلم في الإيمان (١٧٨ / ٢٩١) .

وفي الحديث الآخر : « لم أره بعيني ، ولكن رأيته بقلبي مرتين وتلا : ﴿ ثُمَّ دَنَ فَدَلَّ ﴾ [النجم : ٨] » والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب ، أو كيف شاء ، لا إله غيره .

فإن ورد حديث نصَّ يَنْ في الباب اعتقد ووجب المصير إليه ؛ إذ لا استحالة فيه ، ولا مانع قطعي يرده ، والله الموفق .

## الفصل السادس

### مناجاته لله تعالى

وأماماً ما ورد في هذه القصة من مناجاته لله تعالى وكلامه بقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] - إلى ما تضمنته الأحاديث : فأكثر المفسرين على أن الموحى الله عز وجل إلى جبريل ، وجريل إلى محمد ﷺ ، إلا شنوداً منهم ، فذكر عن جعفر بن محمد الصادق ، قال : أوحى إليه بلا واسطة ، ونحوه عن الواسطي ، وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين : أن محمداً كلام ربه في الإسراء . وحكي عن الأشعري ، وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس ، وأنكره آخرون . وذكر النقاش ، عن ابن عباس - في قصة الإسراء ، عنه ﷺ في قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَ فَدَلَّ ﴾ [النجم : ٨] - قال : « فارقني جبريل ، وانقطعت الأصوات عنِّي ، فسمعت كلام ربي وهو يقول : ليهداً روعك يا محمد ، ادن ، ادن » .

وفي حديث أنس في الإسراء نحوه منه ، وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهَ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى : ٥١] ، فقالوا : هي ثلاثة أقسام : من وراء حجاب كتكليم موسى ، وبارسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ ، الثالث : قوله : وحينا ، ولم يبق من تقسيم الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة . وقد قيل : الوحي هنا : هو ما يلقنه في قلب النبي دون واسطة . وقد ذكر أبو بكر البزار ، عن عليّ في حديث الإسراء ما هو أوضح في سمع النبي ﷺ لكلام الله من الآية ، فذكر فيه : « فقال الملك : الله أكبر . الله أكبر ، فقيل لي من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنا أكبر ، أنا أكبر ». وقال في سائر

كلمات الأذان مثل ذلك . ويجيء الكلام في مشكل هذين الحديثين في الفصل بعد هذا مع ما يشبهه ، وفي أول فصل من الباب منه .

وكلام الله تعالى لـ **محمد ﷺ** ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلا ، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه ، فإن صح في خبر احتمل عليه ، وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به ، نص ذلك في الكتاب ، وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة ، ورفع مكانه على ما ورد في الحديث : « في السماء السابعة » بسبب كلامه . ورفع محمداً فوق هذا كله حتى بلغ مستوى ، وسمع صريف الأقلام ، فكيف يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام ، فسبحان من خص من شاء بما شاء ، وجعل بعضهم فوق بعض درجات .

## الفصل السابع

### الدُّنْوُ وَالْقُرْبُ

وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر الآية من الدُّنْوُ وَالْقُرْبُ من قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَّ فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم : ٩ ، ٨] ، وأكثر المفسرين أن الدُّنْوُ والتَّدَلَّى منقسم ما بين محمد وجريل عليه السلام ، أو مختص بأحدهما من الآخر ، أو من السدرة المتهي .

قال الرازى : وقال ابن عباس : هو محمد دنا فتدلى من ربه .

وقيل : معنى دنا : قرب ، وتدلى : زاد فيقرب . وقيل : هما معنى واحد ، أي : قرب .

وحكى مكي ، والماوردي ، عن ابن عباس : هو الرب ، دنا محمد ، فتدلى إليه ؛ أي : أمره وحكمه .

وحكى النقاش عن الحسن ، قال : دنا من عبده محمد **ﷺ** فتدلى ، فقرب منه ، فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته .

قال : وقال ابن عباس : هو مقدم ومؤخر : تدلّى الرفرف لـ **محمد ﷺ** ليلة المعراج ، فجلس عليه ، ثم رفع فدنا من ربه .

قال : « فارقني جبريل ، وانقطعت عني الأصوات ، وسمعت كلام ربي عز وجل ». عن أنس في « الصحيح » : « عرج بي جبريل إلى سدرة المتهى ، ودنا الجبار رب العزة ، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » ، فأوحى إليه بما شاء ، وأوحى إليه خمسين صلاة . وذكر حديث الإسراء . عن محمد بن كعب : هو محمد ، دنا من ربه ، فكان كقاب قوسين . قال : وقال جعفر بن محمد : أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين . وقال جعفر بن محمد : والدنو من الله لا حد له ، ومن العباد بالحدود . وقال أيضاً : انقطعت الكيفية عن الدنو ، ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه ، ودنا محمد عليه السلام إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان ، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه ، وزال عن قلبه الشك والارتياح . قال القاضي أبو الفضل : اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله ، أو إلى الله فليس بدنو مكان ، ولا قرب مدى ؛ بل كما ذكرناه عن جعفر الصادق : ليس بدنو حد ، وإنما دنو النبي عليه السلام من ربه وقربه منه إيانة عظيم منزلته ، وتشريف رتبته ، وإشراق أنوار معرفته ، ومشاهدة أسرار غيه وقدرته ، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس ووسط وإكرام ، ويتأول فيه ما يتأول في قوله : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » <sup>(١)</sup> - على أحد الوجوه : نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان . قال الواسطي : من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة ، بل كلما دنا بنفسه من الحق تدلّى بعدها . يعني عن درك حقيقته ؛ إذا لا دنو للحق ولا بعد . وقوله : « **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنَ أَوْ أَدْنَى** » فمن جعل الضمير عائداً إلى الله ، لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف محل ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة عن محمد عليه السلام ، وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفي ، وإنافة المنزلة والمرتبة من الله له . ويتأول فيه ما يتأول في قوله : « من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن أثاني يمسي أتيه هرولة » <sup>(٢)</sup> ، قرب بالإجابة والقبول ، وإitan بالإحسان وتعجيل المأمول .

(١) البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨ / ١٦٨) عن أبي هريرة .

(٢) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم في الذكر والدعا (٢٦٧٥ / ٢٠) عن أبي هريرة .

## الفصل الثامن

### في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة

حدثنا القاضي أبو عليٌّ ، حدثنا أبو الفضل ، وأبو الحسين ، قالا : حدثنا أبو يعلى السنجبي ، حدثنا ابن محبوب ، حدثنا الترمذى ، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن ليث ، عن الريبع بن أنس ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر ». .

وفي رواية ابن زُخْر ، عن الريبع بن أنس في لفظ هذا الحديث : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا قائدتهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا ، لواء الكرم بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر ، ويطوف على ألف خادم كأنهم لولؤ مكنون ». .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : « وأكسي حلة من حل الجنة ، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم بذلك المقام غيري ». .

وعن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أنا سيد ولد آدم يوم القيمة ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما نبى يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوابي ، وأنا أول من ينشق عنه الأرض ولا فخر ». .

وعن أبي هريرة ، عنه صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أنا سيد ولد آدم يوم القيمة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع ، وأول مشفع » <sup>(١)</sup> .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : « أنا حامل لواء الحمد يوم القيمة ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأول مشفع ، ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ، فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر ». .

وعن أنس : « أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الناس تبعاً » <sup>(٢)</sup> .

(١) مسلم في الفضائل (٣/٢٢٧٨) .

(٢) مسلم في الإيمان (١٩٦ / ٣٣٠) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أنا سيد الناس يوم القيمة ، وتدرون لم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين » - وذكر حديث الشفاعة <sup>(١)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلوات الله عليه وآله وسلامه قال : « أطمع أن أكون أعظم الأنبياء أجرًا يوم القيمة » .

وفي حديث آخر : « أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيمة ؟ ! » ثم قال : « إنهم في أمتي يوم القيمة ، أما إبراهيم فيقول : أنت دعوتي وذرتي ، فاجعلني من أمتك . وأما عيسى ، فالأنبياء إخوة بنو علات ، أمهاطهم شتى ، وإن عيسى أخي ليس بيدي وبينهنبي ، وأنا أولى الناس به » <sup>(٢)</sup> .

قوله : « أنا سيد الناس يوم القيمة » . هو سيدهم في الدنيا ، ويوم القيمة . ولكن وأشار صلوات الله عليه وآله وسلامه لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره ؛ إذ جأ الناس إليه في ذلك ، فلم والسيد : هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم ، فكان حيئذ سيداً منفرداً من بين البشر ، لم يزاحمه أحد في ذلك ، ولا ادعاء ، كما قال تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » [غافر : ١٦] .

والملك له تعالى في الدنيا والآخرة ، لكن في الآخرة انقطعت دعوى المدعين لذلك في الدنيا . وكذلك جأ إلى محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه جميع الناس في الشفاعة ، فكان سيدهم في الأخرى دون دعوى .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « آتي باب الجنة يوم القيمة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » <sup>(٣)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « حوضي مسيرة شهر ، وزواياء سواء ، ومائه أبيض من الورق ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ أبداً » <sup>(٤)</sup> .

وعن أبي ذر نحوه ، وقال : « طوله ما بين عمان إلى آيله ، يَشْخُبُ فيه . ميزابان من الجنة » .

(١) مسلم في الإعجاز (١٩٣ / ٣٢٢).

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢).

(٤) البخاري في الرقاق (٦٥٧٩) ومسلم في الفضائل (٢٢٩٢ / ٢٧).

وعن ثوبان مثله ، وقال : « أحدهما من ذهب ، والآخر من ورق » .

وفي رواية حارثة بن وهب : « كما بين المدينة وصنعاء » .

وقال أنس : « أيلة وصنعاء » .

وقال ابن عمر : « كما بين الكوفة والحجر الأسود » .

وروى حديث الحوض أيضاً أنس ، وجابر ، وسمرة ، وابن عمر ، وعقبة ، وابن عامر ، وحارثة بن وهب الخزاعي ، والمستورد ، وأبو بربة الإسلامي ، وحذيفة بن اليمان ، وأبو أمامة ، وزيد بن أرقم ، وابن مسعود ، وعبد الله بن زيد ، وسهل بن سعد ، وسويد ابن جبلة ، وأبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وابن بريدة ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله الصنابحي ، وأبو هريرة ، والبراء ، وجذب ، وعائشة ، وأسماء بنت أبي بكر ، وأبو بكرة ، وخولة بنت قيس ، وغيرهم .

## الفصل التاسع

### في تفضيله بالمحبة والخلة

جاءت بذلك الآثار الصحيحة ، واحتضن على ألسنة المسلمين بحبيب الله ، أخبرنا أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره ، عن كريمة بنت أحمد ، حدثنا أبو الهيثم وحدثنا حسين بن محمد الحافظ سماعاً عليه ، حدثنا القاضي أبو الوليد ، حدثنا عبد بن أحمد ، وحدثنا أبو الهيثم ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا فليح ، حدثنا أبو النضر ، عن بسر بن سعيد ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لو كنت متخدنا خليلاً غير ربي لاتخذت أباً بكر » (١) .

وفي حديث آخر : « وإن صاحبكم خليل الله » .

ومن طريق عبد الله بن مسعود : « وقد اتخد الله صاحبكم خليلاً » (٢) .

وعن ابن عباس ، قال : جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ يتظارونه ، قال : فخرج

(١) البخاري في الصلاة (٤٦٦) ومسلم في الإيمان (٥٣٢ / ٢٣) .

(٢) مسلم في الفضائل (٣ / ٢٣٨٣) .

حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون ، فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجبا ! إن الله اتخذ من خلقه خليلاً ، اتخذ إبراهيم خليلاً<sup>(١)</sup> .

وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى ، كلام الله تكليماً .

وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه .

وقال آخر : وآدم اصطفاه الله .

فخرج عليهم فسلم ، وقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم ، أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً ، وهو كذلك ، وموسى نبغي الله ، وهو كذلك ، وعيسى روح الله ، هو كذلك ، وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر »<sup>(٢)</sup> .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه من قول الله تعالى لنبهه عليه السلام : « إني اتخذتك خليلاً ، فهو مكتوب في التوراة اسم: حبيب الرحمن »<sup>(٣)</sup> .

قال القاضي أبو الفضل : اختلف في تفسير الخلة ، وأصل اشتقاها ، فقيل : الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له احتلال .

وقيل : الخليل المختص ، واختار هذا القول غير واحد .

وقال بعضهم : أصل الخلة الاستصفاء ، وسمي إبراهيم خليل الله ؛ لأنه يوالي فيه ويعادي فيه ، وخلة الله له نصره ، وجعله إماماً لمن بعده .

وقيل : الخليل أصله الفقير المحتاج المنقطع ، مأخوذ من الخلة وهي الحاجة ، فسمي بها إبراهيم ؛ لأنه قصر حاجته على ربه ، وانقطع إليه بهمه ، ولم يجعله قبل غيره ؛ إذ جاءه جبريل وهو في المنجنيق ، ليرمى به في النار ، فقال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا .

(٢) سبق تخرجه .

(١) انظر السابق .

(٣) الهيثمي في المجمع (٢٣٥) وقال : رواه البزار ورجاله موثقون ، إلا أن الريبع بن أنس قال : عن أبي العالية أو غيره ؛ فتابعه مجاهول .

وقال أبو بكر بن فورك : الخلة . صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتدخل الأسرار .

وقال بعضهم : أصل الخلة المحبة ، ومعنى الإسعاف ، والإلطاف ، والترفيع ، والتشفيع ، وقد بين ذلك في كتابه تعالى ، بقوله : «**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**» [المائدة : ١٨] .

فأوجب للمحبوب ألا يؤخذ بذنبه .

قال : هذا ، والخلة أقوى من النبوة ؛ لأن النبوة قد تكون فيها العداوة ، كما قال تعالى : «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفُحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**» [التغابن : ١٤] .

ولا يصح أن تكون عدوا مع خلة ؛ فإذاً تسمية إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالخلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه ، والانقطاع عن دونه ، والإضراب عن الوسائل والأسباب ، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما ، وخفى الطافه عندهما ، وما خالل بواطنهم من أسرار إلهيته ، ومكونون غيوبه ومعرفته ، أو لاستصفائه لهما واستصفاء قلوبهما عن سواه ، حتى لم يخالفهما حب لغيره ، ولهذا قال بعضهم : الخليل من لا يتسع قلبه لسواه ، وهو عندهم معنى قوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : «**لَوْ كُنْتَ مُتَخَذِّلًا خَلِيلًا لَّا تَخْذِلْتَ أَبَا بَكْرَ خَلِيلًا، لَكِنْ أَخْوَةِ إِسْلَامٍ**» <sup>(١)</sup> .

واختلف العلماء وأرباب القلوب : أيهما أرفع درجة : الخلة ، أو درجة المحبة ؟ فجعلهما بعضهم سواء ، فلا يكون الحبيب إلا خليلا ، ولا الخليل إلا حبيبا ، لكنه خص إبراهيم بالخلة ، ومحمداً بالمحبة .

وبعضهم قال : درجة الخلة أرفع ، واحتج بقوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : «**لَوْ كُنْتَ مُتَخَذِّلًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ**» . فلم يتخذه . وقد أطلق المحبة لفاطمة ، وابنيها ، وأسامة وغيرهم . وأكثراهم جعل المحبة أرفع من الخلة ؛ لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم .

(١) سبق تخريرجه .

وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب ، ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوقف ، وهي درجة المخلوق ، فأما الخالق - جل جلاله - فمترتبة عن الأغراض ، فمحبته لعبده تكينه من سعادته ، وعصمتها وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب ، وإفاضة رحمته عليه ، وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه بصيرته ، فيكون كما قال في الحديث : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » <sup>(١)</sup> .

ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجدد لله ، والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن غير الله ، وصفاء القلب لله ، وإخلاص الحركات لله ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن ، برضاه يرضى ، وبسخطه يسخط .

ومن هذا عبر بعضهم عن الخلة بقوله :

قد تخللت مسلك الروح مني      وبذا سمي الخليل خليلا  
فإذا ما نطقت كنت حديثي      وإذا ما سكت كنت الغليل

فإذا مزية الخلة ، وخصوصية المحبة حاصلة لنبينا صلوات الله عليه وآله وسلامه بما دلت عليه الآثار الصحيحة المتشربة ، المتلقاة بالقبول من الأمة ، وكفى بقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُتُمْ تُعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَتَبْعِيُونِي يُحِبِّيْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » [آل عمران : ٣١] .

حکى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار : إنما يريد محمد أن تتخذه حناناً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ، فأنزل الله غيطاً لهم ورغمًا على مقالتهم هذه الآية : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » [آل عمران : ٣٢] ، فزاده شرفاً بأمرهم بطاعته ، وقرنها بطاعته ، ثم توعدهم على التوالي عنه بقوله : « فَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » [آل عمران : ٣٢] .

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاماً في الفرق بين المحبة والخلة يطول ، جملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة ، ونحن نذكر منه طرفاً يهدي إلى ما بعده :

(١) البخاري في الرفاق (٦٥٠٢) عن أبي هريرة .

فمن ذلك قولهم : الخليل يصل بالواسطة ، من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] . والحبيب يصل لحبه به ، من قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنَ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم : ٩] .

وقيل : الخليل : الذي تكون مغفرته في حد الطمع ، من قوله : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطَايَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٨٢] . والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين ، من قوله : ﴿ لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح : ٢] .

والخليل قال : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يَعْثُونَ ﴾ [الشعراء : ٨٧] . والحبيب قيل له : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيًّا ﴾ [التحريم : ٨] . فابتداى بالبشرة قبل السؤال .

والخليل قال في المحنة : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ [التوبه : ١٢٩] . والحبيب قيل له ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

والخليل قال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْأَخْرِيْنَ ﴾ [الشعراء : ٨٤] . والحبيب قيل له : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤] . أعطى بلا سؤال .

والخليل قال : ﴿ وَاجْبَنِي وَبَنِي أَنْ نُعْبَدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] . والحبيب قيل له : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وفيمما ذكرنا تنبه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال ، وكل يعلم على شاكلته ، فربكم أعلم بن هو أهدى سبيلا .

## الفصل العاشر

### في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَعْثُكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُّحَمُّدًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

أخبرنا الشيخ أبو علي الغساني الجياني فيما كتب إلى بخطه ، حدثنا سراج بن عبد الله القاضي ، حدثنا أبو محمد الأصيلي ، حدثنا أبو زيد وأبو أحمد : قالا : حدثنا

محمد بن يوسف ، قال : حدثنا محمد بن إسماعيل ، قال : حدثنا إسماعيل بن أبان ، حدثنا أبو الأحوص ، عن آدم بن علي ، سمعت ابن عمر يقول : إن الناس يصيرون يوم القيمة جثى ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع لنا ، يا فلان اشفع لنا ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود <sup>(١)</sup> .

وعن أبي هريرة : سئل عنها رسول الله ﷺ : يعني : قوله : « عَسَى أَن يَعْثُكَ رَبُّكَ مَقَاماً مُحَمَّداً » [الإسراء : ٧٩] ؟ فقال « هي الشفاعة » <sup>(٢)</sup> . وروى كعب بن مالك عنه ﷺ : « يحشر الناس يوم القيمة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربّي حلة خضراء ، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود » .

وعن ابن عمر ثنا وذكر حديث الشفاعة ، قال : فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة ، فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده .

وعن ابن مسعود عنه ﷺ أن قيامه عن يمين العرش مقاماً لا يقامه غيره ، يغبطه فيه الأولون والآخرون .

ونحوه عن كعب والحسن .

وفي رواية : « هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه » .

وعن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لقائم المقام المحمود » <sup>(٣)</sup> . قيل : وما هو ؟ قال : « ذلك يوم ينزل الله تبارك وتعالى على كرسيه .. » الحديث .

وعن أبي موسى ثنا عنه ﷺ : « خيرت بين أن يدخل نصف الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة ؛ لأنها أعم ، أترونها للمنتقين ؟ لا ، ولكنها للمنذنين الخطاين » .

وعن أبي هريرة ثنا ، قال : قلت : يا رسول الله ، ماذا ورد عليك في الشفاعة ؟ فقال : « شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً ، يصدق لسانه وقلبه » <sup>(٤)</sup> . وعن أم حبيبة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « أرأيت ما تلقى أمتي من بعدي ، وسفك بعضهم

(١) البخاري في التفسير (٤٧١٨) .

(٢) الترمذ في التفسير (٣١٢٧) .

(٣) الطبراني في الأوسط ٢ / ٨٢ (٢٥٥٩) .

(٤) أحمد ٢ / ٣٠٧ .

دماء بعض ، وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم ، فسألت الله أن يؤتني شفاعة يوم القيمة فيهم ، ففعل «<sup>(١)</sup>» .

وقال حذيفة : يجمع الله الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، حفة عراة كما خلقوا ، سكوتاً لا تكلم نفس إلا ياذنه فينادي محمد فيقول : «لبيك وسعديك ، والخير بين يديك ، والشر ليس إليك ، والمهندي من هديت ، وعبدك بين يديك ، ولك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك تبارك وتعالىت ، سبحانك رب البيت» قال : «فذلك المقام المحمود الذي ذكر الله» .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : إذا دخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، فتبقى آخر زمرة من الجنة وآخر زمرة من النار ، فتقول زمرة النار لزمرة الجنة : ما نفعكم إيمانكم ، فيدعون ربهم ويضجون ، فيسمعهم أهل الجنة فيسألون آدم وغيره بعده في الشفاعة لهم ، فكل يعتذر حتى يأتوا محمداً صلوات الله عليه فيشفع لهم ، فذلك المقام المحمود .

ونحوه عن ابن مسعود أيضاً ، ومجاحد .

وذكره علي بن الحسين عن النبي صلوات الله عليه .

وقال جابر بن عبد الله ليزيد الفقير : سمعت بمقام محمد - يعني الذي يبعثه الله فيه ؟ قلت : نعم . قال : فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج - يعني من النار وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنمين .

وعن أنس نحوه ، وقال : فهذا المقام المحمود الذي وعده .

وعن سلمان : المقام المحمود هو الشفاعة في أمته يوم القيمة .

ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال قتادة : كان أهل العلم يرون المقام المحمود هو شفاعته يوم القيمة ، وعلى أن المقام المحمود مقامه عليه الصلاة والسلام للشفاعة مذاهب السلف من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين .

وبذلك جاءت الشفاعة مفسرة في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت

(١) لم أقف عليه .

مقالة في تفسيرها شاذة عن بعض السلف ؛ يجب ألا تثبت ، إذ لم يعتصمها صحيح أثر ، لا سند نظر .

ولو صحت لكان لها تأويل غير مستنكر ، لكن ما فسره النبي ﷺ في صحيح الآثار يرده ، فلا يجب أن يلتفت إليه ، مع أنه لم يأت في كتاب ولا سنة ، ولا اتفق على المقالة ، وفي إطلاق ظاهره منكر من القول وشنة .

وفي رواية أنس وأبي هريرة وغيرهما ، دخل حديث بعضهم في حديث بعض : قال : « يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيمة فيهمون - أو قال : فيلهمون - فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا » <sup>(١)</sup> .

ومن طريق آخر عنه : « ماج الناس بعضهم في بعض » <sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة : « وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقولون : ألا تنتظرون من يشفع لكم ؟ فيأتون آدم فيقولون » - زاد بعضهم : « أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفع فيك من روحه ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمتك أسماء كل شيء ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا ، ألا ترى ما نحن فيه ؟

فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحًا فيقولون : أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما بلغنا ! ألا تشعرون لنا إلى ربكم ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي » .

قال في رواية أنس : « ويدرك خطبته التي أصاب : سؤاله ربه بغير علم » .

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه : « وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي ، اذهبوا إلى غيري . اذهبوا إلى إبراهيم ، فإنه خليل الله » فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنتنبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربكم ، ألا ترى ما نحن فيه ؟

(١) سبق تخريرجه .

(٢) لم أقف عليه .

فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً .. « فذكر مثله ، ويدرك ثلات كلمات كذبهن « نفسي ، نفسي ، لست لها ، ولكن عليكم بموسى ، فإنه كليم الله ». .

وفي رواية : « فإنه عبد آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه تحياً - قال : يأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ويدرك خطبته التي أصاب ، وقتله النفس ، نفسي نفسي ، ولكن عليكم بيعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . .

فأؤتي ، فأقول : أنا لها . .

فأنطلق فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ». .

وفي رواية : « فأتى تحت العرش ، فأخر ساجداً ». .

وفي رواية : « فأقام بين يديه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها الله ». .

وفي رواية : « فيفتح الله علىٰ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلني ». .

قال : وفي رواية أبي هريرة : « فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واسفع تشفع ، فأرفع رأسني ، فأقول : يا رب ، أمتي ، يا رب ، أمتي . فيقول : أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس في ما سوى ذلك من الأبواب ». <sup>(١)</sup>

ولم يذكر في رواية أنس هذا الفصل ، وقال مكانه : « ثم أخر ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واسفع تشفع ، وسل تعطه . فأقول : يا رب ، أمتي ، أمتي . فيقال : انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه ، فأنطلق فأفعل . ثم أرجع إلى ربي ، فأحمده بتلك المحامد ... » وذكر مثل الأول ، وقال فيه : « مثقال حبة من خردل . قال : فأفعل ، ثم أرجع ... » وذكر مثل ما تقدم ، وقال فيه : « من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل ، فأفعل ». .

(١) سبق تخريرجه .

وذكر في المرة الرابعة : « فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع وسل تعطه .

فأقول : يا رب ، ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله . قال : ليس ذلك إليك ولكن عزتي وكبرياتي وعظمتي وجبروتني لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله » .

ومن رواية قتادة عنه ، قال : « فأقول : يا رب ، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن » ، أي : وجب عليه الخلود <sup>(١)</sup> .

وعن أبي بكر ، وعقبة بن عامر ، وأبي سعيد ، وحذيفة مثله ، قال : « فيأتون محمداً فيؤذن له ، وتأتي الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط » <sup>(٢)</sup> .

وذكر في رواية أبي مالك ، عن حذيفة : « فيأتون محمداً فيشفع ، فيضرب الصراط ، فيمرون : أولهم كالبرق ، ثم كالريح ، والطير ، وشدّ الرجال ، ونبيكم عليه الصراط يقول : اللهم سلم سلم . حتى يجتاز الناس » . وذكر آخرهم جوازاً . الحديث .

وفي رواية أبي هريرة : « فأكون أول من يجيز » .

وعن ابن عباس ، عنه عليه السلام : « يوضع للأنبياء منابر يجلسون عليها ، ويبقى منبرى لا جلس عليه ، قائماً بين يدي ربي متنصباً ، فيقول الله تبارك وتعالى : ما تريد أن أصنع بأمتك ؟ فأقول : يا رب ، عجل حسابهم فيدعى بهم ، فيحاسبون ، فمنهم من يدخل الجنة برحمته ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ، ولا أزال أشفع حتى أعطي صكاكاً برجال قد أمر بهم إلى النار ، حتى إن خازن النار ليقول : يا محمد ، ما تركت لغضب ربك في أمتك من نعمة » .

ومن طريق زياد التميري ، عن أنس أن رسول الله عليه السلام قال : « أنا أول من تنفلق الأرض عن ججمتها ولا فخر ، وأنا سيد الناس يوم القيمة ولا فخر ، ومعي لواء الحمد يوم القيمة ، وأنا أول من تفتح له الجنة ولا فخر ، فآتني فآخذ بحلقة الجنة ، فيقال : من هذا ؟ فأقول : محمداً ، فيفتح لي ، فيستقبلني الجبار تعالى ، فآخر له ساجداً .. » وذكر نحو ما

(١) مسلم في الإيمان (١٩٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥) .

(٢) سبق تخريرجه .

تقدّم .

ومن رواية أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لأشفعن يوم القيمة لأكثر ما في الأرض من حجر وشجر » .

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته ﷺ ، ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها ، من حين يجتمع الناس للحشر ، وتفصيق بهم الحناجر ، وبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه ، وذلك قبل الحساب ، فيشفع حينئذ لإراحة الناس من الموقف ، ثم يوضع الصراط ويحاسب الناس ، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة وحذيفة .

وهذا الحديث أتقن ، فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمهته إلى الجنة - كما تقدم في الحديث - ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم حسب ما تقتضيه الأحاديث الصحيحة ، ثم فيمن قال : لا إله إلا الله ، وليس هذا لسواء ﷺ .

وفي الحديث المنشر الصحيح : « لكل نبي دعوة يدعو بها ، واختبات دعوتي شفاعة لأمتى يوم القيمة » (١) .

قال أهل العلم : معناه دعوة أعلم أنها تستجاب لهم ، وبلغ فيها مرغوبهم ، وإن فكم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة ، ولنبينا ﷺ منها ما لا يعد ، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف ، وضمنت لهم إجابة دعوة في ما شاؤون ، يدعون بها على يقين من الإجابة . وقد قال محمد بن زياد ، وأبو صالح ، عن أبي هريرة في هذا الحديث : « لكل نبي دعوة بها في أمهته ، فاستجيب له ، وأنا أريد أن أدخل دعوتي شفاعة لأمتى يوم القيمة » .

وفي رواية أبي صالح : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته » .

ونحوه في رواية أبي زرعة عن أبي هريرة .

وعن أنس مثل رواية ابن زياد ، عن أبي هريرة .

فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة مضمونة الإجابة ﷺ ، وإن فقد أخبر

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٧٤) ، ومسلم في الإيمان (١٩٨ / ٣٣٤) عن أبي هريرة .

أنه سأله ألمته أشياء من أمور الدين والدنيا وأعطي بعضها ، ومنع بعضها ، وادخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة ، وخاتمة المحن ، وعظيم السؤال والرغبة .

جزاه الله أحسن ما جزى نبياً عن ألمته ، عليه السلام كثيراً .

## الفصل الحادي عشر في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي ، والفقير أبو الوليد هشام بن أحمد ، بقراءتي عليهما ، قالا : حدثنا أبو علي الغساني ، حدثنا النمرى ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر التمار ، حدثنا أبو داود ، حدثنا محمد بن سلمة ، حدثنا ابن وهب ، عن ابن لهيعة ، وحبيبة ، وسعيد بن أبي أيوب ، عن كعب بن علقة ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع النبي صلوات الله عليه يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرة ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تتبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة » <sup>(١)</sup> .

وفي حديث آخر عن أبي هريرة : « الوسيلة أعلى درجة في الجنة » .

وعن أنس : قال رسول الله صلوات الله عليه : « بينما أنا أسيء في الجنة إذ عرض لي نهر حافته قباب المؤلو . قلت لجبريل : ما هذا ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكم الله » . قال : « ثم ضرب بيده إلى طينه ، فاستخرج مسكاً » <sup>(٢)</sup> .

وعن عائشة وعبد الله بن عمرو مثله ، قال : « ومجراه على الدر والياقوت ، وما ورثه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج » .

وفي رواية عنه : « فإذا هو يجري ، ولم يشق شقّا ، عليه حوض ترد عليه أمتى ... » .

(١) مسلم في الصلاة (٣٨٤ / ١١) .

(٢) البخاري في التفسير (٤٩٦٤) .

وذكر حديث الحوض .

ونحوه عن ابن عباس .

وعن ابن عباس أيضاً ، قال : الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه .

وقال سعيد بن جبير : والنهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله .

وعن حذيفة فيما ذكر عَنْ رَبِّهِ عن ربه : « وأعطاني الكوثر ، وهو نهر في الجنة ، يسيل في حوضي » <sup>(١)</sup> .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضْتَ » [الضحى : ٥] قال : ألف قصر من لؤلؤ ، ترابهن المسك ، وفيه ما يصلحهن .

وفي رواية أخرى : وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم .

## الفصل الثاني عشر

### الأحاديث الواردة في النهي عن تفضيله

فإن قلت : إذا تقرر من دليل القرآن ، وصحيح الأثر ، وإجماع الأمة - كونه أكرم البشر ، وأفضل الأنبياء - فما معنى الأحاديث الواردة بنهيء عن التفضيل ؟ كقوله فيما حدثنا الأسدى : قال : حدثنا السمرقندى ، حدثنا الفارسي ، حدثنا الجلودى ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم ، حدثنا ابن مثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة : سمعت أبا العالية يقول : حدثني ابن عم نبيكم عَنْ رَبِّهِ - يعني ابن عباس ، عن النبي عَنْ رَبِّهِ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » <sup>(٢)</sup> .

وفي غير هذا الطريق عن أبي هريرة قال - يعني رسول الله عَنْ رَبِّهِ : « ما ينبغي لعبد... » الحديث .

وفي حديث أبي هريرة في اليهودي الذي قال : والذي اصطفى موسى على البشر ، فلطمته رجل من الأنصار ، قال : تقول ذلك رسول الله عَنْ رَبِّهِ بين أظهرنا !

(١) انظر السابق .

(٢) سبق تخریجه .

بلغ ذلك النبي ﷺ . فقال : « لا تفضلوا بين الأنبياء » <sup>(١)</sup> وفي رواية : « لا تخيروني على موسى ... » <sup>(٢)</sup> فذكر الحديث .

وفيه « ولا أقول : إن أحداً أفضل من يونس بن متى » .

وعن أبي هريرة : « من قال : أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » <sup>(٣)</sup> .

وعن ابن مسعود : « لا يقولون أحدكم : أنا خير من يونس بن متى » .

وفي حديثه الآخر : فجاءه ﷺ رجل ، فقال له : يا خير البرية ، فقال : « ذاك إبراهيم ... » .

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات :

أحداها : أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، فنهى عن التفضيل ؛ إذ يحتاج إلى توقيف ، وأن من فضل بلا علم فقد كذب .

وكذلك قوله : « لا أقول إن أحداً أفضل منه » لا يقتضي تفضيله هو ؛ وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل .

الوجه الثاني : أنه قال ﷺ على طريق التواضع ، ونفي التكبر والعجب ؛ وهذا لا يسلم من الاعتراض .

الوجه الثالث : ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تقصص بعضهم ، أو الغض منه ، لا سيما في جهة يونس عليه السلام ؛ إذ أخبر الله عنه بما أخبر لثلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غضاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة ؛ إذ قال تعالى عنه : « إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلُكَ الْمَسْحُونِ » [الصافات : ١٤٠] « إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَطَنَّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ » [الأنبياء : ٨٧] ، فرعاً يخيل له لا علم عنده حطيطته بذلك .

الوجه الرابع : منع التفضيل في حق النبوة والرسالة ، فإن الأنبياء فيها على حد واحد؛ إذ هي شيء واحد لا يتفاضل ، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص ، والكرامات ، والرتب ، والألطفاف ، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل ، وإنما التفاضل

(١) سبق تخرجه .

(٢) البخاري في التفسير (٤٦٠٤) .

بأمورٍ أخر زائدةٌ عليها؛ ولذلك منهم رسلٌ، ومنهم أولو عزمٍ من الرسل، ومنهم من رفع مكاناً علياً، ومنهم من أوتي الحكم صبياً، وأوتي بعضهم الربر، وببعضهم البينات، ومنهم من كلام الله، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ، قال الله تعالى: «ولَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ» [الإسراء: ٥٥]. وقال: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ» [البقرة: ٢٥٣].

قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته، واختصاصه من كلام أو خلقة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه، وتحف ولاته، واحتياطاته.

وقد روي أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلنَّبُوَةِ أَنْقَالًا، وَإِنَّ يُونَسَ تَفْسِخُ مِنْهَا تَفْسِخَ الرِّبْعِ». حفظ رسول الله ﷺ موضع الفتنة من أوهام من يسبق إليه بسببها حرج في نبوته، أو قدح في اصطفائه، وحطّ عن رتبته، ووهن في عصمته، شفقة منه ﷺ على أمته.

وقد يتوجه على هذا الترتيب، وجه خامس، وهو أن يكون «أنا» راجعاً إلى القائل نفسه؛ أي: لا يظن أحد - وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة - ما بلغ - أنه خير من يونس؛ لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار لم تحطه عنها حبة خردل ولا أدنى.

ونزيد في القسم الثالث في هذا بياناً إن شاء الله تعالى، فقد بان لك الغرض، وسقط بما حررناه شبهة المفترض.

وبالله التوفيق، وهو المستعان لا إله إلا هو.

### الفصل الثالث عشر

#### في أسمائه بِسْمِ اللَّهِ، وما تضمنته من فضيلته

حدثنا أبو عمران موسى بن أبي تليد الفقيه، قال: حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصيغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا يحيى، حدثنا

مالك ، عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكَفَرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسَ عَلَى قَدْمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ »<sup>(١)</sup> .

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً ، وأحمد .

فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماء ثناءه ، وطوى أثناء ذكره عظيم شكره .  
فأما اسمه أحمد فأفعل ، مبالغة من صفة الحمد .

ومحمد : مفعل ، مبالغة من كثرة الحمد ، فهو ﷺ أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمودين ، وأحمد الحامدين ، ومعه لواء الحمد يوم القيمة ليتم له كمال الحمد ، ويتشهر في تلك العرَصَات بصفة الحمد ، ويعيشه ربه هناك مقاماً مهومداً كما وعده ، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم ، ويفتح عليه فيه من المحامد - كما قال ﷺ - ما لم يعط غيره ، وسمى أمته في كتب أئبياته بالحامدين ، فحقيقة أن يسمى محمداً وأحمد . ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته - فن آخر ، وهو أن الله جل اسمه حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه .

أما أحمد الذي أتى في الكتب ويشيرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره ، ولا يدعى به مَدْعُواً قبله حتى لا يدخل لبسُ على ضعيف القلب أو شك . وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ، رجاء أن يكون أحدهم هو ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهم : محمد بن أبي حمزة بن الجراح الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد بن خزاعي السلمي ، لا سابع لهم .

ويقال : أول من تسمى بـ محمد : محمد بن سفيان . واليمن تقول : بل محمد بن الْيَحْمِدِ من الأزد .

ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعىها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تتحققت السمعتان له ﷺ ، ولم ينزع فيهما .

(١) البخاري في المناقب (٣٥٣٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤ / ١٢٤) .

وأما قوله عليه السلام : « وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر » ففسر في الحديث . ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب ، وما زُوي له من الأرض ، ووعد أنه يبلغه ملك أمنته ، أو يكون المحو عاماً ، بمعنى الظهور والغلبة ، كما قال تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ لَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبه : ٣٣] .

وقد ورد تفسيره في الحديث أنه الذي محيت به سينات من أتبعه .

وقوله : « وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي » ؛ أي : على زماني وعهدي ؛ أي : ليس بعدينبي ، كما قال : وخاتم النبيين .

وسمى عاقباً ؛ لأنَّه عقب غيره من الأنبياء .

وفي الصحيح : « أنا العاقب الذي ليس بعدينبي » .

وقيل : معنى « على قدمي » ؛ أي : يحشر الناس بمشاهدتي ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقيل : « على قدمي » : على سابقتي ، قال الله تعالى : ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدْمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] . وقيل : « على قدمي » ؛ أي : قدامي ، وحولي ؛ أي : يجتمعون إلى يوم القيمة . وقيل : « على قدمي » : على سنتي .

ومعنى قوله : « لي خمسة أسماء » : قيل : إنها موجودة في الكتب المتقدمة وعند أولى العلم من الأمم السالفة ، والله أعلم . وقد روي عنه عليه السلام : « لي عشرة أسماء » ، وذكر منها : طه ويس . وحكاه مكي . وقد قيل في بعض تفسير طه : إنه يا طاهر ، يا هادي ، وفي يس : يا سيد ، حكاه السلمي عن الواسطي ، وجعفر بن محمد .

وذكره غيره : « لي عشرة أسماء » ، فذكر الخمسة التي في الحديث الأول ، قال : « وأنا رسول الرحمة ، ورسول الراحة ، ورسول الملاحم ، وأنا المُفْعِي ، قَفَّيْتَ النَّبِيَّنَ ، وأنا قَيْمَ » .

والقيم : الجامع الكامل ، كذا وجدته ، ولم أروه .

وأرى أن صوابه قُثم - بالثاء - كما ذكرناه بعد عن الحربي ، هو أشبه بالتفسير .

وقد وقع أيضاً في كتب الأنبياء ، قال داود عليه السلام : اللهم ابعث لنا محمداً مقيم السنة بعد الفترة فقد يكون القيم بمعناه . وروى النقاش عنه عليه السلام : « لي في القرآن سبعة أسماء : محمد ، وأحمد ، ويس ، وطه ، والمدثر ، والمزمل ، وعبد الله » .

وفي حديث عن جابر بن مطعم رضي الله عنه : هي ست : « محمد ، وأحمد ، وخاتم ، وعاقب ، وحاسرون ، وماح » .

وفي حديث أبي موسى الأشعري - أنه كان عليه السلام يسمى لنفسه أسماء ، فيقول : « أنا محمد ، وأحمد ، والمقفي ، ونبي التوبة ، ونبي الملهمة ، ونبي الرحمة » <sup>(١)</sup> .  
ويرى : « الرحمة ، والراحة » . وكل صحيح إن شاء الله .  
ويعنى المقفي معنى العاقب .

وأما نبي الرحمة والتوبة والرحمة والراحة فقال تعالى : « **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** » [ الأنبياء : ١٠٧ ] ، وكما وصفه بأنه يزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم ، **« بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** » [ التوبة : ١٢٨ ] .  
وقال في صفة أمته : « إنها أمة مرحومة » .

وقال الله تعالى فيهم : « **وَتَوَاصَوْا بِالصَّرِّ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ** » [ البلد : ١٧ ] ؛ أي : يرحم بعضهم بعضاً ، فبعثه ربه تعالى رحمة لأمته ، ورحمة للعالمين ، ورحيمًا بهم . ومترحمًا ومستغفراً لهم ، وجعل أمته أمة مرحومة ، ووصفها بالرحمة .

وأمرها عليه السلام بالترحم ، وأثنى عليه ، فقال : « إن الله يحب من عباده الرحماء » <sup>(٢)</sup> .  
وقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . وأما رواية نبي الملهمة فإشارة إلى ما بُعث به من القتال والسيف عليه السلام ، وهي صحيحة . وروى حذيفة مثل حديث أبي موسى ، وفيه : « ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملائم » وروى الحربي في حديثه عليه السلام أنه قال : « أتاني ملك فقال لي : أنت قُمُّ » ، أي : مجتمع قال : والقُوْمُ : الجامع للخير ، وهذا اسم هو في أهل بيته معلوم .

وقد جاءت من ألقابه عليه السلام وسماته في القرآن عدة كثيرة سوى ما ذكرناه ، كالنور

(١) مسلم في الفضائل (٢٢٥٥ / ١٢٦).

(٢) البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (٩٢٣ / ١١) عن أسماء بن زيد .

والسراج المنير ، والمنذر ، والتنذير ، والبشر ، والبشير ، والشاهد ، والشهيد ، والحق المبين ، وخاتم النبيين ، والرؤوف الرحيم ، والأمين ، وقدم الصدق ، والنجم الثاقب ، والكريم والنبي الأمي ، وداعي الله في أوصاف كثيرة ، وسمات جليلة .

وجرى منها في كتب الله المتقدمة ، وكتب أئبياته ، وأحاديث رسوله ، وإطلاق الأمة جملة شافية ، وكتسميه بالمصطفى ، والمجتبى ، وأبي القاسم ، والخبيب ، ورسول رب العالمين ، والشفيع ، والتقى ، والمصلح ، والطاهر ، والمهيمن ، والصادق ، والمصدق ، والهادى ، وسيد ولد آدم ، وسيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المجلين ، وحبيب الله ، وخليل الرحمن ، وصاحب الخوض المورود والشقاوة ، والقان المحمود ، وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وصاحب التاج والمعراج ، واللواء ، والقضيب ، وراكب البارق والناقة والنجيب ، وصاحب الحجة والسلطان ، والخاتم ، والعلامة والبرهان ، وصاحب الهرأوة والتعلين .

ومن أسمائه في الكتب : المُتوكِل ، والمختار ، ومقيم السنة ، والمُقدَّس ، وروح الْقُدُّس ، وروح الحق ، وهو معنى البارِقليط في الإنجيل . وقال ثعلب : البارِقليط : الذي يفرق بين الحق والباطل .

ومن أسمائه في الكتب السالفة : ماذ ماذ ، ومعناه : طيب طيب ، وجمَّاطاًيا والخاتم ، والخاتم حكاه كعب الأحبار . قال ثعلب : فالخاتم الذي ختم الله به الأنبياء . والخاتم : أحسن الأنبياء خلَقاً وخلُقاً . ويسمى بالسريانية : مُشَقَّعُ الْمُتَحَمِّنَ ، واسمه في التوراة أُخِيد - روي ذلك عن ابن سيرين . ومعنى صاحب القضيب؛ أي : السيف ، وقع ذلك مفسراً في الإنجيل : قال : معه قضيب من حديد يقاتل به ، وأمته كذلك . وقد يحمل على أنه القضيب المشوق الذي كان يمسكه بِكَلَّةٍ ، وهو الآن عند الخلفاء . وأما الهرأوة التي وصف بها فهي في اللغة العصا وأراها - والله أعلم - العصا المذكورة في حديث الخوض : «أذُوذ الناس عنه بعصاي <sup>(١)</sup>». لأهل اليمن . وأما التاج فلم يراد به العمامة ، ولم تكن حينئذ إلا للعرب ، والعمائم تيجان العرب . وأوصافه ، وألقابه ، وسماته في الكتب كثيرة ، وفيما ذكرناه منها مقنع إن شاء الله .

(١) مسلم في الفضائل (١/٣٧) عن ثوبان .

وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم .

وروي عن أنس أنه لما ولد له إبراهيم جاءه جبريل فقال له : السلام عليك يا أبا إبراهيم .

## الفصل الرابع عشر

### في تشريف الله تعالى له بما سماه من أسمائه الحسنة ووصفه به من صفاته العلا

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله تعالى : ما أحرى هذا الفصل بفصل الباب الأول ، لأنخراطه في سلك مضمونها ، وامتزاجه بعدب معينها ، ولكن لم يشرح الله الصدر للهداية إلى استنباطه ، ولا أنار الفكر لاستخراج جوهره والتقطاه إلا عند الخوض في الفصل الذي قبله ، فرأينا أن نضيفه إليه ، ونجمع به شمله .

فاعلم أن الله تعالى خصّ كثيراً من الأنبياء بكرامة خلّعها عليهم من أسمائه .

تسمية إسحاق وإسماعيل بعليم وحليم ، قال الله تعالى **﴿وَبَشَّرَهُ بِغَلامٍ عَلِيمٍ﴾** [الذاريات : ٢٨] وقال تعالى : **﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغَلامٍ حَلِيمٍ﴾** [الصفات : ١٠١] ، وإبراهيم بحليم قال الله تعالى : **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهُ حَلِيمٌ﴾** [التوبه : ١١٤] ، ونوح بشكور ، قال الله تعالى : **﴿ذُرِّيَّةٌ مَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾** [الإسراء : ٣] ، وعيسى ويحيى ببر ، قال الله تعالى : **﴿وَبَرَا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا﴾** [مريم : ١٤] . وقال تعالى : **﴿وَبَرَا بِوَالِدَتِي﴾** [مريم : ٣٢] ، وموسى بكريم وقوى ، قال الله تعالى : **﴿وَجَاءُهُمْ رَسُولٌ﴾** **﴿كَرِيمٌ﴾** [الدخان : ١٧] وقال تعالى : **﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَتِ الْقَوْيُ الْأَمِينُ﴾** [القصص : ٢٦] ، ويوفى بحفيظ عليم ، قال الله تعالى : **﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَرَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظَ عَلِيمٌ﴾** [يوسف : ٥٥] ، وأيوب بصابر ، قال الله تعالى : **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [ص : ٤٤] ، وإسماعيل بصدق الوعد ، كما نطق بذلك الكتاب العزيز من مواضع قال الله تعالى : **﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾** [مريم : ٥٤] .

وفضل نبينا محمد ﷺ: بأن حلاه منها في كتابه العزيز ، وعلى السنة أنبيائه بعده كثيرة اجتمع لنا منها جملة بعد إعمال الفكر ، وإحصار الذكر ؛ إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين ، ولا من تفرغ فيها لتأليف فصلين.

وحررنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين اسمًا ، ولعل الله تعالى - كما ألهم إلى ما علم منها وحققه - يتم النعمة بإبانة ما لم يظهره لنا الآن ، ويفتح غلقه.

فمن أسمائه تعالى : الحميد ، ومعناه المحمود ؛ لأنَّه حمد نفسه ، وحمده عباده ، ويكون أيضًا بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات .

وسمى الله تعالى النبي ﷺ محمداً ، وأحمد ؛ فمحمد بمعنى محمود وكذا وقع اسمه في زبور داود .

وأحمد بمعنى أكبر من حمد ، وأجل من حمد ، وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله :  
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن أسمائه تعالى : الرؤوف الرحيم وهما بمعنى متقارب .

وقد سماه في كتابه بذلك ، فقال : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفُ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: ١٢٨] .

ومن أسمائه تعالى : الحق المبين . ومعنى الحق : الموجود ، والتحقق أمره . وكذلك المبين ؛ أي : البين أمره وإلهيته .

بان ، وأبان بمعنى واحد . ويكون بمعنى المبين لعباده دينهم ومعادهم .

وسمى النبي ﷺ بذلك في كتابه ، فقال : ﴿هَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩] . وقال تعالى : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] . وقال تعالى : ﴿فَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨] . وقال : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: ٥] ، وقيل : محمد . وقيل : القرآن . ومعناه هنا ضد الباطل ، والتحقق صدقه وأمره - وهو بمعنى الأول .

والبين : البين أمره ورسالته ، أو المبين عن الله ما بعثه به ، كما قال تعالى : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [التحل: ٤٤] .

ومن أسمائه تعالى : النور ، ومعناه ذو النور ؛ أي : خالقه ، أو منور السموات

والأرض بالأنوار ، ومنور قلوب المؤمنين بالهدایة .

وسماه نوراً ، فقال : **﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾** [المائدة: ٢٥] . قيل : محمد ، وقيل : القرآن . وقال فيه : **﴿وَسَرَاجًا مُّنِيرًا﴾** [الأحزاب: ٤٦] ، سمي بذلك لوضوح أمره ، وبيان نبوته ، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به .

ومن أسمائه تعالى : الشهيد ، ومعناه العالم . وقيل : الشاهد على عباده يوم القيمة . وسماه شهيداً وشاهدأ ، فقال : **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾** [الأحزاب: ٤٥] ، الفتح [٨] : وقال تعالى : **﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** [البقرة: ١٤٣] ، وهو بمعنى الأول .

ومن أسمائه تعالى : الكريم ؟ ومعناه الكثير الخير . وقيل : المفضل . وقيل : العفو ، وقيل : العلي .

وفي الحديث المروي في أسمائه تعالى : **«الأكرم»** .

وسماه تعالى كريماً بقوله : **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾** [الحقة: ٤٠] ، والتوكير [١٩] ، قيل : محمد ، وقيل : جبريل .

وقال ﷺ : **«أَنَا أَكْرَمُ وَلَدَ آدَمَ»** (١) .

ومعاني الاسم صحيحة في حقه ﷺ .

ومن أسمائه تعالى : العظيم ، ومعناه الجليل الشأن الذي كل شيء دونه ، وقال في النبي ﷺ : **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [القلم: ٤] .

ووقع في أول سفر من التوراة عن إسماعيل : وسيلد عظيماً لأمة عظيمة ، فهو عظيم وعلى خلق عظيم .

ومن أسمائه تعالى : الجبار ، ومعناه المصلح ، وقيل: القاهر . وقيل: العلي العظيم الشأن . وقيل : المتكبر .

وسمى النبي ﷺ في كتاب داود بجبار ، فقال : تقلد أيها الجبار سيفك ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك .

(١) الترمذى في المناقب (٣٦١٠) عن أنس ، وقال الترمذى : حسن غريب .

ومعناه في حق النبي ﷺ: إما لصلاحه الأمة بالهدایة والتعليم ، أو لقهره أعداء ، أو لعلو منزلته على البشر ، وعظيم خطره .

ونفى عنه تعالى - في القرآن - جبرية التكبر التي لا تليق به ، فقال : **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَنَاحِيْرٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِدِيْهِ﴾** [ق : ٤٥] .

ومن أسمائه تعالى : الخبر ، ومعناه المطلع بكتنه الشيء ، العالم بحقيقةه . وقيل : معناه الخبر .

وقال الله تعالى : **﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾** [الفرقان : ٥٩] .

قال القاضي بكر بن العلاء : المأمور بالسؤال غير النبي ﷺ .

والمسؤول الخبر هو النبي ﷺ .

وقال غيره : بل السائل النبي ﷺ والمسؤول هو الله تعالى ، فالنبي خبير بالوجهين المذكورين ، قيل : لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون علمه ، وعظيم معرفته ، مخبر لأمته بما أذن له في إعلامهم به .

ومن أسمائه تعالى : الفتاح ، ومعناه الحاكم بين عباده ، أو فاتح أبواب الرزق والرحمة ، والمتغلق من أمرهم عليهم ، أو يفتح قلوبهم وبصائرهم لعرفة الحق ، ويكون أيضاً بمعنى الناصر ، كقوله تعالى : **﴿إِن تَسْتَفِتُهُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾** [الأنفال : ١٩] ؛ أي : إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر .

وسما الله تعالى مهداً ﷺ بالفاتح في حديث الإسراء الطويل - من رواية الريبع بن أنس ، عن أبي العالية وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه من قول الله تعالى : « وجعلتكم فاتحًا وخاتمًا » .

وفيه من قول النبي ﷺ في ثنائه على ربه ، وتعديد مراتبه : « ورفع لي ذكري ، وجعلني فاتحًا وخاتمًا » ، فيكون الفاتح هنا بمعنى الحاكم ، أو الفاتح لأبواب الرحمة على أمته ، أو الفاتح لبصائرهم لعرفة الحق والإيذان بالله أو الناصر للحق ، أو المبدئ بهدایة الأمة ، أو المبدأ المقدم في الأنبياء والخاتم لهم ، كمال قال ﷺ : « كنت أول الأنبياء في الخلق ، وأآخرهم في البعث » .

ومن أسمائه تعالى في الحديث : الشكور ، ومعناه المثيب على العمل القليل . وقيل : المثني على المطينين ، ووصف بذلك نبيه نوحًا عليه السلام ، فقال : «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» [الإسراء : ٣] .

وقد وصف النبي ﷺ نفسه بذلك ، فقال : «أَفَلَا أَكُونْ عَبْدًا شَكُورًا» (١) ، أي : معترفًا بنعيم ربى ، عارفًا بقدر ذلك ، مثنياً عليه ، مجهدًا نفسى في الزيادة من ذلك ؛ قوله تعالى : «لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» [إبراهيم : ٧] .

ومن أسمائه تعالى : العليم ، والعلم ، وعالِم الغيب والشهادة .

ووصف نبيه ﷺ بالعلم ، وخصه بمزية منه ؛ فقال تعالى : «وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» [النساء : ١١٣] وقال : «وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» [البقرة : ١٥١] .

ومن أسمائه تعالى : الأول ، والآخر ، ومعناهما : السابق للأشياء قبل وجودها ، والباقي بعد فنائها .

وتحقيقه أنه ليس له أول ولا آخر .

وقال ﷺ : «كنت أول الأنبياء في الخلق ، وأخرهم في البعث» ، وفسر بهذا قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ» [الأحزاب : ٧] ، فقدم محمد ﷺ .

وقد أشار إلى نحو منه عمر بن الخطاب رض .

ومنه قوله : «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ» (٢) .

وقوله : «أَنَا أَوْلَى مَنْ تَنْشِقُ عَنِ الْأَرْضِ ، وَأَوْلَى مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَأَوْلَى شَافِعٍ ، وَأَوْلَى مَشْفِعٍ» (٣) ، وهو خاتم النبيين ، وأخر الرسل ﷺ .

ومن أسمائه تعالى : القوي : «ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّينِ» [الذاريات : ٥٨] ، ومعناه :

(١) البخاري في التهجد (١١٣٠) ، ومسلم في صفات المنافقين (٧٩/٢٨١٩) عن المغيرة .

(٢) البخاري في الوضوء (٢٣٨) ، ومسلم في الجمعة (٨٥٥ / ٢١) عن أبي هريرة .

(٣) سبق تخريرجه .

القادر .

وقد وصفه الله تعالى بذلك ، فقال : « ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ » [التكوير : ٢٠] . قيل : محمد . وقيل : جبريل .

ومن أسمائه تعالى : الصادق ، في الحديث المأثور .

وورد في الحديث أيضًا اسمه ﷺ بالصادق المصدق .

ومن أسمائه تعالى : الولي ، والمولى ، ومعناهما الناصر ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّمَا وَلِيْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » [المائدة : ٥٥] .

وقال ﷺ : « أَنَا وَلِيٌ كُلَّ مُؤْمِنٍ » <sup>(١)</sup> .

وقال الله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ » [الاحزاب : ٦] .

وقال ﷺ : « مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعُلَيْهِ مَوْلَاهٌ » .

ومن أسمائه تعالى : العفو ، ومعناه الصَّفَوح .

وقد وصف الله تعالى بهذا نبيه في القرآن ، والتوراة ، وأمره بالعفو ، فقال تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ » [الاعراف : ١٩٩] .

وقال : « فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ » [المائدة : ١٣] .

وقال له جبريل وقد سأله عن قوله : « خُذِ الْعَفْوَ » ، قال : أن تعفو عنمن ظلمك .

وقال في التوراة والإنجيل في الحديث المشهور ، في صفتة : ليس بفظ ولا غليظ ، ولكن يعفو ويصفح .

ومن أسمائه تعالى : الهدى ، وهو يعني توفيق الله لمن أراد من عباده ، وبمعنى الدلالة والدعاة . قال الله تعالى : « وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ » [يونس : ٢٥] . وأصل الجميع من الميل . وقيل : من التقديم .

وقيل في تفسير « طه » : إنه يا طاهر ، يا هادي - يعني النبي ﷺ . وقال تعالى له :

(١) لم أقف عليه .

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢].

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الاحزاب : ٤٦].

فالله تعالى مختص بالمعنى الأول ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. ويعني الدلالة ينطلق على غيره تعالى .

ومن أسمائه تعالى : المؤمن المهيمن ، قيل : هما بمعنى واحد ، فمعنى المؤمن في حقه تعالى : المصدق وعده عباده ، والمصدق قوله الحق ، والمصدق لعباده المؤمنين ورسله. وقيل : الموحد نفسه . وقيل : المؤمن عباده في الدنيا من ظلمه ، والمؤمنين في الآخرة من عذابه .

وقيل : المهيمن بمعنى الأمين ، مصغر منه ، فقلب الهمزة هاء .

وقد قيل : إن قولهم في الدعاء : «أمين» : إنه اسم من أسماء الله تعالى ، ومعناه معنى مؤمن . وقيل : المهيمن بمعنى الشاهد والحافظ .

والنبي ﷺ أמין ، ومهيمن ، ومؤمن ، وقد سماه تعالى أمنيا ، فقال : ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير : ٢١].

كان ﷺ يعرف بالأمنين ، وشهر به قبل النبوة وبعدها ، وسماه العباس في شعره مهيمنا في قوله :

ثُمَّ احْتَوَى بَيْتَكَ الْمَهِيمَنَ منْ خَنْدِفَ عَلَيْهِ تَحْتَهَا النُّطُقُ

قال : المراد يا أيها المهيمن ، قاله الفتبي ، والإمام أبو القاسم القشيري .

وقال تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبه: ٦١] ؛ أي : يصدق .

وقال ﷺ : «أنا أمنة لأصحابي» <sup>(١)</sup> ، فهذا بمعنى المؤمن .

ومن أسمائه تعالى : القدوس ، ومعناه المتباه عن الناقص المطهر من سمات الحدث ، وسمى بيت المقدس ؛ لأنَّه يتپهَر فيَهُ من الذنوب ، ومنه : الوادي المقدس وروح القدس .

وَقَعَ فِي كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَسْمَائِهِ ﷺ : الْمَقْدُسُ : أَيْ : الْمَطْهُرُ مِنَ الذنوب ، كَمَا قَالَ

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣١/٢٠٧) عن أبي موسى .

تعالى : **﴿لِيُغْفِرَ لَكُ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرَ﴾** [النَّفْعَ : ٢] ، أو الذي يتظاهر به من الذنوب ، ويتنزه باتباعه عنها ، كما قال : **﴿وَيُزَكِّيْهِمْ﴾** [البَّقَرَةَ : ١٢٩] .

وقال تعالى : **﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ﴾** [الْمَائِدَةَ : ١٦] .

أو يكون مقدساً بمعنى مطهراً ، من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنية .

ومن أسمائه تعالى : العزيز ، ومعناه : المتنع الغالب ، أو الذي لا نظير له ، أو المعز لغيره ، وقال تعالى : **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾** [الْمَانِعُونَ : ٨] ؛ أي : الامتناع وجلاله القدر .

وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشرارة والنذارة ، فقال : **﴿يُشَرِّهِمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَرَضْوَانَ﴾** [التوبَةَ : ٢١] .

وقال : **﴿أَنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ بِيَحْيَى﴾** [آل عمران : ٣٩] ، **﴿بِكَلْمَةِ مِنْهُ﴾** [آل عمران : ٤٥] .

أسماء الله تعالى مبشرًا ، ونذيرًا ؛ أي : مبشرًا لأهل طاعته ، ونذيرًا لأهل معصيته .

ومن أسمائه تعالى فيما ذكره بعض المفسرين : طه ، ويس . وقد ذكر بعضهم أيضًا أنهما من أسماء محمد ﷺ وشرف وكرم .

## الفصل الخامس عشر

### استدراك في صفات الخالق والمخلوق

قال القاضي أبو الفضل - وفقه الله : وما أنا أذكر نكتة أذيل بها هذا الفصل ، وأختتم بها هذا القسم ، وأزيف الإشكال بها فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم ، سقين الفهم ، تخلصه من مهاري التشبيه ، وتزحزحه عن شبه التمويه ، وهو أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه في عظمته وكبرياته وملكته ، وحسنى أسمائه ، وعلى صفاته ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يشبه به ، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق ، فلا تشابه في المعنى الحقيقي؛ إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض ، وهو تعالى متره عن ذلك ، بل لم يزل بصفاته وأسمائه ، وكفى في هذا قوله : **﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشُّورِيَّ : ١١] .

ولله درٌ من قال من العلماء العارفين المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا مُعطلة عن الصفات .

وزاد هذه النكتة الواسطي - رحمه الله - بياناً ، وهي مقصودنا ، فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمها اسم ، ولا ك فعله فعل ، ولا كصفته صفة ، إلا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القدية أن تكون لها صفة حديثة ، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قدية .

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنّة والجماعة ثانية .

وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيري - رحمه الله - قوله هذا ، لزيده بياناً ، فقال : هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد ، وكيف تشبه ذاته ذات المحدثات ، وهي بوجودها مستغنیة ، وكيف يشبه فعله فعل الخلق ، وهو لغير جلب أنس ، أو دفع نقص حصل ، ولا لخواطر وأغراض وجد ، ولا ب مباشرة ومعالجة ظهر ، وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه .

وقال آخر - من مشايخنا : ما توهتموه بأوهامكم ، أو أدركتموه بعقولكم فهو محدث مثلكم .

وقال الإمام أبو المعالي الجوهري : من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبه ، ومن اطمأن إلى النفي المحسن فهو معطل ، وإن قطع بموجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد .

وما أحسن قول ذي النون المصري : حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا علاج ، وصنعه لها بلا مزاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وما تصور في وهمك فالله بخلافه .

وهذا كلام عجيب نفيس محقق ، والفصل الآخر تفسير قوله: **«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»** [الشورى: ١١] .

والثاني تفسير قوله : **«لَا يُسَأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ»** [الأنبياء : ٢٣] . والثالث تفسير قوله : **«إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ تَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»** [النحل : ٤٠] .

ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات والتزريه ، وجنينا طرف الصلاة والغواية من التعطيل والتشبيه بمنه ورحمته .

## الباب الرابع

في ما أظهره الله تعالى على يديه  
من المعجزات وشرفه به  
من الخصائص والكرامات

## الفصل الأول

### المقدمة

قال القاضي أبو الفضل : حسب المتأمل أن يتحقق أن كتابنا هذا لم نجتمعه لمنكر نبوة نبينا صلوات الله عليه ، ولا لطاعن في معجزاته ، فنحتاج إلى نصب البراهين عليها ، وتحصين حوزتها ، حتى لا يتوصل المطاعن إليها ، ونذكر شروط العجز والتحدي وحده ، وفساد قول من أبطل نسخ الشرائع ، ورده ؛ بل الفناه لأهل ملته ، المليين لدعوته ، والمصدقين لنبوته ؛ ليكون تأكيداً في محبتهم له ، ومنمة لأعمالهم ، ولزيدادوا إيماناً مع إيمانهم .

ونتيت أن نثبت في هذا الباب أمهات معجزاته ، ومشاهير آياته ، لتدل على عظيم قدره عند ربه . وأتينا منها بالحق والصحيح الإسناد ، وأكثره مما بلغ القطع أو كاد ، وأضفنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كتب الأئمة .

وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه ، وجملة كماله ، وجميع خصاله ، وشاهد حاله ، وصواب مقاله لم يمتر في صحة نبوته ، وصدق دعوته .

وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به فروينا عن الترمذى ، وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم : أن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله صلوات الله عليه المدينة جتته لأنظر إليه ، فلما استنبطت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب .

حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي - رحمة الله ، قال : حدثنا أبو الحسين الصيرفي ، وأبو الفضل بن خiron ، عن أبي يعلى البغدادي ، عن أبي علي السنجى ، عن ابن محبوب ، عن الترمذى ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، و محمد ابن جعفر ، وابن أبي عدي ، ويعينى بن سعيد ، عن عوف بن أبي جميلة الأعرابى ، عن زرارة بن أوفى ، عن عبد الله بن سلام . . . الحديث .

وعن أبي رمثة التيمى : أتى النبي صلوات الله عليه ، ومعي ابن لي ، فأررته ، فلما رأيته قلت : هذا نبي الله .

وروى مسلم وغيره : أن ضماداً لما وفد عليه ، فقال له النبي صلوات الله عليه : « إن الحمد لله ،

نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، من يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » قال له : أعد علىَ كلاماتك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبأيتك <sup>(١)</sup> .

وقال جامع بن شداد : كان رجل منا يقال له : طارق ، فأخبر أنه رأى النبي ﷺ بالمدينة ، فقال : « هل معكم شيءٍ تباعونه؟ » قلنا : هذا البعير ، قال : « بكم؟ » قلنا : بكذا وكذا وسقاً من تمر ، فأخذ بخطامه ، وسار إلى المدينة ، فقلنا : بعنا من رجل لا ندري من هو ، ومعنا ظعينة ، فقالت : أنا ضامنة لثمن البعير ، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر لا يخس بكم . فأصبحنا ، فجاء رجل بتمر فقال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم ، يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر ، وتكلالوا حتى تستوفوا . ففعلنا .

وفي خبر الجلندي ملك عمان - لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام - قال الجلندي : والله ، لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول أخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يطر ويفعل فلا يضجر ، وفي العهد ، وينجز الموعود ، وأشهد أنهنبي .

وقال نفطويه في قوله تعالى : « يَكَادُ زِيَّهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسِه نَارٌ » [النور : ٣٥] : هذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآنا . كما قال ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخبر

وقد آن نأخذ في ذكر النبوة والوحى والرسالة ، وبعده في معجزة القرآن ، وما فيه من برهان ودلالة .

## الفصل الثاني

### بين النبوة والرسالة

اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده ، والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداءً دون واسطة لو شاء ، كما حكى عن سنته في بعض الأنبياء .

(١) مسلم في الجمعة (٤٦ / ٨٦٨) عن ابن عباس .

وذكره بعض أهل التفسير في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهَ إِلَّا وَحْيًا» [الشورى: ٥١].

وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه ، وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء ، أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم ، ولا مانع لهذا من دليل العقل .

وإذا جاز هذا ولم يستحل ، وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به ؛ لأن المعجزة مع التحدي من النبي ﷺ قائم مقام قول الله: صدق عبدي فأطعوه واتبعوه ، وشاهدت على صدقه فيما يقوله . وهذا كاف ، والتطويل فيه خارج عن الغرض ، فمن أراد تتبعه وجده مستوفى في مصنفات أئمتنا رحمهم الله .

فالنبوة في لغة من همز مأحوذة من النبأ ، وهو الخبر ، وقد لا يُهمز على هذا التأويل تسهيلا .

والمعنى : أن الله تعالى أطلعه على غيره ، وأعلمته أنه نبي ، فيكون النبي مُباً فعال بمعنى مفعول ، أو يكون مخبرًا عما بعثه الله تعالى به ، ومنبئًا بما أطلعه الله عليه فعال بمعنى فاعل ، ويكون عند من لم يهمزه من النبوة ، وهو ما ارتفع من الأرض ، ومعنى أنه له رتبة شريفة ، ومكانة نبوة عند مولاه منيفة ، فالوصفان في حقه مُتَلَفَان .

وأما الرسول فهو المرسل ، ولم يأت فعول بمعنى مفعل في اللغة إلا نادرًا ، وإرساله أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه ، واشتقاقه من التتابع ، ومنه قولهم : « جاء الناس أرسالا » إذا تبع بعضهم بعضا ، فكانه ألزم تكرير التبليغ ، أو ألزمت الأمة اتباعه .

واختلف العلماء : هل النبي والرسول بمعنى ، أو بمعنىين ؟ فقيل : هما سواء ، وأصله من الإنباء وهو الإعلام ، واستدلوا بقوله تعالى : «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيًّا» [الحج: ٥٢] ، فقد ثبت لهما معًا الإرسال ، ولا يكون النبي إلا رسولا ، ولا الرسول إلانبيا .

وقيل : هما مفترقان من وجه ، إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب ، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك ، وحوز درجتها ، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول ، وهو الأمر بالإذن والإعلام كما قلنا .

وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين ، ولو كانا شيئاً واحداً لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ . قالوا : والمعنى : ما أرسلنا من رسول إلى أمة أو نبي ليس بمرسل إلى أحد .

وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ ، ومن لم يأت به النبي غير رسول ، وإن أمر بالإبلاغ والإذنار .

والصحيح والذي عليه الجماء الغفير : أن كل رسول نبي ، وليس كلنبي رسولا .

وأول الرسل آدم ، وآخرهم محمد ﷺ .

وفي حديث أبي ذر رض : « إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي » <sup>(١)</sup> .

وذكر أن الرسل ومنهم ثلاثة عشر - أولهم آدم عليه السلام .

فقد بان لك معنى النبوة والرسالة ، وليسَتَ عند المحققين ذاتاً للنبي ، ولا وصف ذات ، خلافاً للكرامية ، في تطويل لهم وتهويل ، ليس عليه تعويل .

وأما الوحي فأصله الإسراع ، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجل سمي وحيًا ، وسميت أنواع الإلهامات وحيًا ، تشبّهًا بالوحي إلى النبي ، وسمى الخط وحيًا ، لسرعة حركة يد كاتبه ، ووحي الحاجب واللحظ سرعة إشارتهما ، ومنه قوله تعالى : **﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبَحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾** [مريم : ١١] ، أي : أوما ورمز .

وقيل : كتب ، ومنه قوله : الوحا ، أي : السرعة .

وقيل : أصل الوحي السر والإنفاس ، ومنه سمي الإلهام بـ « وحياً » ، ومنه قوله : « وإن الشياطين لـ يُوحُونَ إِلَيْ أُولَئِكَ [الأنعام : ١٢١] ؟ أي : يوَسُوسُونَ في صدورهم ، ومنه قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ أُمَّ مُوسَى [القصص : ٧] ؟ أي : ألقى في قلوبها .

وقد قيل ذلك في قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا » [الشورى : 51] ، أي : ما يلقى في قلبه دون واسطة .

### الفصل الثالث

#### معنى المعجزات

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة ، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بثلثها ، وهي على ضربين : ضرب هو من نوع قدرة البشر ، فعجزوا عنه ، فتعجيزهم عنه فعل الله دل على صدق نبيه ، كصرفهم عن تبني الموت . وتعجيزهم عن الإتيان بثلث القرآن على رأي بعضهم ، ونحوه .

وضرب هو خارج عن قدرتهم ، فلم يقدروا على الإتيان بثلثه ، كإحياء الموتى ، وقلب العصا حية ، وإن خارج ناقة من صخرة ، وكلام شجرة ، ونبع الماء من الأصابع ، وانشقاق القمر ، مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله ، فكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى وتحديه من يكذبه أن يأتي بثلثه تعجيز له .

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ دلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معاً ، وهو أكثر الرسل معجزة ، وأبهرهم آية ، وأظهرهم برهاناً ، كما سنبينه ، وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط ، فإن واحداً منها وهو القرآن ، لا يحصى عدد معجزاته بآلف ولا ألفين ، ولا أكثر ؛ لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجز عنها .

قال أهل العلم : وأقصر السور : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... ﴾ فكل آية أو آيات منه بعدها وقدرها معجزة ، ثم فيها نفسها معجزات على ما نفصله فيما انطوى عليه من المعجزات .

ثم معجزاته ﷺ على قسمين : قسم منها علم قطعاً ، ونقل إلينا متواتراً كالقرآن ، فلا مرية ، ولا خلاف ، بمجيء النبي به ، وظهوره من قبله ، واستدلاله بحجته ، وإن أنكر هذا معاند جاحد ، فهو كإنكاره وجود محمد ﷺ في الدنيا .

وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به ، فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجزة معلوم ضرورة . ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظرأ ، كما سنشرحه .

قال بعض أئمتنا : ويجري هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه بِحَلَلِهِ آيات وخوارق عادات إن لم يبلغ واحد منها معيناً القطع فيبلغه جميعها ، فلا مرية في جريان معانيها على يديه ، ولا يختلف مؤمن ولا كافر أنه جرت على يديه عجائب ، وإنما خلاف المعاند في كونها من قبل الله .

وقد قدمنا كونها من قبل الله ، وأن ذلك بمتابة قوله : صدقت .

فقد علم وقوع مثل هذا أيضاً من نبينا ضرورة لاتفاق معانيها ، كما يعلم ضرورة جود حاتم ، وشجاعة عترة ، وحلم أحنف ، لاتفاق الأخبار الواردة عن كل واحد منهم على كرم هذا ، وشجاعة هذا ، وحلم هذا ، وإن كان كل خبر بنفسه لا يوجب العلم ، ولا يقطع بصحته .

والقسم الثاني : ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع ، وهو على نوعين : نوع مشهور متشر ، رواه العدد ، وشاع الخبر به عند المحدثين والرواة ونقلة السير والأخبار ، كنبع الماء من بين الأصابع ، وتکثير الطعام .

ونوع منه اختص به الواحد والاثنان ، ورواه العدد اليسير ، ولم يشتهر اشتهر غيره ، لكنه إذا جمع إلى مثله اتفقا في المعنى ، واجتمعا على الإتيان بالعجز ، كما قدمناه .

قال القاضي أبو الفضل : وأنا أقول صدعاً بالحق : إن كثيراً من هذه الآيات المأثورة عنه بِحَلَلِهِ معلومة بالقطع .

أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه ، وأخبر عن وجوده ، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل ، وجاء يرفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة ، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق من حل عرَى الدين ، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين ، بل نرغم بهذا أنفه ، ونبذ بالعراء سخفة .

وكذلك قصة نبع الماء ، وتکثير الطعام رواه الثقات والعدد الكثير عن الجماء الغفير ، عن العدد الكثير من الصحابة .

ومنها ما رواه الكافة عن الكافية متصلة عمن حدث بها من جملة الصحابة وإخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق ، وفي غزوة بواء ، وعمره الحديبية ، وغزوة تبوك ، وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر ، ولم يؤثر عن

أحد من الصحابة مخالفة للراوي فيما حكاه ، ولا إنكار لما ذكر عنهم أنهم رأوه كما رأه ، فسكت الساكت منهم كنطق الناطق ؛ إذ هم المترهون عن السكوت على باطل ، والمداهنة في كذب ، وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم ، ولو كان ما سمعوه منكراً عندهم وغير معروف لديهم لأنكروه ، كما أنكر بعضهم على بعض أشياء رواها من السنن والسير وحروف القرآن ، وخطأ بعضهم بعضاً ، ووهمه في ذلك ، مما هو معلوم ، فهذا نوع كله يلحق بالقطعي من معجزاته لما بيناه .

وأيضاً فإن أمثل الأخبار التي لا أصل لها ، وبنية على باطل ، لا بد بعد مرور الأزمان وتداول الناس وأهل البحث من اكتشاف ضعفها ، وحمل ذكرها ، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة ، والأراجيف الطارئة .

وأعلام نبينا هذه الواردة من طريق الأحاداد لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهوراً ، ومع تداول الفرق ، وكثرة طعن العدو ، وحرصه على توهينها ، وتضييف أصلها ، واجتهد الملحد على إطفاء نورها إلا قوة وقبولاً ، وللطاعنين عليها إلا حسرة وغليلاً .

وكذلك إخباره عن الغيب ، وإنباءه بما يكون وكان ، معلومٌ من آياته على الجملة بالضرورة . وهذا حق لا غطاء عليه ، وقد قال به من أثمننا القاضي والأستاذ أبو بكر وغيرهما رحمهم الله ، وما عندي أوجب قول القائل : « إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد إلا قلة مطالعته للأخبار وروايتها ، وشغله بغير ذلك من المعرف ، وإن من اعنى بطرق النقل وطالع الأحاديث والسير لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه .

ولا يبعد أن يحصل العلم بالتواتر عند واحد ولا يحصل عند آخر ؛ فإن أكثر الناس يعلمون - بالخبر - كون بغداد موجودة ، وأنها مدينة عظيمة ، ودار الإمامة والخلافة ، وأحاداد من الناس لا يعلمون اسمها ، فضلاً عن وصفها ، وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر النقل عنه أن مذهب إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام ، وإجزاء النية في أول ليلة من رمضان عمما سواه ، وأن الشافعي يرى تحذيد النية كل ليلة ، والاقتصار في المسح على بعض الرأس ، وأن مذهبهما القصاص في القتل بالمحدد وغيره ، وإيجاب النية في الوضوء ، وشروط الولي في النكاح ، وأن أبا حنيفة يخالفهما في هذه المسائل ، وغيرهم من لن يستغل بذاته ولا روى أقوالهم لا يعرف

هذا من مذاهبهم فضلاً عن سواه . وعند ذكرنا آحاد هذه العجزات نزيد الكلام فيها بياناً إن شاء الله تعالى .

## الفصل الرابع في إعجاز القرآن

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله :

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب الله العزيز مُنْظَرٌ على وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه :

**أولها** : حسن تأليفه ، والثمام كلامه ، وفصحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاوغته الخارقة عادة العرب ، وذلك أنهم كانوا أرباب هذه الشأن ، وفرسان الكلام ، قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيده الألباب ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريرة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدللون به إلى كل سبب : فيخطبون بديهياً في المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتحزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحال ، ويظفرون من أوصافهم أجمل من سِنْطِ اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويدللون الصعاب ، ويدهبون الإحن ، ويهيجون الدمن ، ويجرثون الجبان ، ويسطون يد الجعد البنان ، ويصيرون الناقص كاملاً ، ويتركون النبيه خاماً ، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى .

ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف في القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية .

وكلاً الباين لهم في البلاغة الحجة البالغة ، والقوة الدامغة ، والقبح الفالج ، والمهيع الناهج ، لا يشكّون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قد حروا فنونها ، واستبطنوا عيونها ، ودخلوا من كل باب من أبوابها ، وعلوا صرحاً لبلغة أسبابها ، فقالوا في الخطير والمهين ، وتفتتوا في الغث والسمين ، وتناولوا في القل

والكثير ، وتساجلوا في النظم والثر ، فما راعهم إلا رسول كريم ، بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تزيل من حكيم حميد ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر إيجازه وإعجازه ، وظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه ، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ، وانطبق - على كثرة فوائده - مختار لفظه ، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا ، وأشهر في الخطابة رجالا ، وأكثر في السجع والشعر سجالا ، وأوسع في الغريب واللغة مقالا ، بلغتهم التي بها يتحاورون ، ومنازعهم التي عنها يتناضلون ، صارخا بهم في كل حين ، ومقرعا لهم بضماعاً وعشرين عاماً على رؤوس الملا أجمعين : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهِ وَأَدْعُوا مِنِ اسْتَطَعُتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » [يونس : ٣٨] .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعُلُوا وَلَنْ تَفْعُلُوا » [البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

و« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » [الإسراء : ٨٨] .

و« قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهِ مُفْتَرَيَاتٍ » [هود : ١٣] . وذلك أن المفترى أسهل ، ووضع الباطل والمختل على الاختيار أقرب ، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب؛ ولهذا قيل : فلان يكتب كما يقال له ، وفلان يكتب كما يريد .

وللأول على الثاني فضل ، وبينهما شأو بعيد .

فلم يزل يقرعهم بِكَلِيلٍ أشد التقرير ، ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويندم آهتهم وآبائهم ، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو في كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجمون عن معاشرته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكميّب ، والإغراء بالافتراء ، وقوله : « إِنْ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ يُؤْثِرُ » [المدثر : ٢٤] ، و« سَحْرٌ مُسْتَمِرٌ » [القمر : ٢] ، و« إِفْكٌ افْتَرَاهُ » [الفرقان : ٤] ، و« أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » [الأنعام : ٢٥] ، والمباهلة والرضا بالدنية ، كقولهم : « قُلُوبُنَا غُلْفٌ » [البقرة : ٨٨] .

و﴿فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنِكَ حِجَاب﴾ [فصلت : ٥].  
 و﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تُغْلِبُونَ﴾ [فصلت : ٢٦].  
 والادعاء مع العجز بقولهم : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال : ٣١].

وقد قال لهم الله : ولن تفعلوا ، فما فعلوا ولا قدروا . ومن تعاطى ذلك من سخافاتهم - كمسيلمة - كشف عواره جميعهم وسلبهم الله ما ألقوه ، من فصيح كلامهم ، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ، ولا جنس بلاغتهم ، بل ولوا عنه مدبرين ، وأتوا مذعنين من بين مهتد و بين مفتون ؛ ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعُدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْظُمُ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [التحل : ٩٠]. قال : والله ، إن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لغدق ، وإن أعلىه لثمر ، وإن يقول هذا بشر . وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : ﴿فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر : ٩٤] فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته . وسمع آخر رجلاً يقرأ : ﴿فَلَمَّا اسْتَيَّسُوا مِنْهُ حَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف : ٨٠] ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وحكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوماً نائماً في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق ، واستخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم من يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها ، فإذا هي قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة ، وهي قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْشُ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاتِرُونَ﴾ [النور : ٥٢].

وحكى الأصمسي : أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حِفْتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزِنِي إِنَّ رَادُورَهُ إِلَيْكِ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٧] ، فجمع في آية واحدة بين أمرتين ونهيin ، وخبرين ، وبشارتين .

فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته ، غير مضاد إلى غيره على التحقيق وال الصحيح من القولين . وكون القرآن من قبل النبي صلوات الله عليه وآله وسالم وأنه أتى به معلوم ضرورة ، وكونه - عليه السلام -

متحدياً به معلومٌ ضرورةً ، وعجز العرب عن الإتيان به معلومٌ ضرورةً ، وكونه في فصاحة خارقاً للعادة معلومٌ ضرورةً للعاملين بالفصاحة ووجوه البلاغة ، وسبيل من ليس من أهلها أن يعلم ذلك بعجز المفكرين من أهلها عن معارضته واعتراف المفسرين بعجزه بلاغته .

وأنت إذا تأملت قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ » [البقرة : ١٧٩] .  
وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخْدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » [سما : ٥١] . وقوله : « ادْفُعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاؤُهُ كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » [فصلت : ٣٤] .  
وقوله : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءَ أَفْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » [هود : ٤٤] .

وقوله : « فَكُلُّا أَخْذُنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلَنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَتْهُ الصِّحَّةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا » [العنكبوت : ٤٠] .

وأشباهها من الآي - بل أكثر القرآن - حققت ما بيته من إيجاز ألفاظها ، وكثرة معانيها ، ودياجة عبارتها ، وحسن تأليف حروفها ، وتلاؤم كلمتها ، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة ، وفصولاً جمة ، وعلوماً زواخر ، ملئت الدواوين من بعض ما استفید منها ، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها .

ثم هو في سرد القصص الطوال ، وأخبار القرون السوالف ، التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ، وينذهب ماء البيان ؟ آية لم تتأمله ، من ربط الكلام بعضه بعض ، والثبات سرده ، وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها .

ثم إذا ترددت قصصه اختللت العبارات عنها على كثرة ترددتها حتى تكاد كل واحدة تنسى في البيان صاحبتها ، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها ، ولا نفور للنفوس من ترديدها ، ولا معاداة لمعادها .

## الفصل الخامس

### إعجاز النظم والأسلوب

الوجه الثاني من إعجازه : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف

لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونشرها الذي جاء عليه ، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مائة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتذهب دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من ثرا أو نظم ، أو سجع أو رجَّ ، أو شعر .

ولما سمع كلامه عليه السلام الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن - رق، فجاءه أبو جهل، منكراً عليه قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. وفي خبره الآخر حين جمع قريشاً عند حضور الموسم ، وقال : إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً ، لا يكذب بعضكم بعضاً ، فقالوا : نقول: كاهن . قال : والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمرة ولا سجعه .

قالوا : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، ولا بخنفه ولا وسوسته .

قالوا : نقول: شاعر . قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه ، وقريضه ، وبسطه ، وقبوضه . ما هو بشاعر ، قالوا : فنقول: ساحر . قال : ما هو ساحر ، ولا نفثه ولا عقده .

قالوا : فما تقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً ، إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول أنه ساحر ، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبيل يحدرون الناس ، فأنزل الله تعالى في الوليد : « ذرني ومنْ خلقتُ وحيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً . وَبَيْنَ شَهُوداً . وَمَهَدْتُ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا عَيْدَاً . سَأْرَهْقَهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَرْ وَقَدَرْ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرْ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرْ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ يُؤْثِرُ » [المثاث : ١١ - ٢٤] .

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن : يا قوم ، قد علمتموني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قوله والله ما سمعت مثله قط ، ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .

وقال النضر بن الحارث نحوه .

وفي حديث إسلام أبي ذر ووصف أخاه أنساً ، فقال : والله ما سمعت بأشعر من

أخي أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعرًا في الجاهلية ، أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ . قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة مما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتبتم ، وما يلتبتم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، وإنه لصادق ، وإنهم لكاذبون .

والأخبار في هذه صحيحة كثيرة .

والإعجاز بكل واحد من النوعين : الإيجاز والبلاغة بذاتها ، أو الأسلوب الغريب بذاتها ، كل واحد منها نوع إعجاز على التحقيق ، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منها ؛ إذ كل واحد منها خارج عن قدرتها ، مباین لفصاحتها وكلامها ، وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين .

وذهب بعض المحققين المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب ، وأتى على ذلك بقولِ تمجيء الأسماع ، وتنفر منه القلوب .  
والصحيح ما قدمناه ، والعلم بهذا كله ضرورة قطعاً .

ومن تفني في علوم البلاغة وأرهف خاطره ولسانه أدبُ هذه الصناعة لم يخف عليه ما  
قلناه .

وقد اختلفت أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه ، فأكثراهم يقول : إنه ما جمع في قوة جزالته ، ونصاعة ألفاظه ، وحسن نظمه ، وإيجازه ، وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر ، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها ، كإحياء الموتى ، وقلب العصا ، وتسبيح الحصى .

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه ما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمتعهم الله هذا ، وعجزهم عنه .  
وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت ، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر ، وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع ، وهو أبلغ في التعجيز ، وأحرى بالترقير ، والاحتجاج بمحاجيٍّ بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم ، وهو أبهأ آية ، وأقمع دلالة .

وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقابل ، بل صبروا على الجلاء والقتل ، وتجروا على كاسات الصغار والذل ، وكانوا من شموخ الأنف ، وإباهة الضيم ، بحيث لا يؤثرون ذلك اختياراً ، ولا يرضونه إلا اضطراراً ، وإنما فالمعارضة لو كانت من قدرهم ، والشغل بها أهون عليهم ، وأسرع بالنجاح وقطع العذر وإفحام الخصم لديهم ، وهم من لهم قدرة على الكلام ، وقدرة في المعرفة به لجميع الأنام ، وما منهم إلا من جهد جهده ، واستنفدت ما عنده في إخفاء ظهوره ، وإطفاء نوره ، فما جلوا في ذلك خبيثة من بنات شفاههم ، ولا أتوا بنطفة من معين مياههم ، مع طول الأمد ، وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ، بل أبلسوا بما نسبوا ، ومنعوا فانقطعوا ، فهذا النوعان من إعجازه .

## الفصل السادس

### الإخبار عن المغيبات

الوجه الثالث من الإعجاز : ما انطوى عليه من الإخبار بالمخيبات ، وما لم يكن ولم يقع ، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر به ، كقوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ » [الفتح : ٢٧] .

وقوله تعالى : « وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سِيَغْلِبُونَ » [الروم : ٣] .

وقوله : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » [التوبه : ٣٣] .

وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُدْلِلُنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونِ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » [النور : ٥٥] .

وقوله : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبَحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا » [النصر : ١ - ٣] .

فكان جميع هذا كما قال ، فغلبت الروم فارس في بضع سنين ، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً ، مما مات بِعَذَابِهِ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام .

واستخلف الله المؤمنين في الأرض ، ومكان فيها دينهم ، وملكيهم إياها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، كما قال عليه السلام : « زويت لي الأرض ، فأربت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ». .

وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » [ الحجر : ٩ ] ، فكان كذلك ، لا يكاد يعد من سعي في تغييره ، وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة ، لا سيما القراءة ، فاجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم ، اليوم نيفاً على خمسة وعشرين عام ، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره ، ولا تغيير كلمة من كلامه ، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه ، والحمد لله .

ومنه قوله : « سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلَّنَ الدُّبُرَ » [ القمر : ٤٥ ] .

وقوله : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » [ التوبه : ١٤ ] .

وقوله : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » [ التوبه : ٣٣ ] .

وقوله : « لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوْكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنَصَّرُونَ »

[ آل عمران : ١١١ ]

فكان كل ذلك .

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ، ومقالاتهم وكذبهم في حلفهم ، وتقريرهم بذلك ، كقوله : « وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ » [ المجادلة : ٨ ] .

وقوله : « يُخْفِونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبَدِّلُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتْلَنَا هَذَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقُتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلَيَتَنِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَحْصَّسَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » [ آل عمران : ١٥٤ ] .

وقوله : « وَمَنِ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرَّفُونَ الْكَلْمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخَدُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدَ اللَّهُ فَتَتِّهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَزِيرٌ وَلَهُمْ

في الآخرة عذاب عظيم ﴿ [المائدة : ٤١] .

وقوله : « منَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَأَيْنَا لِيَا بِأَسْتِهِمْ وَطَعَنَا فِي الدِّينِ ﴾ [النساء : ٤٦] .

وقد قال مبدياً ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر : « وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُونَ أَنَّهُمْ غَيْرُ ذَاتِ الشُّوَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] .

ومنه قوله تعالى : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] . ولما نزلت بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم ؛ وكان المستهزئون نفراً يمكثون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا .

وقوله : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] . فكان كذلك على كثرة من رام ضرره وقصد قتله ، والأخبار بذلك معروفة وصحيحة .

## الفصل السابع

### أخباره عن القرون السالفة والأمم البايدة

الوجه الرابع : ما أنبأ من أخبار القرون السالفة والأمم البايدة والشرايع الدائرة ، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، فيورده النبي ﷺ على وجهه ، ويأتي به على نصه ، فيعرف العالم بذلك بصحنته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم .

وقد علموا أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة<sup>(١)</sup> ، ولم يغب عنهم ، ولا جهل حاله أحد منهم .

وقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه ﷺ عن هذا ، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً ، كقصص الأنبياء مع قومهم ، وخبر موسى والخضر ، ويوسف وإخورته وأصحاب الكهف ، وذي القرنين ، ولقمان وابنه ، وأشباء ذلك من الأنبياء [ والقصص ] ، وبيده الخلق ، وما في التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف إبراهيم وموسى ، مما

(١) مثافنة : مجالسة .

صدقه فيه العلماء بها ، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها ، بل أذعنوا لذلك ، فمن موفق آمن بما سبق له من خير ، ومن شقي معاند حاسد ، ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه ، وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم ، وتقريرهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، وكثرة سؤالهم له عليه السلام ، وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبائهم ، وأسرار علومهم ، ومستودعات سيرهم ، وإعلامه لهم بكتوم شرائعهم ومضمنات كتبهم ، مثل سؤالهم عن الروح ، وذى القرنين ، وأصحاب الكهف ، وعيسى ، وحكم الرجم ، وما حرم إسرائيل على نفسه ، وما حرم عليهم من الأنعام ، ومن طبيات أحلت لهم فحرمت عليهم بغيرهم .

وقوله : « **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَعُوا أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَازَرَهُ فَاسْتَفْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَاعَ لِيغْيِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** » [الفتح : ٢٩] .

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن ، فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك ، أنه أنكر ذلك أو كذبه ، بل أكثرهم صرخ بصحة نبوته ، وصدق مقالته ، واعترف بعناده ، وحسدهم إياه ، كأهل نجران ، وابن صوريا ، وابني أخطب وغيرهم . ومن باهت في ذلك بعض المباحثة ، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دعى إلى إقامة حجته ، وكشف دعوته ، فقيل له : « **فَقُلْ فَأَتُوا بِالْتُّورَاةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** » [آل عمران : ٩٣، ٩٤] .

فقرع ووبخ ، ودعا إلى إحضار ممكِن غير ممتنع ، فمن معترض بما جحده ، ومتواضع يُلقي على فضيحته من كتابه يده .

ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ، ولا أبدى صحيحاً ولا سقيناً من صحفه ، قال الله تعالى : « **يَا أَهْلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنِ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُّلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يَإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ** » [المائدة : ١٥، ١٦] .

## الفصل الثامن

التحدي والتعجيز في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها

هذه الوجوه الأربع من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مരية .

ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه : آي وردت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود : **«قُلْ إِنْ كَانَ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ»** [ البقرة : ٩٤ ، ٩٥ ].

قال أبو إسحاق الزجاج : في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة ، لأنه قال : « فَتَمَّنُوا الْمَوْتَ » ، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً ، فلم يتمنه واحد منهم .

وعن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلا عُصٌّ بِرٍّ يقهٌ» - يعني يومت مكانه . فصرفهم الله عن تمنيه وجزعهم ؛ ليظهر صدق رسوله ، وصححة ما أوحى إليه ؛ إذ لم يتمنه أحد منهم ، وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا ، ولكن الله يفعل ما ي يريد ، ظهرت بذلك معجزته ، وبيان حجته .

قال أبو محمد الأصيلي : من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعة ، ولا واحد من يوم أمر الله بذلك نبيه يقدم عليه ، ولا يجيب إليه . وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يتحمّل منهم . وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى ، حيث وفَدَ عليه أساقة نهران وأبوا الإِسْلَام ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ آيَةَ الْمِبَاهَلَةِ بِقَوْلِهِ : « فَمَنْ حَاجَكَ فِي مَا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَادِبِينَ » [آل عمران : ٦١] . فامتنعوا منها ، ورضوا بأداء الجزية ، وذلك أن « العَاقِبَ » عظيمهم قال لهم : قد علمتم أنه نبي ، وأنه ما لاعنَ قوماً نبيُّ قط فبقي كبارهم ولا صغيرهم .

ومثله قوله : « وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلَنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا » [ البقرة: ٢٣ ، ٢٤ ].

فأخبرهم أنهم لا يفعلون ، كما كان .

وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب . ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها .

## الفصل التاسع

### روعته في السمع وهبته في القلوب

ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته ، لقوه حاله ، وإنافة خطره ، وهي على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستغلون سماعه ، ويزيدهم نفوراً كما قال تعالى ، ويودون انقطاعه لكراهتهم له .

ولهذا قال عليه السلام : « إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه ، وهو الحكم ، وأما المؤمن فلا تزال روعته به ، وهبته إيه ، ومع تلاوته توليه الخذاباً ، وتكسبه هشاشة ، لميل قلبه إليه ، وتصديقه به » .

قال تعالى : « تَقَسَّعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » [ الزمر : ٢٣ ]

وقال : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُهُ خَاسِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلَكَ الْأَمْثَالُ نَضَرُبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » [ الحشر : ٢١ ] . ويدل على أن هذا شيء خص به أنه يتعري من لا يفهم معانيه ، ولا يعلم تفاسيره ، كما روی عن نصراني أنه من بقارئ ، فوقف يبكي ، فقيل له : من بكيت ؟ قال : للشجا والنظم .

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده ، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به ، ومنهم من كفر .

فحُكِي في « الصحيح » ، عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت النبي عليه السلام يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : « أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَرَائِنُ رِبَكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ » [ الطور :

٣٧ - [ كاد قلبي أن يطير للإسلام <sup>(١)</sup> ]. وفي رواية : وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي .

وعن عتبة بن ربيعة : أنه كلام النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه ، فتلا عليهم : « حَمَّ . تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فَصَلَّتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانَنَا وَقَرَّ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْتُونٍ . قُلْ أَنَّكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ فَوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءَ لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اتَّهَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعَيْنَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفَظَ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذِرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ » [ فصلت : ١ - ١٣ ] . فَامْسَكَ عَتْبَةَ بِيَدِهِ عَلَى فِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَنَاسَدَهُ الرَّحْمَنُ أَنْ يَكُفَّ .

وفي رواية : فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مصنع ملقي يديه خلف ظهره ، معتمد عليهما ، حتى انتهى إلى السجدة ، فسجد النبي ﷺ ، وقام عتبة لا يدرى بم يراجعه ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه ، فاعتذر لهم وقال : والله لقد كلامي بكلام والله ما سمعت أذنائي بثله قط ، فما دريت ما أقول له . وقد حكى عن غير واحد من رام معارضته أنه اعتبرته روعة وهيبة كف بها عن ذلك .

فحُكِي أن ابن المقفع طلب ذلك ورامة ، وشرع فيه ، فمر بصبي يقرأ : « وَقَبِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكِ » [ هود : ٤٤ ] ، فرجع فمحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر . وكان من أوضح أهل وقته .

وكان يحيى بن حكم الغزال بلين الأندلس في زمانه ، فحُكِي أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ليجدوا على مثالها ، وينسج - بزعمه - على منوالها ، قال : فاعتربني خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة .

## الفصل العاشر

### بقاوئه على الزمن

ومن وجوه إعجازه المعدود : كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه ، فقال : « إِنَّا نَحْنُ نَرَلَنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » [الحجر : ٩٠] .

وقال : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَزَرِّيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » [فصلت : ٤٢] .

وسائل معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها ، فلم يبق إلا خبرها ، والقرآن العزيز ، الباهرة آياته ، الظاهره معجزاته على ما كان عليه اليوم - مدة خمسماة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا - حجته قاهرة ، وعارضته ممتنعة ، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان ، وحملة علم اللسان ، وأئمة البلاغة ، وفرسان الكلام ، وجهابذة البراعة ، والملحد فيهم كثير ، والمعادي للشرع عتيد ، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته ، ولا ألف كلمتين في مناقضته ، ولا قدر فيه على مطعن صحيح ، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح ، بل المؤثر عن كل من رام ذلك إلقاءه في العجز بيديه ، والنكوص على عقبه .

## الفصل الحادي عشر

### وجوه أخرى للإعجاز

وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهاً كثيرة ، منها أن قارئه لا يمله ، وسامعه لا يُمْجه ، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، لا يزال غصاً طرياً ، وغيره من الكلام - ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه - يُملّ مع الترديد ، ويعادى إذا أعيد ، وكتابنا يستلذ به في الخلوات ، ويوئس بتلاوته في الأزمات ، وسواء من الكتب لا يوجد فيها ذلك ، حتى أحدث أصحابها لحوناً وطرقاً

يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها.

ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه : « لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عبره ، ولا تفني عجائبها ، هو الفصل ليس بالهزل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تزيف به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » <sup>(١)</sup> [الجن : ١، ٢] .

ومنها جَمِعَه لعلوم وَمَعَارِفَ لم تَعْهُدْ الْعَرَبُ عَامَةً وَلَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نَبَوَتِهِ خَاصَّةً بِعِرْفَتِهِ ، وَلَا يَحْيِطُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عَلَمَاءِ الْأَمْمِ ، وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ كِتَبِهِ ، فَجَمِعَ فِيهِ مِنْ بَيْانِ عِلْمِ الشَّرَائِعِ ، وَالْتَّبَيِّنِ عَلَى طَرَقِ الْحَجَجِ الْعُقْلَيَّاتِ ، وَالرَّدِّ عَلَى فَرَقِ الْأَمْمِ بِبِرَاهِينِ قَوْيَّةٍ ، وَأَدَلَّةٍ بَيْنَ سَهْلَةِ الْأَلْفَاظِ ، مَوْجَزَةِ الْمَقَاصِدِ ، رَامَ الْمُتَحَذِّلُوْنَ بَعْدَ أَنْ يَنْصُبُوا أَدْلَةً مِثْلَهَا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا ، كَقُولَهُ تَعَالَى : « أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بِلَّيْ وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيُّ » [سُس٢٨] .

و« قُلْ يُحِسِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً » [سُس٧٩] .

و« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتِهِ » [الأنبياء : ٢٢] .

إِلَى مَا حَوَاهُ مِنْ عِلْمِ السِّيرِ ، وَأَبْنَاءِ الْأَمْمِ ، وَالْمَوَاعِظِ ، وَالْحُكْمِ ، وَأَخْبَارِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَمَحَاسِنِ الْأَدَابِ وَالشَّيْمِ .

قال الله - جَلَّ اسْمَهُ : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » [الأنعام : ٣٨] .

و« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » [النَّحْل : ٨٩] .

و« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » [الرُّوم : ٥٨] .

وقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَمْرًا وَزَاجِرًا ، وَسَنَةً خَالِيَّةً ، وَمِثْلًا مَضْرُوبًا ، فِيهِ نَبَؤَكُمْ ، وَخَبَرُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَنَبِأُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحَكَمَ مَا بَيْنَكُمْ ، لَا يُخْلِقُهُ طَوْلُ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَابَهُ ، هُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدْقَةً ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدْلًا ، وَمَنْ خَاصَّمَ بِهِ فَلَجَّ ، وَمَنْ قَسَّمَ بِهِ أَقْسَطَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجْرَ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هَدِيَ إِلَى صِرَاطِ مَسْتَقِيمٍ ، وَمَنْ طَلَبَ الْهَدِيَّ مِنْ غَيْرِهِ أَضْلَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِهِ فَقَصَمَهُ اللَّهُ ، هُوَ الْذَّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَحَبْلُ اللَّهِ الْمُتِينُ ، وَالشَّفَاءُ النَّافِعُ ، عَصْمَةُ الْمَنْ

(١) الترمذى في فضائل القرآن (٢٩٠٦) وقال: وإنستاده مجهول وفي الحادث مقال؛ وهذه إشارة إلى ضعف السند، وإن صحت معانى متن الحديث.

تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيف فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يُخلق على كثرة الردّ» .

ونحوه عن ابن مسعود ، وقال فيه : « ولا يختلف ولا يتشانّ ، فيه نبأ الأولين والآخرين » .

وفي الحديث : قال الله تعالى لمحمد ﷺ : « إني منزلٌ عليك توراة حديثة ، تفتح بها أعيناً عمياً ، وأذاناً صماً ، وقلوبًا غلباً ، فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب ». وعن كعب : عليكم بالقرآن ، فإنه فهم العقول ، ونور الحكمة .

وقال الله تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » [النمل : ٧٦] . وقال : « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَمُوَعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » [آل عمران : ١٣٨] .

فجمع فيه مع وجاهة الفاظه ، وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي الفاظها على الضعف منه مرات .

ومنها : جمعه فيه بين الدليل ومدلوله ، وذلك أنه احتاج بنظم القرآن ، وحسن رصنه وإيجازه وبلاغته ، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فال التالي له يفهم موضع الحجة والتکلیف معًا من كلام واحد ، وسورة منفردة .

ومنها : أن جعله في حيز المنظوم الذي لم يعهد ، ولم يكن في حيز المنشور ؛ لأن المنظوم أسهل على النفوس ، وأوسع للقلوب ، وأسمع في الآذان ، وأحلى على الأفهام ، فالناس إليه أميل ، والأهواء إليه أسرع .

ومنها : تيسيره تعالى حفظه لتعلميه ، وتقريمه على متحفظيه ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ » [القمر : ١٧] .

وسائل الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم ، فكيف الجماء على مرور السنين عليهم ، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة .

ومنها : مشاكلة بعض أجزاءه بعضاً ، وحسن ائتلاف أنواعه ، والثبات أقسامها ، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه ، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي ، وخبر واستخار ، ووعد ووعيد ، وإثبات نبوة ،

وتوحيد وتفريد ، وترغيب وترهيب ، إلى غير ذلك من فوائده ، دون خلل يخلل فصوله . والكلام الفصيح إذا اعتبره مثل هذا ضعفت قوته ، ولانت جزالته ، وقل رونقه ، وتقللت ألفاظه .

فتأمل أول **﴿ص﴾** ، وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، وما ذكر من تكذيبهم لـ **محمد ﷺ** ، وتعجبهم مما أتى به ، والخبر عن اجتماع ملئهم على الكفر ، وما ظهر من الحسد في كلامهم ، وتعجيزهم وتوهينهم ، ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة ، وتكذيب الأمم قبلهم ، وإهلاك الله لهم ، ووعيد هؤلاء مثل مُصابهم ، وتصير النبي **ﷺ** على أذاهم ، وتسليته بكل ما تقدم ذكره ، ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء ، كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام .

ومنه : الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة ، وهذا كله وكثير ما ذكرناه أنه ذكر في إعجاز القرآن ، إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها ، إذ أكثرها داخل في باب بلاغته ، فلا يجب أن يعد فتاً منفرداً في إعجازه ، إلا في باب تفصيل فنون البلاغة ، وكذلك كثير مما قدمنا ذكره عنهم يُعد في خواصه وفضائله ، لا إعجازه .

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربع التي ذكرنا ، فليعتمد عليها ، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبها التي لا تنتهي . والله ولي التوفيق .

## الفصل الثاني عشر

### في انشقاق القمر وحبس الشمس

قال الله تعالى : **﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ﴾** [القمر : ١ ، ٢]

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه :

أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه ، حدثنا القاضي سراج بن عبد الله ، حدثنا الأصيلي ، حدثنا المروزي ، حدثنا الفربري ، حدثنا البخاري ، حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى عن شعبة ، وسفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمرا ، عن ابن

مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أشهدوا » <sup>(١)</sup> . وفي رواية مجاهد : ونحن مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وفي بعض طرق الأعمش : ونحن بمنى .

ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - الأسود ، وقال : حتى رأيت الجبل بين فُرجتي القمر . ورواه عنه مسروق - أنه كان بمكة - وزاد : فقالت كفار قريش : سحركم ابن أبي كبشة ! . فقال رجل منهم : إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها ، فاسألهوا من يأتيكم من بلد آخر : هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك .

وحكى السمرقندى عن الضحاك نحوه ، وقال : فقال أبو جهل : هذا سحر ، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا : أرأوا ذلك أم لا ؟

فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً ، فقالوا - يعني الكفار : سحر مستمر . ورواه أيضاً عن ابن مسعود - علقة ، فهؤلاء أربعة عن عبد الله .

وقد رواه غير ابن مسعود كما رواه ابن مسعود ، منهم أنس ، وابن عباس ، وابن عمر ، وحذيفة ، وعلي ، وجبير بن مطعم ، فقال علي - من رواية أبي حذيفة الأرجبي : انشق القمر ونحن مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وعن أنس : سأله أهل مكة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما <sup>(٢)</sup> . رواه عن أنس قتادة .

وفي رواية عمر وغيره ، عن قتادة ، عنه : أراهم القمر مرتين انشقاقة ، فنزلت : « اقتربت الساعَةُ وانشقَ القمرُ ». ورواه عن جبير بن مطعم ابنه محمد ، وابن ابنه جبير ابن محمد . ورواه عن ابن عباس عبيد الله بن عبد الله بن عبد الله بن عتبة .

ورواه عن ابن عمر مجاهد ، ورواه عن حذيفة أبو عبد الرحمن السلمي ومسلم بن

(١) البخاري في التفسير (٤٨٦٤) ومسلم في صفات المنافقين (٤٣ / ٢٨٠٠) .

(٢) البخاري في المناقب (٣٦٣٧) .

أبي عمران الأزدي .

وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة ، والآية مصರحة ، ولا يلتفت إلى اعتراض مخدول ، بأنه لو كان هذا لم يخف على الأرض ؛ إذ هو شيء ظاهر لجميعهم ؛ إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ، ولو نقل إلينا عنمن لا يجوز تلاؤهم - لكثرتهم - على الكذب ، لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلتهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعض جزئية ، وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ، **﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْغَنِيَّ الْعَلِيمُ﴾** [بس: ٣٨].

وآية القمر كانت ليلا ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب ، وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا ، إلا من رصد ذلك ، واهتب به . ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيرا في البلاد ، وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر ، وكثيرا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجموم طوال عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ، ولا علم عند أحد منها .

وخرج الطحاوي في « مشكل الحديث » عن أسماء بنت عميس من طريقين : أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ، ورأسه في حجر على ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس ، فقال النبي ﷺ : « أصلحت يا علي ؟ » قال : لا . فقال : « اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردده عليه الشمس » . قالت أسماء : فرأيتها غربت ، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ، ووقفت على الجبال والأرض ، وذلك بالصهباء في خير .

قال : وهذا الحديث ثابتان ورواتهما ثقان .

وحكى الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول : لا ينبغي لمن يكون سبيلا العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء ؛ لأنه من علامات النبوة .

وروى يونس بن بكيه في زيارة « المغازي » في روايته عن ابن إسحاق : لما أسرى رسول الله ، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا : متى تحيي ؟ قال : « يوم الأربعاء » ، فلما كان ذلك اليوم أشرف قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم يجئ ، فدعا رسول الله ، فزهد له في النهار ساعة ، وحيست عليه الشمس .

### الفصل الثالث عشر

#### في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته

قال المؤلف - رحمة الله : أما الأحاديث في هذا فكثيرة جداً .

روى حديث نبع الماء من أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة من الصحابة منهم : أنس ، وجابر ، وابن مسعود .

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه ، حدثنا القاضي عيسى بن سهل ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو عمر بن الفخار ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا يحيى ، حدثنا مالك ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أنس ابن مالك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الإناء يده ، فلم يجدوه ، فأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضوء ، فوضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه . قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى تووضأوا من عند آخرهم .

ورواه أيضاً - عن أنس قتادة وقال : يأناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمر .

قال : كم كتم ؟ قال : كنا زهاء ثلاثة .

وفي رواية عنه : وهم بالزوراء عند السوق <sup>(١)</sup> .

ورواه أيضاً حميد وثابت والحسن ، عن أنس .

وفي رواية حميد : قلت : كم كانوا ؟ قال : ثمانين .

ونحوه عن ثابت عنه .

وعنه أيضاً : وهم نحو من سبعين رجلاً .

وأما ابن مسعود ففي « الصحيح » من رواية علقة : بينما نحن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس معنا ماء ، فقال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اطلبوا من معه فضل ماء » ، فأتي بما فضله في إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(١) البخاري في المناقب (٣٥٧٢، ٣٥٧٣، ٣٥٧٤، ٣٥٧٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٧٩/٥، ٦٠).

وفي «ال الصحيح » عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر رضي الله عنه : عطش الناس يوم الحديبة ، ورسول الله صل الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضاً منه ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا : ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك ، فوضع النبي صل الله عليه وسلم يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون .

وفيه : فقلت : كم كتم ؟ قالوا : لو كنا مائة ألف لكتانا ، كنا خمس عشرة مائة <sup>(١)</sup> .

وروي مثله عن أنس ، عن جابر ، وفيه أنه كان بالحديبة .

وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه ، في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواء قال :

قال لي رسول الله صل الله عليه وسلم : « يا جابر ، ناد الوضوء ... » وذكر الحديث بطوله ، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب ، فأتي به النبي صل الله عليه وسلم ، فغمزه وتكلم بشيء لا أدرى ما هو ، وقال : « ناد بجفنة الركب » ، فأتيت بها ، فوضعتها بين يديه ، وذكر أن النبي صل الله عليه وسلم بسط يده في الجفنة ، وفرق أصابعه ، وصب جابر عليه ، وقال : بسم الله [ كما أمره صل الله عليه وسلم] ، قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت ، وأمر الناس بالاستقاء ، فاستقوا حتى رروا .

فقلت : هل بقي أحد له حاجة ؟ فرفع رسول الله صل الله عليه وسلم يده من الجفنة وهي ملأى <sup>(٢)</sup> .

وعن الشعبي : أتى النبي صل الله عليه وسلم في بعض أسفاره بإداوة ماء وقيل : ما معنا يا رسول الله ماء غيرها ، فسكبها في ركوة ، ووضع إصبعه وسطها ، وغمسها في الماء ، وجعل الناس يجيئون ويتوضاًون ثم يقومون .

قال الترمذى : وفي الباب عن عمران بن حصين .

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به ؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جُبِلَت عليه النفوس من ذلك ؛ ولأنهم كانوا من لا يسكت على باطل ، فهؤلاء قد رروا هذا ، وأشاعوه ، ونسبوا حضور الجماء الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كتصديق جميعهم له .

(١) البخاري في المغازي (٤١٥٢) .

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٧٥) ، ومسلم في الزهد (٣٠١٣) .

## الفصل الرابع عشر

### تُفْجِيرُ الْمَاءَ بِرَبْكَتِهِ

وما يشبه هذا من معجزاته : تُفْجِيرُ الْمَاءَ بِرَبْكَتِهِ وَابْعَاثُهُ بِمَسِهِ وَدُعُوتِهِ ، فيما روى مالك في « الموطأ » عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تُبِعْضُ بشيء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، وأعاده فيها ، فجرت ماء كثير ، فاستقى الناس <sup>(١)</sup> .

قال في حديث ابن إسحاق : فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق .

ثم قال : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً » .

وفي حديث البراء ، وسلمة بن الأكوع - وحديثه أتم - في قصة الحديبية : وهم أربع عشرة مائة ، وبئرها لا تروي خمسين شاة ، فترثخنها فلم تترك فيها قطرة ، فقد رسول الله ﷺ على جهاها .

قال البراء : وأتي بدلوا مثنا ، فبَصَقَ فَدَعَا .

وقال سلمة : إِنَّمَا دَعَا ، وَإِنَّمَا بَصَقَ فِيهَا ، فَجَاءَتْهُ ، فَأَرَوُوا أَنفُسَهُمْ وَرَكَابَهُمْ .

وفي غير هذه الروايتين - في هذه القصة - من طريق ابن شهاب في الحديبية : فأخرج سهما من كنانته ، فوضعه في قَعْرٍ قَلِيبٍ ليس فيه ماء ؟ فَرَوَى النَّاسُ حَتَّىٰ ضَرَبُوا بَعْطَنٍ . وعن أبي قتادة - وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره ، فدعا بالميضأة ، فجعلها في ضِبْنَهِ ، ثم التقم فمها ، فالله أعلم : نَفَثَ فِيهَا أَمْ لَا ، فشرب الناس حتى رروا وملؤوا كل إناء معهم ، فخَلَى إِلَيْهِ أَنَّهَا كَمَا أَخْذَهَا مِنِّي ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا <sup>(٢)</sup> .

وروى مثله عمران بن حصين .

(١) لم أقف عليه .

(٢) مسلم في المساجد (٦٨١) / (٣١١) .

وذكر الطبرى حديث أبي قتادة على غير ما ذكره أهل «الصحيح» : وأن النبي ﷺ خرج بهم مداً لأهل مؤة عندما بلغه قتل النساء :

وذكر حديثاً طويلاً فيه معجزات وأيات النبي ﷺ ، وفيه إعلامهم أنهم يفقدون الماء في غد . وذكر حديث الميضاة ، قال : «والقوم زهاء ثلاثة (١)» .

وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قتادة : «احفظ على ميضاتك ، فإنه سيكون لها نبأ...» وذكر نحوه . ومن ذلك حديث عمران بن حصين حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطش في بعض أسفارهم ، فوجه رجلين من أصحابه ، وأعلمهمما أنهم يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان . . . الحديث ، فوجداها وأتيا بها إلى النبي ﷺ ، فجعل في إناء من مزادتها ، وقال فيه ما شاء أن يقول ، ثم أعاد الماء في المزادتين ، ثم فتحت عزاليهما ، وأمر الناس فملؤوا أسيتهم حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملؤه .

قال عمران : وتخيل إلى أنهم لم تزدادا إلا امتلاء ، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواب حتى ملأ ثوبها . وقال : «إذهب بي ، فإنما لم تأخذ من مائة شيئاً ، ولكن الله سقاناً ...» الحديث بطوله .

وعن سلمة بن الأكوع : قال النبي ﷺ : «هل من وضوء؟» فجاء رجل ياداوة فيها نطفة فأفرغها في قدر ، فتوضأنا كلنا ندفعه دفقة أربع عشرة مائة . . . الحديث بطوله (٢) .

وفي حديث عمر - في جيش العسرة : وذكر ما أصابهم من العطش ، حتى إن الرجل لينحر بعيته فيعصر فرثه فيشربه فرغل أبو بكر إلى النبي ﷺ في الدعاء فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكت ، فملؤا ما معهم من آنية ، لم تتجاوز العسكرية .

وعن عمرو بن شعيب : أن أبا طالب قال للنبي وهو رديفه بذى المجاز : عطشت وليس عندي ماء ، فنزل النبي ﷺ ، وضرب بقدمه الأرض ، فخرج الماء فقال : «اشرب» . والحديث في هذا الباب كثير ، ومنه : الإجابة بدعاء الاستقاء وما جانسه .

(١) مسلم في المساجد (٦٨١ / ٣١)

(٢) مسلم في اللقطة (١٧٢٩ / ١٩)

## الفصل الخامس عشر

### تكثير الطعام

ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه :

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليٍّ - رحمه الله - ، حدثنا العذراني ، حدثنا الرازبي ، حدثنا الجلودي ، حدثنا أبو سفيان ، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا الحسن بن أعين ، حدثنا مقلع ، عن أبي الزبير ، عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه ، فاطعمه شطر وسق شعير ، فما زال يأكل منه وامرأتهُ وضيفه حتى كاله ، فأتى النبي ﷺ ، فأخبره ، فقال : « لو لم تأكله لاكلتم منه ولقام بكم » <sup>(١)</sup> .

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور ، وإطعامه <sup>عليه السلام</sup> ثمانين أو سبعين رجلاً من أفراد من شعير جاء بها أنس تحت يده - أي : إيطه - فأمر بها ففتت ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول <sup>(٢)</sup> .

وحدث جابر في إطعامه <sup>عليه السلام</sup> يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق .

وقال جابر : فأقسم بالله لاكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط <sup>كما هي</sup> وإن عجيتنا ليُخبر <sup>(٣)</sup> .

وكان رسول الله <sup>عليه السلام</sup> يصدق في العجين والبرمة ، وبارك . رواه عن جابر سعيد بن ميناء ، وأمين . وعن ثابت مثله ، عن رجل من الأنصار وامرأته ، ولم يسمهما ، قال : وجيء بمثل الكفت ، فجعل رسول الله <sup>عليه السلام</sup> يبسطها في الإناء ويقول : « ما شاء الله » ، فأكل منه من في البيت والحجرة والدار ، وكان ذلك قد امتلاً من قدم معه <sup>عليه السلام</sup> لذلك ، وبقي بعدهما شبعوا مثلما كان في الإناء .

وحدث أبي أيوب أنه صنع لرسول الله <sup>عليه السلام</sup> ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما ، فقال له النبي <sup>عليه السلام</sup> : « ادع ثالثين من أشراف الأنصار » ، فدعاهم فأكلوا حتى تركوا ، ثم

(١) مسلم في الفضائل (٢٢٨١) / ٩ .

(٢) مسلم في الأشربة (٢٠٤٢) / ١٤٢ .

(٣) مسلم في الأشربة (٢٠٣٩) / ١٤١ .

قال : « ادع ستين » ، فكان مثل ذلك ، ثم قال : « ادع سبعين » فأكلوا حتى تركوه ، وما خرج منهم أحد حتى أسلم وبایع .

قال أبو أيوب : فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلاً<sup>(١)</sup> .

وعن سمرة بن جندب : أتى النبي ، بقصعة فيها لحم ، فتعاقبواها من غدوة حتى الليل ، يقوم قوم ويقعد آخرون .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر : كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة ، وذكر في الحديث أنه عُجِن صاع من طعام وصنعت شاة ، فشوي سواد بطنهما ، ثم جعل منها قصعتين ، فأكلنا منهما أجمعون ، وفضل في القصعتين ، فحملته على البعير<sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري ، عن أبيه ، ومثله لسلمة بن الأكوع ، وأبي هريرة ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فذكروا مخصصة أصابت الناس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه ، فدعا بقيمة الأزواب ، فجاء الرجل بالحشية من الطعام ، وفوق ذلك ، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر ، فجمعه على نطع .

قال سلمة : فحضرته كربلا العذرا ، ثم دعا الناس بأوعيهم ، مما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤه وبقي منه .

وعن أبي هريرة : أمرني النبي ﷺ أن أدعوه له أهل الصفة ، فتتبعهم حتى جمعتهم ، فوضعت بين أيديهم صفحة ، فأكلنا ما شئنا ، وفرغنا وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : جمع رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب ، وكانوا أربعين ، منهم قوم يأكلون الجذعة ، ويشربون الفرق ، فصنع لهم مذًا من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقي كما هو ، ثم دعا بعسل فشربوا حتى رعوا ، وبقي كأنه لم يشرب منه وقال أنس : إن النبي ﷺ حين ابتنى بزيرب أمره أن يدعوه له قوماً سماهم ، وكل من لقيت ، حتى امتلاً البيت والحجرة ، وقدم إليهم توراً ، فيه قدر مذًا من تمر جعل حيساً ،

(١) الهيثمي في المجمع في علامات النبوة (١٤١١) وقال : رواه الطبراني وفي إسناده من لم أعرفه .

(٢) البخاري في الهبة (٢٦١٨) ، ومسلم في الأشنة (٢٠٥٦) / ١٧٥ .

فوضعه قدامه ، غمس ثلات أصابعه ، وجعل القوم يتغدون ويخرجون وبقي التور نحواً ما كان ، وكان القوم أحداً ، أو اثنين وسبعين (١) .

وفي رواية أخرى في هذه القصة أو مثلها : إن القوم كانوا زهاء ثلاثة ، وأنهم أكلوا حتى شبعوا . وقال لي : « ارفع » ، فلا أدرى حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت .

وفي حديث جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب أن فاطمة طبخت قدرأً لغدائها ووجهت عليها إلى النبي ﷺ ليتغدى معها ، فأمرها فغرفت منها لجميع نسائه صفحة صفحة ، ثم له ﷺ ولعلي ، ثم لها ثم رفعت القدر ، وإنها لتفيض ، قالت : فأكلنا منها ما شاء الله .

وأمر عمر بن الخطاب أن يزود أربعمائة راكب من أحمس ، فقال : يا رسول الله ، ما هي إلا أصوع . قال : « اذهب » ، فذهب فزودهم منه ، وكان قدر الفصيل الرابض ، من التمر ، وبقي بحاله . من رواية دكين الأحمسى ، ومن رواية جرير .

ومثله من رواية النعمان بن مقرن الخبر بعينه ، إلا أنه قال : أربعمائة راكب من مزينة . ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه بعد موته ، وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله ، فلم يقبلوه ، ولم يكن في تمرها سنتين كفاف دينهم ، فجاءه النبي ﷺ بعد أن أمره بجدها ، وجعلها يبادر في أصولها ، فمشى فيها ، ودعا ، فأوفى منه جابر غرماء أبيه ، وفضل مثل ما كانوا يجدون كل سنة (٢) .

وفي رواية : مثل أطعاثم ، قال : وكان الغرماء يهود ، فعجبوا من ذلك .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : أصاب الناس مخصصة ، فقال لي رسول الله ﷺ : « هل من شيء؟ » قلت : نعم ، شيء من التمر في المزود . قال : « فائتني به » ، فأدخل يده فأخرج قبضة ، فبسطها ودعا بالبركة ، ثم قال : « ادع عشرة » . فأكلوا حتى شبعوا ، ثم عشرة كذلك ، حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا . قال : « خذ ما جئت به وأدخل يدك ، واقبض منه ولا تكبه » . فقبضت على أكثر ما جئت به ، فأكلت منه وأطعمت حياة

(١) مسلم في النكاح (٩٣/١٤٢٨) .

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٨٠) .

رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، إلى أن قتل عثمان فانتهت مني ، فذهب<sup>(١)</sup> .

وفي رواية : فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من ورق في سبيل الله .

وذكرت مثل هذه الحكاية في غزوة تبوك ، وأن التمر كان بضع عشرة تمرة .

ومنه أيضاً حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع ، فاستبعه النبي ﷺ ، فوجد لبناً في قدر قد أهدي إليه ، وأمره أن يدعوا أهل الصفة . قال : فقلت : ما هذا اللبن فيهم ؟ كنت أحق أن أصيب منه شربة أتقوى بها . فدعوتهم .

وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم ، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يأخذ الآخر حتى روى جميعهم .

قال : فأخذ النبي ﷺ القدر ، وقال : « بقيت أنا وأنت ، اقعد فاشرب » شربت ، ثم قال : « اشرب » ، وما زال يقولها وأشرب حتى قلت : لا ، والذي بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكاً ، فأأخذ القدر فحمد الله وسمى وشرب الفضة<sup>(٢)</sup> .

وفي حديث خالد بن عبد العزّى : أنه أجزر النبي ﷺ شاة ، وكان عيال خالد كثيراً يذبح الشاة فلا تبد عياله عظماً ، وإن النبي ﷺ أكل من هذه الشاة وجعل فضلتها في دلو خالد ، ودعا له بالبركة ، فنشر ذلك لعياله ، فأكلوا وأفضلوا - ذكر خبره الدوالبي .

وفي حديث الآجري في إنكاج النبي ﷺ لعليّ فاطمة - أن النبي ﷺ أمر بلا بلا بقصعة من أربعة أمداد أو خمسة ، وينبئ جزوراً لوليمتها ، قال : فأتته بذلك فطعن في رأسها ، ثم أدخل الناس رفقة رفقة ، يأكلون منها حتى فرغوا ، وبقيت منها فضلة ، فبرك فيها ، وأمر بحملها إلى أزواجه ، وقال : « كلن وأطعمن من غشِّيْكُنَّ » .

وفي حديث أنس : تزوج رسول الله ﷺ ، فصنعت أمي أم سليم حِسَّا ، فجعلته في تور ، فذهبته إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « ضعه ، وادع لي فلاناً وفلاناً ، ومن لقيت » .

فدعوتهم ، ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته ، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثة مائة حتى ملؤوا

(١) لم أقف عليه .

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٥٢) .

الصفة والحجرة ، فقال لهم النبي ﷺ : « تخلقوا عشرة عشرة » ، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام ، فدعا فيه ، وقال ما شاء الله أن يقول ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، فقال لي: « ارفع » ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت <sup>(١)</sup> .

وأكثر أحاديث هذه الفضول الثلاثة في « الصحيح » . وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفضل بضعة عشر من الصحابة ، رواه عنهم أضعافهم من التابعين ، ثم من لا ينعد بعدهم .

وأكثرها في قصص مشهورة ، ومجامع مشهودة ، ولا يمكن التحديد عنها إلا بالحق ، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها .

## الفصل السادس عشر

### في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة واجابتها دعوته

حدثنا أحمد بن محمد بن غلبون الصالح فيما أجازنيه عن أبي عمر الطرمني ، عن أبي بكر بن المهندي ، عن أبي القاسم البغوي ، حدثنا أحمد بن عمران الأحسني ، حدثنا أبو حيان التيمي - وكان صدوقاً - عن مجاهد عن ابن عمر قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفره ، فدنا منه أعرابي ، فقال : « يا أعرابي ، أين تريد؟ » قال : إلى أهلي . قال : « هل لك إلى خير؟ » قال وما هو؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » . قال : من يشهد لك على ما تقول؟ قال : « هذه الشجرة السمرة ، وهي بشاطئ الودي ، وادعها فإنها تحييك » .

فأقبلت تَخْدُ الأرض حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثة ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها .

وعن بريدة : سأله أعرابي النبي ﷺ آية ، فقال له : « قل لتلك الشجرة : رسول الله يدعوك » .

قال : فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها ، فتقطعت عروقها ، ثم

(١) سبق تخرجه .

جاءت تخد الأرض تجر عروقها مُغبَّرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ ، فقالت : السلام عليك يا رسول الله .

قال الأعرابي : مُرْها فلترجع إلى مَبْتها ، فرجعت فدَّلت عروقها فاستوت ، فقال الأعرابي : إاذن لي أُسجد لك .

قال : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » <sup>(١)</sup> . قال : فائذن لي أن أقبل يديك ورجليك ، فأذن له .

وفي « الصحيح » في حديث جابر بن عبد الله الطويل : ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته ، فلم ير شيئاً يستر به ، فإذا بشجرتين في شاطئ الوادي ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغضن من أغصانها ، فقال : « انقادي على إِذن الله » <sup>(٢)</sup> ، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده .

وذكر أنه فعل بالأُخرى مثل ذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال : « التمما على إِذن الله » ، فالتأمتأ .

وفي رواية أخرى : فقال : « يا جابر ، قل لهذه الشجرة : يقول لك رسول الله ﷺ : الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما » . فزحفت ، فرجعت حتى لحت بصاحبتها فجلس خلفهما ، فخرجت أحضر ، وجلست أحدث نفسي ، فالتفت فإذا برسول الله ﷺ مقلاً والشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منها على ساق ، فوقف رسول الله ﷺ وقفته . فقال برأسه هكذا يَبِنَا وشَمَالاً .

وروى أسماء بن زيد نحوه ، قال : قال رسول الله ﷺ في بعض مغازييه : « هل تعني مكاناً حاجة رسول الله ﷺ ؟ » فقلت : إن الوادي ما فيه موضع بالناس . فقال : « هل ترى من نخل أو حجارة ؟ » قلت : أرى نخلات متقاربات . قال : « انطلق وقل لهن : إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تأتيني لمخرج رسول الله ﷺ ، وقل للحجارة مثل ذلك » .

فقلت ذلك لهن ، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن ، والحجارة يتعاقدن حتى صِرْن ركاماً خلفهن .

(١) الدارمي (١٦)

(٢) مسلم في الزهد (٧٤ / ٣٠٠٦)

فلما قضى حاجته قال لي : « قل لهن يفترقن » ، فوالذي نفسي بيده لرأيهم والحجارة يفترقن حتى يعدن إلى مواضعهن .

وقال يعلى بن سيابة : كنت مع النبي ﷺ في مسيرة ... وذكر نحواً من هذين الحديثين ، وذكر : فأمر وَدِيَّتَنَ فانضمتا . وفي رواية : أشاعتين . وعن غيلان بن سلمة التقفي مثله : في شجرتين . وعن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ مثله في غزوة حنين .

وعن يعلى بن مرة - وهو ابن سيابة - أيضاً ، وذكر أشياء رأها من رسول الله ﷺ ، فذكر أن طلحة أو سمرة جاءت فأطافت به ، ثم رجعت إلى منبتها ، فقال رسول الله ﷺ: « إنها استأذنت أن تُسلمَّ علىَّ » .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : آذنت النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة<sup>(١)</sup> . وعن مجاهد ، عن ابن مسعود في هذا الحديث : إن الجن قالوا : من يشهد لك ؟ قال : « هذه الشجرة . تعالى يا شجرة » ، فجاءت تخبر عروقها لها قعافع .

وذكر مثل الحديث الأول أو نحوه .

قال القاضي أبو الفضل : فهذا ابن عمر ، وبريدة ، وجابر ، وابن مسعود ، ويعلى ابن مرة ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ، وعليّ بن أبي طالب ، وابن عباس ، وغيرهم قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها . وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم ، فصارت في انتشارها من القوة حيث هي . وذكر ابن فورك أنه ﷺ سار في غزوة الطائف ليلاً ، وهو وسِنْ ، فاعترضته سدرة ، فانفرجت له نصفين حتى جاز بينهما ، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا ، وهي هناك معروفة معظمة . ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ - ورآه حزيناً : أتَحْبُّ أَنْ أُرِيكَ آيَةً ؟ قال : « نعم » . فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرة من وراء الوادي ، فقال : « ادع تلك الشجرة » ، فجاءت تتشي حتى قامت بين يديه . قال : « مرها فلترجع » ، فعادت إلى مكانها<sup>(٢)</sup> .

(١) البخاري في مناقب الانتصار (٣٨٥٩) ، ومسلم في الصلاة (٤٥٠ / ١٥٣) .

(٢) ابن ماجه في الفتن (٤٠٢٨) ، وفي الرواية : هذا إسناد صحيح ، إن كان أبو سفيان واسمه طلحة ابن نافع سمع من جابر .

وعن عليّ نحو هذا ، ولم يذكر فيها جبريل ، قال : « اللهم أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها » ، فدعا شجرة .. وذكر مثله .

وحزنه ع لتكذيب قومه وطلبه الآية لهم لا له .

وذكر ابن إسحاق أن النبي ص أرى ركناً مثل هذه الآية في شجرة دعاها فأتت حتى وقفت بين يديه ، ثم قال : « ارجعني » ، فرجعت .

وعن الحسن أنه ع شكا إلى ربه من قومه وأنهم يخوفونه ، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه ، فأوحى إليه أن اثنتين وادي كذا فيه شجرة ، فادع غصناً منها يأتوك . ففعل ، فجاء يخط الأرض خطأ حتى انتصب بين يديه ، فحبسه ما شاء الله ، ثم قال له : « ارجع كما جئت » ، فرجع ، فقال : « يا رب ، علمت أن لا مخافة عليّ » .

ونحو منه عن عمر ، وقال فيه : « أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها ... » <sup>(١)</sup> وذكر نحوه .

وعن ابن عباس رض أنه ع قال لأعرابي : « أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله ؟ » قال : نعم ، فدعاه فجعل ينقر حتى أتاه فقال : « ارجع » ، فعاد إلى مكانه . وخرج له الترمذى ، وقال : هذا حديث صحيح <sup>(٢)</sup> .

## الفصل السابع عشر

### في قصة حنين الجذع له ع

ويعد هذه الأخبار حديث أئين الجذع ، وهو في نفسه مشهور متشر ، والخبر به متواتر ، قد خرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر ، منهم أبي بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وسهل ابن سعد وأبو سعيد الخدري ، وبريدة ، وأم سلمة ، والمطلب بن أبي وداع ، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث .

(١) سبق تخرجه .

(٢) الترمذى في المناقب (٣٦٢٨) .

قال الترمذى : وحديث أنس صحيح <sup>(١)</sup> .

قال جابر بن عبد الله : كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل ، فكان النبي ﷺ إذا خطب يcome إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار.

وفي رواية أنس : حتى ارتج المسجد بخواره .

وفي رواية سهل : وكثير بكاء الناس لما رأوا ما به .

وفي رواية المطلب وأبي : حتى تصدع وانشق ، حتى جاء النبي ﷺ ، فوضع يده عليه فسكت .

زاد غيره : فقال النبي ﷺ : « إن هذا بكى لما فقد من الذكر » <sup>(٢)</sup> .

وزاد غيره : « والذي نفسي بيده : لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيمة : تحزنا على رسول الله ﷺ » ، فأمر به ﷺ فدفن تحت المنبر <sup>(٣)</sup> .

كذا في حديث المطلب ، وسهل بن سعد ، وإسحاق ، عن أنس .

وفي بعض الروايات عن سهل : فدفنت تحت منبره ، أو جُعلت في السقف :

وفي حديث أبي : فكان إذا صلى النبي ﷺ صلّى إله ، فلما هدم المسجد أخذه أبي ، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض ، وعاد رفاته .

وذكر الإسفرايني أن النبي ﷺ دعا إلى نفسه ، فجاء يخرق الأرض ، فاللتزمه ، ثم أمره فعاد إلى مكانه .

وفي حديث بريد : فقال - يعني النبي ﷺ : « إن شئت أرُدك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ، ويكمّل خلقك ، ويجدد لك خوص وثمرة ، وإن شئت أغرسك في الجنة ، فيأكل أولياء الله من ثمرك » ، ثم أصغى له النبي ﷺ يسمع ما يقول .

فقال : تغرسني في الجنة ، فيأكل مني أولياء الله ، وأكون في مكان لا أبلى فيه .  
فسمع من يليه .

(١) البخاري في المناقب (٣٥٨٥) ، والترمذى في المناقب (٣٦٢٧) .

(٢) أحمد / ٣٠٠ .

(٣) البهقى في دلائل النبوة ٢ / ٥٥٨ عن ابن عباس ، ورواه الترمذى عن أنس بأختصار من رواية ابن عباس في المناقب (٣٦٢٧) وقال : حسن صحيح .

قال النبي ﷺ : « قد فعلت » ، ثم قال : « اختار دار البقاء على دار الفناء » .

فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى ، وقال : يا عباد الله ، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه ، فأنتم أحق أن تستيقنوا إلى لقائه .

رواه عن جابر حفص بن عبيد الله ، ويقال : عبيد الله بن حفص ، وأمين ، وأبو نصرة ، وابن المسيب ، وسعيد بن أبي كرب ، وكريبد ، وأبو صالح .

ورواه عن أنس بن مالك الحسن ، وثبت ، وإسحاق بن أبي طلحة .

ورواه عن ابن عمر : نافع ، وأبو حية ، ورواه أبو نصرة ، وأبو الوداك ، عن أبي سعيد ، وعمار بن أبي عمار ، عن ابن عباس ، وأبو حازم ، وعباس بن سهل ، عن سهل بن سعد ، وكثير بن زيد عن المطلب ، وعبد الله بن بريدة عن أبيه ، والطفيلي بن أبي عن أبيه .

قال القاضي أبو الفضل : فهذا حديث كما تراه خرجه أهل الصحة ، ورواه من الصحابة من ذكرنا ، وغيرهم من التابعين ضعفهم ، إلى من لم نذكره ، وبين دون هذا العدد يقع العلم لمن اعنى بهذا الباب . والله المثبت على الصواب .

## الفصل الثامن عشر

### في سائر الجمادات

ومثل هذا في سائر الجمادات :

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي ، حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن المرباط ، حدثنا المهلب ، حدثنا أبو القاسم ، حدثنا أبو الحسن القابسي ، حدثنا المروزي ، حدثنا الفريابي ، حدثنا البخاري ، حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا إسرائيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقة ، عن ابن مسعود ، قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه (١) .

(١) البخاري في المناقب (٣٥٧٩) .

وقال أنس : أخذ النبي ﷺ كفا من حصى ، فسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح ، ثم صبهن في يد أبي بكر - رضي الله عنه - فسبّحن ، ثم في أيدينا فما سبّحن .

وروى مثله أبو ذر ، وذكر أنهن سبّحن في كف عمر وعثمان .

وقال عليّ : كنا بمكة مع رسول الله ﷺ ، فخرج إلى بعض نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له : السلام عليك يا رسول الله <sup>(١)</sup> .

وعن جابر بن سمرة عنه <sup>رضي الله عنه</sup> : « إني لأعرف حجراً بعكة كان يسلم علىّ » ، قيل : إنه الحجر الأسود <sup>(٢)</sup> .

وعن عائشة <sup>رضي الله عنها</sup> : « لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله » <sup>(٣)</sup> .

وعن جابر بن عبد الله : لم يكن النبي ﷺ يبر بحجر ولا شجر إلا سجد له .

وفي حديث العباس : إذ اشتمل عليه النبي ﷺ وعلى بنيه بملاءة ، ودعا لهم بالستر من النار كستره إياهم بملاءته ، فآمنت أسكفة الباب وحوائط البيت : آمين آمين .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه : مرض النبي ﷺ ، فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب ، فأكل منه النبي ﷺ ، فسبّع .

وعن أنس : صعد النبي ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، أحدهما ، فرجف بهم ، فقال : « اثبت أحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » <sup>(٤)</sup> .

ومثله عن أبي هريرة في حراء ، وزاد معه : عليّ وطلحة ، والزبير ، وقال : « فإنما عليكنبي ، أو صديق ، أو شهيد » . والخبر في حراء أيضاً عن عثمان ، قال : ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم . وزاد عبد الرحمن وسعداً ، قال : ونسنت الاثنين .

(١) الدارمي (٢١) ، والحاكم في المستدرك (٤٢٣٨) ، وقال الذبيبي : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) مسلم في الفضائل (٢٢٧٧) / ٢ .

(٣) الهيثمي في المجمع في علامات النبوة (١٣٩٥٥) وقال : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف .

(٤) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧٥) .

وفي حديث سعيد بن زيد أيضاً مثله ، وزاد عشرة ، وزاد نفسه .

وقد روي أنه حين طلبه قريش قال له **تَبَرُّ** : اهبط يا رسول الله ، فإني أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبني الله . فقال حراء : إلى يا رسول الله .

وروى ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قرأ على المنبر : «**وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ**» [الأنعام : ٩١] ، ثم قال : «**يُمْجَدُ الْجَبَارُ نَفْسَهُ، أَنَا الْجَبَارُ، أَنَا الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ**» ، فرجف المنبر حتى قلنا : ليخرنَّ عنه <sup>(١)</sup> .

وعن ابن عباس : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ، فلما دخل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها ، ويقول : «**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**» [الإسراء : ٨١] ، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لفاه ، ولا لفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم .

ومثله في حديث ابن مسعود ، وقال : فجعل يطعنها ويقول : «**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**» [سبأ : ٤٩] <sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره ؛ إذ خرج تاجراً مع عمه ، وكان الراهب لا يخرج لأحد ، فخرج وجعل يتخللهم ، حتى أخذ يد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ، فقال : هذا سيد العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً له ، ولا تسجد إلا لنبي . . . وذكر القصة ، ثم قال : فأقبل **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وعليه غمامه تظلله ، فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس مال الفيء إليه <sup>(٣)</sup> .

(١) ابن ماجه في المقدمة (١٩٨) وأحمد ٢ / ٧٢ .

(٢) البخاري في المظالم (٢٤٧٨) ، ومسلم في الجهاد (١٧٨١) / ٨٧ .

(٣) الترمذى في المناقب (٣٦٢٠) عن أبي موسى .

## الفصل التاسع عشر

### في الآيات في ضروب الحيوانات

حدثنا سراج بن عبد الملك ، حدثنا أبو الحسين الحافظ ، حدثنا أبي ، حدثنا القاضي يونس ، قال : حدثنا أبو الفضل الصقلي ، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت ، عن أبيه وحده ، قالا : حدثنا أبو العلاء أحمد بن عمران ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا يونس ابن عمرو ، حدثنا مجاهد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان عندنا داجن ، فإذا كان عندنا رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قر وثبت مكانه ، فلم يجيء ولم يذهب ، وإذا خرج رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه جاء وذهب .

وروي عن عمر أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه كان في محفل من أصحابه؛ إذ جاء أعرابي قد صاد ضيّا ، فقال : ما هذا؟ قالوا : نبي الله ، فقال : واللات والعزى ، لا آمنت بك أو يومن هذا الضب ، وطرحه بين يدي النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ، فقال النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه : «يا ضب» ، فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميّعاً : ليك وسعديك يا زين من وافي القيمة .

قال : «من تعبد؟» قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عقابه .

قال : « فمن أنا؟» قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدّقك ، وخطب من كذبك .

فأسلم الأعرابي (١) .

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري : بينما راع يرعى غنماً له عرض الذئب لشاة منها ، فأخذها الراعي منه ، فأقى الذئب ، وقال للراعي : ألا تتقى الله ! حلّت بيني وبين رزقي !

قال الراعي : العجب من ذئب يتكلّم بكلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك

(١) الهيثمي في المجمع ٨ / ٥١٨ (١٤٠٨٦) وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن على بن الوليد ، قال البهقي . والحمل عليه ، قلت : وبقية رجاله رجال الصحيح .

بأعجم من ذلك ؟ رسول الله بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق .

فأتى الراعي النبي ﷺ فأخبره ، فقال النبي : « قم فحدثهم » ، ثم قال : « صدق »<sup>(١)</sup> . والحديث فيه قصة ، وفي بعضه طول .

وروى حديث الذئب عن أبي هريرة .

وفي بعض الطرق عن أبي هريرة رض ، فقال الذئب : أنت أعجم ! وافقاً على غنمك ، وتركت نبياً لم يبعث الله نبياً قط أعظم منه عنده قدرأ ، قد فتحت له أبواب الجنة ، وأشرف أهلها على أصحابه ، ينظرون قتالهم ، وما بينك وبينه إلا هذا الشعب ، فتصير من جنود الله .

قال الراعي : من لي بعجمي ؟ قال الذئب : أنا أرعاها حتى ترجع .  
فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى .

وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل ، فقال له النبي ﷺ : « عد إلى غنمك تجدها بوفرها » .

فوجدها كذلك ، وذبح للذئب شاة منها .

وعن أهبان بن أوس : وأنه كان صاحب القصة ، والمحدث بها ، ومكلم الذئب .  
وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع : وأنه كان صاحب هذه القصة أيضاً ، وسبب إسلامه مثل حديث أبي سعيد .

وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، مع ذئب وجدها أخذ ظبياً ، فدخل الطبي الحرم ، فانصرف الذئب ، فعجبوا من ذلك ، فقال الذئب : أتعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار .

قال أبو سفيان : واللات والعزى ، لئن ذكرت هذا بكرة لتركتها خلوفاً .

وقد روى مثل هذا الخبر ، وأنه جرى لأبي جهل وأصحابه .

وعن عباس بن مرداس لما تعجب من كلام ضمار صنمه ، وإنشاده الشعر الذي ذكر

فيه النبي ﷺ ، فإذا طائر سقط ، فقال : يا عباس ، أتعجب من كلام ضمار ولا تعجب من نفسك ؟ إن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام وأنت جالس ، فكان سبب إسلامه .

وعن جابر بن عبد الله ؓ ، عن رجل أتى النبي ﷺ وأمن به وهو على بعض حصون خيبر ، وكان في غنم يرعاها لهم ، فقال : يا رسول الله ، كيف بالغنم ؟ قال : « أحسب وجهها ، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ، ويردها إلى أهلها » (١) .

ففعل ، فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها .

وعن أنس ؓ : دخل النبي ﷺ حائط أنصاري وأبو بكر وعمر ورجل من الأنصار ؓ ، وفي الحائط غنم فسجدت له . فقال أبو بكر : نحن أحق بالسجود لك منها . . . الحديث .

وعن أبي هريرة ؓ : دخل النبي ﷺ حائطاً ، فجاء بعير فسجد له (٢) ، وذكر مثله .

ومثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك ، وجابر بن عبد الله ويعلى بن مرة ، وعبد الله ابن جعفر ، وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل ، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه ، فوضع مشقره ، على الأرض ، وبرك بين يديه ، فخَطَّمه ، وقال : « ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أنني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس » (٣) .

وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه ، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال لهم : « إنه شكا كثرة العمل ، وقلة العلف من صغره » ، فقالوا : نعم (٤) .

وقد روي في قصة العضباء وكلامها النبي ﷺ ، وتعريفها له بنفسها ، ومبادرة العشب إليها في الرعي ، وتجنب الوروش عنها ، وندائهم لها : إنك لمحمد ، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت . ذكره الإسفايني .

(١) البهقي في الكبير ٩ / ٢٤١ (١٨٤٢٤) .

(٢) أحمد ٦ / ٧٦ .

(٣) الدارمي (١٨) وأحمد ٣ / ٣١٠ .

(٤) أحمد ٤ / ١٧٣ .

وروى ابن وهب : أن حمام مكة أظلمت النبي ﷺ يوم فتحها ، فدعا لها بالبركة .  
وروى عن أنس ، وزيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ قال ليلة الغار :  
«أمر الله ، فثبتت تجاه النبي ﷺ فسترته ، وأمر حمامتين فوقفتا بقم الغار » (١) .

وفي حديث آخر : وأن العنكبوت نسجت على بابه ، فلما أتى الطالبون له ، ورأوا  
ذلك قالوا : لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه ، والنبي ﷺ سمع كلامهم ،  
فانصرفوا .

وعن عبد الله بن قرط : قرب إلى رسول الله ﷺ بدنات خمس أو ست أو سبع ،  
لينحرها يوم عيد ، فازدلفن إليه بأيدهن بيدها .

وعن أم سلمة : كان النبي ﷺ في صحراء ، فنادته ظبية ، يا رسول الله . قال :  
«ما حاجتك ؟» قالت : صادني هذا الأعرابي ، ولي خِشْفَان في ذلك الجبل ، فأطلقني  
حتى أذهب فأرضعهما وأرجع .

قال : «وتفعلين ؟» قالت : نعم . فأطلقها ، فذهبت ورجعت ، فأوثقها ، فاتبه  
الأعرابي ، وقال : يا رسول الله ، ألك حاجة ؟ قال : «تطلق هذه الظبية» . فأطلقها  
فخرجت تعدو في الصحراء ، وتقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله (٢) .

ومن هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ ؛ إذ وجده إلى  
معاذ باليمن ، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ ، ومعه كتابه ، فهمهم وتحى  
عن الطريق ، وذكر في منصرفة مثل ذلك .

وفي رواية أخرى عنه أن سفينة تكسرت به ، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد ، فقلت  
له : أنا مولى رسول الله ﷺ ، فجعل يغمضني بمنكبه حتى أقامني على الطريق .

وأخذ - عليه السلام - بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصبعيه ، ثم خلاها فصار  
لها ميسماً ، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد .

وما روي عن إبراهيم بن حماد بسنده من كلام الحمار الذي أصابه بخير ، وقال له :

(١) العقيلي في الضعفاء (١٤٦٢) عن بريدة ، وعلته في عون بن عمرو .

(٢) البهقي في الدلائل ٦ / ٣٤ ، ٣٥ عن زيد بن أرقم .

اسمي يزيد بن شهاب .

فسماه النبي ﷺ يغوراً ، وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه ، فيضرب عليهم الباب برأسه ، ويستدعيهم ، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر جزعاً وحزناً ، فمات .  
وحدثنا الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصحابها أنه ما سرقها وأنها ملکه .  
وفي العز التي أتت رسول الله ﷺ في عسکره ، وقد أصابهم عطش ، ونزلوا على غير ماء ، وهم زهاء ثلاثة ، فحلبها رسول الله ﷺ ، فأروى الجند ، ثم قال لرافع : «أملکها وما أراك ». فربطها فوجدها قد انطلقت .

رواه ابن قانع وغيره ، وفيه : فقال رسول الله ﷺ : «إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها » .

وقال لفرسه - عليه السلام - وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره : « لا تبرح ، بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا » ، وجعله قبلته ، فما حرك عضواً حتى صلى ﷺ .  
ويتحقق بهذا ما رواه الواقدي أن النبي ﷺ لما وجه رسle إلى الملوك ، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعثهم إليهم .  
والحدث في هذا الباب كثير ، وقد جئنا منه بالمشهور ، وما وقع في كتب الأئمة .

## الفصل العشرون

### في إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان

#### والراضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

حدثنا أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه ، والقاضي أبو الوليد محمد بن رشد ، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي ، وغير واحد سمعاً وإذنا ، قالوا: حدثنا أبو علي الحافظ ، وقال : حدثنا أبو عمر الحافظ ، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن ابن يحيى ، حدثنا أحمد بن سعيد ، حدثنا ابن الأعرابي ... حدثنا أبو داود ، حدثنا وهب بن بقية ، عن خالد - هو الطحان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن يهودية أهدت النبي ﷺ بخیر شاة مصلية سمتها ، فأكل منها رسول

الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ منها ، وأكل القوم ، فقال : « ارفعوا أيديكم ، فإنما أخبرتني أنها مسمومة ». فمات بشر بن البراء .

وقال لليهودية : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت ، وإن كنت ملِكًا أرحت الناس منك <sup>(١)</sup> .

قال : فأمر بها فقتلت . وقد روى هذا الحديث أنس ، وفيه : قالت : أردت قتلك . فقال : « ما كان الله ليسلطك على ذلك » . فقالوا : نقتلها ؟ قال : « لا » .

وكذلك روي عن أبي هريرة - من رواية غير وهب - قال : فما عرض لها .

ورواه أيضًا جابر بن عبد الله ، وفيه : « أخبرتني هذه النراع » - قال : ولم يعاقبها .

وفي رواية الحسن : « إن فخذها تكلمني أنها مسمومة » .

وفي رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن قالت : إني مسمومة .

وكذلك ذكر الخبر ابن إسحاق ، وقال فيه : فتجاوز عنها .

وفي الحديث الآخر ، عن أنس ، قال : فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ .

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ قال في وجعه الذي مات فيه : « ما زالت أكلة خير تعاودني ، فالآن أوان قطع أبهري » .

وحكى ابن إسحاق : إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ قتل اليهودية التي سمته . وقد ذكرنا اختلاف الروايات في ذلك عن أبي هريرة ، وأنس ، وجابر .

وفي رواية ابن عباس رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أنه دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها . وكذلك قد اختلف في قتلها للذى سحره ، قال الواقدي : وعفوه عنه أثبت عندنا . وروي عنه أنه قتله .

وروى الحديث البزار عن أبي سعيد ، فذكر مثله ، إلا أنه قال في آخره : فبسط يده وقال : « كلوا بسم الله » ، فأكلنا ، وذكر اسم الله ، فلم تضره أحداً .

قال القاضي أبو الفضل : وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل « الصحيح » ،

وخرجه الأئمة ، وهو حديث مشهور . وختلف أئمة النظر في هذا الباب ، فمن قائل يقول : هو كلام يخلقه الله تعالى في الشاة الميتة ، والحجر ، أو الشجر ، وحرف وأصوات يحدثها الله فيها ، ويسمعها منها دون تغيير أشكالها ، ونقلها عن هيتها . وهو مذهب الشيخ أبي الحسن ، والقاضي أبي بكر - رحمهما الله . وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة بها ، ثم الكلام بعده .

وحكى هذا أيضاً عن شيخنا أبي الحسن ، وكل محتمل . والله أعلم؛ إذ لم تجعل الحياة شرطاً لوجود الحروف والأصوات ؛ إذ لا تستحيل وجودها مع عدم الحياة بمجردها . فاما إذا كانت عبارة عن الكلام النفسي فلا بد من شرط الحياة لها ؛ إذ لا يوجد كلام النفس إلا من حي ، فلا خلافاً للجوابي من بين سائر متكلمي الفرق في إحالة وجود الكلام اللغطي والحرروف والأصوات إلا من حي مركب على تركيب من يصح منه النطق بالحرروف والأصوات . والتزم ذلك في الحصى ، والجذع ، والذراع ، وقال : إن الله خلق فيها حياة ، وخرق لها فما - ولسانا ، وآلة أمكنها بها من الكلام . وهذا لو كان لكان نقله والتهم به أكد من التهمم بنقل تسييحه أو حنينه ، ولم ينقل أحد من أهل السير والرواية شيئاً من ذلك ، فدل على سقوط دعواه ، مع أنه لا ضرورة إليه في النظر ، وال موقف الله .

وروى وكيع - رفعه عن فهد بن عطية : أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شبَّ لم يتكلم قط ، فقال : « من أنا؟ » فقال : رسول الله .

وروى عن مُعْرِض بن معيقب : رأيت من النبي عجباً ، جيءَ بصبي يوم ولد .. فذكر مثله . وهو حديث مبارك اليمامة ، ويعرف بحديث شاصونة - اسم راويه - وفيه : فقال له النبي ﷺ : « صدقت ، بارك الله فيك » . ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب ، فكان يسمى مبارك اليمامة . وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع . وعن الحسن : أتى رجل النبي ﷺ ، فذكر له : أنه طرح بُنْيَةً له في وادي كذا ، فانطلق معه إلى الوادي ، وناداهما باسمها : « يا فلانة ، أجيبي بإذن الله » ، فخرجت وهي تقول : ليك وسعديك . فقال لها : « إن أبويك قد أسلمَا ، فَإِنِّي أَحَبِّي أَنْ أَرْدِكَ عَلَيْهِمَا؟ » قالت : لا حاجة لي فيهما ، وجدت الله خيراً لي منهما . وعن أنس أن شاباً من الأنصار توفي وله أُم عجوز عمياء فسجَّنَاه ، وعزَّزَنَاها ، فقالت : مات ابني؟ قلنا : نعم . قالت : اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعيني على كل شدة فلا

تحملن على هذه المصيبة . فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه ، فطعم وطعمنا .

وروي عن عبد الله بن عبيد الله الأنصاري : كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس ، وكان قُتل باليمامية ، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول : محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الشهيد ، عثمان البر الرحيم ، فنظرنا فإذا هو ميت .

وذكر عن النعمان بن بشير أن زيد بن خارجة خرّ ميتاً في بعض أزقة المدينة ، فرفع وسُجِّيَ إذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول : أنتوا ، أنتوا ، فَحَسِرَ عن وجهه ، فقال : محمد رسول الله ، النبي الأمي ، وخاتم النبيين . كان ذلك في الكتاب الأول ، ثم قال : صدق ، صدق ، وذكر أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته ، ثم عاد ميتاً كما كان .

## الفصل الحادي والعشرون

### في إبراء المرضى وذوي العاهات

أخبرنا أبو الحسن عليّ بن مُشْرَفَ فيما أجازنيه وقرأته على غيره ، قال : حدثنا أبو إسحاق الحبال ، قال : حدثنا أبو محمد بن النحاس ، حدثنا أبو الورد ، عن البرقي ، عن ابن هشام ، عن زياد البُكَائِي ، عن محمد بن إسحاق ، حدثنا ابن شهاب ، وعاصم ابن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بقضية أحد بطولها ، قال : وقالوا : قال سعد بن أبي وقاص : إن رسول الله ﷺ ليناولني السهم لا نصل له ، فيقول : « ارم به » ، وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت ، وأصيب يومئذ عين قتادة - يعني ابن النعمان - حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ ، فكانت أحسن عينيه .

وروى قصة قتادة عاصم بن عمر بن قتادة ، ويزيد بن عياض بن عمر بن قتادة .  
ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة .

وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قَرْد ، قال : مما ضرب عليّ ولا  
قاح .

وروى النسائي ، عن عثمان بن حنيف أن أعمى قال : يا رسول الله ، ادع الله أن  
يكشف لي عن بصري . قال : « فانطلق فتوضاً ، ثم صل ركعتين ، ثم قل : اللهم إني

أسألك وأتوجه إليك بنبيِّي محمد نبي الرحمة ، يا محمد ، إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري ، اللهم شفعه في «<sup>(١)</sup>» .

قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره .

وروي أن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء ، فبعث إلى النبي ﷺ ، فأخذ بيده حثوة من الأرض ، فتفل عليها ، ثم أعطاها رسوله ، فأخذها متعجباً ، يرى أن قد هزى بها ، فأتاه بها ، وهو على شفا ، فشربها ، فشفاه الله .

وذكر العقيلي ، عن حبيب بن دُبِيك - ويقال : فُرِيك : أن أباه اivist عيناه ، فكان لا يصر بهما شيئاً ، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه ، فأبصر ، فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وهو ابن ثمانين .

ورمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره ، فبصق رسول الله ﷺ فيه ، فبراً . وتفل على شجَّة عبد الله بن أنيس فلم تَمِدَّ .

وتفل في عيني عليّ يوم خير ، وكان رمداً ، فأصبح بارئاً .

ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خير فبرئت ، وفي رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب ، حين قتل ابن الأشرف ، فبرئت . وعلى ساق عليّ بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت ، فبرئ مكانه ، وما نزل عن فرسه .

واشتكى عليّ بن أبي طالب ، فجعل يدعو ، فقال النبي ﷺ : « اللهم اشفه » ، أو « عافه » ، ثم ضربه ببرجله ، مما اشتكى ذلك الوجع بعد .

وقطع أبو جهل يوم بدر يد معاذ بن عفرا ، فجاء يحمل يده ، فبصق عليها رسول الله ﷺ ، وألصقها فلتصقت . رواه ابن وهب .

ومن روايته أيضاً : أن خُبَيْبَ بْنَ يَسَافَ أَصَبَّ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِبَسْرِيَةِ عَلَى عَاتِقِه حَتَّى مَالَ شَقَّهُ ، فَرَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَنَفَثَ عَلَيْهِ حَتَّى صَحَّ .

وأتته امرأة من خثعم ، معها صبي به بلاء لا يتكلم ، فأتى بماء فمضمض فاه ، وغسل يديه ، ثم أعطاها إياه ، وأمرها بسقيه ومسه به ، فبراً الغلام ، وعقل عقلًا يفضل

عقول الناس .

وعن ابن عباس : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره ، فشعَّ ثعَّةٌ فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، فسعي .

وانكفاءات القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل ، فمسح عليه ودعا له ، وتقل فيه فبراً لحينه .

وكانت في كف شرحيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة ، فشكها للنبي ﷺ ، فما زال يطحنتها بكفه حتى رفعها ، ولم يبق لها أثر .

وسأله جارية طعاماً ، وهو يأكل ، فناولها من بين يديه ، وكانت قليلة الحياة ، فقالت : إنما أريد من الذي في فيك ، فناولها ما في فيه ، ولم يكن يُسأله شيئاً فيمتنعه . فلما استقر في جوفها ألقى عليها من الحياة ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياء منها .

## الفصل الثاني والعشرون

### في إجابة دعائه ﷺ

وهذا باب واسع جداً ، وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة ، معلوم ضرورة .

وقد جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولده .

حدثنا أبو محمد العتابي بقراءتي عليه ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن القابسي ، حدثنا أبو زيد المروزي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، حدثنا حرمي ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : قالت أمي : يا رسول الله ، خادمك أنس ، ادع الله له . قال : «اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما آتينه » (١) .

ومن رواية عكرمة قال أنس : فوالله إن مالي لكثير ، وإن ولدي وولد ولدي ليُعادُونَ

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠ / ١٤١) .

اليوم على نحو المائة <sup>(١)</sup>.

وفي رواية : وما أعلم أحداً أصاب من رخاء العيش ما أصبت ، ولقد دفت بيدي هاتين مائة من ولدي ، لا أقول : سقطًا ولا ولدًا .

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة ، قال عبد الرحمن : فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيّب تحته ذهباً ، وفتح الله عليه ، ومات فَحُفِرَ الذهب من تركته بالفؤوس حتى مجلت فيه الأيدي ، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفًا وكن أربعًا .

وقيل : مائة ألف ، وقيل : بل صولحت إحداين ، لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفًا ، وأوصى بخمسين ألفًا بعد صدقاته الفاشية في حياته ، وعوارفه العظيمة ، أعتقد يوماً ثلثين عبداً ، وتصدق مرة بغير فيها سبعمائة بغير ، ورددت عليه تحمل من كل شيء ، فتصدق بها وبما عليها ، وبأقتابها وأحلاسها .

ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد ، فنال الخلافة ، ولسعد بن أبي وقاص <sup>رضي الله عنه</sup> أن يجيب الله دعوته ، فما دعا على أحد إلا استجيب له .

ودعا بعزم الإسلام بعمر <sup>رضي الله عنه</sup> ، أو بأبي جهل ، فاستجيب له في عمر .

وقال ابن مسعود <sup>رضي الله عنه</sup> : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وأصحاب الناس في بعض مغازييه عطش ، فسألهم عمر الدعاء ، فدعوا ، فجاءت سحابة ، فسقّتهم حاجتهم ، ثم أقلعت .

ودعا في الاستسقاء ، فسقوه ، ثم شكروا إليه المطر ، فدعوا ، فصَحَّوا .

وقال لأبي قتادة : « أفلح وجهك ، اللهم بارك لي في شعره وبشره » ، فمات وهو ابن سبعين سنة ، وكأنه ابن خمس عشرة سنة .

وقال للنابغة : « لا يفاض الله فاك » ، فما سقطت له سن .

وفي رواية : فكان أحسن الناس ثغراً ، إذا سقطت له سن نبتت له أخرى ، وعاش عشرين ومائة سنة ، وقيل : أكثر من هذا .

ودعا لابن عباس : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . فسمى بعده : الحبر

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨١ / ٢٤٣) .

وترجمان القرآن <sup>(١)</sup> .

ودعا عبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه ، فما اشتري شيئاً إلا ربح فيه .

ودعا للمقداد بالبركة ، فكانت عنده غرائز من المال .

ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد ، فقال : فلقد كنت أقوم بالكتناسة ، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً .

وقال البخاري في حديثه : فكان لو اشتري التراب ربح فيه .

وروى مثل هذا لغرقدة أيضاً .

وندت له ناقة ، فدعا فجاءه بها إعصار ريح ، حتى ردها عليه .

ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت <sup>(٢)</sup> .

ودعا عليّ أن يكفى الحر والقُرْ ، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف ، وفي الصيف ثياب الشتاء ، ولا يصبه حر ولا برد .

ودعا الله لفاطمة ابنته ألا يجيئها ، قالت : فما جئت بعد .

وسأله الطفيلي بن عمرو آية لقومه ، فقال : « اللهم نور له » فسطع له نور بين عينيه ، فقال : يارب أخاف أن يقولوا : مُثْلَة ، فتحول إلى طرف سوطه ، فكان يضيء في الليلة المظلمة ، فسمى ذا النور .

ودعا على مصر فأقحوها ، حتى استعطفته قريش ، فدعا لهم فسقوا .

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يزق الله ملكه ، فلم تبق له باقية ، ولا بقيت لفارس رياسته في أقطار الدنيا .

ودعا على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع الله أثره ، فأقعد .

وقال لرجل رأه يأكل بشماله : « كل بيمينك » . قال : « لا أستطيع » . فقال : « لا استطعت » . فلم يرفعها إلى فيه <sup>(٣)</sup> .

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧ / ١٣٨) .

(٢) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩١ / ١٥٨) .

(٣) مسلم في الأشربة (٢٠٢١ / ١٠٧) عن سلمة بن الأكوع .

وقال لعبدة بن أبي لهب : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » ، فأكله الأسد .  
وقال لامرأة : « أكلك الأسد » . فأكلتها .

وتحديث المشهور ، من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، في دعائه على قريش حين وضعوا السلا على رقبته وهو ساجد مع الفrust والدم ، وسماهم . قال : فلقد رأيتم قتلوا يوم بدر .

ودعا على الحكم بن أبي العاص ، وكان يختلج بوجهه ، ويغمز عند النبي صلوات الله عليه ؛  
أي : لا ، فرأه : « كذلك كن » ، فلم يزل يختلج إلى أن مات .

ودعا على مُحَمَّد بن جثامة فمات لسبعين ، فلفظته الأرض ، ثم ووري لفظته مرات ،  
فزلقوه بين صُدُّين ، ورضموا عليه بالحجارة .

والصد : جانب الوادي .

وجحده رجل بيع فرس - وهي التي شهد فيها خزية للنبي صلوات الله عليه ، فرد الفرس بعد النبي صلوات الله عليه على الرجل ؛ وقال : « اللهم إن كان كاذباً فلا تبارك له فيها » . فأصبحت شاصية برجلها ، أي : رافعة .

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به .

### الفصل الثالث والعشرون

#### في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره

أخبرنا أحمد بن محمد ، حدثنا أبو ذر الهروي ، إجازة ، حدثنا القاضي أبو علي سماعًا ، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن وغيرهما ، قالوا : حدثنا أبو الوليد القاضي ، حدثنا أبو ذر ، حدثنا أبو إسحاق ، وأبو الهيثم ، قالوا : حدثنا الفريبرى ، حدثنا البخاري ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل المدينة فرعوا مرة ، فركب رسول الله فرساً لأبي طلحة كان يقطف ، أو به قطاف .  
وقال غيره : يُبَطَّأ ، فلما رجع قال : « وجدنا فرسك بحراً » ، فكان بعد لا يجارى <sup>(١)</sup> .

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٦٧) ومسلم في الفضائل (٢٣٠٧ ، ٤٨ ، ٤٩) .

ونحس جمل جابر ، وكان قد أعيا ، فنشط حتى كان ما يملك زمامه وَصَنَعَ مثل ذلك بفرس لجعل الأشجاعي ، خفتها بمحفقة معه ، وبرك عليها ، فلم يملك رأسها نشاطاً ، وباءع من بطنها باثنى عشر ألفاً .

وركب حماراً قطوفاً لسعد بن عبادة فرده هملاجاً لا يُساير .

وكانت شعرات من شعره في قلنوسة خالد بن الوليد ، فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر .

وفي « الصحيح » عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه : أنها أخرجت جبة طيالسة ، وقالت : كان رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها <sup>(١)</sup> .

وحدثنا القاضي أبو علي ، عن شيخه أبي القاسم بن المؤمن : قال : كانت عندنا قصعة من قصاع النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فكنا نجعل فيها الماء للمرضى ، فيستشفون بها . وأخذ جهجاه الغفاري القصيبي من يد عثمان رضي الله عنه ليكسره على ركبته ، فصاح الناس به ، فأخذته فيها الآكلة فقطعها ، ومات قبل الحول . وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء فما نزفت بعد . ويزق في بئر كانت في دار أنس ، فلم يكن بالمدينة أذب منها .

ومر على ماء ، فسأل عنه ، فقيل له : اسمه **يَسَانٌ** ، وماهه ملح ، فقال : « بل هو **نعمان** وماهه طيب » . فطاب .

وأتي بدلوا من ماء زمز ، فمج فيه ، فصار أطيب من المسك .

وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه ، وكانا يبكيان عطشاً ، فسكتا .

وكان لأم مالك عُكَّةً تُهُدِي فيها للنبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمنا ، فأمرها النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تعصرها ، ثم دفعها إليها ، فإذا هي ملوءة سمنا ، ف يأتيها بنوها يسألونها الأدم ، وليس عندهم شيء ، فتعمد إليها ، فتجد فيها سمنا ، فكانت تقيم أدمها حتى عصرتها <sup>(٢)</sup> .

وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيجزئهم ريقه إلى الليل .

ومن ذلك بركة يده فيما لمسه وغرسه ، ولسلمان رضي الله عنه حين كاتبه مواليه على ثلاثة

(١) مسلم في اللباس (٢٠٦٩) .

(٢) مسلم في الفضائل (٢٢٨٠) .

ودية يغرسها لهم ، كلها تعلق وتطعم . وعلى أربعين أوقية من ذهب ، فقام عليه السلام وغرسها له يده إلا واحدة غرسها غيره ، فأخذت كلها إلا تلك الواحدة ، فقلعها النبي ، وردها ، فأخذت .

وفي كتاب البزار : فأطعم النخل من عامه إلا الواحدة ، فقلعها رسول الله عليه السلام وغرسها فأطعمت من عامها .

وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه ، فوزن منها لواليه أربعين أوقية ، وبقي عنده مثل ما أعطاه .

وفي حديث حنش بن عقيل : سقاني رسول الله عليه السلام شربة من سويق شرب أولها وشربت آخرها ، فما برحت أجد شبعها إذا جعت ، وربما إذا عطشت ، وبردها إذا ظمت . وأعطي قتادة بن النعمان ، وصلى العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونا ، وقال : « انطلق به ، فإنه سيفيء لك من بين يديك عشرًا ومن خلفك عشرًا ، فإذا دخلت بيتك فسترى سوادًا فاضر به حتى يخرج ، فإنه الشيطان » .

فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ، ووجد السواد فضر به حتى خرج .

ومنه دفعه لعكاشة جذل حطب ، وقال : « اضرب به » حين انكسر سيفه يوم بدر ، فعاد في يده سيفاً صارماً ، طويل القامة ، أبيض ، شديد المتن ، فقاتل به ، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد في قتال أهل الردة . وكان هذا السيف يسمى « العون » .

ودفعه عبد الله بن جحش يوم أحد ، وقد ذهب سيفه عسيب نخل ، فرجع في يديه سيفاً .

ومنه بركته في دور الشياه الحوائل بالبن الكثير ، كقصبة شاة أم معبد ، وأعتر معاوية ابن ثور ، وشاة أنس ، وغنم حليمة مرضعته وشارفها ، وشاة عبد الله بن مسعود ، وكانت لم ينزل عليها فحل ، وشاة المقداد .

ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكاه ، ودعا فيه ، فلما حضرتهم الصلاة نزلوا فحلوه ، فإذا به ابن طيب وزبدة في فمه - من رواية حماد بن سلمة .

ومسح على رأس عمير بن سعد ، وبرك ، فمات وهو ابن ثمانين ، مما شاب .

وروي مثل هذه القصص عن غير واحد ، منهم السائب بن يزيد ومدلوك .

وكان يوجد لعبدة بن فرقد طيب يغلب طيب نسائه ؛ لأن رسول الله ﷺ مسح بيده على بطنه وظهره .

وسلت الدم عن وجه عائذ بن عمرو ، وكان جرح يوم حنين ، ودعا له ، فكانت له غرة كفرة الفرس .

ومسح على رأس قيس بن زيد الجذامي ، ودعا له ، فهلك وهو ابن مائة سنة ، ورأسه أبيض ، وموضع كف النبي ﷺ وما مرت يده عليه من شعره أسود ، فكان يدعى الأغر .

وروي مثل هذه الحكاية لعمرو بن ثعلبة الجهنمي .

ومسح وجه آخر ، فما زال على وجهه نور .

ومسح وجه قتادة بن ملحان ، فكان لوجهه بريق حتى كان يُنظر في وجهه كما يُنظر في المرأة .

وموضع يده على رأس حنظلة بن حذيم ، وبرك عليه ، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه ، والشاة قد ورم ضرعها ، فيوضع على موضع كف النبي ﷺ فيذهب الورم . ونصح في وجه زينب بنت أم سلمة نسحة من ماء ، فما يُعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما بها .

ومسح على رأس صبي به عاهة ، فبرا ، واستوى شعره . ومثله روى في خبر المهلب ابن قبالة . وعلى غير واحد من الصبيان والمرضى والمجانين ، فبرئوا .

وأتاه رجل به أدرة ، فأمره أن ينضجها بماء من عين مج فيها ، ففعل ، فبرا .

وعن طاوس : لم يؤت النبي ﷺ بأحد به مَسْ فصك في صدره إلا ذهب . والمس : الجنون .

ومج في دلو من بتر ، ثم صب فيها ، فناح منها ريح المسك .

وأخذ قبضة من تراب يوم حنين ، ورمى بها في وجوه الكفار ، وقال : « شاهت الوجه » ، فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم .

وشكا إليه أبو هريرة رضي الله عنه النسيان ، فأمره ببسط ثوبه ، وغرف بيده فيه ، ثم أمره

بضميه ، ففعل ، فما نسي شيئاً بعد . وما يروى عنه في هذا كثير .  
 وضرب صدر جرير بن عبد الله ، ودعا له ، وكان ذكر له أنه لا يثبت على الخيل ،  
 فصار من أفرس العرب وأثبthem .  
 ومسح على رأس عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو صغير ، وكان دمياً ، ودعا  
 له بالبركة ، فَقَرَعَ الرجال طولاً وقماً .

## الفصل الرابع والعشرون

### ما اطلع عليه من الغيوب

ومن ذلك ما اطلع عليه من الغيوب وما يكون . والأحاديث في هذا الباب بحر لا  
 يدرك قعره ، ولا يُنفِّذ غمره .

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على قطع الواصل إلينا خبرها على التواتر ،  
 لكثرة رواتها ، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب .

حدثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري إجازة ، وقرأته على غيره : قال أبو  
 بكر : حدثنا أبو علي التستري ، حدثنا أبو عمر الهاشمي ، حدثنا المؤلوي ، حدثنا أبو  
 داود ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن  
 حذيفة ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى  
 قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسقه من نسقه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ،  
 وإنه ليكون منه شيء فأعرفه فإذا ذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رأه  
 عرفه <sup>(١)</sup> .

ثم قال حذيفة : ما أدرني ، أنسى أصحابي أم تناصوه ؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ  
 من قائد فتنة إلى أن تنتهي الدنيا يبلغ من معه ثلاثة مائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه  
 باسم أبيه وقبيلته .

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا

(١) البخاري في القدر (٦٦٠٤) ، ومسلم في الفتنة (٢٨٩١) / ٢٣ .

منه علمًا<sup>(١)</sup> .

وقد خرج أهل «الصحيح» والأئمة ما أعلم به أصحابه عليه السلام ما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس ، واليمن ، والشام ، والعراق ، وظهور الأمن ، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة ، لا تخاف إلا الله . وأن المدينة ستغزى وتنفتح خير على يدي عليٍّ في غد يومه ، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر ، وما يحدث بينهم من الفتنة والاختلاف والأهواء وسلوك سبيل من قبلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، وأنه ستكون لهم أنماط ، ويعدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة .

ثم قال آخر الحديث : « وأنتم اليوم خير منكم يومئذ ». وأنهم إذا مشوا المطية وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم . وقتلهم الفرس والخزر والروم وذهب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده ، وذهب قيصر حتى لا قيصر بعده . وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر .

وبذهب الأمثل فالأمثل من الناس ، وتقرب الزمان ، وقبض العلم ، وظهور الفتنة ، والهرج . وقال : « ويل للعرب من شر قد اقترب »<sup>(٢)</sup> .

وأنه زويت له الأرض فأري مشارقها وغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها . ولذلك كان ، امتدت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك .

وقوله : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »<sup>(٣)</sup> . ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب؛ لأنهم المختصون بالسقي بالغرب - وهي الدلو . وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب ، وقد ورد المغرب كذلك في الحديث بمعناه .

(١) أحمد / ٥ / ١٥٣ .

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦) .

(٣) مسلم في الإمارة (١٩٢٥ / ١٧٧) عن سعد بن أبي وقاص .

وفي حديث آخر ، من رواية أبي أمامة : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، قاهرين لعدوهم ، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك » .

قيل : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : « بيت المقدس »<sup>(١)</sup> .

وأخبر بذلك بنى أمية ، وولاية معاوية ، ووصاه ، واتخاذ بنى أمية مال الله دولا ، وخروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكتهم أضعاف ما ملكوا ، وخروج المهدى ، وما ينال أهل بيته وتقتيлем وتشريدهم ، وقتل علي ، وأن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه ؟ أي لحيته من رأسه ، وأنه قسيم النار ، يدخل أولياؤه الجنة وأعداؤه النار ، فكان فيمن عاداه الخوارج والناصبة ، وطائفة من ينسب إليه من الروافض كفروه .

وقال : « يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف » ، وأن الله عسى أن يلبسه قميصا ، وأنهم يريدون خلعه ، وأنه سيقطر دمه على قوله : « فَسَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ » [البقرة : ١٣٧] ، وأن الفتنة لا تظهر ما دام عمر حيّا .

وبحاربة الزبير لعلي ، وبنباح كلاب الحوائب على بعض أزواجها ، وأنه يقتل حولها قتلى كثير ، وتنجو بعدها كادت ، فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة .  
 وأن عمارة تقتله الفتنة الbagية ، فقتله أصحاب معاوية .

وقال عبد الله بن الزبير : « ويل للناس منك ، وويل لك من الناس » .

وقال في قُزْمان - وقد أبلى مع المسلمين : « إنه من أهل النار » ، فقتل نفسه .

وقال في جماعة فيهم أبو هريرة ، وسمّرة بن جندب ، وحذيفة : « آخركم موتاً في النار » ، فكان بعضهم يسأل عن بعض ، فكان سمرة آخرهم موتاً ، هرم وخرف ، فاصطلي بالنار فاحترق فيها<sup>(٢)</sup> .

وقال في حنظلة الغسيل : « سلوا زوجته عنه ، فإني رأيت الملائكة تغسله » ، فسألوها فقالت : إنه خرج جنباً ، وأعجله الحال عن الغسل .

قال أبو سعيد رضي الله عنه : وجدنا رأسه يقطر ماء .

(١) انظر السابق .

(٢) الطبراني في الأوسط (٦٢٠٦) عن أبي أويس .

وقال : « الخلافة في قريش » <sup>(١)</sup> .

و« لن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين » <sup>(٢)</sup> .

وقال : « يكون في ثقيف كذاب ومُبَيِّر » ، فرأوهما : الحاج ، والختار .

وأن مسلمة يعقره الله <sup>(٣)</sup> .

وأن فاطمة أول أهله لحوًّا به <sup>(٤)</sup> .

وأنذر بالردة ، وبأن الخلافة بعده ثلاثة <sup>(٥)</sup> سنة ، ثم تكون ملکاً ، فكانت كذلك بمدة الحسن بن عليّ .

وقال : « إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم يكون ملکاً عَصُوضاً ، ثم يكون عتواً وجبروتاً وفساداً في الأمة » . وأخبر بشأن أويس القرني ، وبأمراء يؤخرن الصلاة عن وقتها ، وسيكون في أمته ثلاثة ثلاثة كذاباً فيهم أربع نسوة .

وفي حديث آخر : « ثلاثة دجالاً كذاباً ، آخرهم الدجال الكذاب ، كلهم يكذب على الله ورسوله » .

وقال : « يوشك أن يكثر فيكم العجم ، يأكلون فيشككم ويضربون رقابكم ، ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان » <sup>(٦)</sup> .

وقال : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون ، ويختونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السُّمَّن » <sup>(٧)</sup> .

(١) أحمد ٤ / ١٨٥ .

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٠٠) عن معاوية .

(٣) مسلم في الرؤيا (٢٢٧٣ / ٢١) عن ابن عباس .

(٤) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠ / ٩٧) عن عائشة .

(٥) الترمذى في الفتن (٢٢٦٦) عن سفينة .

(٦) البخاري في المناقب (٣٥١٧) عن أبي هريرة وعنه مسلم في الفتن (٢٩١٠ / ٦٠) .

(٧) البخاري في الشهادات (٢٦٥١) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥ / ٢١٤) .

وقال : « لا يأتي زمان إلا والذى بعده شر منه » <sup>(١)</sup> .

وقال : « هلاك أمتي على يدي أغيمة من قريش » .

وقال أبو هريرة - راويه : « لو شئت سميتمهم لكم : بنو فلان ، وبنو فلان » .

وأخبر بظهور القدرية والرافضة ، وسب آخر هذه الأمة أولها ، وقلة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام ، فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة وأنهم سيلقون بعده أثرة .

وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم ، والمُخدَّج الذي فيهم ، وأن سيماهم التحليق . وترى رعاة الغنم رؤوس الناس ، والعراء الحفاء يتبارون في البنيان .  
وأن تلد الأمة ربها .

وأن قريشاً والاحزاب لا يغزوهم أبداً ، وأنه هو يغزوهم .

وأخبر بالموتان الذي يكون بعد فتح بيت المقدس .

وما وعد من سكنى البصرة ، وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة .

وأن الدين لو كان منوطاً بالثريا لنانه رجال من أبناء فارس

وهاجت ريح في غزاته ، فقال : « هاجت موت منافق » ، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك .

وقال لقوم من جلسائه : « ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد » <sup>(٢)</sup> .

قال أبو هريرة : فذهب القوم - يعني ماتوا - وبقيت أنا ورجل ، فقتل مرتدًا يوم اليمامة .

وأعلم بالذى غلَّ خرزًا من خرزَ يهود ، فوجدت في رحله .

وبالذى غلَّ الشملة ، وحيث هي .

وناقته حين ضلت ، وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها .

(١) البخاري في الفتن (٧٠٦٨) عن أنس .

(٢) مسلم في الجنة (٤٤ / ٢٨٥١) عن أبي هريرة .

وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة .

وبقضية عمير مع صفوان حين ساره وشارطه على قتل النبي ﷺ . فلما جاء عمير للنبي ﷺ فاصلًا لقتله ، وأطلعه رسول الله ﷺ على الأمر والسر أسلم .

وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل بعد أن كتمه ، فقال : ما علمه غيري وغيرها ، فأسلم .

وأعلم بأنه سيقتل أبي بن خلف .

وفي عتبة بن أبي لهب : أنه يأكله كلب من كلاب الله .

وعن مصارع أهل بدر ، فكان كما قال .

وقال في الحسن : « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فترين » <sup>(١)</sup> .

ولسعد : « لعلك تُخلَّفَ حتى يتتفع بك أقوام ويستضرَّ بك آخرون » <sup>(٢)</sup> .

وأخبر بقتل أهل مؤة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد .

وبموت النجاشي يوم مات بأرضه .

وأخبر فiroز إذ ورد عليه رسولًا من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم ، فلما حرق فiroز القصبة أسلم .

وأخبر أبا ذر رضي الله عنه بتطريده كما كان ، ووجده في المسجد نائمًا ، فقال له : « كيف بك إذا أخرجت منه؟ » قال : أسكن المسجد الحرام . قال : « فإذا أخرجت منه ... » <sup>(٣)</sup> . الحديث .

وبِعِيشِه وحده ، وموته وحده .

وأخبر أن أسرع أزواجه به لحوقًا أطولهن يدًا ، فكانت زينب لطول يدها بالصدقة <sup>(٤)</sup> .

(١) البخاري في الصلح (٤) ٢٧٠.

(٢) البخاري في مناقب الانصار (٣٩٣٦).

(٣) أحمد ٥ / ١٥٦.

(٤) البخاري في الزكاة (١٤٢٠) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٠١/٢٤٥٢) عن عائشة .

وأخبر بقتل الحسين بالطف ، وأخرج بيده تربة وقال : « فيها مَضْجَعَه ». .

وقال في زيد بن صُوحان : « يسبقه عضو منه إلى الجنة » ، فقطعت يده في الجهاد .

وقال في الذين كانوا معه على حراء : « أثبت ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد »<sup>(١)</sup> ، فقتل علي ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وطعن سعد رضي الله عنه .

وقال لسراقة : « كيف بك إذا ألبست سواري كسرى ؟ » فلما أتى بهما عمر ألبسهما إياه ، وقال : الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة .

وقال : « تبني مدينة بين دجلة ودجليل وقُطُريل والصراة ، تجبي إليها خزائن الأرض ، يخسف بها ». يعني بغداد .

وقال : « سيكون في هذه الأمة رجل يقال له : الوليد ، هو شر لهذه الأمة من فرعون لقومه ». .

وقال : « لا تقوم الساعة حتى تقتل فتتان دعواهما واحدة »<sup>(٢)</sup> .

وقال لعمر في سهيل بن عمرو : « عسى أن يقوم مقامًا يُسْرُك يا عمر ! » فكان كذلك ، قام بمكمة مقام أبي بكر يوم بلغهم موت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وخطب بنحو خطبته ، وثبتهم وقوى بصائرهم .

وقال خالد حين وجهه لا يكدر : « إنك تجده يصيد البقر »<sup>(٣)</sup> .

فوجدت هذه الأمور كلها في حياته وبعد موته كما قال صلوات الله عليه وآله وسلامه .

إلى ما أخبر به جلساه من أسرارهم وبواطنهم ، واطلع عليه من أسرار المنافقين وكفرهم ، وقولهم فيه وفي المؤمنين ، حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه : اسكت ، فوالله لو لم يكن عنده من يخبره لأنخبرته حجارة البطحاء .

وإعلامه بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم ، وكونه في مُشْط وَمُشَاقة ، في جُفَّ طلع نخلة ذَكَر ، وأنه ألقى في بئر ذروان ، فكان كما قال ، ووُجد على تلك

(١) سبق تحريرجه .

(٢) مسلم في الفتنة (١٥٧ / ١٧) عن أبي هريرة .

(٣) البيهقي في الدلائل (٥ / ٢٥٠) عن عبد الله بن أبي بكر .

الصفة<sup>(١)</sup> .

وإعلامه قريشاً بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بنى هاشم ، وقطعوا بها رحمهم ، وأنها أبقيت فيها كل اسم لله ، فوجدوها كما قال . ووصفه لكفار قريش بيت المقدس حين كذبوا في خبر الإسراء ، ونعته إياه نعث من عرفه .

وإعلامهم بغيرهم التي مرّ عليها في طريقه ، وإنذارهم بوقت وصولها ، فكان كله كما قال .

إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم تأت بعد ، منها ما ظهرت مقدماتها ، كقوله : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملهمة ، وخروج الملهمة فتح القسطنطينية »<sup>(٢)</sup> .

ومن أشراط الساعة وأيات حلولها ، وذكر النشر والحضر ، وأخبار الأبرار والفحار ، والجنة والنار ، وعرصات القيمة .

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشتمل على أجزاء وحده ، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرنا كفاية ، وأكثرها في « الصحيح » وعند الأئمة .

## الفصل الخامس والعشرون

### في عصمة الله تعالى له من الناس وكفایته من آذاه

قال الله تعالى : «**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**» [المائدة : ٦٧] .

وقال تعالى : «**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**» [الطور : ٤٨] .

وقال : «**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَه**» [الزمر : ٣٦] .

قيل : بكاف محمداً عليه السلام أعداء المشركين . وقيل غير هذا .

وقال : «**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئَنَ**» [الحجر : ٩٥] .

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٨) ، ومسلم في السلام (٢١٨٩ / ٤٣) عن عائشة .

(٢) أبو داود في الملاحم (٤٢٩٤) وفيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وهو ضعيف ، وأحمد ٥ /

وقال : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » [الأنفال : ٣٠] .

أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي الصدفي بقراءتي عليه ، والفقية الحافظ أبو بكر محمد ابن عبد الله المعافي ، قالا : حدثنا أبو الحسين الصيرفي ، قال : حدثنا أبو يعلى البغدادي ، حدثنا أبو العباس المروزي ، حدثنا أبو عيسى الحافظ ، حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن سعيد الجريري ، عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان النبي صلوات الله عليه يحرس حتى نزلت هذه الآية : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » [المائدة : ٦٧] ، فأنخرج رسول الله صلوات الله عليه رأسه من القبة ، فقال لهم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصِرُوْا ، فَقَدْ عَصَمْنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » <sup>(١)</sup> .

وروي أن النبي صلوات الله عليه كان إذا نزل متولا اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها ، فأتاه أعرابي فاختلط سيفه ثم قال : من يمنعك مني ؟ فقال : « اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » فرعدت يد الأعرابي ، وسقط سيفه ، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه ، فنزلت الآية .

وقد رويت هذه القصة في « الصحيح » <sup>(٢)</sup> ، وأن غورث بن الحارث صاحب هذه القصة ، وأن النبي صلوات الله عليه عفا عنه ، فرجع إلى قومه ، وقال : جئتم من عند خير الناس .

وقد حكى مثل هذه الحكاية ، وأنها جرت له يوم بدر ، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته ، فتبعده رجل من المنافقين ... وذكر مثله .

وقد روي أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان بذي أمر ، مع رجل اسمه دُعْثُور بن الحارث ، وأن الرجل أسلم ، فلما رجع إلى قومه أغروه - وكان سيدهم وأشجعهم - قالوا له : أين ما كنت تقول ، وقد أمكنك ؟ فقال : إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدره ، فوقيع لظهره ، وسقط السيف ، فعرفت أنه ملك ، وأسلمت .

قيل : وفيه نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نَعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ » [المائدة : ١١] .

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٤٦) .

(٢) البخارى فى المغازى (٤١٣٦) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٨٤٣ / ٣١١) .

وفي رواية الخطابي أن غورث بن الحارث المحاري أراد أن يفتك بالنبي ﷺ ، فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه متضيّعاً سيفه ، فقال : « اللهم اكفني بما شئت » ، فانكب من وجهه من زُلْخَةٍ زُلْخَةٍ بين كفيه ، وندر سيفه من يده .

الزلخة : وجع الظهر .

وقيل في قصته غير هذا ، وذكر : أن فيه نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نَعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوْكِلِ الْمُؤْمِنُونَ » [المائدة : ١١] .

وقيل : كان رسول الله ﷺ يخاف قريشاً ، فلما نزلت هذه الآية استلقى ، ثم قال : « من شاء فليخذلني » .

وذكر عبد بن حميد قال : كانت حمالة الخطب تَضَعُ العِضَاه - وهي جمر - على طريق رسول الله ﷺ فكأنما يطؤها كثيراً أهيل .

وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » ، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم ، أنت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، وفي يدها فهرٌ من الحجارة .

فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر ، وأخذ الله تعالى يبصرها عن نبيه ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضررت بهذا الفهر فاه .

وعن الحكم بن أبي العاص قال : تواعدنا على النبي ﷺ حتى إذا رأيناها سمعنا صوتها خلفنا ما ظننا أنه بقى بتهمة أحد ، فوقعنا مغشياً علينا ، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله .

ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناها جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه .

وعن عمر بن الخطاب : تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله ﷺ ، فجئنا متزلاه ، فسمعنا له ، فافتتح وقرأ : « الْحَافَةُ . مَا الْحَافَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَافَةُ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودٌ فَأَهْلَكُوا بِالْطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ »

سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لِيَالٍ وَثَمَانِيَّةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعَنِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٌ حَاوِيَةٌ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَّةٍ [الحقة : ١ - ٨] . فضرب أبو جهم على عضد عمر ، وقال : انجع ، وفرا هاربين ، فكانت من مقدمات إسلام عمر رض .

ومنه العبرة المشهورة والكافية التامة عندما أحافته قريش ، وأجمعوا على قتله وبئته ، فخرج عليهم من بيته ، فقام على رؤوسهم ، وقد ضرب الله تعالى على أبصارهم . وذر التراب على رؤوسهم ، وخلص منهم .

وحماته عن رؤيهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات ، ومن العنكبوت الذي نسج عليه ، حتى قال أمية بن خلف - حين قالوا : ندخل الغار : ما أرِيْكُمْ فِيهِ ، وعليه من نسج العنكبوت ؟! ما أرى أنه قبل أن يولد محمد .

ووقفت حمامتان على فم الغار ، فقالت قريش : لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام . وقصته مع سراقة بن مالك بن جعشن حين الهجرة ، وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل ، فأثارت به ، فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبي صل ، فساخت قوائم فرسه ، فخر عنها ، واستقسم بالأزلام ، فخرج له ما يكره <sup>(١)</sup> .

ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي صل ، وهو لا يلتفت ، وأبو بكر رض يلتفت ، وقال للنبي صل : أتينا . فقال : « لا تحزن إن الله معنا » <sup>(٢)</sup> . فساخت ثانية إلى ركبتها ، وخر عنها فزجرها فنهضت ولقوائهما مثل الدخان ، فناداه بالأمان ، فكتب له النبي صل أماناً ، كتبه ابن فهيرة ، وقيل أبو بكر ، وأخبرهم بالأخبار ، وأمره النبي صل ألا يترك أحداً يلحق بهم . فانصرف يقول للناس : كفيتكم ما ها هنا .

وقيل : بل قال لهما : أراكما دعوتا عليّ ، فادعوا لي . فنجا ، ووقع في نفسه ظهور النبي صل .

وفي خبر آخر : أن راعياً عرف خبرهما ، فخرج يشتد ، يعلم قريشاً ، فلما ورد مكة ضرب على قلبه ، فما يدرى ما يصنع وأنسى ما خرج له حتى رجع إلى موضعه .

(١) مسلم في الأشربة (٢٠٠٩ / ٩١) عن البراء .

(٢) البخاري في المناقب (٣٦١٥) .

وجاءه - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - أبو جهل ، بصخرة وهو ساجد ، وقريش ينظرون ، ليطرحها عليه ، فلزقت يده ، وبيست يده إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقري إلى خلفه ، ثم سأله أن يدعو له ، ففعل ، فانطلقت يده ، وكان قد تواعد مع قريش بذلك وخلف لش رأه ليدمغه ، فسألوه عن شأنه ، فذكر أنه عرض لي دونه فحل ما رأيت مثله قط ، هم بي أن يأكلني .

فقال النبي ﷺ : « ذاك جبريل ، لو دنا لأخذه » .

وذكر السمرقندى أن رجلا من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله ، فطمس الله على بصره ، فلم ير النبي ﷺ ، وسمع قوله ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه . وذكر أن في هاتين القصتين نزلت : « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَدْفَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُصْرُونَ » الآيتين [يس: ٨ ، ٩] .

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق ، وغيره في قصته ؛ إذ خرج إلى بني قريظة ، في أصحابه ، فجلس إلى جدار بعض آطامهم ، فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرح عليه رحى ، فقام النبي ﷺ فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم .

وقد قيل : إن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نَعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوُا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » [المائدة: ١١] . في هذه القصة نزلت .

وحكى السمرقندى أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عقل الكلابيين اللذين قتلهم عمرو بن أمية ، فقال له حبي بن أخطب : اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا .

فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتأمر حبي معهم على قتله ، فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك ، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة .

وذكر أهل التفسير والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا جهل وعد قريشاً لش رأى محمداً يصلى ليطأن رقبته .

فلما صلى النبي ﷺ أعلمه ، فأقبل ، فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبيه ،

متقياً بيديه ، فسئل ، فقال : لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء ناراً كدت أهوي فيه ، وأبصرت هولاً عظيماً ، وخفق أجنهة قد ملأت الأرض .

قال النبي : « تلك الملائكة ، لو دنا لاختطفته عضواً عضواً » .

ثم أنزل على النبي ﷺ : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَىٰ . أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَىٰ . إِنَّ إِلَيْ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ . أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَدْاً إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ . أَوْ أَمْرَ بِالنَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَكَنْ لَمْ يَتَّهِ لِتَسْفَعَأَ بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٌ كَادِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَلَيَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . سَدْنَعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ . » [ العلق : ٦-١٩ ].

ويرى أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين ، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه فقال : اليوم أدركك ثارياً من محمد .

فلما احتللت الناس أتاه من خلفه ، ورفع سيفه ليصبه عليه ، قال : فلما دنوت منه ارتفع إلى شواطئ من نار أسرع من البرق ، فوليت هارباً ، وأحس بي النبي ﷺ فدعاني ، فوضع يده على صدري ، وهو أبغض الخلق إلى ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلى ، وقال لي : « ادْنُ فَقَاتِلْ » ، فتقدمت أمامه وأضرب بسيفي وأقيه ببني ، ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه .

وعن فضالة بن عمرو قال : أردت قتل النبي ﷺ عام الفتح ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه قال : « أفضالة ؟ » قلت : نعم . قال : « ما كنت تحدث به نفسك ؟ » قلت : لا شيء . فضحك واستغفر لي ، ووضع يده على صدري ، فسكن قلبي ، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه . ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيلي وأربد بن قيس - حين وفدا على النبي ﷺ ، وكان عامر قال له : أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت . فلم يره فعل شيئاً ، فلما كلمه في ذلك قال له : والله ما همت أن أضربه إلا وجدتك بيني وبينه ، فأضربتك ؟! ومن عصنته له تعالى أن كثيراً من اليهود والكهنة أذروا به وعينوه لقريش ، وأخبروهم بسطوته بهم ، وحضورهم على قتله ، فعصمه الله تعالى حتى بلغ فيه أمره .

ومن ذلك : نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر ، كما قال ﷺ .

## الفصل السادس والعشرون

### من معجزاته الباهرة

ومن معجزاته الباهرة : ما جمعه الله له من المعارف والعلوم ، وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين ، ومعرفته بأمور شرائعه ، وقوانين دينه ، وسياسة عباده ، ومصالح أمته ، وما كان في الأمم قبله ، وقصص الأنبياء والرسل والجبارية والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمانه وحفظ شرائعهم وكتبهم ، ووعي سيرهم ، وسرد أنبيائهم وأيام الله فيهم ، وصفات أعيانهم ، واختلاف آرائهم ، والمعرفة بمدهم وأعمارهم ، وحكم حكمائهم ، ومحاجة كل أمة من الكفرة ، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما في كتبهم ، وإعلامهم بأسرارها ومخابآت علومها ، وإخبارهم بما كتموا من ذلك وغيره .

إلى الاحتواء على لغات العرب ، وغريب ألفاظ فرقها ، والإحاطة بضروب فصاحتها ، والحفظ لأيامها وأمثالها ، وحكمها ومعاني أشعارها ، والتخصيص بجواجم كل منها .

إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة ، والحكم البينة لتقرير التفهيم للغامض ، والتبين للمشكل ، إلى تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل ، مع اشتمال شريعته على محسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل شيء مستحسن مفضل ، لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئاً إلا من جهة الخذلان .

بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه ، واستحسن دون طلب إقامة برهان عليه . ثم أحل لهم من الطيبات وحرم عليهم من الخباث ، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المُعاقبات والحدود عاجلاً ، والتغويف بالنار آجلاً مما لا يعلم علمه ، ولا يقوم به ولا يبعضه إلا من مارس الدرس والعلو على الكتب ، ومثافته بعض هذا . إلى الاحتواء على ضروب العلم ، وفنون المعرفة ؛ كالطلب ، والعبارة ، والفرائض ، والحساب ، والنسب ، وغير ذلك من العلوم مما اتخد أهل هذه المعرفة كلامه بِسْمِ اللَّهِ فيها قدوة وأصولاً في علمهم ؛ كقوله بِسْمِ اللَّهِ : « الرؤيا لأول عابر ، وهي على رجل طائر » <sup>(١)</sup> .

(١) أبو داود في الأدب (٥٠٢٠) بآخر منه ، والترمذني في الرؤيا (٢٢٧٩ ، ٢٢٧٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله : « الرؤيا ثلاثة ؛ رؤيا حق ، ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه ، ورؤيا تخزين من الشيطان » (١) .

وقوله : « إذا تقارب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب » .

وقوله : « أصل كل داء البرد » .

وما روي عنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه من قوله : « المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة » . وإن كان هذا حديثاً لا نصححه لضعفه وكونه موضوعاً تكلم عليه الدارقطني .

وقوله : « خير ما تداویتم به السعوط واللدواد والحجامة والمشي . وخير الحجامة يوم سبع عشر ، وتسع عشر ، وإحدى وعشرين . وفي العود الهندي سبعة أشفية . منها ذات الجنب » (٢) .

وقوله : « ما ملا ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه » إلى قوله : « فإن كان لا بد فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس » (٣) .

وقوله وقد سئل عن سبأ : أرجل هن أم امرأة أم أرض ؟ فقال : « رجل ولد عشرة : تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة ... » الحديث بطوله (٤) .

وكذلك جوابه في نسب قُضاعة ، وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك .

وقوله : « حمير رأس العرب ونابها . ومذحج هامتها وغلصمتها ، والأزد كاهملها وجمجمتها ، وهمدان غاربها وذروتها » .

وقوله : « إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض » (٥) .

وقوله : في الحوض : « زواياء سواء » .

(١) مسلم في الرؤيا (٢٢٦٣ / ٦) . عن أبي هريرة .

(٢) البخاري في الطب (٥٧١٣) ، ومسلم في السلام (٢٨٧ / ٨٦) عن أم قيس بنت محسن .

(٣) الترمذى في الزهد (٢٣٨٠) عن مقدام بن معدى كرب وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) أبو داود في الحروف (٣٩٨٨) ، والترمذى في التفسير (٣٢٢٢) وقال : حسن غريب .

(٥) البخاري في بدء الخلق (٣١٩٧) ، ومسلم في القسام (٢٩ / ١٦٧٩) عن أبي بكرة .

وقوله في حديث الذكر : « وإن الحسنة بعشر أمثالها ؛ فتلك مائة وخمسون على اللسان وألف وخمسمائة في الميزان ». .

وقوله وهو بموضع : « نعم موضع الحمام هذا » <sup>(١)</sup> .

وقوله : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » <sup>(٢)</sup> .

وقوله لعيينة ، أو الأقرع : « أنا أفرس بالخليل منك » <sup>(٣)</sup> .

وقوله لكاتبه : « ضع القلم على أذنك ، فإنه أذكر للملُّ » .

هذا مع أنه عَيْنَةٌ كان لا يكتب ؛ ولكنه أotti علم كل شيء ، حتى قد وردت آثار بمعروفة حروف الخط وحسن تصويرها .

قوله : « لا تندوا باسم الله الرحمن الرحيم ». رواه ابن شعبان من طريق ابن عباس.

وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديه عَيْنَةٌ ، فقال له : « ألق الدوّاء ، وحرّف القلم ، وأقم الباء ، وفرق السين ، ولا تُعور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحمن ». .

وهذا ، وإن لم تصح الرواية أنه عَيْنَةٌ كتب فلا يبعد أن يرّزق علم هذا وينعى القراءة والكتابة .

أما علمه عَيْنَةٌ بلغات العرب ، وحفظه معاني أشعارها ، فأمر مشهور ، قد نبهنا على بعضه أول الكتاب .

وكذلك حفظه لكثير من لغات الأمم ؛ كقوله في الحديث : « سَنَةٌ ، سَنَةٌ » وهي حسنة بالجحبشية <sup>(٤)</sup> . وقوله : « يكثُر الهرج » ، وهو القتل بها .

وقوله في حديث أبي هريرة : « أشْكُنْبَ دَرَدَ » ؛ أي : وجع البطن بالفارسية ، إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف

(١) الهيثمي في المجمع في الطهارة (١٥٢٧) وقال : رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن يعلى وهو ضعيف .

(٢) الترمذى في الصلاة (٣٤٢) .

(٣) أحمد ٤ / ٣٨٧ .

(٤) البخاري في الجهاد (٣٠٧١) عن أم خالد بنت خالد بن سعيد .

على الكتب ومثافنها أهلها عمره . وهو رجل - كما قال الله تعالى - أمي ، لم يكتب ولم يقرأ ، ولا عرف بصحة من هذه صفتة ، ولا نشأ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشيء من هذه الأمور ، ولا عرف هو قبل شيء منها ؛ قال الله تعالى : **«وَمَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ»** الآية [العنكبوت: ٤٨] . إنما كانت غاية معارف العرب النسب وأخبار أوائلها ، والشعر ، والبيان ؛ وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرغ لعلم ذلك ، والاشتغال بطلبها ، ومباحثة أهلها عنه .

وهذا الفن نقطة من بحر علمه بِكَلِيلٍ ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه ، ولا وجد الكفارة حيلة في دفع ما نصصناه إلا قولهم : **«أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»** [الفرقان: ٥] و **«إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ»** [النحل: ١٠٣] .

فرد الله قولهم بقوله : **«لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»** [النحل: ١٠٣] . ثم ما قالوه مكابرة العيان ؛ فإن الذي نسبوا تعليمه إليه إنما سلمان أو العبد الرومي ؛ وسلمان إنما عرفه بعد الهجرة ونزول الكثير من القرآن وظهوره ما لا ينعد من الآيات . وأما الرومي فكان أسلم وكان يقرأ على النبي بِكَلِيلٍ ، وخالف في اسمه .

وقيل : بل كان النبي بِكَلِيلٍ يجلس عنده عند المروءة ، وكلاهما أعمامي اللسان ؛ وهم الفصحاء اللد ، والخطباء اللُّسُنُ ، قد عجزوا عن معارضته ما أتى به ، والإitan بهله ؛ بل عن فهم رصفيه ، وصورة تأليفه ونظمه ؛ فكيف بأعمامي ألكن ؟ ! نعم ، وقد كان سلمان ، أو بلعام الرومي ، أو يعيش ، أو جبر ، أو يسار - على اختلافهم في اسمه - بين أظهرهم يكلمونه مدى أعمارهم ؛ فهل حكي عن واحد منهم شيء من مثل ما كان يجيء به محمد بِكَلِيلٍ ؟ وهل عُرف واحد منهم بمعروفة شيء من ذلك ؟ وما من العدو حيثن على كثرة عدده ، ودُرُّوب طلبه ، وقوه حسده أن يجلس إلى هذا فيأخذ عليه أيضاً ما يعارض به ويتعلم منه ما يحتاج به على شيعته ، كفعل النضر بن الحارث بما كان يخرق به من أخبار كتبه .

ولا غاب النبي بِكَلِيلٍ عن قومه ، ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب ؛ فيقال: إنه استمد منهم ؛ بل لم يزل بين أظهرهم يرعى في صغره وشبابه ، على عادة أبنائهم ؛ ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سفرة أو سرتين ، لم يطل فيهما مكثه مدة يحتمل فيها تعليم القليل ، فكيف الكثير ؟ بل كان سفره في صحبة قومه ورفاق عشيرته ، لم يغب

عنهم ، ولا خالف حاله مدة مقامه بمكة من تعليم واختلاف إلى حبر أو قس ، أو كاهن . بل لو كان هذا بعد كله مجيء ما أتى به في معجز القرآن قاطعاً لكل عذر ، ومدحضاً لكل حجة ، ومجلياً لكل أمر .

## الفصل السابع والعشرون

### أنباءه مع الملائكة والجن

ومن خصائصه بِعَيْلَةٍ ، وكراماته ، وباهر آياته : أنباءه مع الملائكة والجن ، وإمداد الله له بالملائكة ، وطاعة الجن له ، ورؤيه كثير من أصحابه لهم ؛ قال الله تعالى : « وَإِنْ تَظَاهِرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِرْبِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » [التحريم : ٤] .

وقال : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَيْ الْمَلَائِكَةِ أَتَيْ مَعَكُمْ فَتَبَّوَّا الَّذِينَ آمَنُوا سَأْلُقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » [الأنفال : ١٢] .

وقال : « إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمْدُوكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمِئِنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [الأنفال : ١٠] .

وقال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرَا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ » [الاحقاف : ٢٩] .

حدثنا سفيان بن العاص الفقيه بسماعي عليه ، حدثنا أبو الليث السمرقندى ؛ قال : حدثنا عبد الغافر الفارسي ، حدثنا أبو أحمد الجلودى ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم ، حدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن سليمان الشيبانى ، سمع زر بن حبيش عن عبد الله ، قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبُرَى » [النجم : ١٨] . قال : رأى جبريل عليه السلام في صورته ، له ستمائة جناح . والخبر في محادثه مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة ، وما شاهده من كثرةهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور .

وقد رأهم بحضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة ؛ فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان<sup>(١)</sup> .

ورأى ابن عباس ، وأسامة بن زيد ، وغيرهما عنده جبريل في صورة دحية .

ورأى سعد على يمينه ويساره جبريل وMicahiel في صورة رجلين عليهما ثياب بيضاء ومثله عن غير واحد . وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر . وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار ، ولا يرون الضارب .

ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذ رجالاً يپضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، ما يقوم لها شيء . وقد كانت الملائكة تصافح عمران بن الحصين .

ورأى النبي ﷺ لحمة جبريل في الكعبة ، فخر مغشياً عليه .

ورأى عبد الله بن مسعود الجن ليلة الجن ، وسمع كلامهم ، وشبيهم برجال الزط .

وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير لما قتل يوم أحد أخذ الراية ملك على صورته ، فكان النبي ﷺ يقول له: «تقديم يا مصعب»؛ فقال له الملك: لست بمصعب ، فعلم أنه ملك .

وقد ذكر غير واحد من المصنفين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ أقبل شيخ بيده عصا ، فسلم على النبي ﷺ ، فرد عليه ، وقال ﷺ : «نجمة الجن من أنت» ؟ قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس ؛ فذكر أنه لقي نوحًا ومن بعده . في حديث طويل ؛ وأن النبي ﷺ علمه سوراً من القرآن .

وذكر الواقدي قتل خالد عند هدمه العزى للسوداء التي خرجت له ناشرة شعرها عريانة ، فجزلها بسيفه ، وأعلم النبي ﷺ ؛ فقال له : « تلك العزى » .

وقال : « إن شيطاناً تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي ؛ فما كتني الله منه ، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ؛ فذكرت دعوة أخي سليمان : « قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبعي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب » [ص : ٣٥] فرده الله خاسئاً<sup>(٢)</sup> . وهذا باب واسع .

(١) البخاري في الإيمان (٥٠) ، ومسلم في الإيمان (٩ / ٥) عن أبي هريرة .

(٢) البخاري في التفسير (٤٨٠٨) عن أبي هريرة .

## الفصل الثامن والعشرون

### أخباره وصفاته وعلامات رسالته

### عند أخبار رهبان وعلماء ذلك الزمان

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته: ما ترافق به الأخبار عن الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب ، من صفتة وصفة أمته ، واسمها وعلاماته ، وذكر الخاتم الذي بين كفيه ، وما وجد من ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين ؛ من شعر تَبَعَ ، والأوس بن حراثة ، وكعب بن لؤي ، وسفيان بن مجاشع ، وقس بن ساعدة .

وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم ، وما عُرِفَ به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثكلان الحميري ، وعلماء يهود ، وشامول عالمهم صاحب تَبَعَ من صفتة وخبره .

وما ألفي من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبينوه ، ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم ؛ مثل : ابن سلام وابني سعية وابن يامين ؛ ومخريق ؛ وكعب ، وأشياهم من أسلم من علماء يهود ، وبحيراء ، ونسطور الحبشه ، وصاحب بصرى ، وضفاطر وأسقف الشام ، والجارود ، وسلمان ، والنجاشي ، ونصارى الحبشه ، وأساقف نجران ، وغيرهم من أسلم من علماء النصارى .

وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصارى ورئيسهم ، ومقوقس - صاحب مصر ، والشيخ صاحبه ، وابن صوريا ، وابن أخطب ، وأخوه ، وكعب بن أسد ، والزبير بن باطيا ، وغيرهم من علماء اليهود ، من حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء .

والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر .

وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفتة وصفة أصحابه ، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم ، وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه ، ولهم ألسنتهم ببيان أمره ، ودعوتهم إلى المباهله على الكاذب ؛ فما منهم إلا من نفر من معارضته ، وإبراء ما ألمتهم من كتبهم إظهاره .

ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب  
الديار ونبذ القتال ، وقد قال لهم : « قُلْ فَأَقْتُلُوا بِالْتُّورَةِ فَأَتُلُّهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ ۝ [آل عمران : ٩٣]

إلى ما أنذر به الكهان ؛ مثل شافع بن كلبي ، وشقيق سطيح ، وسجاد بن قارب ،  
وحنافر ، وأفعى نجران ، وجذل بن جذل الكندي ، وابن خلصة الدوسي ، وسعد ابن  
بنت كريز ، وفاطمة بنت التعمان ، ومن لا ينعد كثرة .

إلى ما ظهر على ألسنة الأصنام من نبوته ، وحلول وقت رسالته ؛ وسمع من هواتف  
الجان ، ومن ذبائح النصب ، وأجوار الصور ؛ وما وجد من اسم النبي ﷺ والشهادة له  
بالرسالة مكتوبًا في الحجارة والقبور بالخط القديم ما أكثره مشهور ، وإسلام من أسلم  
بسبب ذلك معلوم مذكور .

## الفصل التاسع والعشرون

### ما حَدَثَ عَنْدَ مَوْلَدِهِ

ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولده ، وما حكته أمه ومن حضره من العجائب  
وكونه رافعًا رأسه عندما وضعه شاحصًا ببصره إلى السماء ؛ وما رأته من النور الذي خرج  
معه عند ولادته ، وما رأته إذا ذاك أم عثمان بن أبي العاص من تدلّي النجوم ، وظهور  
النور عند ولادته ، حتى ما تنظر إلا النور .

وقول الشفّاء أم عبد الرحمن بن عوف : لما سقط عَلَيْهِ الْمَطَّافِعُ على يديه واستهل سمعت قائلًا  
يقول : رحمك الله وأضاء لي ما بين المشرق والمغارب حتى نظرت إلى قصور الروم .

وما تعرفت به حليمة وزوجها ظنراه من بركته ، ودرّور لبنتها له ، ولبن شارفها  
وخصب غنمها ، وسرعة شبابه ، وحسن نشاته ؛ وما جرى من العجائب ليلة مولده ؛ من  
ارتفاع إيوان كسرى ، وسقوط شرفاته ، وغیض بحيرة طبرية ، وخمود نار فارس ، وكان  
لها ألف عام لم تُخْمَدْ .

وأنه كان إذا أكل مع عمه أبي طالب وآلها وهو صغير شبعوا ورَوُوا ؛ فإذا غاب فأكلوا  
في غيابه لم يشعروا .

وكان سائر ولد أبي طالب يصبحون شعثاً ويصبحون بِعَذَابِهِ صقيلاً دهيناً كحيلاً .

قالت أم أيمن حاضرته : ما رأيته بِعَذَابِهِ شكاً جوعاً قط ولا عطشاً صغيراً ولا كبيراً .

ومن ذلك حراسة السماء بالشّعب ، وقطع رصد الشياطين ، ومنعهم استراق السمع .

وما نشأ عليه من بغض الأصنام ، والغفة عن أمور الجاهلية ؛ وما خصه الله به من ذلك وحماه حتى في ستره في الخبر المشهور عند بناء الكعبة ؛ إذ أخذنا إزاره ليجعله على عاتقه ؛ ليحمل عليه الحجارة وتعرّى ؛ فسقط إلى الأرض حتى رد إزاره عليه .

فقال له عمه : ما بالك ؟ فقال : « إني نُهيت عن التعرّى » .

ومن ذلك إظلال الله له بالغمام في سفره .

وفي رواية أن خديجة ونساءها رأينه لما قدم وملكان يظلانه ؛ فذكرت ذلك ليسرة ؛ فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه في سفره .

وقد روی أن حليمة رأت غمامه تظلله ، وهو عندها ، وروي ذلك عن أخيه من الرضاعة .

ومن ذلك أنه نزل في بعض أسفاره قبل مبعثه تحت شجرة يابسة ، فاعشوشب ما حولها وأينعت هي فأشرقت وتدللت عليه أغصانها بحضوره من رأه .

وميل في الشجرة إليه في الخبر الآخر حتى أظلته .

وما ذكر من أنه كان لا ظل لشخصه في شمس ولا قمر ؛ لأنّه كان نوراً .

وأن الذباب كان لا يقع على جسده ولا ثيابه .

ومن ذلك تحبيب الخلوة إليه حتى أوحى إليه ؛ ثم إعلامه بموته ودنو أجله ، وأن قبره في المدينة وفي بيته ، وأن بين بيته ومبره روضة من رياض الجنة ؛ وتخير الله له عند موته ؛ وما اشتمل عليه حديث الوفاة من كراماته ؛ وتشرييفه ، وصلاته الملائكة على جسده على ما رويناه في بعضها .

واستئذان ملك الموت عليه ، ولم يستأذن على غيره قبله . ونداؤهم الذي سمعوه أن لا تزعوا القميص عنه عند غسله .

وما روی من تعزية الخضر والملائكة أهل بيته عند موته .

إلى ما ظهر على أصحابه من كرامته وبركته في حياته وموته ، كاستسقاء عمر بعَمَّه ، وتبرك غير واحد بذرته .

## الفصل الثلاثون

### خاتمة وتذليل

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله : قد أتينا في هذا الباب على نكت من معجزاته واضحة ، وجمل من علامات نبوته مقتنة ، في واحد منها الكفاية والغنية ، وتركتنا الكثير سوى ما ذكرنا ، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على عين الغرض وفص المقصد ، ومن كثير الأحاديث وغريبيها على ما صح واستهير إلا يسيراً من غريبه ما ذكره مشاهير الأئمة ، وحذفنا الإسناد في جمهورها ، طلباً للاختصار .

وبحسب هذا الباب لو تقضي أن يكون ديواناً جامعاً يشتمل على مجلدات عدة .

ومعجزات نبينا ﷺ أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين :

أحدهما : كثرتها ، وأنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا مثلها أو ما هو أبلغ منها . وقد نبه الناس على ذلك ؛ فإن أردته فتأمل فصول هذا الباب ومعجزات ما تقدم من الأنبياء تقف على ذلك - إن شاء الله تعالى .

وأما كونها كثيرة فهذا القرآن ، وكله معجز ؛ وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ؛ أو آية في قدرها .

وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة ، وزاد آخرون : أن كل جملة منتظمة منه معجزة ، وإن كانت من كلمة أو كلمتين .

والحق ما ذكرناه أولاً ؛ لقوله تعالى : « قُلْ فَاتُوا بِسُورَةِ مِثْلِهِ » [يونس : ٣٨] ؛ فهو أقل ما تحداهم به ، مع ما ينصر هذا من نظر وتحقيق يطول بسطه .

وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم ، وعدد كلمات : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » [الكوثر : ١] عشر كلمات ، فتجزئ القرآن على نسبة عدد كلمات « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » أزيد من سبعة آلاف جزء ، كل واحد منها معجز في نفسه .

ثم إعجازه - كما تقدم - بوجهين : طريق بلاغته ، وطريق نظمه ؛ فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان ، فتضاعف العدد من هذا الوجه .

ثم فيه وجوه إعجاز آخر من الإخبار بعلوم الغيب ؛ فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب ، كل خبر منها بنفسه معجز ؛ فتضاعف العدد كرة أخرى .

ثم وجوه الإعجاز الآخر التي ذكرناها توجب التضعيف ، هذا في حق القرآن ، فلا يكاد يأخذ العد معجزاته ، ولا يحوي الحصر براهينه .

ثم الأحاديث الواردة ، والأخبار الصادرة عنه عليه السلام في هذه الأبواب وعما دل على أمره مما أشرنا إلى جمله يبلغ نحوه من هذا .

الوجه الثاني : وضوح معجزاته عليه السلام ؛ فإن معجزات الرسل كانت بقدر هم أهل زمانهم ، وبحسب الفن الذي سما فيه قرنه .

فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السحر بُعث إليهم موسى بمعجزة تشبه ما يدعون قدرتهم عليه ، فجاءهم منها ما خرق عادتهم ، ولم يكن في قدرتهم ، وأبطل سحرهم . وكذلك زمن عيسى أغنى ما كان الطب ، وأوفر ما كان أهله ؛ فجاءهم أمر لا يقدرون عليه ، وأناهم ما لم يحسبوه من إحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص دون معالجة ولا طب .

وهكذا سائر معجزات الأنبياء .

ثم إن الله تعالى بعث محمداً وجملة معارف العرب وعلومها أربعة : البلاغة ، والشعر ، والخبر ، والكهانة .

فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة فصوّل من الفصاحة ، والإيجاز ، والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم ؛ ومن النظم الغريب ، والأسلوب العجيب الذي لم يهتدوا في المنظوم إلى طريقه ولا علموا في أساليب الأوزان منهجه ؛ ومن الأخبار عن الكواين والحوادث ، والأسرار ، والمخابات والضمائر ، فتوجد على ما كانت ، ويعترف المخبر عنها بصحة ذلك وصدقه ، وإن كان أعدى العدو .

فأبطل الكهانة التي تصدق مرة وتكتذب عشرًا ؛ ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب ،

ورصد النجوم .

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة ، وأنباء الأنبياء ، والأمم البائدة ، والحوادث الماضية ما يعجز من تفرغ لهذا العلم عن بعضه على الوجه التي بسطناها وبيننا المعجز فيها .

ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلى الفصول الأخيرة التي ذكرناها في معجزات القرآن ثابتة إلى يوم القيمة بينة الحجة لكل أمة تأتي ، لا يخفى وجوه ذلك على من نظر فيه ، وتأمل وجوه إعجازه .

إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل ؛ فلا يمر عصر ولا زمن إلا ويظهر فيه صدقه بظهور مخبره على ما أخبر ؛ فيتجدد الإيمان ، ويتظاهر البرهان ؛ وليس الخبر كالعيان كما قيل .

وللمشاهدة زيادة في اليقين ، والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين ؛ وإن كان كُلُّ عندها حَقّاً .

وسائل معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم ، وعدمت بعدم ذواتها ؛ ومعجزة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لا تبدي ولا تنقطع وآياته تتجدد ولا تضمحل ؛ ولهذا أشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو علي ، حدثنا القاضي أبو الوليد ، حدثنا أبو ذر ، حدثنا أبو محمد ، وأبو إسحاق ، وأبو الهيثم ؛ قالوا : حدثنا الفريبرى ، حدثنا البخارى ، حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله ، حدثنا الليث ، عن سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ؛ وإنما كان الذي أوتىت وحىأ وحاه الله إلى فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة » <sup>(١)</sup> .

هذا معنى الحديث عند بعضهم ؛ وهو الظاهر والصحيح إن شاء الله .

وذهب غير واحد من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وحىأ وكلاماً لا يمكن التخييل فيه ، ولا التحيل عليه ، ولا التشبيه ؛ فإن غيرها من معجزات الرسل قد رام المعاندون لها بأشياء طمعوا في التخييل بها على الضعفاء كإلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وشبه هذا مما يخبله الساحر ، أو يتحيل فيه .

(١) البخاري في الاعتصام (٧٢٧٤) ، ومسلم في الإيمان (١٥٢ / ٢٣٩) .

والقرآن كلام ليس للحيلة ولا للسحر في التخييل فيه عمل ؛ فكان من هذا الوجه عندهم أظهر من غيره من المعجزات ، كما لا يتم لشاعر ولا خطيب أن يكون شاعراً أو خطيباً بضربٍ من الحيل والتمويه .

والتأويل الأول أخلص وأرضى .

وفي هذا التأويل الثاني ما يُغمض عليه الجفن ويُغضى .

ووجه ثالث على مذهب من قال بالصَّرْفة ، وأن المعارضة كانت في مقدور البشر ؛ فصرُّفوا عنها ، أو على أحد مذهبِي أهل السنة من أن الإيتان بثله من جنس مقدورهم ؛ ولكن لم يكن ذلك قبل ، ولا يكون بعد ؛ لأن الله تعالى لم يقدرهم ولا يقدرهم عليه .

ويبين المذهبين فرقَ بَيْنَ ، وعليهما جميماً فترك العرب الإيتان بما في مقدورهم ، أو ما هو من جنس مقدورهم ، ورضاهما بالبلاء والجلاء ، والسباء والإذلال ، وتغيير الحال ، وسلب النفوس والأموال ، والتقرير والتوبیخ ، والتعجیز والتهذید والوعید أیین آیة للعجز عن الإيتان بثله والنکول عن معارضته ؛ وأنهم منعوا عن شيء هو من جنس مقدورهم . وإلى هذا ذهب الإمام أبو المعالي الجویني وغيره ؛ قال : وهذا عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البدیعة في أنفسها ، كقلب العصا حیة ونحوها ، فإنه قد يسبق إلى بال الناظر بداراً أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بجزية معرفة في ذلك الفن وفضل علم إلى أن يرد ذلك صحيح النظر . وأما التحدي للخلافات المثنين من السنين بكلام من جنس كلامهم ليأتوا بثله فلم يأتوا ، فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عدمها إلا أن منع الله الخلق عنها بثباته ما لو قال نبی : آیتی أن یمنع الله القیام عن الناس مع مقدرتهم عليه ، وارتفاع الزمانة عنهم ؛ فلو كان ذلك ؛ وعَجزَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْقِيَامِ لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَبْهَرِ آیَةِ وَأَظْهَرَ دَلَالَةً . وبالله التوفيق .

وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء ، حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهams العرب ، وذكاء ألبابها ، ووفر عقولها ، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطتهم ، وجاءهم من ذلك بحسب إدراکهم ، وغيرهم من القبط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل ؛ بل كانوا من الغباء وقلة الفضة بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم ، وجوز عليهم السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم ، وعبدوا المسيح مع إجماعهم على صلبه ؛ وما قتلوا وما صلبوه ولكن شبه لهم ؛ فجاءتهم من الآيات الظاهرة

البينة للأبصار بقدر غلظ أفهمهم ما لا يشكون فيه ، ومع هذا فقالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة : ٥٥] . ولم يصبروا على المن والسلوى ؛ واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير . والعرب على جاهليتها أكثرها يعترف بالصانع ، وإنما كانت تقرب بالأصنام إلى الله زلفى . ومنهم من آمن بالله وحده من قبل الرسول ﷺ بدليل عقله وصفاء لبه . ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته ، وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته ؛ فآمنوا به ، وازدادوا كل يوم إيماناً ، ورفضوا الدنيا كلها في صحبته ، وهجروا ديارهم وأموالهم ، وقتلوا آباءهم وأبناءهم في نصرته ، وأتى في معنى هذا بما يلوح له رونق ، ويعجب منه زيرج له احتياج إليه وحقّ ، لكننا قدمنا من بيان معجزة نبينا ﷺ وظهورها ما يعني عن ركوب بطون هذه المسالك وظهورها . وبالله أستعين . وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

### آخر الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني

وأوله : «القسم الثاني : فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ» .



## محتويات الكتاب

### الصفحة

### الموضوع

٥	التعريف بالقاضي عياض
٧	مقدمة التحقيق
٨	مقدمة كتاب « الشفأ بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»
	<b>القسم الأول</b>
١١	في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قوله وفعلا
١٣	في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه
١٤	الفصل الأول: فيما جاء في المدح والثناء
٢٠	الفصل الثاني: في وصفه تعالى له بالشهادة
٢٣	الفصل الثالث: فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرة
٢٥	الفصل الرابع: في قسمه تعالى بعظيم قدره
٢٨	الفصل الخامس: في قسمه تعالى جده له ؛ ليحقق مكانته عنده
	<b>الفصل السادس: فيما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام مورد الشفقة والإكرام</b>
٣٢	الفصل السابع : فيما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف
٣٤	منزلته على الأنبياء وحظوظه ربته
	<b>الفصل الثامن: في إعلام الله تعالى خلقه بصلواته عليه وولايته له ورفعه العذاب</b>
٣٦	بسبيه
٣٨	الفصل التاسع : فيما تضمنته سورة «الفتح» من كراماته ﷺ
٤١	الفصل العاشر : فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كراماته عليه ومكانته عنده
٤٤	<b>الباب الثاني</b>
٤٥	في تكميل الله تعالى له المحسن خلقاً وخلقنا
٤٦	الفصل الأول : الكمال والجمال

٤٧	الفصل الثاني : صفاته الخلقية
٤٨	الفصل الثالث : نظافته <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٥١	الفصل الرابع : فصاحة لسانه <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٥٣	الفصل الخامس : فصاحة لسانه وبلاعته <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٥٧	الفصل السادس : شرف نسبه وكرم بلده ومنتشرته <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٥٨	الفصل السابع : حالته في الضروريات <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٦٠	الفصل الثامن : زواجه <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٦٤	الفصل التاسع : ما يتعلّق بماله ومتاعه
٦٥	الفصل العاشر : الأخلاق الحميدة
٦٨	الفصل الحادي عشر : العقل في بيان أصول هذه الأخلاق
٦٩	الفصل الثاني عشر : الحلم والعفو
٧٣	الفصل الثالث عشر : الجود والكرم
٧٥	الفصل الرابع عشر : الشجاعة والنجدة
٧٧	الفصل الخامس عشر : الحياة والإغصاء
٧٨	الفصل السادس عشر : حسن العشرة والأدب وبسط الخلق
٨١	الفصل السابع عشر : الشفقة والرحمة
٨٢	الفصل الثامن عشر : الوفاء وحسن العهد وصلة الأرحام
٨٥	الفصل التاسع عشر : تواضعه <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٨٧	الفصل العشرون : عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٨٩	الفصل الحادي والعشرون : وقاره وصحته <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٩١	الفصل الثاني والعشرون : زهده في الدنيا
٩٢	الفصل الثالث والعشرون : خوفه ربه وطاعته له <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٩٥	الفصل الرابع والعشرون : صفات الأنبياء والرسول
١٠٠	الفصل الخامس والعشرون : جمع الشمائل
١٠٤	الفصل السادس والعشرون : في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله
١٠٨	<b>الباب الثالث</b>
١٠٩	الفصل الأول : مكانته <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>

الفصل الثاني : كرامة الإسراء	١١٦
الفصل الثالث : حقيقة الإسراء	١٢٣
الفصل الرابع : في إبطال حجج من قال : إنها نوم	١٢٥
الفصل الخامس : رؤيته لربه	١٢٨
الفصل السادس : مناجاته لله تعالى	١٣٣
الفصل السابع : الدنو والقرب	١٣٤
الفصل الثامن : في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة	١٣٦
الفصل التاسع : في تفضيله بالمحبة والخلة	١٣٨
الفصل العاشر : في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود	١٤٢
الفصل الحادي عشر : في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكثير والفضيلة	١٤٩
الفصل الثاني عشر : الأحاديث الواردة في النهي عن تفضيله	١٥٠
الفصل الثالث عشر : في أسمائه <small>عليه السلام</small> ، وما تضمنته من فضيلته	١٥٢
الفصل الرابع عشر : في تشريف الله تعالى له بما سماه من أسمائه الحسنى ووصفه به من صفاته العلا	١٥٧
الفصل الخامس عشر : استدراك في صفات الخالق والمخلوق	١٦٤
<b>الباب الرابع</b>	١٦٦
فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات	١٦٦
الفصل الأول : المقدمة	١٦٧
الفصل الثاني : بين النبوة والرسالة	١٦٨
الفصل الثالث : معنى المعجزات	١٧١
الفصل الرابع : في إعجاز القرآن	١٧٤
الفصل الخامس : إعجاز النظم والأسلوب	١٧٧
الفصل السادس : الإخبار عن المغيبات	١٨٠
الفصل السابع : إخباره عن القرون السالفة والأمم البائدة	١٨٢
الفصل الثامن : التحدي والتعجيز في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلوها	١٨٤
الفصل التاسع : روعته في السمع وهبته في القلوب	١٨٥

١٨٧	الفصل العاشر: بقاوئه على الزمن
١٨٧	الفصل الحادي عشر: وجوه أخرى للإعجاز
١٩٠	الفصل الثاني عشر: في انشقاق القمر وحبس الشمس
١٩٣	الفصل الثالث عشر: في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره بالماء
١٩٥	الفصل الرابع عشر: تفجير الماء ببركته
١٩٧	الفصل الخامس عشر: تكثير الطعام
٢٠١	الفصل السادس عشر: في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته
٢٠٤	الفصل السابع عشر: في قصة حنين الجذع له <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٢٠٦	الفصل الثامن عشر: في سائر الجمادات
٢٠٩	الفصل التاسع عشر: في الآيات في ضروب الحيوانات
٢١٣	الفصل العشرون: في إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small> بالنبوة <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٢١٦	الفصل الحادي والعشرون: في إبراء المرضى وذوي العاهات
٢١٨	الفصل الثاني والعشرون: في إجابة دعائه <small>بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ</small>
٢٢١	الفصل الثالث والعشرون: في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره
٢٢٥	الفصل الرابع والعشرون: ما اطلع عليه من الغيوب
٢٣٢	الفصل الخامس والعشرون: في عصمة الله تعالى له من الناس وكفايته من آذاهم
٢٣٨	الفصل السادس والعشرون: من معجزاته الباهرة
٢٤٢	الفصل السابع والعشرون: أنباؤه مع الملائكة والجن
٢٤٤	الفصل الثامن والعشرون: أخباره وصفاته وعلامات رسالته عند أخبار ورهبان وعلماء ذلك الزمان
٢٤٥	الفصل التاسع والعشرون: ما حدث عند مولده
٢٤٧	الفصل الثلاثون: خاتمة وتنزيل
٢٥٣	فهرس المحتويات

# الشقا

بتعریف حقوق المصطفی

لِقَاضِیِ عِیَاضَ  
ابی لَفْضِیلِ عِیَاضَ بْنِ سُوَیْلِ بْنِ عِیَاضِ لَجْبَیِ  
٤٧٦-٥٤٤هـ

تقديم و تحسين  
عاصم الجزار

الجزء الثاني

دارالحکیم  
القاهرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## القسم الثاني

### فيما يجب على الأئمَّةِ من حقوقه

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله : وهذا قسم  
لخصنا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه في أول  
الكتاب ، ومجملها في وجوب تصديقه واتباعه في ستة  
وطاعته، ومحبته ومناصحته ، وتوقيره ، وبره وحكم  
الصلاه عليه والتسليم ، وزيارة قبره عَزَّلَهُ اللَّهُ عَزَّلَهُ .

## الباب الأول

### الفصل الأول

#### في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرر بما قدمناه - ثبوت نبوته وصحة رسالته ، وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به ؛ قال الله تعالى : « فَأَمْنَوْا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا » [ التغابن : ٨ ] . وقال : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » [ الفتح : ٨ ، والاحزاب : ٤٥ ] . وقال : « فَأَمْنَوْا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَيْهُمْ لَعْلَكُمْ تَهُدُونَ » [ الأعراف : ١٥٨ ] .

فالإيمان بالنبي محمد ﷺ واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِكَافِرِنَ سَعِيرًا » [ الفتح : ١٣ ] . حدثنا أبو محمد الخشناني الفقيه بقراءاتي عليه ، حدثنا الإمام أبو علي الطبرى ، حدثنا عبد الغافر الفارسي ، حدثنا ابن عمرويه ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا أبو الحسين ، حدثنا أمية بن بسطام ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا روح ، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقْاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهُدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جَنَّتُ بِهِ ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَوْا مِنِي دَمَاءُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » (١) .

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله :

والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له ، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ، ومطابقة تصديق القلب شهادة اللسان بأنه رسول الله ﷺ ؛ فإذا اجتمع التصديق به بالقلب ، والنطق بالشهادة بذلك باللسان ، تم الإيمان به والتصديق له كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه . « أُمِرْتُ أَنْ أَقْاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهُدُوا أَنَّ

(١) مسلم في الإيمان (٢١ / ٣٤) .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ » (١) .

وقد زاده وضوحاً في حديث جبريل ؛ إذ قال : أخبرني عن الإسلام ، فقال النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « أَنْ تَشْهُدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ » وذكر أركان الإسلام .

ثم سأله عن الإيمان فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ... » (٢) الحديث . فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجناح ، والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان .

وهذه الحالة المحمودة التامة .

وأما الحال المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب ، وهذا هو النفاق ؛ قال الله تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » [المنافقون : ١] ؛ أي : كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم ، وهم لا يعتقدونه ؛ فلما لم تُصدق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بأسفهم ما ليس في قلوبهم ؛ فخرجوا عن اسم الإيمان ، ولم يكن لهم في الآخرة حُكمه ؛ إذ لم يكن معهم إيمان ، ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفلي من النار ، وبقي عليهم حكم الإسلام ، بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالائمة وحكام المسلمين الذين أحکامهم على الظواهر ، بما أظهروه من علامة الإسلام ؛ إذ لم يجعل للبشر سبيلاً إلى السرائر ، ولا أمروا بالبحث عنها ؛ بل نهى النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عن التحكم عليها ؛ وذم ذلك وقال « هلا شفقتَ عن قلبه ؟ ! » (٣) .

والفرق بين القول والعقد ما جُعل في حديث جبريل : الشهادة من الإسلام ، والتصديق من الإيمان .

وبقيت حالتان أخريان بين هذين :

إحدهما : أن يُصدق بقلبه ثم يُخترم قبل اتساع وقت للشهادة بلسانه ؛ فاختلَفَ فيه ؛ فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به ورأه بعضهم مؤمناً مستوجبًا للجنة ؛ لقوله

(١) البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٢٢ / ٣٦) .

(٢) البخاري في الإيمان (٥٠) ، ومسلم في الإيمان (٩ / ٥) .

(٣) مسلم في الإيمان (٩٦ / ١٥٨) .

«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالٌ ذَرَّةٌ مِنْ إِيمَانٍ»<sup>(١)</sup>؛ فلم يذكر سوى ما في القلب .

وهذا مؤمن بقلبه غير عاصٍ ولا مفرط بترك غيره وهذا هو الصحيح في هذا الوجه .

الثانية : أن يُصدق بقلبه ويُطْوَّل مَهَلَّهُ ، وعلم ما يلزمـه من الشهادة فلم ينطـق بها جملـة ولا استشهدـ في عمرـه ولا مـرة ؛ فـهـذا اـخـتـلـفـ فيـهـ أـيـضـاـ ؛ فـقـيلـ : هـوـ مـؤـمـنـ ؛ لأنـهـ مـصـدـقـ ، وـالـشـهـادـةـ مـنـ جـمـلـةـ الـأـعـمـالـ ؛ فـهـوـ عـاصـ بـتـرـكـهاـ غـيرـ مـخـلـدـ فيـ النـارـ .

وقـيلـ : لـيـسـ بـمـؤـمـنـ حـتـىـ يـقـارـنـ عـقـدـهـ شـهـادـةـ الـلـسـانـ ؛ إـذـ الشـهـادـةـ إـنـشـاءـ عـقـدـ وـالـتـزـامـ إـيمـانـ ؛ وـهـيـ مـرـتـبـةـ مـعـ الـعـقـدـ ، وـلـاـ يـتـمـ التـصـدـيقـ مـعـ الـمـهـلـةـ إـلـاـ بـهـاـ . وـهـذاـ هوـ الصـحـيـحـ .

وـهـذـاـ نـبـذـ يـفـضـيـ إـلـىـ مـتـسـعـ مـنـ الـكـلـامـ فـيـ الـإـسـلـامـ وـالـإـيمـانـ وـأـبـوـبـهـماـ ، وـفـيـ الـزـيـادـةـ فـيـهـمـاـ وـالـنـقـصـانـ ، وـهـلـ التـجـزـيـ مـنـتـعـ عـلـىـ مـجـرـدـ التـصـدـيقـ لـاـ يـصـحـ فـيـ جـمـلـةـ ، وـإـنـماـ يـرـجـعـ إـلـىـ مـاـ زـادـ عـلـيـهـ مـنـ عـمـلـ ، أـوـ قـدـ يـعـرـضـ فـيـ لـاـخـتـلـافـ صـفـاتـهـ وـتـبـاـيـنـ حـالـاتـهـ ؛ مـنـ قـوـةـ يـقـيـنـ ، وـتـصـمـيمـ اـعـتـقـادـ ، وـوـضـوـحـ مـعـرـفـةـ ، وـدـوـامـ حـالـةـ ، وـحـضـورـ قـلـبـ .

وـفـيـ بـسـطـ هـذـاـ خـرـوجـ عـنـ غـرـضـ التـأـلـيفـ ؛ وـفـيـمـاـ ذـكـرـنـاـ غـنـيـةـ فـيـمـاـ قـصـدـنـاـ إـنـ شـاءـ اللهـ تـعـالـىـ .

## الفصل الثاني

### في وجوب طاعته

وـأـمـاـ وـجـوـبـ طـاعـتـهـ ، فـإـذـاـ وـجـبـ الإـيمـانـ بـهـ وـتـصـدـيقـهـ فـيـمـاـ جـاءـ بـهـ وـجـبـ طـاعـتـهـ ؛ لـأـنـ ذـلـكـ مـاـ أـتـىـ بـهـ ؛ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ : «يـاـ أـيـهـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ أـطـيـعـواـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ» [الأنفال: ٢٠] ،

قـالـ اللهـ تـعـالـىـ : «قـلـ أـطـيـعـواـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ» [آل عمران: ٣٢] .

وـقـالـ : «وـأـطـيـعـواـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ لـعـلـكـمـ تـرـحـمـونـ» [آل عمران: ١٣٢] .

وـقـالـ : «وـإـنـ تـعـيـعـهـ تـهـتـدـواـ» [النور: ٥٤] .

وـقـالـ : «مـنـ يـعـيـعـ الرـسـوـلـ فـقـدـ أـطـاعـ اللـهـ» [النساء: ٨٠] .

(١) البخاري في الإيمان (٢٢) ، ومسلم في الإيمان (١٩٣) / ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

وقال : «وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» [الحشر : ٧] .

وقال : «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنُ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [النساء : ٦٩] .

وقال : «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» [النساء : ٦٤] .

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل الثواب ؛ وأوعد على مخالفته بسوء العقاب ، وأوجب امثال أمره واجتناب نهيه .

قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول التزام سنته والتسليم لما جاء به .

وقالوا : ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه .

وقالوا : من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه .

وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام ؛ فقال : «وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» [الحشر : ٧] .

وقال السمرقندى : يقال : أطاعوا الله في فرائضه ، والرسول في سنته .

وقيل : أطاعوا الله فيما حرم عليكم ، والرسول فيما بلغكم .

ويقال : أطاعوا الله بالشهادة له بالريوبية ، والنبي بالشهادة له بالنبوة .

حدثنا أبو محمد بن عتاب بِقِرَاءَتِي عليه ، حدثنا حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن خلف ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا البخاري ، حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، حدثنا يونس ، عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يقول : إن رسول الله بِكَلِيلٍ قال : «من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني» <sup>(١)</sup> .

طاعة الرسول من طاعة الله ؛ إذ الله أمر بطاعته ؛ فطاعته امثال لما أمر الله به ، وطاعة له . وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم : «يُوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ» [الأحزاب : ٦٦] ؛ فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني .

(١) البخاري في الجهاد (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (١٨٣٥ / ٣٣)

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمْرَتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا أَسْتَطَعْتُمْ»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث أبي هريرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مِنْ أُبْيَ» قالوا : يا رسول الله ؟ ومن يأبى ؟ قال : «مَنْ أطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث الآخر الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعبني وإنني أنا النذير العُرْبَانُ ، فالنجاء ؟ فاطاعته طائفة من قومه ، فآذَّجُوا فانطلقوها على مَهْلِهِمْ فَنَجَوا ؟ وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصَبَّحُوهُمْ الْجَيْشُ فَأَهْلَكُوهُمْ واجتاحتهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث الآخر في مثله : «كمثل من بنى داراً وجعل فيها مأدبة ويعث داعياً ؛ فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ؛ فالدار الجنة والداعي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله ، ومحمد فرقٌ بين الناس»<sup>(٤)</sup>.

### الفصل الثالث

#### في وجوب اتباعه ، وامتثال أمره والاقتداء بهديه

وأما وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهديه ؛ فقد قال الله تعالى : «قُلْ إِنَّ كُتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» [آل عمران : ٣١].  
وقال : «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلَمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» [الأعراف : ١٥٨].

(١) البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ، ومسلم في الحج (١٣٣٧ / ٤١٢).

(٢) البخاري في الاعتصام (٧٢٨٠).

(٣) البخاري في الاعتصام (٧٢٨٣) ، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٣ / ١٦).

(٤) البخاري في الاعتصام (٧٢٨١).

وقال : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بِيَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » [ النساء : ٦٥] . أي يتقادوا لحكمك ؛ يقال : سلم واستسلم وأسلم ؛ إذا انقاد .

وقال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ » [ الأحزاب : ٢١] .

قال محمد بن علي الترمذى : الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسته وترك مخالفته في قول أو فعل . وقال غير واحد من المفسرين بمعناه . وقال : هو عتاب للمتخلفين عنه . وقال سهل في قوله تعالى : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » [ الفاتحة : ٧] . قال : بمتابعة السنة فأمرهم تعالى بذلك ، ووعدهم الاتباع باتباعه ؛ لأن الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ووعدهم مجتبه تعالى في الآية الأخرى ومغفرته إذا اتباعه ، وائزروه على أهوائهم ، وما تجنب إليه نفوسهم ؛ وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له ، ورضاهما بحكمه ، وترك الاعتراض عليه .

وروي عن الحسن أن أقواماً قالوا : يا رسول الله ، إنما نحب الله . فأنزل الله تعالى : « قُلْ إِنْ كُتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » [ آل عمران : ٣١] . وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف وغيره ، وأنهم قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ؛ ونحن أشد حباً لله ؛ فأنزل الله الآية .

وقال الزجاج : معناه : « إِنْ كُتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ » أن تقصدوا طاعته ، فافعلوا ما أمركم به ؛ إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لهما ، ورضاهما بما أمرا ؛ ومحبة الله عفوه عنهم ، وإنعامه عليهم برحمته .

ويقال : الحب من الله عصمة وتوفيق ومن العباد طاعة ، كما قال القائل :

تعصي الإله وأنت تُظْهِر حبه      هذا العمري في القياس بديع  
لو كان حبك صادقاً لأطعته      إن المحب لمن يحب مطبع

ويقال : محبة العبد لله تعظيمه له وهيبيته منه ؛ ومحبة الله له رحمته له ، وإرادته الجميل له ؛ وتكون بمعنى مدحه وثنائه عليه . قال القشيري : فإذا كان بمعنى الرحمة

والإرادة والمدح كان من صفات الذات . وسيأتي بعد في ذكر محبة العبد غير هذا بحول الله تعالى .

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه ؛ قال : حدثنا أبو الأصبغ عيسى بن سهل ، وحدثنا أبو الحسن يونس بن مغيث الفقيه بقراءتي عليه ؛ قالا : حدثنا حاتم بن محمد ؛ قال : حدثنا أبو حفص الجهني ، حدثنا أبو بكر الأجري ، حدثنا إبراهيم بن موسى الجوزي ، حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن عبد الرحمن بن عمرو الأسلي ، وحجر الكلاعي ، عن العرياض ابن سارية في حديثه في موعظة النبي ﷺ أنه قال : « فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ؛ عصوا عليها بالنواخذة ؛ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلاله » <sup>(١)</sup> .

زاد في حديث جابر بمعناه : « وكل ضلاله في النار » .

وفي حديث أبي رافع عنه ﷺ : « لا ألفين أحدكم متكتأ على أربكته ، يأتيه الأمر من أمري ، مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ، ما وجدنا في كتاب الله أتبعناه » <sup>(٢)</sup> .

وفي حديث عائشة زوج النبي ﷺ : صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخص فيه فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله ، ثم قال : « ما بال قوم يتزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية » <sup>(٣)</sup> .

وروي عنه ﷺ أنه قال : « القرآن صعب مُستصعب على من كرهه ، وهو الحكم ؛ فمن استمسك بحديسي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ، ومن تهاون بالقرآن وحديسي خسر الدنيا والآخرة ، أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي ، ويطيعوا أمري ويتبعوا سنتي ، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن » قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » [الحشر : ٧] .

(١) الترمذى في العلم (٢٦٧٦) وقال : حديث حسن صحيح ، وأحمد ٤ / ١٢٦ .

(٢) الترمذى في العلم (٢٦٦٣) وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) البخارى في الاعتصام (٧٣٠١) .

وقال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من اقتدى بي فهو مني ، ومن رغب عن سنتي فليس مني » <sup>(١)</sup> .  
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، عن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أنه قال : « إن أحسن الحديث كتاب الله ،  
وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور مُحَدَّثاتها » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، قال : قال النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « العلم ثلاثة فما  
سوى ذلك فهو فضل : آية مُحْكَمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » <sup>(٢)</sup> .

وعن الحسن بن أبي الحسن - رحمهما الله : قال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « عملٌ قليل في سنةٍ خيرٌ من  
عملٍ كثير في بدعة » .

وقال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « إن الله تعالى يدخل العبد الجنة بالسنة تمسك بها » .  
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال : « المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر  
مائة شهيد » <sup>(٣)</sup> .

وقال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « إن بني إسرائيل افترقوا على اثنين وسبعين ملة ، وإن أمتي تفترق على  
ثلاث وسبعين ، كلها في النار إلا واحدة » . وقالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال :  
« الذي أنا عليه اليوم وأصحابي » <sup>(٤)</sup> .

وعن أنس : قال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في  
الجنة » <sup>(٥)</sup> .

وعن عمرو بن عوف المزني أن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال لبلال بن الحارث : « من أحيا سنة من  
سنتي قد أمتت بعدي ، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم  
شيئاً ، ومن ابتدع بدعة ضلاله لا ترضي الله ورسوله كان عليه مثل أيام من عمل بها ، لا  
ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً » <sup>(٦)</sup> .

(١) مسلم في النكاح (١٤٠١) / ٥ .

(٢) أبو داود في الفرائض (٢٨٨٥) ، وابن ماجه في المقدمة (٥٤) .

(٣) الهيثمي في المجمع (٨٠٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن صالح العدوي ، ولم  
أر من ترجمه ، وبقية رجاله ثقات .

(٤) الترمذى في الإيمان (٢٦٤١) وقال : غريب .

(٥) الترمذى في العلم (٢٦٧٨) وقال : حسن غريب .

(٦) الترمذى في العلم (٢٦٧٧) وقال : حسن .

## الفصل الرابع

### فيما ورد عن السلف والآئمة

#### من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته

وأما ما ورد عن السلف والآئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته ، فحدثنا الشيخ أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد الفقيه سماعًا عليه قال : حدثنا أبو عمر الحافظ ، حدثنا سعيد بن نصر ، حدثنا قاسم بن أصيبي ، ووهب بن مسرة ؟ قالا : حدثنا محمد بن وضاح ، حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا مالك ، عن ابن شهاب ، عن رجل من آل خالد بن أسد - أنه سأله عبد الله بن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ؟ إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر ؟ فقال ابن عمر : يا بن أخي ، إن الله بعث إلينا محمداً صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا نعلم شيئاً ، فإنما نفعل كما رأينا يفعل .

وقال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصدق بكتاب الله ، واستعمال بطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها ؛ من اقتدى بها فهو مهتد ، ومن انتصر بها منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساعته مصيرًا .

وقال الحسن بن أبي الحسن : عمل قليل في سنة خيرٍ من عملٍ كثير في بدعة .

وقال ابن شهاب : بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا : الاعتصام بالسنة نجاة .

وكتب عمر بن الخطاب صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن ؛ أي : اللغة ؛ وقال : إن ناساً يجادلونكم - يعني بالقرآن ، فخذلهم بالسذن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله .

وفي خبره حين صلى بذى الخليفة ركعتين ، فقال : أصنع كما رأيت رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع .

وعن عليٍّ - حين قرَأَ له عثمان : ترى أني أنهى الناس عنه وتفعله ! قال : لم أكن أدع سنة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقول أحد من الناس .

وعنه : ألا إني لست بنبي ، ولا يوحى إليَّ ، ولكنني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه

محمد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ما استطعت .

وكان ابن مسعود يقول : القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة .

وقال ابن عمر : صلاة السفر ركعتان ، من خالف السنة كفر .

وقال أبي بن كعب : عليكم بالسبيل والسنة ؛ فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه ، فيعذبه الله أبداً ، وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشيه الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها ، فهي كذلك إذا أصابتها ريح شديدة ، فتحات عنها ورقها إلا حُطَّ عنه خطاياه كما تتحات عن الشجرة ورقها ؛ فإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة وموافقة بدعة ؛ وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً واقتصاداً أن يكون على منهاج الأنبياء وستهم .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده ، وكثرة لصوصه ؛ هل يأخذهم بالظنة أو يحملهم على البينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب إليه عمر : خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله .

وعن عطاء في قوله : « فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » [ النساء : ٥٩ ] ؛ أي : إلى كتاب الله وسنة رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وقال الشافعي : ليس في سنة رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلا اتباعها .

وقال عمر - ونظر إلى الحجر الأسود : إنك حجر لا تنفع ولا تضر ؛ ولولا أني رأيت رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يقبلك ما قبلتك ؛ ثم قبله <sup>(١)</sup> .

ورأى عبد الله بن عمر يدبر ناقته في مكان ، فسئل عنده ، فقال : لا أدرى ، إلا أني رأيت رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فعله فعلته .

وقال أبو عثمان الحيري : من أمر السنة على نفسه قوله وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

وقال سهل التستري : أصول مذهبنا ثلاثة : الاقتداء بالنبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في الأخلاق

(١) البخاري في الحج (١٥٩٧) ، ومسلم في الحج (١٢٧٠ / ٢٤٨ / ٢٤٩) .

والأفعال ، والأكل من الحلال ، وإخلاص النية في جميع الأعمال . وجاء في تفسير قوله تعالى : « **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرْفَعُ** » [ فاطر : ١٠ ] : أنه الاقتداء برسول الله ﷺ .

وحكى عن أحمد بن حنبل ؛ قال : كنت يوماً مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء ، فاستعملت الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » (١) . ولم أتجرد فرأيت تلك الليلة قاتلا لي : يا أحمد ، أبشر ، فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة وجعلك إماماً يقتدى بك .

قلت : من أنت ؟ قال : جبريل .

### الفصل الخامس

#### في أن مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال

ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة مُتوعد من الله تعالى عليه بالخذلان والعقاب ، قال الله تعالى : « **فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** » [ النور : ٦٣ ] . وقال : « **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولَهُ مَا تَوَلَّ** وَنُصْلِهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » [ النساء : ١١٥ ] .

حدثنا أبو محمد عبد الله بن أبي جعفر ، وعبد الرحمن بن عتاب بقراءتي عليهما ؛ قالا : حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن القابسي ، حدثنا أبو الحسين ابن مسروor الدباغ ، حدثنا أحمد بن أبي سليمان ، حدثنا سحنون بن سعيد ، حدثنا ابن القاسم ، حدثنا مالك ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة . . . وذكر الحديث في صفة أمته ، وفيه : « **فَلَيَذَادُنَّ رِجَالٌ** عن حوضي كما يذاد البعير الضال فأناديهم : ألا هلم ، ألا هلم فيقال : إنهم قد بدلوا بعده . فأقول : فَسُحْقًا ، فسحقًا ، فسحقًا » (٢) .

(١) الترمذى في الأدب (٢٨٠١) و قال : حسن غريب .

(٢) مسلم في الطهارة (٢٤٩) / ٣٩ .

وروى أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « من رغب عن ستي فليس مني » <sup>(١)</sup> .

وقال : « من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد » <sup>(٢)</sup> .

وروى ابن أبي رافع ، عن أبيه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « لا ألفين أحدكم متكتنا على أريكته يأتيه الأمر من أمري ما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » <sup>(٣)</sup> .

زاد في حديث المقدام « ألا وإن ما حرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ما حرم الله » .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجيء بكتاب في كتف : « كفى بقوم حُمّقاً - أو قال : ضلالاً - أن يرغبوا بما جاء به نبيهم إلى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم . فنزلت : « أَوَ لَمْ يَكُفُّهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يُتَلَوَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » [العنكبوت : ٥١] ، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « هَلْكَ الْمُنْتَطَعُونَ » <sup>(٤)</sup> .

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم به إلا عملت به ، إنني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ <sup>(٥)</sup> .

## الباب الثاني

### الفصل الأول في لزوم محبته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ افْرَقْتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » [التوبه : ٢٤] .

فكمي بهذا حضًا وتبنيًا ودلالة وحججة على إلزام محبته ، ووجوب فرضها ، وعظم خطرها ، واستحقاقه لها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ إذ قرَّعَ تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله

(١) سبق تخرجه .

(٢) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٨ / ١٧) عن عائشة .

(٣) سبق تخرجه .

(٤) مسلم في العلم (٠٧ / ٢٦٧٠) عن ابن مسعود .

(٥) البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣) عن عائشة .

رسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى : « فَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » [التوبه : ٢٤].

ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم من ضل ولم يهده الله ، حدثنا أبو علي الغساني الحافظ فيما أجازنيه ، وهو ما قرأته على غير واحد ؛ قال : حدثنا سراج بن عبد الله القاضي ، حدثنا أبو محمد الأصيلي ، حدثنا المروزي ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلام قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١).

وعن أبي هريرة نحوه .

وعن أنس عنه رضي الله عنه : « ثلث من كُنْ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلوات الله عليه وسلام : لأنّ أحب إلىّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي ، فقال النبي صلوات الله عليه وسلام : « لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فقال عمر : والذي أنزل عليك الكتاب لأنّ أحب إلىّ من نفسي التي بين جنبي . فقال له النبي صلوات الله عليه وسلام : « الآن يا عمر » .

قال سهل : من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع الأحوال ، ويرى نفسه في ملكه صلوات الله عليه وسلام لا يذوق حلاوة سنته ؛ لأن النبي صلوات الله عليه وسلام قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » الحديث .

## الفصل الثاني

### في ثواب محبته صلوات الله عليه وسلام

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن عليّ بن خلف ، حدثنا أبو زيد المروزي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا

(١) البخاري في الإيمان (١٥) ، مسلم في الإيمان (٤٤ / ٧٠) .

(٢) البخاري في الإيمان (١٦) ، مسلم في الإيمان (٤٣ / ٦٧) .

محمد بن إسماعيل ، حدثنا عبدان ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن أنس رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددت لها ؟ » قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكنني أحب الله ورسوله قال : « أنت مع من أحببت » (١) .

وعن صفوان بن قدامة : هاجرت إلى النبي ﷺ فأتيته ، فقلت : يا رسول الله ، ناولني يدك أباعيك . فناولني يده ، فقلت : يا رسول الله ؛ إني أحبك . قال : « الماء مع من أحب » .

وروى هذا اللفظ عن النبي ﷺ عبد الله بن مسعود ، وأبو موسى وأنس ، وعن أبي ذر رحمه الله .

وعن عليّ أن النبي ﷺ أخذ يد حسن وحسين فقال : « من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيمة » (٢) .

وروى أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ لأنك أحب إلى من أهلي ومالي ؛ وإنك لذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك ؛ وإنك ذكرت موتى وموتوك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلتها لا أراك .

فأنزل الله تعالى : « وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنُ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۝ » [ النساء : ٦٩] . فدعا به فقرأها عليه .

وفي حديث آخر : كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف ، فقال : « ما بالك » ؛ قال بأبي أنت وأمي ! أتعن من النظر إليك ، فإذا كان يوم القيمة رفعك الله بفضيله ؛ فأنزل الله الآية .

وفي حديث أنس رضي الله عنه : « من أحبني كان معي في الجنة » (٣) .

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٨) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩ / ١٦٤) .

(٢) الترمذى في المناقب (٢٧٣٣) وقال : حسن غريب ، وأحمد ١ / ٧٧ .

(٣) سبق تخرجه .

### الفصل الثالث

## فِيمَا رُوِيَّ عَنِ السَّلْفِ وَالْأَئْمَةِ

### مِنْ مَحْبَبِهِمْ لِلنَّبِيِّ وَشَوْقِهِمْ لَهُ

حدثنا القاضي الشهيد ، حدثنا العذری ، حدثنا الرازی ، حدثنا الجلودی ، حدثنا ابن سفیان ، حدثنا مسلم ، حدثنا قتیبة ، حدثنا یعقوب بن عبد الرحمن ، عن سهیل ، عن أبيه عن أبي هریرة رضي الله عنه أن رسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم قال : « من أشدّ أمنی لی حبّاً ناس يکونون بعدي ؟ یود أحدهم لو رأني بأهله و ماله » <sup>(١)</sup> . ومثله عن أبي ذر .

وتقديم حديث عمر رضي الله عنه وقوله للنبي صلی الله علیه و آله و سلّم لانت أحب إلى من نفسي . وما تقدم عن الصحابة في مثله .

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه : ما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم . وعن عبدة بنت خالد بن معدان ؛ قالت : ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقة إلى رسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول : هم أصلٍ وفصلي ، وإليهم يحن قلبي ، طال شوقي إليهم فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم .

وروی عن أبي بکر رضي الله عنه أنه قال للنبي صلی الله علیه و آله و سلّم : والذی بعثک بالحق لاسلام أبي طالب كان أقرب لعینی من إسلامه - يعني أباه أبا قحافة ؛ وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقرب لعینک .

ونحوه عن عمر بن الخطاب ؛ قال للعباس رضي الله عنه : أن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ؛ لأن ذلك أحب إلى رسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم .

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتلت أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم ، فقالت : ما فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً هو بحمد الله كما تحيين . قالت : أرنیه حتى أنظر إليه . فلما رأته قالت : كل مصيبة بعده جلل <sup>(٢)</sup> .

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كيف كان حُکْمُك لرسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم ؟ قال : كان والله

(١) مسلم في الجنة (٢٨٣٢) / (١٢) .

(٢) جلل : المراد بها هنا هین ، وقد يطلق اللفظ ويراد به العظيم ؛ ولذا فهو من ألفاظ الأصداد .

أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وأبائنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظما .

وعن زيد بن أسلم : خرج عمر عَزَّلَهُ ليلة يحرس الناس ، فرأى مصباحاً في بيت ، وإذا عجوز تنفس صوفاً ، وتقول :

على محمد صلاةُ الأبرار صلٰى علٰيه الطيّبون الأخيارُ

قد كنت قواماً بُكّاً بالأسحار يا ليٰ شعرٰي والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي عَزَّلَهُ ، فجلس عمر عَزَّلَهُ يبكي ؛ وفي الحكاية طول .

وروي أن عبد الله بن عمر خدِّرت رجله فقيل له : اذكر أحب الناس إليك ينزل عنك . فصاح : يا محمداه ! فانشرت .

ولما احضرت بلال عَزَّلَهُ نادت أمرأته : واحزناه ! فقال : واطرِبَاه ! غداً ألقى الأحبة . محمداً وحزبه .

ويروى أن امرأة قالت لعائشة عَزَّلَهُ : اكشفي لي قبر رسول الله عَزَّلَهُ فكشفته لها فبكت حتى ماتت .

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدئنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب : أشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك يُضرب عنقه ، وإنك في أهلك ؟

فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكه وإننيجالس في أهلي فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ! .

وعن ابن عباس : كانت المرأة إذا أتت النبي عَزَّلَهُ حلفها بالله : ما خرجت من بُغض زوج ، ولا رغبة بأرض عن أرض ، وما خرجت إلا حبّاً لله ورسوله (١) .

وقف ابن عمر على ابن الزبير عَزَّلَهُ بعد قتله فاستغفر له ، وقال : كنت والله ما علمت صواماً قواماً تحب الله ورسوله .

(١) الترمذى في التفسير (٣٣٠٨) وقال : غريب .

## الفصل الرابع

### في علامه محبته رسول الله

اعلم أن من أحب شيئاً آثره وأثر موافقته ، وإن لم يكن صادقاً في حبه ، وكان مدعياً . فالصادق في حب النبي رسول الله من تظاهر علامه ذلك عليه ؛ وأولها الاقتداء به ، واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله ، وامثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتآدب بآدابه في عسره ويسره ، ونشرطه ومكرهه ، وشاهد هذا قوله تعالى : «**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ**» [آل عمران : ٣١] .

وإثارة ما شرعه وحضر عليه على هوى نفسه ، وموافقة شهوته ؛ قال الله تعالى : «**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيَّانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَاصَّةً**» [الحشر : ٩] . وإسخاط العباد في رضا الله تعالى .

حدثنا القاضي أبو علي الحافظ ، حدثنا أبو الحسين الصيرفي ، وأبو الفضل بن خيرون ؛ قالا : حدثنا أبو يعلى البغدادي ، حدثنا أبو علي السنجي ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا مسلم بن حاتم ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، عن أبيه ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قال أنس بن مالك رسول الله : قال لي رسول الله رسول الله : « يا بني ، إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل » . ثم قال لي : « يا بني ؛ وذلك من سنتي ، ومن أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معه في الجنة » .

فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله ، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة ، ولا يخرج عن اسمها .

ودليله قوله رسول الله للذى حده في الخمر فلعله بعضهم وقال : ما أكثر ما يؤتى به ! فقال

النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » (١) .

ومن علامات محبة النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كثرة ذكره له ، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره .

ومنها كثرة شوقه إلى لقائه ؛ فكل حبيب يحب لقاء حبيبه .

وفي حديث الأشعريين عن قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتحزون :

**غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه**

وتقديم قول بلال ، ومثله قال عمار قبل قتله ، وما ذكرناه من قصة خالد بن معدان .

ومن علاماته مع كثرة ذكره تعظيمه له وتقديره عند ذكره ، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه .

قال إسحاق التنجي : كان أصحاب النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بعده لا يذكرون إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا .

وكذلك كثير من التابعين منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقاً إليه ؛ ومنه من يفعله تهيباً وتقرباً .

ومنها محبته لمن أحب النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ومن هو بسيه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار ؛ وعداؤه من عادهم ، وبعض من أبغضهم وسبّهم ؛ فمن أحب شيئاً أحب من يحبه .

وقد قال النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في الحسن والحسين : « اللهم إني أحبهما فأحبهما » (٢) .

وفي رواية - في الحسن : « اللهم إني أحبه فأحب من يحبه » (٣) . وقال : « من أحبهما فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ، ومن أبغضهما فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله » (٤) .

وقال : « الله الله في أصحابي ، لا تأخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله

(١) البخاري في المحدود (٦٧٨٠) عن عمر بن الخطاب .

(٢) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٤٧) عن أسامة بن زيد .

(٣) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٤٩) عن البراء .

(٤) أحمد / ٢٨٨ .

ومن آذى الله يوشك أن يأخذه «(١)» .

وقال في فاطمة رضي الله عنها : «إنها بضعة مني ، يغضبني ما أغضبها » «(٢)» .

وقال لعائشة - في أسامة بن زيد : «أحبه فإني أحبه » «(٣)» .

وقال : «آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغضهم » «(٤)» .

في حديث ابن عمر : «من أحب العرب فيحبني أحبهم ، ومن أبغضهم فيبغضني أبغضهم » ، فالحقيقة من أحب شيئاً أحب كل شيء يحبه . وهذه سيرة السلف حتى في المباحثات وشهوات النفس .

وقد قال أنس حين رأى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يتبع الدباء من حوالي القصعة : فما زلت أحب الدباء من يومئذ «(٥)» .

وهذا الحسن بن عليّ وعبد الله بن عباس وابن جعفر أتوا سلمى وسألوها أن تصنع لهم طعاماً مما كان يعجب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وكان ابن عمر يلبس النعال السببية ، ويصبح بالصفرة ؛ إذ رأى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يفعل نحو ذلك «(٦)» .

ومنها بغض من أبغض الله ورسوله ، ومعاداة من عاده ، ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه ، واستئصاله كل أمر يخالف شريعته ؛ قال الله تعالى : «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [المجادلة: ٢٢] .

وهو لاء أصحابه صلوات الله عليه وآله وسلامه قد قتلوا أحباءهم ، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته . وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي : لو شئت لأتريك برأسه - يعني أبيه .

ومنها أن يحب القرآن الذي أتى به صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وهدى به واهدى ، وتخلق به حتى قالت

(١) الترمذى في المناقب (٣٨٦٢) وقال : غريب .

(٢) البخارى في فضائل الصحابة (٣٧٦٧) عن المسور بن مخرمة .

(٣) الترمذى في المناقب (٣٨١٨) وقال : غريب .

(٤) البخارى في الإيمان (١٧) ومسلم في الإيمان (٧٤ / ١٢٨) .

(٥) البخارى في الأطعمة (٥٤٣٣) ومسلم في الأشربة (٤١ / ٢٠٤) .

(٦) البخارى في اللباس (٥٨٥١) ، ومسلم في الحج (١١٨٧ / ٢٥) .

عائشة بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ : كان خلقه القرآن (١) .

وجبه للقرآن تلاوته ، والعمل به وفهمه ويحب سنته ويقف عند حدودها .

وقال سهل بن عبد الله : علامة حب الله حب القرآن ؛ وعلامة حب القرآن حب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعلامة حب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يدخل منها إلا زاداً وبُلْغَةَ إِلَى الآخرة .

وقال ابن مسعود : لا يَسْأَلُ أَحَدٌ عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله .

ومن علامات حبه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شففته على أمته ونصحه لهم ، وسعيه في مصالحهم ورفع المضار عنهم ؛ كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمؤمنين رؤوفاً رحيمًا .

ومن علامات قام محبته زهد مدعيها في الدنيا وإيثاره الفقر ، واتصافه به .

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي سعيد الخدري : « إن الفقر إلى من يُحبني منكم أسرع من السهل من أعلى الوادي ، أو الجبل إلى أسفله » (٢) .

وفي حديث عبد الله بن مغفل : قال رجل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا رسول الله ؛ إني أحبك . فقال : « انظر ما تقول » . قال : والله إني أحبك - ثلاث مرات . قال : « إن كنت تحبني فأعد للقرآن تجفاناً » (٣) . ثم ذكر نحو حديث أبي سعيد بمعناه .

## الفصل الخامس

### في معنى المحبة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقيقةتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكثرت عباراتهم في ذلك ، وليس ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال ، ولكنها اختلاف أحوال :

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦ / ١٣٩) .

(٢) أحمد ٣ / ٤٢ .

(٣) الترمذى في الرهد (٢٣٥٠) وقال : حسن غريب .

فقال سفيان : المحبة اتباع الرسول ﷺ . كأنه التفت إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقال بعضهم : محبة الرسول اعتقاد نصرته ، والذب عن سنته ، والانقياد لها ، وهيبة مخالفته .

وقال بعضهم : المحبة دوام الذكر للمحبيوب .

وقال آخر : إيثار المحبوب .

وقال بعضهم : المحبة الشوق إلى المحبوب .

وقال بعضهم : المحبة مواطأة القلب لمراد الرب ؛ يحب ما أحب ، ويكره ما كره .

وقال آخر : المحبة ميل القلب إلى موافق له .

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها .

وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان . وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه حب الصور الجميلة ، والأصوات الحسنة ، والأطعمة والأشرينة اللذينة ، وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له ، أو لاستلذاذه بإدراكه بحسنة عقله وقلبه معانٍ باطنة شريفة كمحبة الصالحين والعلماء وأهلالمعروف ، والمتأثر عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة ؛ فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم ، والتشييع من أمة في آخرین ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان ، وهتك الحُرُم واحتزام النفوس؛ أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه ؛ فقد جبت النفوس على حب من أحسن إليها .

إذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها في حقه ﷺ فلعلمت أنه ﷺ جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة .

أما جمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن ، فقد قررنا منها قبل فيما مر في الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة .

وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مرّ منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم ، ورحمته لهم ، وهدايته إليهم ، وشفقته عليهم ، واستنقاذهم به من النار ، وأنه

بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ورحمة للعالمين ، ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

فأي إحسان أجل قدرًا ، وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين ؟ وأي إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين ؟ إذ كان ذريتهم إلى الهدى ، ومنقذهم من العمى ، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة ، ووسيلتهم إلى ربهم ، وشفيعهم والتكلم عنهم ، والشاهد لهم ، والموجب لبقاء الدائم والنعيم السرمد .

فقد استبان لك أنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مستوجب للمحبة الحقيقة شرعاً بما قدمناه من صحيح الآثار ، وعادة وجلة بما ذكرناه آنفًا ؛ لإفاضته الإحسان ، وعمومه الإجمال ، فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً ، أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذى بها قليل منقطع فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفني من عذاب الجحيم أولى بالحب .

وإذا كان يحب بالطبع ملِكُ لحسن سيرته ، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقة ، أو قاصٌ بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته ، فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب ، وأولى بالليل .

وقد قال علي نَبِيُّنَا في صفتة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : من رأى بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

وذكرنا عن بعض الصحابة أنه كان لا يصرف بصره عنه محبة فيه .

## الفصل السادس

### في وجوب مناصحته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « **وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُفْقِدُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَيِّلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** » [التوبه : ٩١] .

قال أهل التفسير : « **إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** » [التوبه : ٩١] : إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية .

حدثنا القاضي الفقيه أبو الوليد بقراءتي عليه ، حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا يوسف بن عبد الله ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر التمار ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا سهيل بن أبي صالح ، عن عطاء بن يزيد ، عن تميم الداري ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدين النصيحة . إن الدين النصيحة . إن الدين النصيحة » قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ، وأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

قال أئمننا : النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة .

قال الإمام أبو سليمان البُستي : النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له ؛ وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها . ومعناها في اللغة الإخلاص ؛ من قولهم : نصحت العسل ، إذا خلصته من شمعه .

وقال أبو بكر بن إسحاق الخفاف : النصح فعل الشيء الذي به الصلاح والملامة ، مأخذ من الناصح ؛ وهو الخطيب الذي يخاطب به الثوب . وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه .

نصيحة الله تعالى صحة الاعتقاد له بالوحدانية ، ووصفه بما هو أهله ، وتنزييهه ما لا يجوز عليه ، والرغبة في محاباته ، والبعد عن مساقطه ، والإخلاص في عبادته .

والنصيحة لكتابه : الإيمان به ، والعمل بما فيه ، وتحسين تلاوته ، والتخشع عنده ، والتعظيم له ، وتفهمه والتتفقه فيه ، والذب عنه من تأويل الغالين ، وطعن المحدثين .

والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، وبذل الطاعة له في ما أمر به ونهى عنه ؛ قاله أبو سليمان .

وقال أبو بكر : ومؤازرته ونصرته وحمايته حيَا وميَّتا ، وإحياء سنته بالطلب ، والذب عنها ، ونشرها ، والتخليق بأخلاقه الكريمة وأدابه الجميلة .

وقال أبو إبراهيم إسحاق التُّجَيِّبي : نصيحة رسول الله ﷺ التصديق بما جاء به والاعتصام بسته ونشرها ، والحضرُ عليها ، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله ، وإليها وإلى العمل بها .

وقال أحمد بن محمد : من مفروضات القلوب اعتقاد النصيحة لرسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وقال أبو بكر الأجري وغيره : النصح له يقتضي نصحين : نصحاً في حياته ، ونصحاً بعد مماته ، ففي حياته نصح أصحابه له بالنصر والمحاكمة عنه ، ومعاداة من عاده ، والسمع والطاعة له ، وبذل النفوس والأموال دونه ؛ كما قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا يَدْلُوْا تَبْدِيلًا » [الأحزاب : ٢٣]

وقال : « وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » [الحشر : ٨] .

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالالتزام التوقير والإجلال ، وشدة المحبة له ، والثابرة على تعلم سنته ، والتفقه في شريعته ؛ ومحبة آل بيته وأصحابه ، ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها ، وبغضه والتحذير منه ، والشفقة على أمته ، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وأدابه ، والصبر على ذلك .

فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة ، وعلامة من علاماتها كما قدمنا.

وحكى الإمام أبو القاسم القشيري : أن عمرو بن الليث - أحد ملوك خراسان ومشاهير الثوار المعروف بالصفار - رئي في التوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل : لماذا ؟ قال : صعدت ذرعة جبل يوماً ، فأشرفت على جنودي ، فأعجبتني كثتهم ، فتمنيت أني حضرت رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فأعنته ونصرته ؛ فشكر الله لي ذلك وغفر لي .

وأما النصح لأنئمة المسلمين فطاعتهم في الحق ، وعونتهم فيه ، وأمرهم به ، وتذكيرهم إياهم على أحسن وجه وتبنيهم على ما غفلوا عنه وكتم عنهم من أمور المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتضريب (١) الناس وإفساد قلوبهم عليهم .

والنصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم ، وعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل ، وتبنيه غافلهم ، وتبصير جاهلهم ، ورفد محتاجهم ، وستر عوراتهم ، ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع إليهم .

(١) التضريب : الإغراء .

## الباب الثالث

## الفصل الأول

## في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره

قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِرُوهُ وَتَوَقِّرُوهُ » [ الفتح : ٩ ].

وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » [ الحجرات : ١ ].  
و : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفُعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرٍ بِعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَتَمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادِونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجَّرَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ » [ الحجرات : ٢ - ٤ ].

وقال تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءٍ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » [ النور : ٦٣ ].

فأوجب الله تعالى تزيره وتوقيره ، وألزم إكرامه وتعظيمه .

قال ابن عباس : « تَعْزِرُوهُ » : تجلوه .

وقال المبرد : « تَعْزِرُوهُ » : تبالغوا في تعظيمه .

•  
وقال الأخفش : تنصرونه .

وقال الطبرى : تعينونه .

وقرئ : تعززوه - بزيان - من العز .

ونهى عن التقدم بين يديه بالقول ؛ وسوء الأدب بسبقه بالكلام ، على قول ابن عباس  
وغيره ؛ وهو اختيار ثعلب .

قال سهل بن عبد الله : لا تقولوا قبل أن يقول ؛ وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا .

ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه ؛ وأن يقتاتوا بشيء في ذلك من  
قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ، ولا يسبقوه به .

وإلى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدِّي والثوري .

ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك ، فقال : « وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [الحجرات : ١١] . قال الماوردي : اتقوه - يعني في التقدُّم .

وقال السلمي : اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته ، إنه سميع لقولكم ، عالِيم بفعلكم . ثم نهَّاهم عن رفع الصوت فوق صوته ، والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم البعض ويرفع صوته . وقيل : كما ينادي بعضهم بعضاً باسمه .

قال أبو محمد مكي : أي : لا تسايقوه بالكلام ، وتغلظوا له بالخطاب ، ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم بعضاً ؛ ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يجب أن ينادي به : يا رسول الله ، يا نبي الله .

وهكذا قوله في الآية الأخرى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » [النور : ٦٣] . على أحد التأویلین . وقال غيره : لا تخاطبوه إلا مستفهمين .

ثم خوفهم الله تعالى بحطِّ أعمالهم إن هم فعلوا ذلك ، وحذرهم منه .

قيل : نزلت الآية في وفاة بنى تميم - وقيل : في غيرهم ؛ أتوا النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فنادوه : يا محمد ، يا محمد ، اخرج إلينا ، فذمهم الله تعالى بالجهل ، ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون .

وقيل : نزلت الآية الأولى في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر بين يدي النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، واختلاف جرى بينهما ، حتى ارتفعت أصواتهما .

وقيل : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في مفاخرة بنى تميم ، وكان في أذنيه صمم ؛ فكان يرفع صوته ، فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله ، وخشى أن يكون حبط عمله ، ثم أتى النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فقال : يا نبي الله ، لقد خشيت أن أكون هلكت ؛ نهانا الله أن نجهر بالقول وأنا أمرت به جهير الصوت .

فقال النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ « يا ثابت ؛ أَمَا ترَضِي أَنْ تعيش حمِيداً ، وتُقتل شهيداً ، وتدخل الجنة ؟! » فقتل يوم اليمامة . وروي أن أبو بكر لما نزلت هذه الآية قال : والله يا رسول الله ، لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرّار . وأن عمر كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار ؛ ما كان يُسمع رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ؛ فأنزل الله تعالى فيهم : « إِنَّ

الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَتَقَوَّى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» [الحجرات : ٣] . وقيل : نزلت : « إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُّرَاتِ...» [الحجرات : ٤] . في غيربني تميم نادوه باسمه .

وروى صفوان بن عسال : بينما النبي ﷺ في سفر إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري : أيا محمد . أيا محمد . فقلنا له : اغضض من صوتك ؛ فإنك قد نهيت عن رفع الصوت .

وقال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَأَيْنَا...» [البقرة : ١٠٤] . قال بعض المفسرين : هي لغة كانت في الأنصار ؛ نهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ ، وتبجيلا له ؛ لأن معناها : ارعنَا نرعنك ؛ فنهوا عن قولها ؛ إذ مقتضها كأنهم لا يرعنونه إلا برعايته لهم ؛ بل حقه أن يُرعن على كل حال .

وقيل : كانت اليهود تعرض بها للنبي ﷺ بالرعونة فنهي المسلمين عن قولها ؛ قطعا للذرية ومنعا للتتشبه بهم في قولها ، لمشاركة اللفظة . وقيل غير هذا .

## الفصل الثاني

### في عادة الصحابة في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله

حدثنا القاضي أبو علي الصدفي ، وأبو بحر الأستدي بسماعي عليهما في آخرين ؛ قالوا : حدثنا أحمد بن عمر ، حدثنا أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا إبراهيم بن سفيان ، حدثنا مسلم ، حدثنا محمد بن مثنى ، وأبو معن الرقاشي ، وإسحاق ابن منصور ؛ قالوا : حدثنا الضحاك بن مخلد ، أخبرنا حمزة بن شريح ، حدثنا يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن شماسة المهرى ، قال : حضرنا عمرو بن العاص ، فذكر حدثا طويلا فيه عن عمرو ، قال : وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أacula عيني منه إجلالا له ؛ ولو سئلت أن أصفه ما أطفت ؛ لأنني لم أكن أacula عيني منه <sup>(١)</sup> .

(١) مسلم في الإعان (١٢١) / (١٩٢).

وروى الترمذى ، عن أنس : أن رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس ، وفيهم أبو بكر وعمر ؛ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ؛ فإنهما كانوا ينظران إليه وينظر إلىهما ، ويتسمان إليه ويتسمان لهما <sup>(١)</sup> .

وروى أسامة بن شريك ؛ قال : أتيت النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وأصحابه حوله كائنا على رؤوسهم الطير <sup>(٢)</sup> .

وفي حديث صفتة : إذا تكلم أطرق جلساً كائنا على رؤوسهم الطير :

وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، وكادوا يقتلون عليه ، ولا يبصق بصفاً ، ولا يتنفس نحاما إلا تلقوها بأكفهم فدلّكوا بها وجوههم وأجسادهم ؛ ولا تسقط منه شرة إلا ابتدرواها ؛ وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ؛ وإذا تكلم خضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له . فلما رجع إلى قريش قال : يا معشر قريش ؛ إني جئت كسرى في ملکه ، وقيصر في ملکه ، والنجاشي في ملکه ؛ وإنني والله ما رأيت ملکاً في قومٍ مثل محمدٍ في أصحابه .

وفي رواية : إن رأيت ملکاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدًا أصحابه ، وقد رأيت قومًا لا يسلموه أبداً .

وعن أنس : لقد رأيت رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والخلق يحلقه ، وقد أطاف به أصحابه ، فما يريدون أن تقع شرة إلا في يد رجل . ومن هذا لماً أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجهه النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إليهم في القضية أبى وقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وفي حديث طلحة : إن أصحاب رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قالوا لأعرابي جاهل : سله عنمن قضى نحبه - وكانوا يهابونه ويوقرونها - فسألها فأعرض عنده ؛ إذ طلع طلحة فقال رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « هذا من قضى نحبه » <sup>(٣)</sup> .

(١) الترمذى فى المناقب (٣٦٦٨) وفيه الحكم بن عطية ، وقد تكلم فيه بعضهم .

(٢) أبو داود فى الطب (٣٨٥٥) ، وأحمد ٤ / ٢٧٨ .

(٣) الترمذى فى المناقب (٣٧٤٢) .

وفي حديث قيْلَة : فلما رأيت رسول الله ﷺ جالساً القرفصاء أرعدت من الفرق .

وذلك هيبة له وتعظيمًا <sup>(١)</sup> .

وفي حديث المغيرة : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافر .

وقال البراء بن عازب : لقد كنت أريد أن أسأله عن الأمر فأؤخره  
سنين من هيئته .

### الفصل الثالث

#### في تعظيم النبي ﷺ بعد موته

واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتقديره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته ؛ وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسته ، وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعترته وتعظيم أهل بيته وصحابته . وقال أبو إبراهيم التجيبي : واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويتوفر ويسكن من حركته ، ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ، ويتأدب بما أدبنا الله به .

قال القاضي أبو الفضل : وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين ﷺ . حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري ، وأبو القاسم أحمد بن بقي الحاكم ، وغير واحد ، فيما أجازونيه ؛ قالوا : أئبنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهاث ، قال : حدثنا أبو الحسن عليّ بن فهر ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج ، حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المتاب ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو حعفر - أمير المؤمنين - مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ؛ لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَعْجِزَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

ومدح قوماً فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْضُلُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِتَقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٣] . وذم قوماً فقال : ﴿ إِنَّ

الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴿ [الحجرات : ٤] . وإن حرمته ميتاً كحرمته حيّا . فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعوا أم استقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيمة ؟ بل استقبله واستشفع به ، فيشفعه الله ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفروا لهم الرسول لو جدوا الله تواباً رحيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] .

وقال مالك - وقد سئل عن أئوب السختياني : ما حدثكم عن أحد إلا وأئوب أفضل منه . وقال : وحج حجتين ، فكنت أرمقه ولا أسمع منه ، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه فلما رأيت منه ما رأيت وإنجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه .

وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه ، وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسايه ، فقيل له يوماً في ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون ؛ ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر - وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه . ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق وكان كثير الدعابة والتبسّم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ أصفر ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة . وقد اختلفت إليه زماناً فيما كنت أراه إلا على ثلاثة خصال : إما مصلّياً وإما صامتاً إما يقرأ القرآن ولا يتكلّم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل . ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه في فمه هيبة منه لرسول الله ﷺ . ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبكي في عينيه دموع . ولقد رأيت الزهري وكان من أهنا الناس وأقربهم ، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفه . ولقد كنت آتي صفوان بن سليم ، وكان من المتعبدين المجتهدين ، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى ، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويترکوه . وروي عن قتادة أنه كان إذا سمع الحديث أخذنه العويل والزويل . ولما كثر على مالك الناس قيل له : لو جعلت مستملياً يسمعهم ، فقال : قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] . وحرمته حيّاً وميتاً سواء . وكان ابن سيرين رجماً يضحك ؛ فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشعاً .

وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكتة ؛ وقال : ﴿ لا تُرْفُعُوا أَصْوَاتُكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] يتأنّل أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله .

## الفصل الرابع

### في سيرة السلف في تعظيم

### رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته

حدثنا الحسين بن محمد الحافظ ، حدثنا أبو الفضل بن خيرون ، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره ، وحدثنا أبو الحسن الدارقطني ، حدثنا أحمد بن سنان القطان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودي ، عن مسلم البطن ، عن عمرو بن ميمون ؛ قال : اختلفت إلى ابن مسعود سنة مما سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ ، إلا أنه حدث يوماً فجرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ ، ثم علاه كرب ، حتى رأيت العرق يتحدّر عن جبهته ، ثم قال هكذا إن شاء الله ، أو فوق ذا ، أو ما دون ذا ، أو ما هو قريب من ذا .  
وفي رواية : فتربيد وجهه .

وفي رواية : وقد تغرغرت عيناه ، وانتفخت أوداجه .

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قرير الأنصاري قاضي المدينة : مر مالك بن أنس على أبي حازم ، وهو يحدث ، فجازر ، وقال : إني لم أجد موضعًا أجلس فيه ، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم .

وقال مالك : جاء رجل إلى ابن المسمّى ، فسأله عن حديث وهو مضطجع ، فجلس وحدثه ؛ فقال له الرجل : وددت أنك لم تَتَّعَنْ ، فقال : إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع .

وروي عن محمد بن سيرين أنه قد يكون يضحك ، فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشّع .

وقال أبو مصعب : كان مالك بن أنس لا يحدث بحديث رسول الله ﷺ إلا وهو على وضوء ، إجلالا له .

وحكى مالك ذلك عن جعفر بن محمد .

وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ توضأ وتهيأ ، ولبس ثيابه ، ثم يُحدث .

قال مصعب : فسئل عن ذلك ، فقال : إنه حديث رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ .

قال مُطرف : كان إذا أتى الناس مالكًا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا : « المسائل » خرج إليهم ، وإن قالوا : « الحديث » دخل مقتسله ، واغتسل وتطيب ، ولبس ثيابًا جدًا ، ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه رداءه ، وتلقي له منصة ؛ فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع ، ولا يزال يُخَرِّ بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ .

قال غيره : ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ . قال ابن أبي أوس : فقيل لمالك في ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ ولا أحدث به إلا عن طهارة متمكنًا .

قال : وكان يكره أن يحدث في الطريق ، أو هو قائم ، أو مستعجل .

وقال : أحب أن أَفْهَمَ حديث رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ .

قال ضرار بن مرة : كانوا يكرهون أن يحدثوا بحديث على غير وضوء .

ونحوه عن قتادة .

وكان الأعمش إذا حدث وهو على غير وضوء تيمم .

وكان قتادة لا يحدث إلا على طهارة ، ولا يقرأ حديث النبي بِحَكْمَةِ اللَّهِ إلا على وضوء .

قال عبد الله بن المبارك : كنت عند مالك ، وهو يحدثنا ، فلديه عقرب ست عشرة مرة ، وهو يتغير لونه ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ . فلما فرغ من المجلس ، وتفرق الناس عنه قلت له : يا أبا عبد الله ؟ لقد رأيت اليوم منك عجباً ، قال : نعم ؟ لدغتني عقرب ست عشرة مرة ، وأنا صابر في جميع ذلك وإنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله بِحَكْمَةِ اللَّهِ .

قال ابن مهدي : مشيت يوماً مع مالك إلى العقيق ، فسألته عن حديث ، فانتهني

وقال لي : كنت في عيني أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نخشى .  
وسائله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم ، فأمر بحبسه ، فقيل له : إنه قاض . قال : القاضي أحق من أدب .

وذكر أن هشام بن الغازى سأله مالكاً عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطاً ، ثم أشفق عليه ، فحدثه عشرين حديثاً ، فقال هشام : وددت لو زادني سياطاً ويزيدني حديثاً .

قال عبد الله بن صالح : كان مالك والليث لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران .

وكان قتادة يستحب ألا تقرأ أحاديث النبي إلا على وضوء ولا يحدث إلا على طهارة .

وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم .

## الفصل الخامس

### في توقيره، وبر آلـهـ، وذرـيـتهـ، وأمهـاتـ المؤـمـنـينـ أـزـوـاجـهـ

ومن توقيره ﷺ وبره بـرـ آلـهـ وذرـيـتهـ وأـمـهـاتـ المؤـمـنـينـ أـزـوـاجـهـ ، كما حـضـ عليهـ ﷺ ،  
وـسـلـكـهـ السـلـفـ الصـالـحـ طـلاقـيـ .

قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا »  
[الأحزاب : ٣٣] . وقال تعالى : « وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ » [الأحزاب : ٦] .

أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العدل من كتابه ، وكتب من أصله : حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغاني ، حدثني أم القاسم بنت الشيخ أبي بكر الخفاف ، قالت : حدثني أبي ، حدثنا حاتم - هو ابن عقيل - حدثنا يحيى - هو ابن إسماعيل - حدثنا يحيى - هو الحمانى ، حدثنا وكيع ، عن أبيه ، عن سعيد بن مسروق ، عن يزيد بن حيان ، عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْشَدَكُمُ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتِي ... ثَلَاثَةٌ » . قلنا لزيد : من أهل بيته ؟ قال : آل عليّ ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل العباس (١) .

وقال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لم تضلووا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ؛ فانظروا كيف تخلفواني فيهما » <sup>(١)</sup> .

وقال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « معرفة آل محمد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ براءة من النار ، وحب آل محمد جواز على الصراط ، والولاية لآل محمد أمان من العذاب » <sup>(٢)</sup> .

قال بعض العلماء : معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه . وعن عمر بن أبي سلمة : لما نزلت : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » [الأحزاب : ٣٣] . وذلك في بيت أم سلمة - دعا فاطمة وحسنا وحسينا ، فجللهم بكاء ، وعلى خلف ظهره فجلله بكسائه ، ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ؛ فاذهب عنهم الرجس ، وطهّرهم تطهيرا » <sup>(٣)</sup> .

وعن سعد بن أبي وقاص : لما نزلت آية المباهلة دعا النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ علياً وحسناً والحسين وفاطمة ، وقال : « اللهم هؤلاء أهلي » <sup>(٤)</sup> .

وقال النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في علي : « من كنت مولاه فعليه مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاده » <sup>(٥)</sup> . وقال فيه : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » .

وقال للعباس : « والذى نفسي بيده ، لا يدخل قلبَ رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله ، ومن آذى عمي فقد آذاني ، وإنما عمَ الرجل صنوا أبيه » .

وقال للعباس : « اغدُ على يا عم مع ولدك » فجمعهم وجملهم بعلاقته ، وقال : « هذا عمي وصنوا أبي ؛ وهو لاء أهل بيتي ؛ فاسترهم من النار كستر إياهم » ؛ فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت : أمين . أمين . وكان يأخذ بيد أسامة بن زيد والحسن ؛ ويقول : « اللهم إني أحبهما فأأحبهما » <sup>(٦)</sup> .

(١) الترمذى في المناقب (٣٧٨٦) وقال : غريب .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) الترمذى في التفسير (٣٢٠٥) وقال : غريب .

(٤) مسلم في فضائل الصحابة (٤ / ٢٤٠٤) .

(٥) النسائي في الكبرى ، في الحصائص (٨٤٧٨) .

(٦) سبق تخربيجه .

وقال أبو بكر : ارقبوا محمداً في أهل بيته <sup>(١)</sup> .

وقال أيضاً : والذى نفسي بيده لقرابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إلى أن أصل من قرابتي <sup>(٢)</sup> .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَحَبَّ اللَّهَ مِنْ أَحَبَّ حَسَنًا وَحُسْنَيَاً » <sup>(٣)</sup> . وقال : « مِنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَذِينَ - وَأَشَارَ إِلَى حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ - وَأَبَاهُمَا وَأَمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي دَرْجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » <sup>(٤)</sup> .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مِنْ أَهَانَ قُرِيشًا أَهَانَهُ اللَّهُ » <sup>(٥)</sup> .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَدَّمُوا قُرِيشًا وَلَا تَقْدِمُوهَا » .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأم سلمة : « لَا تَؤْذِنِي فِي عَاشرَةِ » .

وعن عقبة بن الحارث : رأيت أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وجعل الحسن على عنقه وهو يقول : بأبي شبيه بالنبي ، ليس شبيهاً بعلي - وعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصحح <sup>(٦)</sup> .

وروي عن عبد الله بن حسن بن حسين ؛ قال : أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة ، فقال لي : إذا كان لك حاجة فأرسل إلى أو اكتب ؛ فإني أستحيي من الله أن يراك على بابي .

وعن الشعبي قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه ، ثم قربت له بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه ، فقال زيد : خل عنه يا بن عم رسول الله . فقال : هكذا نفعل بالعلماء . فقبل زيد يد ابن عباس وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

ورأى ابن عمر محمد بن أسامة بن زيد ، فقال : ليت هذا عبدي ؟ فقيل له : هو محمد ابن أسامة ، فطأطا ابن عمر رأسه ، ونَقَرَ بيده الأرض ، وقال : لو رأه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحبه <sup>(٧)</sup> .

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧١٣) .

(٢) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧١٢) .

(٣) ، ٤ مسبق تخريرجه .

(٥) أَحْمَدٌ ١ / ٦٤ .

(٦) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٥٠) .

(٧) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٣٤) .

وقال الأوزاعي : دخلت بنت أسماء بن زيد صاحب رسول الله ﷺ على عمر بن عبد العزيز ومعها مولى لها يمسك بيدها ، فقام لها عمر ، ومشى إليها حتى جعل يدها بين يديه ، ويداه في ثيابه ، ومشى بها حتى أجلسها على مجلسه ، وجلس بين يديها ، وما ترك لها حاجة إلا قضاها .

ولما فرض عمر بن الخطاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ، ولأسماء بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه : لم فضلتة ؟ فوالله ما سبقي إلى مشهد ؟ فقال له : لأن زيداً كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك ، وأسماء أحب إليه منك ؛ فثارت حب رسول الله ﷺ على حبي .

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يُشَهِّد برسول الله ﷺ ؛ فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقاه قبل بين عينيه ، وأقطعه المرتعاب لشبهه صورة رسول الله ﷺ .

وروي أن مالكا - رحمة الله - لما ضربه جعفر بن سليمان ، ونال منه ما نال ، وحمل مغشياً عليه دخل عليه الناس فأفاق ، فقال : أشهدكم أني جعلت ضاربي في حل . فسئل بعد ذلك ، فقال : خفت أن أموت فألقى النبي ﷺ فاستحيي منه أن يدخل بعض آله النار بسيبي . وقيل : إن المنصور أفاده من جعفر ، فقال له : أعوذ بالله ! والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلا وقد جعلته في حل ؛ لقرباته من رسول الله ﷺ .

وقال أبو بكر بن عياش : لو أتاني أبو بكر وعمر وعلى لبدأت بحاجة علي قبلهما ؛ لقرباته من رسول الله ﷺ ولأن آخر من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن أقدمه عليهما . وقيل لابن عباس : ماتت فلانة - لبعض أزواج النبي ﷺ ، فسجد ؛ فقيل له : أتسجد هذه الساعة ؟ فقال : أليس قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم آية فاسجدوا » (١) ، وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ ؟ وكان أبو بكر وعمر يزوران أم أين مولا النبي ﷺ ويقولان : كان رسول الله ﷺ يزورها . ولما وردت حليمة السعدية على النبي ﷺ بسط لها رداءه وقضى حاجتها ؛ فلما توفي وفدت على أبي بكر وعمر فصنعا بها مثل ذلك .

(١) الترمذى في المناقب (٣٨٩١) وقال : حسن غريب .

## الفصل السادس

### من توقيره وبره توقير أصحابه وبرهم

ومن توقيره وبره توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم ، والاقداء بهم ، وحسن الثناء عليهم ، والاستفار لهم ، والإمساك عما شجر بينهم ، ومعاداة من عادهم ، والإضراب عن أخبار المؤرخين ، وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم ؛ وأن يلتمس لهم في ما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات ، ويخرج لهم أصوات المخارج ؛ إذ هم أهل ذلك ، ولا يذكر أحد منهم بسوء ، ولا يغمض عليه أمر ؛ بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم ، ويسكت عما وراء ذلك ؛ كما قال عليه السلام : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا » .

قال الله تعالى : « **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَعًا سُجَّدًا يَسْتَغْوِنُ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا إِنَّا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٌ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوْى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الرُّزْعَانُ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » [الفتح : ٢٩] .**

وقال : « **وَالسَّابِقُونَ الْأُوَلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ حَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [التوبه : ١٠٠] .**

وقال الله تعالى : « **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** » [الفتح : ١٨] .

وقال : « **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** » [الأحزاب : ٢٣] .

حدثنا القاضي أبو علي ، حدثنا أبو الحسين وأبو الفضل ، قال : حدثنا أبو علي ، حدثنا أبو علي السنجي ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا الترمذى ، حدثنا الحسن بن الصباح ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن زائدة ، عن عبد الله بن عمير ، عن ربيعى بن

حراش، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ؛ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر » <sup>(١)</sup> .

وقال : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام ؛ لا يصلح الطعام إلا به » .

وقال : « الله الله في أصحابي ؛ لا تخدوهم غرضاً بعدي ؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذني » <sup>(٢)</sup> .

وقال : « لا تسبوا أصحابي ؛ فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » <sup>(٣)</sup> .

وقال : « من سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » <sup>(٤)</sup> . وقال : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا » .

وقال في حديث جابر : « إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلياً ؛ فجعلهم خير أصحابي، وفي أصحابي كلهم خير » .

وقال : « من أحبَّ عمر فقد أحبني، ومن أبغض عمر فقد أبغضني » .

وقال مالك بن أنس ، وغيره : من أبغض الصحابة وسيهم فليس له في في المسلمين حق ، ونُزِعَ بآية الحشر : « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكُنَّ اللَّهُ يُسْلِطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى فَلَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

(١) الترمذى في المناقب (٣٦٦٢)، وأحمد ٥ / ٣٨٢ .

(٢) سبق تخرجه .

(٣) البخارى في فضائل الصحابة (٣٦٧٣) عن أبي سعيد .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى (٨٧٣٤) ورمز إليه بالحسن .

شَدِيدُ الْعَقَابِ » [الحشر : ٦ ، ٧]. إلى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلَا إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا بَنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » [الحشر : ١٠].

وقال : من غاظه أصحاب محمد فهو كافر ؛ قال الله تعالى : « لِيَغْبَطَ بِهِمُ الْكُفَّارُ » [الفتح : ٢٩].

وقال عبد الله بن المبارك : خصلتان من كانتا فيه نجا : الصدق ، وحب أصحاب محمد ﷺ. قال أئوب السختياني : من أحب أبا بكر فقد أقام الدين ، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله ، ومن أحب علياً فقد أخذ بالعروة الوثقى ، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ فقد برئ من النفاق ، ومن انتقص أحداً منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح ؛ وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعاً ، ويكون قلبه سليماً .

وفي حديث خالد بن سعيد أن النبي ﷺ قال : « أيها الناس ، إني راض عن أبي بكر فاعرِفُوا له ذلك ، أيها الناس ، إني راض عن عمر وعن علي وعن عثمان وطلحة ، والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف ؛ فاعرِفُوا لهم ذلك ». .

« أيها الناس ؛ إن الله غفر لأهل بدر والحدبية ، أيها الناس ، احفظوني في أصحابي وأصحابي وأخواتي ، لا يطالبنكم أحداً منهم بمظلمة ؛ فإنها مظلمة لا تُوَهَّبُ في القيمة غداً ». وقال رجل لمعافى بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية؟ فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحدٌ ، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله . وأتى النبي ﷺ بجنازة رجل فلم يصل عليه ، وقال: « كان يبغض عثمان ، فأبغضه الله » (١).

وقال ﷺ في الأنصار : « اعفوا عن مسيئهم ، واقبلوا من محسنهم » (٢). .

وقال : « احفظوني في أصحابي وأصحابي ، فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة ، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله منه ، ومن تخلى الله منه يوشك أن يأخذه ». وعنه ﷺ : « من حفظني في أصحابي كنت له حافظاً يوم القيمة ». .

(١) الترمذى في المناقب (٣٧٠٩) وقال : غريب .

(٢) البخارى في مناقب الأنصار (٣٧٩٩) .

وقال : « من حفظني في أصحابي ورد علىَّ الحوض ، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرُدْ علىَّ الحوض ، ولم يرني إلا من بعيد ». .

قال مالك - رحمة الله : هذا النبي مؤدبُّ الخلق الذي هدانا الله به ، وجعله رحمة للعالمين ، يخرج في جوف الليل إلى البقيع ، فيدعو لهم ويستغفر لهم كالملود لهم ؛ وبذلك أمره الله ، وأمر النبي بحبهم وموالاتهم ، ومعاداة من عادهم .

وروي عن كعب : ليس أحدٌ من أصحاب محمد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلا له شفاعة يوم القيمة . وطلب من المغيرة بن نوفل أن يشفع له يوم القيمة .

قال سهل بن عبد الله التستري : لم يؤمن بالرسول من لم يوقر أصحابه ، ولم يُعزَّ أوامره .

## الفصل السابع

### ومن إعظامه وإكباره

ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أسبابه ، وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة ، ومعاهده ، وما لمسه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أو عُرف به .

وروي عن صفية بنت خبطة ؛ قالت : كان لأبي مَحْذُورَة قصة في مُقدَّم رأسه إذا قعد وأرسلها أصابت الأرض ، فقيل له : ألا تخلقها ؟ فقال : لم أكن بالذى أخلقها وقد مسها رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بيده . وكانت في قَنْسُوَة خالد بن الوليد شعرات من شعره بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فسقطت قلنسوته في بعض حروبه ، فشد عليها شدة أنكر عليه أصحاب النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كثرة من قتل فيها ؛ فقال : لم أفعلها بسبب القلنسوة ؛ بل لما تضمنته من شعره بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لثلا أسلب بركتها وتقع في أيدي المشركين . ورثي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من المبر ، ثم وضعها على وجهه . ولهذا كان مالك - رحمة الله - لا يركب بالمدينة دابة ؛ وكان يقول : أستحب من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ، بحافر دابة . وروي عنه أنه وهب للشافعى كُرعاً كثيراً كان عنده ، قال له الشافعى : أمسك منها دابة . فأجابه بمثل هذا الجواب . وقد حكى أبو عبد الرحمن السلمي عن أحمد بن فضلوه الزاهد - وكان من الغزاوة الرماة أنه قال : ما مسست القوس بيدي إلا على طهارة منذ بلغني أن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أخذ القوس بيده .

وقد أفتى مالك - فيمن قال : تربة المدينة رَدِيَّةُ - يضرب ثلاثين درَّةً وأمر بحبسه ، وكان له قدر ؛ وقال : ما أحوجه إلى ضرب عنقه ! تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة .

وفي « الصحيح » أنه قال ﷺ في المدينة : « من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » (١) .

وحكى : أن جهجاً الغفاري أخذ قضيب النبي ﷺ من يد عثمان رضي الله عنه ، وتناوله ليكسره على ركبته ، فصاح به الناس فأخذته الأكلة في ركبته فقطعتها ومات قبل الحول . وقال ﷺ : « من حلف على منبري كاذباً فليتبواً مقعده من النار » (٢) .

وحدثت أن أبا الفضل الجوهري لما ورد بالمدينة زائراً وقرب من بيته ترجل ومشى باكيًّا منشداً :

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبَّاً

نزلنا عن الأكوار نشي كرامةً لمن بان عنه أن نُلْمَ به ركبَاً

وحكى عن بعض المریدین أنه لما أشرف على مدينة الرسول ﷺ أنشأ يقول متمثلاً :

رُفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمرٌ تقطع دونه الأوهام

وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهنَّ على الرحال حرامُ

قربَتَنا من خيرٍ من وُطِئَ الشري فلها علينا حرمَةٌ وذمامٌ

وحكى عن بعض المشايخ أنه حج ماشياً ؛ فقيل له في ذلك ، فقال : العبد الآبق لا يأتي إلى بيت مولاه راكباً ! لو قدرت أن أمشي على رأسي ما مشيت على قدمي .

قال القاضي : وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتزييل ، وتردد بها جبريل وميكائيل ، وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجَّت عرَصاتُها بالتقديس والتسييح ، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر ، مدارسُ آيات ، ومساجد وصلوات ، ومشاهد الفضائل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومتانسَك الدين ، ومشاعر المسلمين ومواقف سيد المرسلين ، ومتبوأ خاتم النبيين ، حيث انفجرت

(١) البخاري في الجزية (٣١٧٩) .

(٢) مالك في الموطا ص : ٧٢٧ .

النبوة ، وأين فاض عبابها ، وموطن طويت فيها الرسالة ؛ وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها أن تعظم عرصاتها وتُتنسم نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدرانها :

هُدِيَ الْأَنَامُ وَخُصَّ بِالآيَاتِ  
يَا دَارُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ

وَتَشْوُقُ مَتَوَقَّدُ الْجَمَرَاتِ  
عَنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةً وَصَبَابَةً

وَعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلَأْتُ مَحَاجِرِي  
مِنْ تَلْكُمِ الْجَدْرَانِ وَالْعَرَصَاتِ

لَا عَفْرَنْ مَصُونٌ شَيْبِي بَيْنَهَا  
مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ وَالرَّشْفَاتِ

لَوْلَا الْعَوَادِي وَالْأَعَادِي زُرْتُهَا  
أَبْدَاً وَلَوْ سَجَّبَاً عَلَى الْوَجَنَاتِ

لَقَطَبِينِ تَلْكُ الدَّارِ وَالْحَجَرَاتِ  
لَكِنْ سَاهِدِي مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتِي

أَزْكِي مِنْ الْمَسَكِ الْمَفْتَنِ نَفْحَةً  
تَغْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكُّرَاتِ

وَنَوَامِي التَّسْلِيمِ وَالْبَرَكَاتِ  
وَتَخَصُّهُ بِزَوَاكِي الصلوات

## الباب الرابع

### الفصل الأول

#### في حكم الصلاة عليه والتسليم

##### وفرض ذلك وفضيلته ومعنى الصلاة عليه

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

قال ابن عباس : معناه : إن الله وملائكته يباركون على النبي . وقيل : إن الله يترحم على النبي ، وملائكته يدعون له . قال المبرد : وأصل الصلاة الترحم ، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله . وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر الصلاة : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ؛ فهذا دعاء » .

وقال أبو بكر القشيري : الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي ﷺ رحمة ، وللنبي ﷺ تشريف وزيادة تكراة . وقال أبو العالية : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء . قال القاضي أبو الفضل : وقد فرق النبي ﷺ في حديث تعليم الصلاة بين لفظ الصلاة ولفظ البركة ؛ فدل أنهما بمعنىين . وأما التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر بن بكر : نزلت هذه الآية على النبي ﷺ فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه ؛ وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا على النبي ﷺ عند حضورهم قبره ، وعند ذكره . وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه :

أحدها : السلام لك ومعك ، ويكون السلام مصدرًا كاللّذاذ واللّذادة .

الثاني : أي : السلام على حفظك ورعايتك متول له وكفيل به ، ويكون هنا السلام باسم الله .

الثالث : أن السلام يعني المسالمة له والانقياد ؛ كما قال : ﴿ فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا ﴾ [ النساء : ٦٥] .

## الفصل الثاني

### حكم الصلاة على النبي

اعلم أن الصلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فرض على الجملة ، غير محدد بوقت ، لأمر الله تعالى بالصلاحة عليه ، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب ، وأجمعوا عليه .

وحكى أبو جعفر الطبرى : أن محمل الآية عنده على التدب ؛ وادعى فيه الإجماع ؛ ولعله فيما زاد على مرة ؛ والواجب منه الذى يسقط به الخرج وعاصم ترك الفرض مرة ؛ كالشهادة له بالنبوة ؛ وما عدا ذلك فممندوب مُرْغَبٌ فيه ، من سنن الإسلام وشعار أهله .

قال القاضى أبو الحسن بن القصار : المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان ، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك .

وقال القاضى أبو بكر بن بکير : افترض الله على خلقه أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليماً ، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم ؛ فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها .

قال القاضى أبو محمد بن نصر : الصلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ واجبة في الجملة .

قال القاضى أبو عبد الله محمد بن سعيد : ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فرض بالجملة بعد الإيمان لا يتعين في الصلاة ، وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره سقط الفرض عنه .

وقال أصحاب الشافعى : الفرض منها الذى أمر الله تعالى به ورسوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هو في الصلاة .

وقالوا : وأما في غيرها فلا خلاف أنها غير واجبة .

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر الطبرى والطحاوى وغيرهما إجماع جميع المتقدمين والتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في التشهد غير واجبة .

وشذ الشافعى في ذلك ؛ فقال : من لم يصل على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من بعد التشهد الأخير قبل السلام فصلاته فاسدة ، وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه ، ولا سلَف له في هذا القول ولا سَنَةٌ يتبعها .

وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه لخالفته فيها من تقدمه جماعة ، وشنتوا عليه الخلاف فيها ، منهم الطبرى والقشيرى وغير واحد .

وقال أبو بكر بن المنذر : يستحب ألا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن ترك ذلك تارك فَصَلَاتُهُ مَجْزَئَةٌ فصلاته مجزئه في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثورى وأهل الكوفة من أصحاب الرأى وغيرهم ، وهو قول جل أهل العلم .

وحكى عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير مستحبة ، وأن تاركها في التشهد مسيء .

وشنذ الشافعى فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان .

وحكى أبو محمد بن أبي زيد ، عن محمد بن المواز : أن الصلاة على النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فريضة .

قال أبو محمد : يريد ليست من فرائض الصلاة . و قاله محمد بن عبد الحكم وغيره .

وحكى ابن القصار عبد الوهاب : أن محمد بن المواز يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعى .

وحكى أبو يعلى العبدى المالكى عن المذهب فيها ثلاثة أقوال في الصلاة : الوجوب ، والسنة ، والتدب .

وقد خالف الخطابى - من أصحاب الشافعى وغيره - الشافعى في هذه المسألة ؛ قال الخطابى : وليست بواجبة في الصلاة ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعى ، ولا أعلم له فيها قدوة .

والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعى ، وإن جماعهم عليه .

وقد شنعت الناس عليه في هذه المسألة جداً .

وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعى ، وهو الذي علمه له النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيه الصلاة على النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك كل من روى التشهد عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأبي هريرة وابن عباس وجابر وابن عمر ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير - لم

يذكروا فيه صلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وقد قال ابن عباس وجاير : كان النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يعلمنا التشهد كما يعلمونا السورة من القرآن <sup>(١)</sup> .

ونحوه عن أبي سعيد .

وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المبر كما يعلمون الصبيان في الكتاب .

وعلمه أيضاً على المبر عمر بن الخطاب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وفي الحديث : « لا صلاة لمن لم يصل على <sup>(٢)</sup> ». قال ابن القصار : معناه : كاملة، أو من لم يصل على <sup>(٣)</sup> مرة في عمره. وضعف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث .

وفي حديث أبي جعفر ، عن ابن مسعود ، عن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من صلى صلاة لم يصل فيها على <sup>(٤)</sup> وعلى أهل بيته لم تقبل منه » <sup>(٥)</sup> .

قال الدارقطني : الصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين : لو صلّيت صلاة لم أصل فيها على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم .

### الفصل الثالث

في المواطن التي يُستحب فيها

الصلاحة والسلام على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويُرْغَب من ذلك في تشهد الصلاة كما قدمناه ؛ وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء : حدثنا القاضي أبو علي - رحمه الله - بقراءتي عليه ، قال : حدثنا الإمام أبو القاسم البلخي ؛ قال : حدثنا الفارسي ، عن أبي القاسم الخزاعي ، عن أبي الهيثم بن كلبي ،

(١) مسلم في الصلاة (٤٠٣ / ٦٠ ، ٦١) .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) لم أقف عليه .

عن أبي عيسى الحافظ ، قال : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا حيّة بن شريح ، حدثني أبو هانئ الخولاني : أن عمرو بن مالك الجنبي ، أخبره أنه سمع فضالاً بن عبيد يقول : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعوه في صلاته ، فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « عجلَ هذا » - ثم دعاه فقال له ولغيرة : « إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي ﷺ ، ثم ليدع بعد بما شاء » .

ويروى من غير هذا السنن بتمجيد الله ، وهو أصح .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : الدعاء والصلاحة معلق بين السماء والأرض ؛ فلا يصعد إلى الله منه شيء حتى يصلى على النبي ﷺ .

وعن عليّ عن النبي ﷺ بمعناه ، وعن عليّ : وعلى آل محمد .

وروي أن الدعاء محجوب حتى يصلى الداعي على النبي ﷺ .

وعن ابن مسعود : « إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً ب مدحه والثناء عليه بما هو أهله ؛ ثم يصل على النبي ﷺ ، ثم ليسأله ، فإنه أجدر أن ينجح » .

وعن جابر رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ، ويرفع متابعه ؛ فإن احتاج إلى شراب شربه ، أو الوضوء توضأ ، وإلا هرaque ، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وأخره » .

وقال ابن عطاء : للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات ، فإن وافق أركانه قوي ، وإن وافق أجنحته طار في السماء ، وإن وافق مواقتيه فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح ، فأركانه حضور القلب والرقة ، والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصدق ومواقتيه الأسحار ، وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ .

وفي الحديث : « الدعاء بين الصلاتين لا يرد » .

وفي حديث آخر : « كل دعاء محجوب دون السماء ، فإذا جاءت الصلاة على صعد الدعاء » <sup>(١)</sup> .

وفي دعاء ابن عباس الذي رواه عنه حَنَش ؛ فقال في آخره : واستجب دعائي ، ثم

(١) الطبراني في الأوسط (٧٢١) .

تبدأ بالصلاحة على النبي ﷺ فتقول : اللهم إني أسائلك أن تصلي على محمد عبدك ونبيك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك أجمعين أمين .

ومن مواطن الصلاة عليه : عند ذكره وسماع اسمه ، أو كتابه ، أو عند الأذان . وقد قال ﷺ : « رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يصل على » (١) .

وكره ابن حبيب ذكر النبي ﷺ عند الذبح . وكره سخون الصلاة عليه عند التعجب ؛ وقال : لا يصلّى عليه إلا على طريق الاحتساب وطلب الثواب .

قال أصيغ عن ابن القاسم : موطنان لا يذكر فيهما إلا الله : الذبيحة ، والعطاس ، فلا تقل فيهما بعد ذكر الله : محمد رسول الله ﷺ ، ولو قال بعد ذكر الله : « صلّى الله على محمد » لم يكن تسمية له مع الله . وقاله أشهب ؛ قال : ولا ينبغي أن تجعل الصلاة على النبي ﷺ فيه استناداً .

وروى النسائي ، عن أوس بن أوس ، عن النبي ﷺ : الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة (٢) .

ومن مواطن الصلاة والسلام : دخول المسجد .

قال أبو إسحاق بن شعبان : وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلّي على النبي ﷺ ، وعلى آله ويترحم عليه وعلى آله ، ويبارك عليه وعلى آله ، ويسلم تسليماً ؛ ويقول : « اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك » . وإذا خرج فعل مثل ذلك ، وجعل موضع « رحمتك » : « فضلك » (٣) .

وقال عمرو بن دينار في قوله تعالى : « فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسِلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ » [النور : ٦١] .

قال : إن لم يكن في البيت أحد فقل : السلام على النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته .

قال ابن عباس : المراد بالبيوت هنا المساجد .

وقال النخعي : إذا لم يكن في المسجد أحد فقل : السلام على رسول الله ﷺ وإذا

(١) الترمذى في الدعوات (٣٥٤٥) عن أبي هريرة .

(٢) النسائي ٣ / ٩١ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) .

(٣) لم أقف عليه .

لم يكن في البيت أحدٌ فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وعن علقة : إذا دخلت المسجد أقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، صلى الله وملائكته على محمد . ونحوه عن كعب إذا دخل وإذا خرج ، ولم يذكر الصلاة . واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ - أن النبي ﷺ كان يفعله إذا دخل المسجد .

ومثله عن أبي بكر بن عمرو بن حزم . وذكر السلام والرحمة .

وقد ذكرنا هذا الحديث آخر القسم ، والاختلاف في ألفاظه .

ومن مواطن الصلاة عليه أيضاً : الصلاة على الجنائز . وذكر عن أبي أمامة أنها من السنة .

ومن مواطن الصلاة التي مضى عليها عمل الأمة ولم تنكرها : الصلاة على النبي ﷺ وأله في الرسائل ، وما يكتب بعد البسمة ؛ ولم يكن هذا في الصدر الأول ؛ وأحدث عند ولادة بني هاشم ؛ فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض . ومنهم من يختتم به أيضاً الكتب . وقال ﷺ : « من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام أسمى في ذلك الكتاب » .

ومن مواطن السلام على النبي ﷺ : تشهد الصلاة . حدثنا أبو القاسم خلف بن إبراهيم المقرئ الخطيب - رحمه الله - وغيره ، قال : حدثني كريمة بنت محمد ؛ قالت : حدثنا أبو الهيثم ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إذا صلى أحدكم فليقل : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض » <sup>(١)</sup> . هذا أحد مواطن التسليم عليه ؛ وستته أول التشهد .

وقد روى مالك عن ابن عمر أنه كان يقول ذلك إذا فرغ من تشهده وأراد أن يسلم ، واستحب مالك في « المبسوط » أن يسلم بمثل ذلك قبل السلام .

قال محمد بن مسلمة : أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر أنهمَا كانوا يقولان عند

(١) البخاري في الأذان (٨٣١) ومسلم في الصلاة (٤٠٢) / ٥٥ .

سلامهما : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام عليك . واستحبب أهل العلم أن ينوي الإنسان حين سلامه كل عبد صالح في السماء والأرض من الملائكة وبني آدم والجن .

قال مالك في « المجموعة » : وأحب للمأمور إذا سلم إمامه أن يقول : السلام على النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . السلام عليكم .

## الفصل الرابع

### في كيفية الصلاة عليه والتسليم

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه ، حدثنا القاضي أبو الأصبغ ، حدثنا أبو عبد الله بن عتاب ، حدثنا أبو بكر بن واقد وغيره ، قالوا : حدثنا أبو عيسى ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا يحيى ، حدثنا مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، عن أبيه ، عن عمرو بن سليم الزرقاني أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلّي عليك ؟ فقال : « قولوا : اللَّهُمَّ صلّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذَرِيَّتِهِ ، كَمَا صلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذَرِيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمٍ إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » <sup>(١)</sup> .

وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاري ، قال : « قولوا : اللَّهُمَّ صلّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ كَمَا صلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمٍ فِي الْعَالَمَيْنِ ، إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عُلِّمْتُمْ » <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية كعب بن عُجرة : « اللَّهُمَّ صلّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » <sup>(٣)</sup> .

وعن عقبة بن عمرو في حديثه : « اللَّهُمَّ صلّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ » .

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٦٠) ، ومسلم في الصلاة (٤٠٧ / ٦٩) .

(٢) مسلم في الصلاة (٤٠٥ / ٦٥) .

(٣) البخاري في الدعوات (٦٣٥٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٠٦ / ٦٦) .

وفي رواية أبي سعيد الخدري : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدَكَ وَرَسُولَكَ ... » (١) وذكر معناه .

وحدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي سماعاً عليه ، وأبو علي الحسن بن طريف النحوي بقراءتي عليه ؛ قالا : حدثنا أبو عبد الله بن سعدون الفقيه ، حدثنا أبو بكر المطوعي ، حدثنا أبو عبد الله الحاكم ، عن أبي بكر بن أبي دارم الحافظ ، عن علي بن أحمد العجلاني ، عن حرب بن الحسن ، عن يحيى بن المساور ، عن عمرو بن خالد ، عن زيد بن علي بن الحسين ، عن أبيه علي ، عن أبيه الحسين ، عن أبيه علي بن أبي طالب ؛ قال : عَدَّهُنَّ فِي يَدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : « عَدَّهُنَّ فِي يَدِي جَبَرِيلَ ، وَقَالَ : هَكُذَا نَزَّلَتْ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَزَّةِ . »

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ وَتَرَحَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ وَتَخَنَّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا تَخَنَّنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ وَسَلَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا سَلَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « من سره أن يكتال بالمكial الأولى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ، وَأَزْوَاجِهِ أَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَذَرِيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (٢) .

وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري : سألت النبي ﷺ كف نصلي عليك ؟

فقال : « صلوا واجتهدوا في الدعاء ثم قولوا : اللَّهُمَّ بارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٥٨) .

(٢) أبو داود في الصلاة (٩٨٢) .

محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ<sup>(١)</sup>.

وعن سلامة الكندي كان على يعلمنا الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللهم داحي المدحّوات وباري المسموّات ، اجعل شرائف صلواتك ونومي بركاتك ، ورأفة تحنّتك على محمد عبده ورسولك ، الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والمعلن الحق بالحق ، والداعم لجيشات الأبطال ، كما حمّل فاخصطّل بأمّرك لطاعتكم ، مستوفزاً في مرضاتكم واعيَاً لوحيك ، حافظاً لعهدهك ، ماضياً على نفاذ أمرك ، حتى أورى قبساً لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هدّيَت القلوب بعد خوضات الفتنة والإثم ، وأبَهَجَ موضّحات الأعلام ، ونائرات الأحكام ، ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدهك يوم الدين ، ويعيشك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة ؛ اللهم أفسح له في عدلك ، واجزه مضااعفات الخير من فضلك ، مهنتات له غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول ، وجزيل عطائكم المعلول .

اللهم أعلى على بناء الناس بناء ، وأكرم مثواه لديك ونزله ، وأتم له نوره ، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة ، ومرضي المقالة ، ذا منطق عدل ، وخطبة فصل ، وبرهان عظيم .  
وعنه أيضاً في الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصْلُوْنَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا » [الاحزاب : ٥٦].

لبيك اللهم ربِّي وسعديك ، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين ، والنبين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وما سبّح لك من شيء يا رب العالمين ، على محمد ابن عبد الله خاتم النّبيين ، وسيّد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، والشاهد البشير ، الداعي إليك بإذنك السراج النّير ، وعليه السلام .

وعن عبد الله بن مسعود : « اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخاتم النبيين ، محمد عبده ورسولك ؛ إمام الخير ورسول الرحمة » اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبّطه فيه الأولون والآخرون .

اللهم صلّى على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ؛  
وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد

(١) الجامع الصغير (٥٠٣٣) ورمز إليه بالصحة .

مجيد .

وكان الحسن البصري يقول : من أراد أن يشرب بالكأس الأولى من حوض المصطفى فليقل : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذراته وأهل بيته وأصحابه وأنصاره وأشياعه ومحبيه وأمنته ، علينا ، معهم أجمعين ، يا أرحم الراحمين .

وعن طاوس ؟ عن ابن عباس أنه كان يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى ، وارفع درجته العليا ، وآتاه سؤله في الآخرة والأولى ، كما آتيت إبراهيم وموسى .

وعن وهب بن الورد أنه كان يقول في دعائه : اللهم أعط محمداً فضل ما سألك لنفسه ، وأعط محمداً أفضل ما سألك له أحد من خلقك ، وأعط محمداً أفضل ما أنت مسئول له إلى يوم القيمة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول : إذا صلتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرؤون ، لعل ذلك يعرض عليه ؛ وقولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ، رسول الرحمة .

اللهم ابعثه مقاماً مهومداً يغبطه فيه الأولون والآخرون ؛ اللهم صل على محمد وعلى آله محمد ، كما صلتم على إبراهيم إنك حميد مجيد .

اللهم بارك على محمد وعلى آله باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

وما يؤثر في تطويل الصلاة وتکثیر الثناء على أهل البيت وغيرهم كثير .

وقوله : « والسلام كما قد علّمتم » : هو ما علمهم الله في التشهد من قوله : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » <sup>(١)</sup> .

وفي تشهد على : السلام على نبي الله ، السلام على أنبياء الله ورسله ، السلام عليك رسول الله ، السلام على محمد بن عبد الله ، السلام علينا وعلى المؤمنين والمؤمنات من غاب منهم ومن شهد .

اللهم اغفر لمحمد وتقبل شفاعته ، واغفر لأهل بيته ، واغفر لي ولوالدي وما ولدا وارحهما .

(١) سبق تخریجه .

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

جاء في هذا الحديث عن علي : الدعاء للنبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بالغفران .

وفي حديث الصلاة عليه أيضاً قبل : الدعاء له بالرحمة ؛ ولم يأت في غيره من الأحاديث المروعة المعروفة . وقد ذهب أبو عمر بن عبد البر وغيره إلى أنه لا يدعى للنبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بالرحمة ؛ وإنما يدعى له بالصلاحة والبركة التي تختص به ، ويدعى لغيره بالرحمة والمغفرة . وقد ذكر أبو محمد بن أبي زيد في الصلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « اللهم ارحم محمداً وآل محمد كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم » .

ولم يأت هذا في حديث صحيح : وحجه قوله في السلام : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

## الفصل الخامس

### في فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له

حدثنا أحمد بن محمد الشيخ الصالح من كتابه ، حدثنا القاضي يونس بن مغيث ، حدثنا أبو بكر بن معاوية ، حدثنا النسائي ، أخبرنا سعيد بن نصر ، أخبرنا عبد الله ، عن حبيبة بن شريح ، قال : أخبرني كعب بن علقة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير مولى نافع ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، وصلوا علي ؛ فإنه من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشرًا ؛ ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سألي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » <sup>(١)</sup> .

وروى أنس بن مالك أن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال : « من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطبات ، ورفع له عشر درجات » <sup>(٢)</sup> .

(١) مسلم في الصلاة (٣٨٤ / ١١) .

(٢) الجامع الصغير (٨٨١٠) .

وفي رواية : « وكتب له عشر حسنات » .

ومن أنس ، عنه عليه السلام « إن جبريل ناداني ، فقال : من صلى عليك صلاة صلى الله عليه عشرًا ، ورفعه عشر درجات » .

ومن رواية عبد الرحمن بن عوف ، عنه عليه السلام لقيت جبريل فقال لي : إني أبشرك أن الله تعالى يقول : من سلم عليك سلمت عليه ، ومن صلّى عليك صلّيت عليه . ونحوه من رواية أبي هريرة ، ومالك بن أوس بن الحذفان ، وعبيد الله بن أبي طلحة وعن زيد ابن الحباب : سمعت النبي عليه السلام يقول : « من قال : اللهم صلّ على محمد وأنزله المنزلي المقرب عندك يوم القيمة وجبت له شفاعتي » .

وعن ابن مسعود : « أولى الناس بي يوم القيمة أكثرهم على صلاة » .

وعن أبي هريرة ، عنه عليه السلام : « من صلّى على في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي اسمي في ذلك الكتاب » .

وعن عامر بن ربيعة : سمعت النبي عليه السلام يقول : « من صلّى على صلاة صلت عليه الملائكة ما صلّى على ، فلأقلّل من ذلك عبد أو ليكثّر » .

وعن أبي بن كعب : كان رسول الله عليه السلام إذا ذهب ربع الليل قام فقال : « يا أيها الناس ؛ اذكروا الله ، جاءت الراجمة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » .

فقال أبي بن كعب : يا رسول الله ؛ إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » . قال : الربع ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير » . قال : الثالث ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير » . قال : النصف ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير » . قال : الثنين ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير » . قال : يا رسول الله ، فأجعل صلاتي كلها لك ؟ قال : « إِذَا تُكْفِي وَيُغْفَرْ ذَنْبُكَ » <sup>(١)</sup> .

وعن أبي طلحة : دخلت على النبي عليه السلام فرأيت من بشره وطلاقته ما لم أره ، فسألته فقال : « وما يعنني وقد خرج جبريل آنفًا ، فأتاني ببشاره من ربّي عز وجل : إن الله بعثني إليك أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلّي عليك إلا صلّى الله عليه وملائكته بها عشرًا » .

وعن جابر بن عبد الله ؛ قال : قال النبي عليه السلام : « من قال حين يسمع النداء : اللهم

(١) الترمذى في صفة القيمة (٢٤٥٧) وقال : حسن صحيح ، وأحمد ٥ / ١٣٦

رب هذه الدعوة التامة والصلوة القائمة آتَ مُحَمَّداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً  
الذي وعدته - حلت له الشفاعة يوم القيمة » <sup>(١)</sup> .

وعن سعد بن أبي وقاص: « من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له ، وأن مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه ، رضيَتْ بالله ربِّا وَبِمُحَمَّدِ رَسُولِهِ وَبِالْإِسْلَامِ  
دِينِا غَفْرَلَه » <sup>(٢)</sup> .

وروى ابن وهب أن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال : « من سلم على عشراً فكأنما أعتق رقبة » .

وفي بعض الآثار : « ليردن على أقوام ما أعرفهم إلا بثرة صلاتهم على » .

وفي آخر : « إنَّ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً » .

وعن أبي بكر الصديق : الصلاة على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أمحق للذنوب من الماء البارد للنار ،  
والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب .

## الفصل السادس

### في ذم من لم يصل على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ واثمه

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمه الله ، حدثنا أبو الفضل بن خiron ، وأبو  
الحسين الصيرفي ؛ قالا : حدثنا أبو يعلى ، حدثنا السننجي ، حدثنا محمد بن محبوب ،  
حدثنا أبو عيسى حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا ربيع بن إبراهيم ، عن عبد  
الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « رَغْمَ أَنْفِ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عَنْهُ فَلَمْ يُصْلِلْ عَلَيَّ ، وَرَغْمَ أَنْفِ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانَ ثُمَّ  
انسلاخَ قَبْلَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، وَرَغْمَ أَنْفِ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْهُ أَبْوَاهُ الْكَبْرِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ » <sup>(٣)</sup> .

وقال عبد الرحمن : وأظنه قال : أو أحدهما .

وفي حديث آخر: أن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صعد المنبر فقال: «آمين» ، ثم صعد ، فقال: «آمين» .

(١) البخاري في التفسير (٤٧١٩) .

(٢) مسلم في الصلاة (٣٨٦ / ١٣) .

(٣) سبق تخریجه .

ثم صعد فقال : « أَمِينٌ » ، فسأله معاذ عن ذلك ، فقال : « إِن جَبَرِيلَ أَتَانِي فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ مَنْ سَمِيَتْ بِنِ يَدِيهِ فَلَمْ يَصُلْ عَلَيْكَ فَمَا تَدْخُلُ النَّارَ ، فَبَعْدِهِ اللَّهُ ، قَالَ : أَمِينٌ ، فَقَلَتْ : أَمِينٌ » . وَقَالَ فَيَمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ فَمَا تَدْلِيْلٌ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَمِنْ أَدْرَكَ أَبُوِيهِ أَوْ أَحْدَهُمَا فَلَمْ يَبْرُهُمَا فَمَا تَدْلِيْلٌ مِثْلُهُ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « الْبَخِيلُ الَّذِي ذُكِرَتْ عَنْهُ فَلَمْ يَصُلْ عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup> . عَنْ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ أَبِيهِ<sup>(٣)</sup> ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّهُ ذُكِرَتْ عَنْهُ فَلَمْ يَصُلْ عَلَيْهِ أَخْطِيَّ بِهِ طَرِيقُ الْجَنَّةِ » .

وَعَنْ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « إِنَّ الْبَخِيلَ كُلَّ الْبَخِيلِ مِنْ ذُكِرَتْ عَنْهُ فَلَمْ يَصُلْ عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هَرِيْرَةَ ، قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ أَنَّهُ قَالَ : « أَيُّا قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ وَيَصْلُوَا عَلَى النَّبِيِّ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُتَّرَدِّيْنَ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ<sup>(٥)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هَرِيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ نَسِيَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ<sup>(٦)</sup> .

وَعَنْ قَتَادَةَ ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ اجْفَأَهُ أَنْ أَذْكُرَ عَنْهُ الرَّجُلُ فَلَا يَصْلَيْلُ عَلَيْهِ<sup>(٧)</sup> .

وَعَنْ جَابِرٍ ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَلَى غَيْرِ صَلَاةِ النَّبِيِّ<sup>(٨)</sup> إِلَّا تَفَرَّقُوا عَلَى أَنْقَنْ مِنْ رَبِيعِ الْجَيْفَةِ » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَا يَصْلَوُنَ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ<sup>(٩)</sup> إِلَّا كَانُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لَمْ يَرُوُنَ مِنَ الثَّوَابِ<sup>(١٠)</sup> .

وَحَكِيَ أَبُو عِيسَى التَّرمذِيُّ ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ<sup>(١١)</sup> ، قَالَ : إِذَا صَلَّى الرَّجُلُ عَلَى النَّبِيِّ مَرَّةً فِي الْمَجْلِسِ أَجْزَأَهُ عَنْهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ .

(١) الترمذى في الدعوات (٣٥٤٥) وقال : غريب .

(٢) الترمذى في الدعوات (٣٥٤٦) وقال : حسن صحيح .

(٣) الترمذى في الدعوات (٣٣٨٠) وقال : حسن صحيح .

(٤) ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٠٨) وفي الرواية : إسناده ضعيف .

(٥) لم أقف عليه .

## الفصل السابع

### في تخصيصه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام

حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي ، حدثنا الحسين بن محمد ، حدثنا أبو عمر الحافظ ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا ابن داسة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا ابن عوف ، حدثنا المقرئ ، حدثنا حمزة ، عن أبي صخر حميد بن زياد ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبي هريرة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أن رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال : « ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله علىَّ روحى حتى أردَّ عليه السلام » <sup>(١)</sup> .

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من صلى عليَّ عند قبري سمعته ؛ ومن صلى عليَّ نائياً بِلْغَه » <sup>(٢)</sup> .

وعن ابن مسعود : « إنَّ اللَّهَ ملائكة سياحين في الأرض يبلغونني عن أمتي السلام » <sup>(٣)</sup> .  
ونحوه عن أبي هريرة .

وعن ابن عمر : « أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة ، فإنه يؤتني به منكم في كل جمعة » .

وفي رواية : « فإنَّ أحداً لا يصلِّي علىَّ إلا عُرِضَت صلاته علىَّ حين يفرغ منها » .  
وعن الحسن ، عنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « حيثما كتم فصلوا علىَّ ؛ فإنَّ صلاتكم تبلغني » <sup>(٤)</sup> .  
وعن ابن عباس : « ليس أحد من أمّة محمد يسلم عليه ويصلِّي عليه إلا بِلْغَه » وذكر بعضهم أنَّ العبد إذا صلى على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عرض عليه اسمه .

وعن الحسن بن عليٍّ : إذا دخلت المسجد فسلم على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فإنَّ رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أبو داود في النكاح (٢٠٤١) وأحمد ٢ / ٥٢٧ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى (٨٨١٢) وأشار إليه بالضعف .

(٣) أحمد ١ / ٤٤١ .

(٤) أبو داود في النكاح (٢٠٤٢) .

قال : « لا تتخذوا بيتي عِيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىَ حِثْ كُنْتُمْ ؛ فإن صلاتكم تبلغني حِثْ كُنْتُمْ ». .

وفي حديث أنس : « أكثروا علىَ من الصلاة يوم الجمعة ، فإن صلاتكم معروضة علىَ ». .

وعن سليمان بن سحيم : رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله ؛ هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك ، أتفقه سلامهم ؟ قال : « نعم ، وأردّ عليهم ». .

وعن ابن شهاب : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا من الصلاة علىَ في الليلة الـزـهـرـاءـ ، والـيـوـمـ الـأـزـهـرـ ، فإـنـهـمـ يـؤـدـيـانـ عـنـكـمـ ، وـإـنـ الـأـرـضـ لـاـ تـأـكـلـ أـجـسـادـ الـأـنـبـيـاءـ ؛ وـمـاـ مـنـ مـسـلـمـ يـصـلـيـ عـلـيـ إـلـاـ حـمـلـهـ مـلـكـ حـتـىـ يـؤـدـيـهـ إـلـيـ وـيـسـمـيـهـ حـتـىـ إـنـ لـيـقـولـ : إـنـ فـلـانـ يـقـولـ كـذـاـ وـكـذـاـ » (١) . .

## الفصل الثامن

### في الاختلاف في الصلاة

#### على غير النبي ﷺ وسائل الأنبياء عليهم السلام

قال القاضي وفقه الله : عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ

وروی عن ابن عباس أنه لا تجوز الصلاة على غير النبي ﷺ .

وروی عنه : لا تنبغي الصلاة على أحد إلا النبيين .

وقال سفيان : يكره أن يصلى إلا على نبي .

ووُجِدَتْ بِخَطِّ بَعْضِ شِيَوخِيْ : مَذَهَبُ مَالِكٍ : أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْلِيَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ سَوْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهَذَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ مِنْ مَذَهَبِهِ ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِي « الْمَبْسُطِ » لِحَمَيْيِيْ بْنِ إِسْحَاقَ : أَكْرَهَ الصلاةَ عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَدَّ مَا أَمْرَنَا بِهِ .

وقال يحيى بن يحيى : لست آخُذُ بقوله ، ولا بأس بالصلاحة على الأنبياء كلهم وعلى غيرهم ؛ واحتج بحديث ابن عمر ، وبما جاء في حديث تعليم النبي ﷺ الصلاة عليه ؛

(١) الجامع الصغير للسيوطى (١٤٠٢) وأشار إليه بالحسن .

وفيه : « وعلى أزواجه ، وعلى آله » . وقد جاء معلقاً عن أبي عمران القابسي : روي عن ابن عباس رضي الله عنهما كراهة الصلاة على غير النبي صلوات الله عليه ، وقال : وبه نقول . ولم تكن تستعمل فيما مضى . وقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسول الله صلوات الله عليه « صلوا على أنبياء الله ورسله ؛ فإن الله بعثهم كما بعثني » <sup>(١)</sup> . قالوا : والأسانيد عن ابن عباس لينة ؛ والصلاحة في « لسان العرب » بمعنى الترحم والدعاء ؛ وذلك على الإطلاق حتى يمنع منه حديث صحيح أو إجماع .

وقد قال تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » [الأحزاب : ٤٣] .

وقال : « خُذُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُرْكِيْهُمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [التوبه : ١٠٣] .

وقال : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ » [البقرة : ١٥٧] .

وقال النبي صلوات الله عليه : « اللَّهُم صل على آل أبي أوفى » . وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم ، قال : « اللهم صل على آل فلان » <sup>(٢)</sup> .

وفي حديث الصلاة : « اللَّهُم صل على محمد ، وعلى أزواجه وذريته » <sup>(٣)</sup> .

وفي حديث آخر : « وعلى آل محمد » قيل : أتباع ، وقيل : آل بيته ، وقيل : أمهه ، وقيل : الأتباع والرهط والعشيرة ، وقيل : آل الرجل ولده ، وقيل : قومه ، وقيل : أهله الذين حرمت عليهم الصدقة .

وفي رواية أنس : سئل النبي صلوات الله عليه من آل محمد ؟ قال : « كل تقى » .

ويجيء على مذهب الحسن أن المراد بالـ آلـ محمدـ : محمد ؛ فإنه كان يقول في صلاته على النبي : اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد - يريد نفسه ؛ لأنـهـ كانـ لاـ يـخلـ بـالـفـرـضـ ،ـ ويـأـتـيـ بـالـنـفـلـ ؛ـ لأنـ الفـرـضـ الـذـيـ أـمـرـ اللـهـ تـعـالـىـ بـهـ هوـ الصـلاـةـ عـلـىـ مـحـمـدـ نـفـسـهـ .

(١) الجامع الصغير (٥٠٣٤) ورمز إليه بالصحة .

(٢) البخاري في الزكاة (١٤٩٧) ، ومسلم في الزكاة (١٠٧٨) عن عبد الله بن أبي أوفى .

(٣) سبق تخريرجه .

وهذا مثل قوله ﷺ : « لَقَدْ أُوتِيَ مَزَمَارًا مِنْ مَزَامِيرَ آلِ دَاؤِدَ »<sup>(١)</sup> ؛ ي يريد من مزامير داود .

وفي حديث أبي حميد الساعدي في الصلاة: اللَّهُمَّ صَلُّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذَرِيَّتِهِ .  
وفي حديث ابن عمر : أنه كان يصلى على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر . وذكره مالك في « الموطأ » من رواية يحيى الأندلسي .  
والصحيح من رواية غيره : ويدعو لأبي بكر وعمر .

وروى ابن وهب ، عن أنس بن مالك : كنا ندعوا لأصحابنا بالغيب ؛ فنقول : اللَّهُمَّ  
اجعل منك على فلان صلوات قوم أبرار الذين يقومون بالليل ويصومون بالنهار .

قال القاضي أبو الفضل : والذى ذهب إليه المحققون ، وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله ، وروي عن ابن عباس ؛ واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم ، بل هو شيء يختص به الأنبياء ؛ توقيراً لهم وتعزيزاً كما يخص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم ، ولا يشارك فيه غيره ، وكذلك يجب تخصيص النبي ﷺ وسائر الأنبياء بالصلاحة والتسليم ، ولا يشارك فيه سواهم ، كما أمر الله به بقوله : « صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا » [الأحزاب : ٥٦] .

ويذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضا ؛ كما قال تعالى : « يُقَوْلُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْرَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ » [الحشر : ١٠] .

وقال : « وَالسَّابِقُونَ الْأُوَلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » [التوبه : ١٠٠] .

وأيضاً فهو أمر لم يكن معروفاً في الصدر الأول ، كما قال أبو عمران ؛ وإنما أحدهاته الرافضة والشيعة في بعض الأئمة ، فشاركونهم عند الذكر لهم بالصلاحة ، وساووهم بالنبي ﷺ في ذلك . وأيضاً فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه ؛ فتوجب مخالفتهم فيما التزموا من ذلك . وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبع والإضافة إليه لا على التخصيص . قالوا : وصلاة النبي ﷺ على من صلى عليه مجرها مجرى الدعاء والمواجهة ليس فيها معنى التعظيم والتوقير .

(١) البخاري في فضائل القرآن (٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٣٥/٧٩٣) عن أبي موسى .

وقالوا : وقد قال تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءٍ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » [النور : ٦٣] . فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفًا لدعاء الناس بعضهم البعض . وهذا اختيار الإمام أبي المظفر الإسفرايني من شيوخنا وبه قال ابن عبد البر .

## الفصل التاسع

### في حكم زيارة قبره بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### وفضيلة من زاره وسلم عليه وكيف يسلم ويدعو

وزيارة قبره بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سنة من سن المسلمين مجمع عليها ، وفضيلة مرغب فيها .

حدثنا القاضي أبو علي ؟ ، قال : حدثنا أبو الفضل بن خيرون ؛ قال : حدثنا الحسن ابن جعفر ؛ قال : حدثنا أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني ، قال : حدثنا القاضي المحاملي ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرزاق ؛ قال : حدثنا موسى بن هلال ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ أنه قال : قال النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من زار قبري وجبت له شفاعتي » (١) .

وعن أنس بن مالك ؛ قال : قال رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من زارني في المدينة محتسباً كان في جواري وكنت له شفيعاً يوم القيمة » (٢) .

وفي حديث آخر : « من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي » .

وكره مالك أن يقال : زرنا قبر النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وقد اختلف في معنى ذلك ؛ فقيل : كراهة الاسم ؛ لما ورد من قوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « لعن الله زوارات القبور » (٣) .

وهذا يرده قوله : « نهيتم عن زيارة القبور فزوروها » (٤) .

(١) الجامع الصغير (٨٧١٥) ورمز إليه بالضعف .

(٢) الجامع الصغير (٨٧١٦) ورمز إليه بالحسن .

(٣) ابن ماجه في الجنائز (١٥٧٤) عن حسان بن ثابت ، وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٤) مسلم في الجنائز (٩٧٧ / ١٠٦) .

وقوله : « من زار قبرى » ؛ فقد أطلق اسم الزيارة .

وقيل : لأن ذلك لما قيل : إن الزائر أفضل من المزور .

وهذا أيضاً ليس بشيء ؛ إذ ليس كل زائر بهذه الصفة ، وليس هذا عموماً ؛ وقد ورد في حديث أهل الجنة زيارتهم لربهم ، ولم يمنع هذا اللفظ في حفظه تعالى .

وقال أبو عمران - رحمه الله : إنما كره مالك أن يقال : « طواف الزيارة » و « زرنا قبر النبي ﷺ » لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم البعض ، فكره تسوية النبي ﷺ مع الناس بهذا اللفظ ؛ وأحب أن يُخْصَّ بـأن يقال : سلمنا على النبي ﷺ .

وأيضاً فإن الزيارة مباحة بين الناس ، وواجب شد الرحال إلى قبره ﷺ . يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد ، لا وجوب فرض .

وال الأولى عندي : أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ وأنه لو قال : « زرنا النبي » لم يكرهه ؛ لقوله ﷺ : « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَّا بَعْدِي ؛ اشْتَدَّ غَضْبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَبْيَانِهِمْ مَسَاجِدٍ » .

فحَمِّى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتتشبه بفعل أولئك قطعاً للذرية وحسماً للباب ، والله أعلم .

قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه : وما لم يزل من شأن من حج المرور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والتبرك ببرؤية روضته ومنبره وقبره ، ومجلسه ، وملامس يديه ، ومواطئ قدميه ، والعمود الذي كان يستند إليه ، وينزل جبريل بالوحى فيه عليه ، وبن عمره وقصده من الصحابة وأئمَّة المسلمين ، والاعتبار بذلك كله .

وقال ابن أبي فدريك : سمعت بعض من أدركت يقول : بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ فنلا هذه الآية : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصْلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ » [الأحزاب : ٥٦] . ثم قال صلى الله عليك يا محمد . من يقولها سبعين مرة ناداه ملك : صلى الله عليك يا فلان ؛ ولم تسقط له حاجة .

وعن يزيد بن أبي سعيد المهرى : قدمت على عمر بن عبد العزيز ، فلما ودعته قال لي : إليك حاجة ؛ إذا أتيت المدينة سترى قبر النبي ﷺ فأفقره مني السلام .

قال غيره : وكان يُرِدُّ إِلَيْهِ البريد من الشام .

وقال بعضهم : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فوقف فرفع يديه حتى ظنت أن افتح الصلاة ؛ فسلم على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ انصرف .

وقال مالك - في رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ودعا ، يقف ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة ، ويدنو ويسلم ، ولا يمس القبر بيده .

وقال في « المبسوط » : لا أرى أن يقف عند قبر النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يدعوه ، ولكن يسلم ويضي .

قال ابن أبي مليكة : من أحب أن يقوم وجاه النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فليجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه .

وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، ثم ينصرف . ورئي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من المنبر ثم وضعها على وجهه .

وعن ابن قسيط والعتبي : كان أصحاب النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إذا خلا المسجد حسوا رُمانة المنبر التي تلي القبر بيامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون .

وفي « الموطاً » من رواية يحيى بن يحيى الليثي : أنه كان يقف على قبر النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فيصلّي على النبي وعلى أبي بكر وعمر .

وعند ابن القاسم والقعنبي : ويدعو لأبي بكر وعمر .

قال مالك - في رواية ابن وهب : يقول المسلم : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

قال في « المبسوط » : ويسلم على أبي بكر وعمر .

قال القاضي أبو الوليد الباقي : وعندى : أنه يدعو للنبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بلفظ الصلاة ، ولا بكر وعمر ، كما في حديث ابن عمر من الخلاف .

وقال ابن حبيب : ويقول إذا دخل مسجد الرسول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : بسم الله وسلام على رسول الله عليه السلام ، السلام علينا من ربنا ، وصلى الله وملائكته على محمد . « اللهم اغفر لي ذنبي ، وافحص لي أبواب رحمتك وجنتك ، واحفظني من الشيطان الرجيم » .

ثم أقصد إلى الروضة ، وهي ما بين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر

تحمد الله فيما وتسأله قام ما خرجت إليه والعون عليه . وإن كانت ركعتاك في غير الروضة أجزئاتك ؛ وفي الروضة أفضل .

وقد قال ﷺ « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على ترعة من ترعة الجنة » <sup>(١)</sup> . ثم تقف بالقبر متواضعاً متوفراً ، فتصلني عليه وتشني بما يحضر وتسلم على أبي بكر وعمر ، وتدعو لهما . وأكثر من الصلاة في مسجد النبي ﷺ بالليل والنهار ، ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء .

وقال مالك - في كتاب محمد : ويسلم على النبي ﷺ إذا دخل وخرج - يعني في المدينة وفيما بين ذلك .

وقال محمد : وإذا خرج جعل آخر عهده الوقوف بالقبر ، وكذلك من خرج مسافراً .

وروى ابن وهب عن فاطمة بنت النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا دخلت المسجد فصل على النبي ﷺ وقل : اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرجت فصل على النبي ﷺ وقل : اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب فضلك » <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية أخرى : فليسلم - مكان : فليصل فيه ، ويقول إذا خرج : « اللهم إني أسألك من فضلك » . وفي أخرى : « اللهم احفظني من الشيطان الرجيم » .

وعن محمد بن سيرين : كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد : صلوا الله وملائكته على محمد ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، بسم الله دخلنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله توكلنا . وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك .

وعن فاطمة : كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال : « صلوا الله على محمد » .

ثم ذكر مثل حديث فاطمة قبل هذا . حمد الله وسمّى وصلى على النبي ﷺ - وذكر مثله . وفي رواية : « بسم الله والسلام على رسول الله » . وعن غيرها : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال : « اللهم افتح لي أبواب رحمتك ويسر لي أبواب رزقك » .

وعن أبي هريرة : « إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي ﷺ وليرسل : اللهم

(١) البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٨) ، ومسلم في الحج (١٣٩٠ / ٥٠١ ، ٥٠٠) عن أبي هريرة .

(٢) الترمذى في الصلاة (٣١٤) وقال : حسن .

فتح لي ...» .

وقال مالك في «البساط» : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر ، وإنما ذلك للغرباء .

وقال فيه أيضاً : لا بأس من قدم من سفر أو خرج إلى سفرٍ أن يقف على قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيصلٍ عليه ويدعوه له ولابي بكر وعمر .

فقيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه ، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة .

فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ويُكره إلا من جاء من سفر أو أراده .

قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا أتوا القبر فسلمو ؛  
قال : وذلك رأي .

قال الباقي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء ؛ لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللهم لا تجعل قبري وثناً بعد ؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . وقال : «لا تجعلوا قبري عيداً» .

ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي - فيمن وقف بالقبر : لا يلصق به ، ولا يمسه ولا يقف عنده طويلاً .

وفي العتبة : يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحب مواضع التنفل فيه مُصلّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث العمود المخلق .

وأما في الفريضة فالتقدّم إلى الصّفوف والتنفل فيه للغرباء أحب إلى من التنفل في البيوت .

## الفصل العاشر

### آداب دخول

#### المسجد النبوى الشريف وفضل المدينة ومكة

فيما يلزم من دخول مسجد النبي ﷺ من الأدب سوى ما قدمناه ، وفضله وفضل الصلاة فيه وفي مسجد مكة .

وذكر قبره ومنبره ، وفضل سكنى المدينة ومكة ، قال الله تعالى : « لَمَسْجِدٌ أَسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » [التوبه : ١٠٨] .

وروى أن النبي ﷺ سئل : أي مسجد هو ؟ قال : « مسجدي هذا » (١) .

وهو قول ابن المسبّب ، وزيد بن ثابت ، وابن عمر ، ومالك بن أنس ، وغيرهم .

وعن ابن عباس أنه مسجد قباء .

حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراءتني عليه ؛ قال : حدثنا الحسين بن محمد الحافظ ، حدثنا أبو عمر النمري ، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر بن داسة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا مُسْدَد ، حدثنا سفيان ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسبّب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لَا تَشْدُ الرَّحَالَ إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدٍ : الْمَسَاجِدُ الْحَرَامُ ، وَمَسَجِدِي هَذَا ، وَالْمَسَاجِدُ الْأَقْصِيَّ » (٢) .

وقد تقدمت الآثار في الصلاة والسلام على النبي ﷺ عند دخول المسجد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبي ﷺ : كان إذا دخل المسجد قال : « أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِوْجُوهِ الْكَرِيمِ ، وَسُلْطَانِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (٣) .

وقال مالك - رحمه الله : سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوتاً في المسجد فدعا بصاحبه فقال : من أنت ؟ قال : رجل من ثقيف ، قال : لو كنت من هاتين القربيتين لأدتك ؛ إن مسجدنا لا يُرفع فيه الصوت .

قال محمد بن مسلمة : لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت ، ولا شيء

(١)أحمد ٥ / ١١٦ .  
(٢)مسلم في الحج (١٣٩٧ / ٥١١) .

(٣)أبو داود في الصلاة (٤٦٦) .

من الأذى ، وأن ينزعه عما يكره .

قال القاضي : حكى ذلك كله القاضي إسماعيل في « مبسوطه » في باب : فضل مسجد النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، والعلماء كلهم متفقون على أن حكم سائر المساجد هذا الحكم .

قال القاضي إسماعيل : وقال محمد بن مسلمة : ويكره في مسجد الرسول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الجهر على المصلين فيما يخلط عليهم صلاتهم ، وليس مما يخص به المسجد رفع الصوت ، وقد كره رفع الصوت بالتلية في مساجد الجماعات إلا المسجد الحرام ومسجد منى .

وقال أبو هريرة عنه : « صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » .

قال القاضي : اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المفاضلة بين مكة والمدينة ؛ فذهب مالك في رواية أشہب عنه ، وقاله ابن نافع صاحبه ، وجماعة أصحابه إلى أن معنى الحديث أن الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بـألف صلاة إلا المسجد الحرام ؛ فإن الصلاة في مسجد النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أفضل من الصلاة فيه بدون ألف .

واحتجوا بما روى عن عمر بن الخطاب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه ؛ فتأتي فضيلة مسجد الرسول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بـتسعمائة وعلى غيره ألف .

وهذا مبني على تفضيل المدينة على مكة على ما قدمناه ، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدينيين .

وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة ؛ وهو قول عطاء ، وابن وهب ، وابن حبيب من أصحاب مالك ، وحكاه الباجي عن الشافعى ، وحملوا الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره ، وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل ، واحتجوا بـحديث عبد الله بن الزبير عن النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بمثل حديث أبي هريرة ؛ وفيه : « وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بـمائة صلاة » .

وروى قتادة مثله ؛ فتأتي فضل الصلاة في المسجد الحرام على هذا على الصلاة في سائر المساجد بـمائة ألف .

ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض .

قال القاضي أبو الوليد الباجي : الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مسجد مكة لسائر

المساجد ، ولا يعلم منه حكمها المدينة .

وذهب الطحاوي إلى أن هذا التفضيل إنما هو في صلاة الفرض .

وذهب مطرف - من أصحابنا - إلى أن ذلك في النافلة أيضاً ، قال : وجمعة خير من جمعة ، ورمضان خير من رمضان .

وقد ذكر عبد الرزاق في تفضيل رمضان بالمدينة وغيرها حديثاً نحوه .

وقال عليه السلام : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

ومثله عن أبي هريرة وأبي سعيد ، وزادا : « ومنبري على حوضي » .

وفي حديث آخر : « منبري على ترعة من ترع الجنة » .

قال الطبرى : فيه معنى :

أحدهما : أن المراد بالبيت بيت سُكناه على الظاهر ؛ مع أنه روى ما يبينه : « بين حجرتي ومنبري » .

والثاني : أن البيت هنا القبر ، وهو قول زيد بن أسلم في الحديث ، كما روى : « بين قبري ومنبري » ، قال الطبرى : وإذا كان قبره في بيته اتفقت معاني الروايات ، ولم يكن بينها خلاف ، لأن قبره في حجرته ، وهو بيته .

وقوله : « ومنبري على حوضي » : قيل : يحتمل أنه منبره بعينه الذي كان في الدنيا ، وهو أظهر .

والثاني : أن يكون له هناك منبر .

والثالث : أن قَصْدَ منبره والحضور عنده ملزمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه ، قاله الباقي .

وقوله : « روضة من رياض الجنة » يحتمل معنين :

أحدهما : أنه موجب لذلك ، وأن الدعاء والصلوة فيه يستحق ذلك من الثواب ؛ كما قيل : « الجنة تحت ظلال السيف » (١) .

والثاني : أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها ، قاله الداودي .

وروى ابن عمر وجماعة من الصحابة أن النبي عليه السلام قال في المدينة : « لا يصبر على

(١) البخاري في الجهاد (٢٨١٨) ومسلم في الجهاد (١٧٤٢) عن عبد الله بن أوفى .

لأوانها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيمة » .

وقال فيمن تحمل عن المدينة : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وقال : « إنما المدينة كالكير تبني خبثها ، وينتصع طيبها » .

وقال : « لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه » .

وروي عنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من مات في أحد الحرمين حاجاً أو معتمراً بعثه الله يوم القيمة لا حساب عليه ولا عذاب » .

وفي طريق آخر : « بُعث من الآمنين يوم القيمة » .

وعن ابن عمر : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليميت بها ، فإني أشفع لمن يموت بها » .

وقال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِكَثْرَةِ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] .

قال بعض المفسرين : آمنا من النار ، وقيل : كان يأمن من الطلب من أحد حديث خارجاً عن الحرم وجلأ إليه في الجاهلية ، وهذا مثل قوله : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَآمَنُوا » [البقرة: ١٢٥] . على قول بعضهم .

وحكى أن قوماً أتوا سعدون الخولاني بالمستشار فأعلمهوا أن كتامة قتلوا رجلاً وأصرموا عليه النار طول الليل فلم تعمل فيه شيئاً ، وبقي أبيض اللون ، فقال : لعله حج ثلث حجج ؟ قالوا : نعم ، قال : حدثت أن من حج حجة أدى فرضه ، ومن حج ثانية داين ربها ، ومن حج ثلث حجج حرم الله شعره وبشره على النار .

ولما نظر رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلى الكعبة قال : « مرحباً بك من بيت ، ما أعظمك وأعظم حرمتك » .

وفي الحديث عنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « ما من أحد يدعوا الله تعالى عند الركن الأسود إلا استجاب الله له ، وكذلك عند الميزاب » .

وعنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحشر يوم القيمة من الآمنين » .

قال الفقيه القاضي أبو الفضل : قرأت على القاضي الحافظ أبي علي - رحمه الله ، حدثنا أبو العباس العذري ، قال : حدثنا أبوأسامة محمد بن أحمد بن محمد الهرمي ،

حدثنا الحسن بن رشيق ، سمعت أبا الحسن محمد بن الحسن بن راشد ، سمعت أبا بكر محمد بن إدريس ، سمعت الحميدي ، قال : سمعت سفيان بن عيينة ، قال : سمعت عمرو بن دينار قال : سمعت ابن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما دعا أحد بشيء في هذا الملزם إلا استجيب له » .

قال ابن عباس : وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ إلا استجيب لي .

وقال عمرو بن دينار : وأنا فما دعوت الله تعالى بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من ابن عباس إلا استجيب لي .

وقال سفيان : وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من عمرو إلا استجيب لي .

قال الحميدي : وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من سفيان إلا استجيب لي .

وقال محمد بن إدريس : وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من الحميدي إلا استجيب لي .

وقال أبو الحسن محمد الحسن : وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من محمد بن إدريس إلا استجيب لي .

قال أبوأسامة : وما أذكر الحسن بن رشيق قال فيه شيئاً ؛ وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من الحسن بن رشيق إلا استجيب لي من أمر الدنيا ، وأنا أرجو أن يستجاب لي من أمر الآخرة .

قال العذري : وأنا فما دعوت بشيء في هذا الملزם منذ سمعت هذا من أبيأسامة إلا استجيب لي .

قال أبو علي : وأنا فقد دعوت الله فيه بأشياء كثيرة استجيب لي بعضها ، وأنا أرجو من سعة فضله أن يستجيب لي بقيتها .

قال القاضي أبو الفضل : ذكرنا بُعداً من هذه النكت في هذا الفصل وإن لم تكن من الباب لتعلقها بالفصل الذي قبله حرصاً على تمام الفائدة ؛ والله الموفق للصواب برحمةه .

### القسم الثالث

فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل  
في حقه أو يجوز عليه ، وما  
يمتنع أو يصح من الأحوال  
البشرية أن يضاف إليه

### مقدمة القسم الثالث

قال الله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقُلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ »

· [آل عمران : ١٤٤]

وقال تعالى : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيمٍ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِيقَةٌ كَانَ أَيَّاكُلُانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبِيَّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » [آلنادرة : ٧٥]

وقال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا » [الفرقان : ٢٠]

وقال تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَالًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » [الكهف : ١١٠]

محمد ﷺ وسائر الأنبياء من البشر أرسلوا إلى البشر ، ولو لا ذلك لما أطاق الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم .

قال الله تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » [الأنعام : ٩] ؛ أي : لما كان إلا في صورة البشر الذين يمكنكم مخالطتهم ؛ إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان على صورته .

وقال تعالى : « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَّلَنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » [الإسراء : ٩٥] ؛ أي : لا يمكن في ستة الله إرسال الملك إلا من هو من جنسه ، أو من خصه الله تعالى واصطفاه وقواه على مقاومته ، ك الأنبياء والرسل .

فالأنبياء والرسل عليهم السلام وسائط بين الله تعالى وبين خلقه يبلغونهم أوامره ونواهيه ، ووعلده ووعيده ، ويعرفونهم بما لم يعلموا من أمره وخلقه ، وجلاله وسلطانه وجبروته وملكته ، فظواهرهم وأجسادهم وبنائهم متصفه بأوصاف البشر ؛ طارئ عليها ما يطأ على البشر من الأعراض والأسقام ، والموت والفناء ونعوت الإنسانية ، وأرواحهم وبواطنهم متصفه بأعلى من أوصاف البشر ، متعلقة بالمال الأعلى ، متشبهه بصفات الملائكة ، سليمة من التغير والآفات ، لا يلحقها غالباً عجز البشرية ، ولا ضعف الإنسانية ،

إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم ومخالطتهم ، كما لا يطيقه غيرهم من البشر .

ولو كانت أجسادهم وظواهرهم متسمة بنعوت الملائكة ، وبخلاف صفات البشر ، لما أطاق البشر ومن أرسلوا إليهم مخالطتهم ، كما تقدم من قول الله تعالى ، فجعلوا من جهة الأجسام والظواهر مع البشر ، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة ، كما قال ﷺ : « لو كنت متخدناً من أمتي خليلاً لاتخذت أباً بكر خليلاً ؛ ولكن أخوة الإسلام ، لكن أصحابكم خليل الرحمن » <sup>(١)</sup> . وكما قال : « تنام عيناي ولا ينام قلبي » <sup>(٢)</sup> .

وقال : « إني لست كهيتكم ، إني أظل يطعني ربي ويستقني » <sup>(٣)</sup> .

فبواطنهم متزهة عن الآفات ، مطهرة عن الناقص والاعتلالات .

وهذه جملة لن يكتفي بضمونها كل ذي همة ، بل الأكثر يحتاج إلى بسط وتفصيل على ما نأتي به بعد هذا في البالين بعون الله ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

(١) البخاري في الصلاة (٤٦٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢/٢٣٨٢) .

(٢) البخاري في التهجد (١١٤٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٢٥/٧٣٨) عن عائشة .

(٣) البخاري في الصوم (١٩٦١) ، ومسلم في الصيام (٦١/١١٥) عن أنس .

## الباب الأول

### فيما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة نبينا عليه الصلوة والسلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه : اعلم أن الطوارئ من التغيرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه ، أو على حواسه بغير قصد و اختيار ، كالأمراض والأسقام ، أو تطرأ بقصد و اختيار ، وكله في الحقيقة عمل و فعل ، ولكن جرى رسم الشايح بتفصيله إلى ثلاثة أنواع : عقد بالقلب ، وقول باللسان و عمل بالجوارح . وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار و بغير الاختيار في هذه الوجوه كلها .

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان من البشر ، ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلة البشر ، فقد قامت البراهين القاطعة ، وثبتت الكلمة الإجماع على خروجه عنهم ، وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار ، كما سنبينه - إن شاء الله - فيما نأتي به من التفاصيل .

## الفصل الأول

### في حكم عقد قلب النبي ﷺ من وقت نبوته

اعلم - منحنا الله وإياك توفيقه - أن ما تعلق منه بطريق التوحيد، والعلم بالله وصفاته، والإيمان به، وبما أوحى إليه على غاية المعرفة، ووضوح العلم واليقين، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك، أو الشك أو الريب فيه، والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين .

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه ؛ ولا يُعْتَرَضُ على هذا بقول إبراهيم عليه السلام : « قَالَ يَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَ قَلْبِي » [ البقرة : ٢٦٠ ] ؛ إذ لم يشكَ إبراهيم في إخبار الله تعالى له بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، ولكن أراد طمأنينة القلب ، وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء ، فحصل له العلم الأول بوقوعه ، وأراد العلم الثاني بكفيته ومشاهدته .

الوجه الثاني : أن إبراهيم عليه السلام إنما أراد اختبار منزلته عند ربه ، وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربِّه ، ويكون قوله تعالى : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » ؟ أي : تصدق بِمَنْزِلَتِكَ مني ، وخلْتَكَ ، واصطفَيْتَكَ .

الوجه الثالث : أنه سأَلَ زِيَادَةَ يقين وقوَةَ طمأنينة ، وإن لم يكن في الأول شك ، إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تتفاصل في قوتها ، وطريق الشكوك على الضروريات ممتنع ، ومجوز في النظريات ، فأراد الانتقال من النظر والخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين ، فليس الخبر كالمعاينة .

ولهذا قال سهل بن عبد الله : سأَلَ كَشْفَ غُطَاءِ الْعِيَانِ لِيَزَدَادَ بِنُورِ الْيَقِينِ تَمَكِّنًا فِي حَالَةِ .

الوجه الرابع : أنه لما احتجَ على المشركين بأن ربه يحيي ويميت طلب ذلك من ربِّه ليُصْحِحَ احتجاجَه عيَانًا .

الوجه الخامس : قول بعضهم : هو سؤال على طريق الأدب ، والمراد : أقدرني على إحياء الموتى ، وقوله : « لَيَطْمَئِنَ قَلْبِي » عن هذه الأمانة .

الوجه السادس : أنه أرى من نفسه الشك ، وما شَكَ ، ولكن لِيُجَاوِبَ فِيزَدادَ قربَه .

وقول نبينا ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم »<sup>(١)</sup> نفي لأن يكون إبراهيم شك وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظنّ هذا بإبراهيم ؛ أي: نحن موقون بالبعث ، وإحياء الله المولى ؛ فلو شك إبراهيم لكنه أولى بالشك منه ، إما على طريق الأدب ، أو أن يريد أمنه الذين يجوز عليهم الشك ، أو على التواضع والإشراق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله ، أو زيادة يقينه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلَنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَئُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » الآيتين [يونس : ٩٤ ، ٩٥] .

فاحذر - ثبت الله قلبك - أن يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين ، عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك للنبي ﷺ فيما أوحى إليه وأنه من البشر ، فمثل هذا لا يجوز عليه جملة ، بل قد قال ابن عباس وغيره : لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل . ونحوه عن ابن جبير والحسن . وحكي قتادة أن النبي ﷺ قال : « ما أشك ولا أسأل » ، وعامة المفسرين على هذا . وخالفوا في معنى الآية : فقيل : المراد : قل : يا محمد للشك : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ » [يونس : ٩٤] .

قالوا : وفي السورة نفسها ما دلّ على هذا التأويل وقوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّأْكُمْ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » [يونس : ١٠٤] .

وقيل : المراد بالخطاب العرب وغير النبي ﷺ كما قال : « وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِئَنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [الزمر : ٦٥] . الخطاب له ، والمراد غيره .

ومثله : « فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هُؤُلَاءِ » [هود : ١٠٩] ونظيره كثير .

قال بكر بن العلاء : ألا تراه يقول : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [يونس : ٩٥] . وهو ﷺ كان المكذب فيما يدعو إليه ؛ فكيف يكون من كذب به ؟ فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره .

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢) ومسلم في الإيمان (١٥١ / ٢٣٨) .

ومثل هذه الآية قوله : « الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » [ الفرقان : ٥٩ ]. المأمور هنا غير النبي ﷺ ليسأل النبي ، والنبي ﷺ هو الخبير المست Howell لا المستخبر السائل .

وقال : إن هذا الشك الذي أمر به غير النبي ﷺ بسؤال الذين يقرؤون الكتاب إنما هو فيما قوله الله من أخبار الأمم ، لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة .

ومثل هذا قوله تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلْنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهَةً يُعْبُدُونَ » [ الزخرف : ٤٥ ] المراد به المشركون ، والخطاب مواجهة للنبي ﷺ . قاله العتبى .

وقيل : معناه : سلنا عنمن أرسلنا من قبلك ، فحذف الخافض ، وتم الكلام ، ثم ابتدأ « أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ... » [ الزخرف : ٤٥ ] إلى آخر الآية ، على طريق الإنكار ؛ أي : ما جعلنا ؛ حكاه مكى .

وقيل : أمر النبي ﷺ أن يسأل الأنبياء ليلة الإسراء عن ذلك ، فكان أشد يقيناً من أن يحتاج إلى السؤال .

فروي أنه قال : « لا أسأل ؛ قد اكتفيت ». قاله ابن زيد .

وقيل : سل أسم من أرسلنا ؛ هل جاءهم بغير التوحيد ؟ وهو معنى قول مجاهد ، والسدى ، والضحاك ، وقناة .

والمراد بهذا والذى قبله : إعلامه بما بعث به الرسل ، وأنه تعالى لم يأذن في عبادة غيره لأحد ، ردًا على مشركي العرب وغيرهم ، في قوله : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » [ الزمر : ٣ ] . وكذلك قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مَّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » [ الأنعام : ١١٤ ] ؛ أي : في علمهم بأنك رسول الله ، وإن لم يقروا بذلك ؛ وليس المراد به شكه فيما ذكر في أول الآية .

وقد يكون أيضًا على مثل ما تقدم ؛ أي : قل يا محمد لمن امترى في ذلك ؛ لا تكون من المترى ، بدليل قوله أول الآية : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا » [ الأنعام : ١١٤ ] وأن النبي ﷺ يخاطب بذلك غيره .

وقيل : هو تقرير ؛ كقوله تعالى : « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » [ المائدة : ١١٦ ] . وقيل : معناه ما كنت في شك فاسأل تزداد طمأنينة وعلماً إلى

علمك ويفقينك .

وقيل : إن كنت تشك فيما شرفناك وفضلناك به فاسأله عن صفتكم في الكتب ونشر فضائلكم .

وحكى عن أبي عبيدة أن المراد : إن كنت في شك من غيرك فيما أنزلناه .

فإن قيل : فما معنى قوله : « حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا » [يوسف: ١١٠] على قراءة التخفيف ؟ قلنا : المعنى في ذلك ما قالته عائشة رضي الله عنها : معاذ الله أن تظن ذلك الرسل بربها ، وإنما معنى ذلك أن الرسل لما استيأسوا ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم كذبواهم ؛ وعلى هذا أكثر المفسرين .

وقيل : إن الضمير في « ظَنُوا » عائد على الأتباع والأمم ، لا على الأنبياء والرسل وهو قول ابن عباس ، والنخعي ، وابن جبير ، وجماعة من العلماء .

وبهذا المعنى قرأ مجاهد « كَذَبُوا » بالفتح ، فلا تُشغل بالك من شاذ التفسير بسواء ما لا يليق بمنصب العلماء ، فكيف بالأئمَّة ؟

وكذلك ما ورد في حديث السيرة ، ومبتدأ الوحي ؛ من قوله عليه السلام لخديجة : « لقد خشيت على نفسي » ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك ؛ ولكن لعله خشي أن لا تحتمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي ، فينخلع قلبه ، أو تزهق نفسه .

وهذا على ما ورد في « الصحيح » : أنه قال بعد لقاء الملك ؛ أو يكون ذلك قبل لقائه وإعلام الله تعالى له بالنبوة لأول ما عُرِضَت عليه من العجائب ، وسلم عليه الحجر والشجر ، وبدأته المنامات والتباشير ؛ كما روي في بعض طرق هذا الحديث : إن ذلك كان أولاً في المنام ، ثم أرى في اليقظة مثل ذلك ، تأنيساً له عليه السلام ؛ ثلثاً يفجأه الأمر مشاهدة ومشاهدة ؛ فلا تحتمله لأول حالة بنية البشرية .

وفي « الصحيح » عن عائشة رضي الله عنها : « أول ما بدئ به رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من الوحي الرؤيا الصادقة (١) قالت : ثم حبب إليه الخلاء . وقالت : إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء . . . » الحديث .

وعن ابن عباس : مكث النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بحكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ، ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً ، وثمان سنين يوحى إليه .

(١) البخاري في بدء الوحي (٣) ، ومسلم في الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) .

وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي ﷺ قال - وذكر جواره بغار حراء ، قال: « فجاءني وأنا نائم فقال : أقرأ ، فقلت : ما أقرأ ؟ » وذكر نحو حديث عائشة في غطه له وإقراءه له : « أقرأ باسم ربك ... » [السورة ثلاثة] [العلق : ١] .

قال : « فانصرف عني وهببت من نومي كأنما صورت في قلبي ، ولم يكن أبغض إلى من شاعر أو مجنون .

قلت : لا تحدث عني قريش بهذا أبداً ، لأغمدن إلى حلق من الجبل فلأطحرن نفسي منه ، فلأقتلنها . فيينا أنا عاقد لذلك إذ سمعت منادي ينادي من السماء : يا محمد؛ أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفعت رأسي فإذا جبريل على صورة رجل ... » وذكر الحديث .

فقد بين في هذا أن قوله لما قال ، وقصده لما قصد ، إنما كان قبل لقاء جبريل عليهمما السلام ، وقبل إعلام الله تعالى له بالنبوة ، وإظهاره واصطفائه له بالرسالة .

ومثله حديث عمرو بن شرحبيل : أنه ﷺ قال لخديجة : « إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، وقد خشيت - والله - أن يكون لأمر » .

ومن رواية حماد بن سلمة أن النبي ﷺ قال لخديجة : « إني لأسمع صوتاً وأرى ضوءاً ، وأخشى أن يكون بي جنون » .

وعلى هذا يتأول لو صح قوله في بعض هذه الأحاديث : « إن الأبعد شاعر أو مجنون » وألفاظ يفهم منها معاني الشك في تصحيف ما رأه ، وأنه كان كله في ابتداء أمره ، وقبل لقاء الملك له ، وإعلام الله أنه رسوله ؛ فكيف وبعض هذه الألفاظ لا تصح طرقها ؟

وأما بعد إعلام الله تعالى ولقاءه الملك فلا يصح فيه ريب ، ولا يجوز عليه شك فيما ألقى إليه .

وقد روى ابن إسحاق عن شيوخه أن رسول الله ﷺ كان يُرقى بمكة من العين قبل أن ينزل عليه ، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه ، فقالت له خديجة : أوجّه إليك من يرقيك ؟ قال : « أما الآن فلا » .

وحدث خديجة واختبارها أمر جبريل بكشف رأسها - الحديث - إنما ذلك في حق خديجة لتحقق صحة نبوة رسول الله ﷺ وأن الذي يأتيه ملك ، ويزول الشك عنها ؛ لأنها فعلت ذلك للنبي ﷺ وليختبر هو حاله بذلك .

بل وقد ورد في حديث عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة : أن ورقة أمر خديجة أن تَخْبِرُ الأمر بذلك .

وفي حديث إسماعيل بن أبي حكيم أنها قالت لرسول ﷺ : « يا بن عم ؛ هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك إذا جاءك قال : « نعم » ؛ فلما جاءه جبريل أخبرها ، فقالت له : اجلس إلى شقي .. » وذكر الحديث إلى آخره ، وفيه فقالت : ما هذا بشيطان ، هذا الملك يا بن عم ؛ فثبتت وأبشر ، وأمنت به .

فهذا يدل على أنها مستحبة بما فعلته لنفسها ، ومستهورة لبيانها لا للنبي ﷺ ، وقول معاذ في فترة الوحي : فحزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مراراً كي يتربى من شواهد الجبال لا يقبح في هذا الأصل ، لقول معاذ عنه فيما بلغنا ، ولم يسنده ، ولا ذكر رواته ، ولا من حديثه ، ولا أن النبي ﷺ قاله ؛ ولا يعرف مثل هذا إلا من جهة النبي ﷺ مع أنه قد يحمل على أنه كان أول الأمر كما ذكرناه أو أنه فعل ذلك لما أخرج له من تكذيب من بلغه ، كما قال تعالى : « فَلَعْلَكَ بَاخُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا » [ الكهف : ٦ ] .

ويصحح معنى هذا التأويل حديث رواه شريك ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله : أن المشركين لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في شأن النبي ﷺ وافق رأيهم على أن يقولوا : إنه ساحر ؛ اشتد ذلك عليه ، وتزمل في ثيابه ، وتذر فيها ؛ فأتاه جبريل فقال : « يَا أَيُّهَا الْمُزَمِّلُ » « يَا أَيُّهَا الْمُدَثِّرُ » .

أو خاف أن الفترة لامر أو سبب منه ، فخشى أن تكون عقوبة من ربه ، ففعل ذلك بنفسه ولم يرد بعد شرع بالنهي عن ذلك فيعرض به .

ونحو هذا فرار يومن : عليه السلام خشية تكذيب قومه له ، لما وعدهم به من العذاب ؛ وقول الله تعالى في يومن : « فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرُ عَلَيْهِ » [ الأنبياء : ٨٧ ] معناه : أن لن نضيق عليه .

قال مكي : طمع في رحمة الله وألا يضيق عليه مسلكه في خروجه .

وقيل : حسن ظنه بولاه أنه لا يقضي عليه العقوبة .

وقيل : نقدر عليه ما أصابه .

وقد قرئ : « نَقْدِرُ عَلَيْهِ » بالتشديد .

وقيل : نؤاخذه بغضبه وذهابه .

وقال ابن زيد : معناه : أفظن أن لن نقدر عليه ؟ ! على الاستفهام . ولا يليق أن يظنبني أنه يجهل صفة من صفات ربه .

وكذلك قوله : « إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا » [الأنبياء : ٨٧] الصحيح مغاضبًا لقومه لکفرهم ، وهو قول ابن عباس ، والضحاك وغيرهما ، لا لربه عز وجل ؛ إذ مغاضبة الله معاداة له ؛ ومعاداة الله كفر لا يليق بالمؤمنين ، فكيف بالأنبياء !

وقيل : مستحييًا من قومه أن يسمُوه بالكذب أو يقتلوه ، كما ورد في الخبر .

وقيل : مغاضبًا لبعض الملوك فيما أمر به من التوجّه إلى أمر أمره الله به على لساننبي آخر ، فقال له يونس : غيري أقوى عليه مني ؛ فعزم عليه فخرج لذلك مغاضبًا .

وقد روي عن ابن عباس : أن إرسال يونس ونبيته إنما كان بعد أن نبذه الحوت ، واستدل من الآية بقوله : « فَبَذَنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينِ . وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » [الصافات : ١٤٥ - ١٤٧] .

ويستدل أيضًا بقوله : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْتُومٌ » [القلم : ٤٨] ، وذكر القصة .

ثم قال : « فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » [القلم : ٥٠] . فتكون هذه القصة إذا قبل نبوته .

فإن قيل : فما معنى قوله ﷺ : « إنه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله في كل يوم مائة مرة » (١) .

وفي طريق : « في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

فاحذر أن يقع بيالك أن يكون هذا الغين وسوسنة أو ربيًا وقع في قلبه عليه السلام ؛ بل أصل الغين في هذا : ما يتغشى القلب ويغطيه ؛ قاله أبو عبيد ؛ وأصله من غين السماء ، وهو إطباقي الغيم عليها .

وقال غيره : والغين شيء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية ؛ كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس .

وكذلك لا يفهم من الحديث أنه يُغان على قلبه مائة مرة أو أكثر من سبعين مرة في

(١) مسلم في الذكر (٤١ / ٢٧٠٢) عن الأغر المزني .

اليوم ؛ إذ ليس يقتضيه لفظه الذي ذكرناه ؛ وهو أكثر الروايات ؛ وإنما هذا عدد للاستغفار لا للغين ؛ فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه ، وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان عليه دفع إليه من مقاومة البشر ، وسياسة الأمة ، ومعاناة الأهل ومقاومة الولي والعدو ومصلحة النفس ، وكلفه من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة ، وهو في كل هذا في طاعة ربها وعبادة خالقه ، ولكن لما كان عليه أرفع الخلق عند الله مكانة ، وأعلاهم درجة ، وأتمهم به معرفة ، وكانت حاله عند خلوص قلبه ، وخلو همته ، وترفرف بربه ، وإقباله بكليته عليه ، ومقامه هنالك أرفع حالاته رأى الله فترته عنها ، وشغلها بسوها غضباً من على حاله ، وخفضاً من رفيع مقامه ؛ فاستغفر الله من ذلك .

وهذا أولى وجوه الحديث وأشهرها . وإلى معنى ما أشرنا به مال كثير من الناس ، وحام حوله فقارب ولم يرد . وقد قربنا غامض معناه ، وكشفنا للمستفيد محياه ، وهو مبني على جواز الفترات والغفلات ، والسهو في غير طريق البلاغ ، كما سيأتي .

وذهب طائفة من أرباب القلوب ، ومشيخة المتصوفة ، من قال بتنتيزه النبي ﷺ عن هذا جملة ، وأجله أن يجوز عليه في حاله سهو أو فترة - إلى أن معنى الحديث : ما يهم خاطره ويغم فكره من أمر أمته ﷺ ، لا اهتمامه بهم ، وكثرة شفقته عليه ، فيستغفر لهم .

قالوا : وقد يكون الغين هنا على قلبه السكينة التي تتغشى ، لقوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبه : ٤٠] ويكون استغفاره ﷺ عندها إظهاراً للعبودية والافتقار .

وقال ابن عطاء : استغفاره وفعله هذا تعريف للأمة بحملهم على الاستغفار .

وقال غيره : ويستشعرون الخذر ، ولا يرکنون إلى الأمان .

وقد يحتمل أن تكون هذه الإغاثة حالة خشية وإعظام تغشى عليه قلبه فيستغفر حينئذ شكرًا لله ، وملازمة لعبوديته ؛ كما قال في ملازمة العبادة : «أفلا أكون عبداً شكوراً!»<sup>(١)</sup> .

وعلى هذه الوجوه الأخيرة يحمل ما روی في بعض طرق هذا الحديث عنه ﷺ إنه ليغان على قلبي في اليوم أكثر من سبعين مرة ، فأستغفر الله .

فإن قلت : فما معنى قوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَمَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الانعام : ٣٥] ، وقوله لنوح عليه السلام : ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود : ٤٦] ؟

(١) البخاري في التهجد (١١٣٠) عن المغيرة بن شعبة .

فاعلم أنه لا يلتفت في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا ﷺ : لا تكونن من يجهل أن الله لو شاء جمعهم على الهدى ، وفي آية نوح : لا تكونن من يجهل أن وعد الله حق؛ لقوله : «وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» [هود : ٤٥] ؛ إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله ؛ وذلك لا يجوز على الأنبياء .

والمقصود وعدهم ألا يتشبهوا في أمورهم بسمات الجاهلين ، كما قال : «إِنِّي أَعِظُكُ» [هود : ٤٦] وليس في آية منها دليل على كونهم على تلك الصفة التي نهاهم عن الكون عليها ؟ فكيف ؟ وآية نوح قبلها «فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» [هود : ٤٦] فحمل ما بعدها على ما قبلها أولى ؛ لأن مثل هذا قد يحتاج إلى إذن .

وقد يجوز إباحة السؤال فيه ابتداء ، فنهاه الله أن يسأله عما طوى عنه علمه ، وأنكه من غيه من السبب الموجب لهلاك ابنه .

ثم أكمل الله تعالى نعمته عليه بإعلامه بذلك بقوله : «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» [هود : ٤٦] حكى معناه مكي .

كذلك أمر نبينا في الآية الأخرى بالتزام الصبر على إعراض قومه ؛ ولا يخرج عند ذلك ؛ فيقارب حال الجاهل بشدة التحسن ، حكاه أبو بكر بن فورك .

وقيل : معنى الخطاب لأمة محمد ؛ أي : فلا تكونوا من الجاهلين ، حكاه أبو محمد مكي ؛ وقال : مثله في القرآن كثير .

فيهذا الفضل وجوب القول بعصمة الأنبياء منه بعد النبوة قطعاً .

فإن قلت : فإذا قررت عصمتهم من هذا ، وأنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك فما معنى إذاً وعد الله لنبينا ﷺ على ذلك إن فعله ، وتحذيره منه كقوله : «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيْجِبْطَنَ عَمْلَكَ وَلَتَكُونَنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [الزمر : ٦٥] .

وقوله تعالى : «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعُلُ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ» [يونس : ١٠٦] .

وقوله تعالى : «وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتَكَ لَقَدْ كَدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًاً إِذَا لَأَذْفَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا» [الإسراء : ٧٤، ٧٥] .

وقوله : «لَا خَدَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» [الحقة : ٤٥] .

وقوله : «وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنعام : ١١٦]

وقوله : «فَإِنْ يَشَا اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ» [الشوري : ٢٤]

وقوله : «وَإِنْ لَمْ تَفْعِلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» [المائدة : ٦٧]

وقوله : «أَتَقِ اللَّهُ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» [الاحزاب : ١]

فأعلم - وفقنا الله وإياك - أنه بِكُلِّهِ لا يصح ، ولا يجوز عليه ألا يبلغ وأن يخالف أمر ربه ، ولا أن يشرك به ، ولا يتقول على الله ما لا يجب ، أو يفترى عليه ، أو يضل أو يختم على قلبه ، أو يطيع الكافرين ، لكن الله يسر أمره بالكشفة والبيان في البلاغ للمخالفين ، وأن إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكانه ما بلغ .

وطيب نفسه وقوى عليه قلبه بقوله : «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» [المائدة : ٦٧]

كما قال موسى وهارون : «لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا» [طه : ٤٦] ، لتشتد بصائرهم في الإبلاغ وإظهار دين الله ، ويدهبون عنهم خوف العدو المضعف للنفس .

وأما قوله تعالى : «وَلَوْ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَوِيلِ . لَاخْدَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» [الحاقة : ٤٤ - ٤٦]

وقوله : «إِذَا لَأَذْقَنَكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ» [الإسراء : ٧٥] . فمعناه : أن هذا جزء من فعل هذا وجزاؤك لو كنت من يفعله ، وهو لا يفعله .

وكذلك قوله : «وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنعام : ١١٦] . فالمراد غيره ؛ كما قال : «إِنْ تُطِعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَقْلِبُوا حَسَرِينَ» [آل عمران : ١٤٩]

وقوله : «فَإِنْ يَشَا اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ» [الشوري : ٢٤]

و«لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَجْبَنَ عَمْلَكَ» [الزمر : ٦٥] وما أشبهه ، فالمراد غيره ، وأن هذه حال من أشرك ، والنبي بِكُلِّهِ لا يجوز عليه هذا .

وقوله : «أَتَقِ اللَّهُ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» [الاحزاب : ١] . فليس فيه أنه أطاعهم ، والله ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء ؛ كما قال : «وَلَا تَرْدُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأنعام : ٥٢]

وما كان طردهم بِكُلِّهِ ولا كان من الظالمين .

## الفصل الثاني

### في عصمة الأنبياء قبل النبوة

#### من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك

وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف ، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك .

وقد تعاضدت الأخبار والأثار عن الأنبياء بتزكيتهم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ، ونشأتهم على التوحيد والإيمان ؛ بل على إشراق أنوار المعرف ، ونفحات الطاف السعادة ، كما نبهنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا .

ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبيًّا واصطفى من عرف بـكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند هذا الباب النقل ، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عنم كانت هذه سببـه .

وأنا أقول : إن قريشاً قد رمت نبينا بكل ما افترته ، وعير كفار الأمم أنبياءـهم بكل ما أمكنها واختلقـته ، مما نص الله تعالى عليه ، أو نقلـته إلينـا الرواـة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعـيراً لواحدـ منهم بـرفضـه آلهـته ، وتقـريـعـه بـذـمه بـتركـ ما كان قد جـامـعـهـمـ عليه .

ولو كان هذا لـكانـواـ بذلكـ مـبـادـرـينـ ، وـبـتـلوـنـهـ فيـ مـعـبـودـهـ مـحـتـجـينـ ، وـلـكـانـ تـوـبـيـخـهـمـ لـهـ بـنـهـيـهـمـ عـمـاـ كانـ يـعـدـ قـبـلـ قـبـلـهـ أـفـظـعـ وـأـقـطـعـ فـيـ الحـجـةـ مـنـ تـوـبـيـخـهـ بـنـهـيـهـمـ عـنـ تـرـكـهـمـ آـلـهـتـهـمـ ، وـمـاـ كانـ يـعـدـ آـبـاؤـهـمـ مـنـ قـبـلـ .

فـيـ إـطـاقـهـمـ عـلـىـ الإـعـرـاضـ عـنـهـ دـلـيلـ عـلـىـ أـنـهـمـ لـمـ يـجـدـواـ سـبـيـلاـ إـلـيـهـ ، إـذـ لـوـ كـانـ لـنـقـلـ ، وـمـاـ سـكـتـواـ عـنـهـ ، كـمـاـ لـمـ يـسـكـنـواـ عـنـ تـحـوـيـلـ الـقـبـلـةـ وـقـالـواـ : «ـ مـاـ وـلـأـهـمـ عـنـ قـبـلـتـهـمـ الـتـيـ كـانـواـ عـلـيـهـاـ » [ـ الـبـقـرـةـ : ١٢٤ـ]. كـمـاـ حـكـاهـ اللهـ عـنـهـمـ .

وقد استدل القاضي القشيري على تزكيتهم عن هذا بقوله تعالى : «ـ وـإـذـ أـخـدـنـاـ مـنـ النـبـيـيـنـ مـيـثـاقـهـمـ وـمـنـكـ وـمـنـ نـوـحـ وـإـبـرـاهـيمـ وـمـوـسـىـ وـعـيـسـىـ اـبـنـ مـرـيـمـ وـأـخـدـنـاـ مـنـهـمـ مـيـثـاقـاـ » [ـ الـأـحـزـابـ : ٧ـ].

وقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتَؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَتَصْرِنَّهُ » [آل عمران : ٨١].

قال : وظهره الله في الميثاق ، وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه ثم يأخذ ميثاق النبین بالإيمان ونصره قبل مولده بدهور ، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب ، هذا ما لا يجوزه إلا ملحد . هذا معنى كلامه .

وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام ، وشق قلبه صغيراً ، واستخرج منه علقة ، وقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله وملأه حكمة وإيماناً ، كما تظاهرت به أخبار المبدأ .

ولا يشبه عليك بقول إبراهيم في الكوكب والقمر والشمس : « هَذَا رَبِّي » [الأنعام : ٧٦ ، ٧٧] ؛ فإنه قد قيل : كان هذا في سن الطفولة وابتداء النظر والاستدلال ، وقبل لزوم التكليف .

وذهب معظم الخذاق من العلماء والمفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مبكّتاً لقومه ، ومستدلاً عليهم .

وقيل : معناه الاستفهام الوارد مورد الإنكار ؛ والمراد : فهذا ربّي ؟  
قال الزجاج : قوله : « هَذَا رَبِّي » ؛ أي : على قولكم ؛ كما قال : « أَيْنَ شُرَكَائِي » [النحل : ٢٧] ؛ أي : عندكم .

ويدل على أنه لم يعبد شيئاً من ذلك ، ولا أشرك قط بالله طرفة عين : قول الله عز وجل عنه : « إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ » [الشعراء : ٧٠].

ثم قال : « قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ » [الشعراء : ٧٧ - ٧٥].

وقال : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » [الصفات : ٨٤] ؛ أي : من الشرك .

وقوله : « وَأَجْنِبَنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَبْعَدَ الْأَصْنَامَ » [إبراهيم : ٣٥].

فإن قلت : فما معنى قوله : « لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ »

[الأنعام : ٧٧]

قيل : إنه إن لم يؤيدني الله بمعونته أكون مثلكم في ضلالكم وعبادتكم ، على معنى

الإشفاق والخذل ؛ وإنما فهو معصوم في الأزل من الضلال .

فإن قلت : فما معنى قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرَسُولِهِ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مَلَكِنَا » [إبراهيم : ١٣] . ثم قال بعد عن الرسول : « قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مَلَكِنَّكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا » [الأعراف : ٨٩] ؛ فلا تشكل عليك لفظة العود ، وأنها تقتضي أنهم إنما يعودون إلى ما كانوا فيه من ملتهم ، فقد تأتي هذه اللفظة في كلام العرب لغير ما ليس له ابتداء بمعنى الصيغة ؛ كما جاء في حديث الجهنميين : « عادوا حمّاً » ولم يكونوا قبل كذلك .

ومثله قول الشاعر :

ذلك المكارم لا تَعْبَان من لِبْن شَيْبَانَ بَعْدَ أَبْوَا الْأَلْ

وما كانا قبْلَ كذلك . فإن قلت : فما معنى قوله : « وَوَجَدَكَ ضَالًاً فَهَدَى » [الضحى : ٧] ؛ فليس هو من الضلال الذي هو الكفر ؛ قيل : ضالاً عن النبوة فهداك إليها ؛ قاله الطبرى .

وقيل : وجدك بين أهل الضلال ، فعصمك من ذلك ، وهداك للإعنان ، وإلى إرشادهم .

ونحوه عن السدي وغير واحد .

وقيل : ضالاً عن شريعتك ؛ أي : لا تعرفها فهداك إليها .

والضلال هنا التحير ، ولهذا كان يَخْلُو بِغَارِ حَرَاءِ في طلب ما يتوجه به إلى ربه ويتشعر به حتى هداه الله إلى الإسلام ، حكى معناه القشيري .

وقيل : لا تعرف الحق ، فهداك إليه ، وهذا مثل قوله تعالى : « وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » [النساء : ١١٣] . قاله علي بن عيسى .

قال ابن عباس : لم تكن له ضلالة معصية .

وقيل : هدى ؛ أي : بين أمرك بالبراهين .

وقيل : وجدك ضالاً بين مكة والمدينة ؛ فهداك إلى المدينة .

وقيل : المعنى وجدك فهدي بك ضالاً .

وعن جعفر بن محمد : « وَوَجَدَكَ ضَالًاً » عن محبتي لك في الأزل ؛ أي : لا

تعرفها، فمنتت عليك بمعرفتي .

وقرأ الحسن بن علي : «وَوَجَدَكَ ضَالًاً فَهَدَىٰكَ» ؛ أي : اهتدى بك .

وقال ابن عطاء : «وَوَجَدَكَ ضَالًاً» ؛ أي : محباً لمعرفتي والضال المحب ، كما قال : «إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ كَالْقَدِيمِ» [يوسف : ٩٥] ؛ أي : محبتك القديمة ؛ ولم يريدوا هنالك في الدين ، إذ لو قالوا ذلك في النبي الله لکفروا .

ومثله عند هذا قوله : «إِنَّا لَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [يوسف : ٣٠] ؛ أي : محبة بينة .

وقال الجنيد : ووْجَدَكَ مُتَحِيرًا فِي بَيَانِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَهَدَاكَ لَبِيَانَهُ ، لَقُولَهُ : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [النَّحْلُ : ٤٤] . وقيل : ووْجَدَكَ لَمْ يَعْرِفْكَ أَحَدٌ بِالنَّبُوَّةِ حَتَّى أَظْهَرَكَ ، فَهَدَى بَكَ السُّعَادَ ، وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيهَا : ضَالًاً عَنِ الْإِيمَانِ .

وكذلك في قصة موسى عليه السلام قوله : «قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ» [الشعراء : ٢٠] ؛ أي : من المخطئين الفاعلين شيئاً بغير قصد ؛ قاله ابن عرفة .

قال الأزهري : معناه من الناسين .

وقد قيل ذلك في قوله : «وَوَجَدَكَ ضَالًاً فَهَدَىٰكَ» [الضحى : ٧] ؛ أي : ناسياً ؛ كما قال تعالى : «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ» [البقرة : ٢٨٢] . فإن قلت : فما معنى قوله : «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيَّانُ» [الشورى : ٥٢] .

فالجواب : أن السمرقندى قال : معناه : ما كانت تدرى قبل الوحي أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعى الخلق إلى الإيمان .

وقال بكر القاضى نحوه ؛ قال : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام ؛ قال : فكان عَزِيزًا قبل مؤمناً بتوحيده ، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدرى بها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيماناً ؛ وهو أحسن وجوهه .

فإن قلت : فما معنى قوله : «وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» [يوسف : ٣] فاعلم أنه ليس بمعنى قوله : «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» [يونس : ٧] ؛ بل قد حكى أبو عبد الله الھھروري أن معناه لمن الغافلين عن قصة يوسف ؛ إذ لم تعلمها إلا بوحينا .

وكذلك الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شيبة بسنده عن جابر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدتهم ، فسمع ملكين خلفه ، أحدهما يقول لصاحبه : اذهب حتى تقوم خلفه ، فقال الآخر : كيف أقوم خلفه وعهده باسلام الأصنام ؟ فلم يشهدهم بعد . فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جدا ، وقال : هو موضوع ، أو شبيه بالموضوع . وقال الدارقطني : يقال : إن عثمان وهم في إسناده .

والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده ، فلا يلتفت إليه .

والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله : « بُغْضَتْ إِلَيَّ الْأَصْنَامْ » . وقوله : في الحديث الآخر الذي روتة أم أيمن حين كلامه عمه وأله في حضور بعض أعيادهم ، وعزموا عليه فيه بعد كراحته لذلك ؛ فخرج معهم ، ورجع مرعوبا ؛ فقال : « كُلُّمَا دُنُوتْ مِنْهَا مِنْ صُنْمٍ قَتَّلْتْ لِي شَخْصٌ أَبْيَضْ طَوِيلٌ يَصِحُّ بِي : وَرَاءُكُمْ ، لَا تَنْسَهُ ، فَمَا شَهَدْتُ بَعْدَ لَهُمْ عِيْدًا » .

وقوله : في قصة بحيرا حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي ورأى فيه علامات النبوة ، فاختبره بذلك ، فقال له النبي ﷺ « لَا تَسْأَلْنِي بِهِمَا ، فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطْ بِغَضْبِهِمَا » .

فقال له بحيرا : فالله إلا ما أخبرتني عم أسلوك عنك . فقال : « سَلْ عَمَا بَدَّلَكْ » . وكذلك المعروف من سيرته ﷺ وتوفيق الله له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بزدلفة في الحج ؛ فكان يقف هو بعرفة ؛ لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام .

### الفصل الثالث

## في حكم عقد النبي ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية

قال القاضي أبو الفضل - وفقه الله : قد بان بما قدمناه عقود الأنبياء في التوحيد والإيمان والوحى وعصمتهم في ذلك على ما بینا .

فأما ما عدا هذا الباب من عقود قلوبهم فجماعها أنها مملوئة علمًا ويقينا على الجملة ، وأنها قد احتوت من المعرفة والعلم بأمور الدين والدنيا ما لا شيء فوقه . ومن طالع الأخبار ، واعتنى بالحديث ، وتأمل ما قلناه وجده .

وقد قدمنا منه في حق نبينا ﷺ في الباب الرابع أول قسم من هذا الكتاب ما ينبه على ما وراءه إلا أن أحوالهم في هذه المعرفة تختلف .

فأما ما تعلق منها بأمر الدنيا فلا يشترط في حق الأنبياء العصمة من عدم معرفة الأنبياء بعضها أو اعتقادها على خلاف ما هي عليه ، ولا وصم عليهم فيه إذ هم ممهمة متعلقة بالأخرة وأنبائها ، وأمر الشريعة وقوانينها . وأمور الدنيا تضادها ، بخلاف غيرهم من أهل الدنيا الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، كما سينبئنا في الباب الثاني إن شاء الله ، ولكنه لا يقال : إنهم لا يعلمون شيئاً من أمر الدنيا ؛ فإن ذلك يؤدي إلى الغفلة والبله ، وهم المزهون عنه ، بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا ، وقلدوا سياساتهم وهدایتهم والنظر في مصالح دينهم ودنياهم ، وهذا لا يكون مع عدم العلم بأمور الدنيا بالكلية ، وأحوال الأنبياء وسيرهم في هذا الباب معلومة ومعرفتهم بذلك كله مشهورة .

وأما إن كان هذا العقد مما يتعلق بالدين فلا يصح من النبي ﷺ إلا العلم به ، ولا يجوز عليه جهله جملة ، لأنه لا يخلو أن يكون حصل عنده ذلك عن وحي من الله ، فهو ما لا يصح الشك منه فيه على ما قدمناه ، فكيف الجهل ، بل حصل له العلم اليقين ، أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء على القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحققين ، وعلى مقتضى حديث أم سلمة : « إنني إنما أقضى بينكم برأيي فيما لم ينزل عليّ فيه شيء » خرجه الثقات .

وكقصة أسرى بدر ، والإذن للمختلفين على رأي بعضهم فلا يكون أيضاً ما يعتقده مما يثمره اجتهاده إلا حقاً وصحيحاً .

هذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه من أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد لا على القول بتصويب المجتهدين الذي هو الحق والصواب عندنا ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد لعصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات ، ولأن القول في تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع ، ونظر النبي ﷺ واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء ، ولم يشرع له قبل ؛ هذا فيما عقد عليه ﷺ قبله ، فاما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية ؛ فقد كان لا يعلم منها أولاً إلا ما علمه الله شيئاً فشيئاً حتى استقر علم جملتها عنده ؛ إنما بوحى من الله أو إذن له أن يشرع في ذلك ويحکم بما أرأه الله .

وقد كان يتضرر الوحي في كثير منها ؛ ولكنها لم يتم حتى استفراغ علم جميعها عنده ﷺ وتقررت معارفها لديه على التحقيق ، ورفع الشك والريب ، وانتفاء الجهل .

وبالجملة فلا يصح منه الجهل بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه ؛ إذ لا تصح دعوته إلى ما لا يعلمه .

وأما ما تعلق بعconde من ملوك السموات والأرض، وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنى وأياته الكبرى ، وأمور الآخرة ، وأشراط الساعة ، وأحوال السعداء والأشقياء ، وعلم ما كان وما يكون مما لم يعلمه إلا بوعي - فعلى ما تقدم من أنه معصوم فيه ، لا يأخذ فيما أعلم منه شك ولا ريب ؛ بل هو فيه على غاية اليقين ، لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك ، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر ؛ لقوله : ﷺ « إني لا أعلم إلا ما علمني ربِّي » ولقوله : « ولا خطر على قلب بشر » <sup>(١)</sup> « فلا تعلم نفسَ ما أخْفَيَ لَهُمْ مِنْ قُرْةَ أَعْيْنٍ » [السجدة : ١٧] .

وقول موسى للخضر : « هَلْ أَتَبْعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعْلَمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا » [الكهف : ٦٦] .  
وقوله ﷺ : « أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحَسَنَىٰ ، مَا عَلِمْتَ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ » <sup>(٢)</sup> .  
وقوله : « أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ » <sup>(٣)</sup> .

وقد قال الله تعالى : « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » [يوسف : ٧٦] قال زيد بن أسلم وغيره : حتى يتنهى العلم إلى الله .

وهذا ما لا خفاء به ؛ إذ معلوماته تعالى لا يحاط بها ولا متنه لها .

هذا حكم عقد النبي ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية .

#### الفصل الرابع

### في إجماع الأمة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان

واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفایته منه ، لا في

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) عن أبي هريرة وعن مسلم في الجنة (٢ / ٢٨٢٤) .

(٢) جزء من حديث لابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٩) وفي الزوائد : في إسناده مقال .

(٣) أحمد ١ / ٣١٩ .

جسمه بأنواع الأذى ، ولا على خاطره بالوساوس .

وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو عليٍّ - رحمه الله - قال : حدثنا أبو الفضل بن حيرون العدل ، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره ، حدثنا أبو الحسن الدارقطني ، حدثنا إسماعيل الصفار ، حدثنا عباس الترْقُفِي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن مسحور ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي ؛ ولكن الله تعالى أعناني عليه فأسلم »<sup>(١)</sup> .

زاد غيره - عن منصور : « فلا يأمرني إلا بخير » .

وعن عائشة بمعناه - وروي : « فأسلمُ » - بضم الميم ؛ أي : فأسلم أنا منه .

وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها .

وروي : « فأسلمَ » - يعني القرین - أنه انتقل من حال كفره إلى الإسلام ؛ فصار لا يأمر إلا بخير ، كالملك وهو ظاهر الحديث - ورواه بعضهم : « فاستسلم » .

قال القاضي أبو الفضل - وفقه الله : فإذا كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على بني آدم فكيف بمن بعده منه ، ولم يلزم صحبته ، ولا أئدر على الدنو منه ؟ .

وقد جاءت الآثار بتصدي الشياطين له في غير موطن ؛ رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه ، وإدخال شغل عليه ، إذ يشوا من إغواهه فانقلبوا خاسرين ، ك تعرضه له في صلاته فأخذه النبي ﷺ وأسره . ففي الصحاح قال أبو هريرة عنه ﷺ : « إن الشيطان عرض لي »<sup>(٢)</sup> .

قال عبد الرزاق : في صورة هر ، « فشد عليَّ يقطع الصلاة فأمكنتني الله منه ، فذعْتُه ، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنتظرون إليه ، فذكرت قول أخي سليمان **قال رب اغفر لي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لَأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي** » [ص: ٣٥] فرده الله خاستاً .

وفي حديث أبي الدرداء عنه ﷺ « إن عدو الله إبليس جاعني بشهاب من نار يجعله في وجهي » ، والنبي ﷺ في الصلاة ، وذكر تعوذ بالله منه ، ولعنه له « ثم أردت

(١) مسلم في صفات المنافقين ٦٩/٢٨١٤ .

(٢) البخاري في بده الخلق ٣٢٨٤ .

آخذه»، وذكر نحوه وقال : «لأصبح موثقاً يتلاعب به ولدان أهل المدينة»<sup>(١)</sup> .

وكذلك في حديثه في الإسراء ، وطلب عفريت له بشعلة نار ، فعلمه جبريل ما يتعوذ به منه - وذكره في «الموطأ» ولما لم يقدر على أذاء مباشرته تسبب بالتوسط إلى عداته كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النبي ﷺ وتصوره في صورة الشيخ النجدي .

ومرة أخرى في غزوة يوم بدر في صورة سراقة بن مالك ، وهو قوله : «إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» [الأفال : ٤٨] . ومرة ينذر بشأنه عند بيعة العقبة . وكل هذا فقد كفاه الله أمره ، وعصمه ضره وشره .

وقد قال ﷺ : «إِنَّ عَيْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُفِيَّ مِنْ لَمْسِهِ، فَجَاءَهُ لِيَطْعَنَ بِيَدِهِ فِي خَاصِّتِهِ حِينَ وُلْدٍ، فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ»<sup>(٢)</sup> .

وقال ﷺ حين لدّه في مرضه - وقيل له : خشينا أن يكون بك ذات الجنب - فقال : «إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَكُنَ اللَّهُ لِيُسْلِطُهُ عَلَيْيَ»<sup>(٣)</sup> .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : «إِنَّمَا يَنْزَغُنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الأعراف : ٢٠٠] ؟ فقد قال بعض المفسرين : إنها راجعة إلى قوله : «وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» [الأعراف : ١٩٩] ، ثم قال : «إِنَّمَا يَنْزَغُنَّكَ» ؛ أي : يستخفنك غضب يحملك على ترك الإعراض عنهم فاستعد بالله تعالى .

وقيل : النزغ هنا الفساد ، كما قال تعالى : «مِنْ بَعْدِ أَنْ تَنْزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنِ إِخْوَتِي» [يوسف : ١٠٠] .

وقيل : ينزعنك : يغرينك ويحرركنك ، والنزغ أدنى الوسوسة ، فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب على عدوه ، أو رام الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه ، ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيذ منه ، فيكفي أمره ، ويكون سبب تمام عصمته ، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له ، ولم يجعل له قدرة عليه . وقد قيل في هذه الآية غير هذا .

(١) مسلم في المساجد (٥٤٢ / ٤٠) .

(٢) البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٦) .

(٣) الحاكم في المستدرك (٧٤٤٧) بلفظ مقارب ، وصححه الذهبي .

وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك ، ويلبس عليه ، لا في أول الرسالة ولا بعدها .

والاعتماد في ذلك دليل العجزة ، بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري يخلقه الله له ، أو برهان يظهره لديه ، لتنم كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيًّا إِلَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْبَيْتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِكْمَةٌ » [الحج : ٥٢] .

فاعلم أن للناس في معنى هذه الآية أقاويل منها السهل والوعث ، والسمين والغث ، وأولى ما يقال فيها ما عليه الجمهور من المفسرين : أن التمني هنا التلاوة ، وإلقاء الشيطان فيها بإشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه ، أو يدخل غير ذلك على أفهم السامعين من التحرير وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ، ويحكم آياته .

وسيأتي الكلام على هذه الآية بأشيع من هذا إن شاء الله .

وقد حكى السمرقندى إنكار قول من قال بتسليم الشيطان على ملك سليمان وغلبه عليه ، وأن مثل هذا لا يصح .

وقد ذكرنا قصة سليمان مبينة بعد هذا ، ومن قال : إن الجسد هو الولد الذي ولد له وقال أبو محمد مكي في قصة أیوب قوله : « أَنَّى مَسَنَى الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » [ص : ٤١] : إنه لا يجوز لأحد أن يتأنى أن الشيطان هو الذي أمر به وألقى الضر في بدن ، ولا يكون ذلك إلا بفعل الله وأمره ليتليهم ويشتتهم .

قال مكي : وقيل : إن الذي أصابه الشيطان ما وسوس به إلى أهله .

فإن قلت : فما معنى قوله تعالى - عن يوشع : « وَمَا أَنْسَانَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ » [الكهف : ٦٣] . وقوله عن يوسف : « فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » [يوسف : ٤٢] .

وقول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نام عن الصلاة يوم الوادي : « إن هذا واد به شيطان » . وقول موسى عليه السلام في وكرته : « هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » [القصص : ١٥] .

فاعلم أن هذا الكلام قد يرد في جميع هذا على مورد مستمر كلام العرب في وصفهم كل قبيح من شخص أو فعل بالشيطان أو فعله ، كما قال تعالى : « طَلَعَهَا كَانَهُ رُؤُسُ الشَّيَّاطِينِ » [الصافات : ٦٥] . وقال ﷺ : « فَلِيَقُاتِلَهُ إِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ » .

وأيضاً فإن قول يوشع لا يلزمنا الجواب عنه ؛ إذ لم يثبت له في ذلك الوقت نبوة موسى ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » [الكهف : ٦٠] .

والمرجو أنَّه إنما نبَّىَ بعد موت موسى ، وقيل : قبيل موته .

وقول موسى كان قبل نبوته بدليل القرآن .

قصة يوسف قد ذكر أنها كانت قبل نبوته .

وقد قال المفسرون في قوله تعالى : « فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ » [يوسف : ٤٢] قوله : أحدهما : إن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه أحد صاحبي السجن ، وربه الملك ؛ أي : أنساه أن يذكر للملك شأن يوسف عليه السلام .

وأيضاً فإن مثل هذا من فعل الشيطان ليس فيه تسلط على يوسف ويوشع بوساوس ونزع ، وإنما هو بشغل خواطرهم بأمور آخر ، وتذكيرهما من أمورهما ما ينسىهما ما نسيها .

وأما قوله ﷺ : « إن هذا واد به شيطان » فليس فيه ذكر تسلطه عليه ، ولا وسوسته له ؛ بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله : « إن الشيطان أتى بلا ، فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي حتى نام » <sup>(١)</sup> .

فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي الذي عرس به إنما كان على بلال الموكل بكلاء الفجر .

هذا إن جعلنا قوله : « إن هذا واد به شيطان » ؛ تنبئها على سبب النوم عن الصلاة . وأما إن جعلناه تنبئها على سبب الرحيل عن الوادي ، وعلة ترك الصلاة به ، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب ؛ لبيانه وارتفاع إشكاله .

## الفصل الخامس

### في عصمة النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله

وأما أقواله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فقامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه ، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به ، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوا ولا غلطًا .

أما تعمد الخلف في ذلك فمتفق ، بدليل المعجزة القائمة مقام قول الله فيما قال اتفاقاً وبياناً أهل الملة إجماعاً .

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك ف بهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني ومن قال بقوله ؛ ومن جهة الإجماع فقط ورود الشرع بانتفاء ذلك ، وعصمة النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي . أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى دليل المعجزة لا نطول بذكره ، فنخرج عن غرض الكتاب ؛ فلنعتمد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه خلاف في القول في إبلاغ الشريعة ، والإعلام بما أخبر به عن ربه ، وما أوحاه إليه من وحيه ، لا على وجه العمد ، ولا على غير عمد ولا في حال الرضا والسخط والصحة والمرض .

وفي حديث عبد الله بن عمرو : قلت : يا رسول الله ؛ أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال : « نعم ». قلت : في الرضا والغضب ؟ قال « نعم ، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً » (١)

ولنزيد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بياناً فنقول :

إذا قامت المعجزة على صدقه ، وأنه لا يقول إلا حقاً ، ولا يبلغ عن الله إلا صدقًا ، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له : صدقت فيما تذكره عنني ؛ وهو يقول : إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم ، وأبين لكم ما نزل عليكم : « وما ينطق عن الهوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » [النجم: ٣، ٤] و « قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ » [النساء: ١٧] « وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا » [الحشر: ٧] . فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان .

(١) لم أقف عليه عن أبي هريرة بن الصهوة وهو في الترمذ في البر والصلة (١٩٩٠) بمعناه .

ولو جوزنا عليه الغلط وال فهو لما تميز لنا من غيره ، ولاختلط الحق بالباطل ، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص ، فتنزيل النبي عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً كما قاله أبو إسحاق .

### الفصل السادس

وقد توجهت هنأنا البعض الطاعنين سؤالات ؛ منها :

ما روي من أن النبي ﷺ لما قرأ **«والنَّجْمُ»** ، وقال : **«أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزَّى وَمَنَّاءَ الْثَّالِثَةِ الْأُخْرَى»** [النجم : ١٩ ، ٢٠] قال : « تلك الغرائين العلى ، وإن شفاعتها لترتجى » - ويروى : **«تُرْتَضِي»** . وفي رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرائين العلى » . وفي أخرى : **«وَالْغَرَائِقُ الْعُلَا، تَلْكَ لِلشَّفَاعَةِ تُرْتَجِي»** . فلما ختم السورة سجد ، وسجد معه المسلمين والكفار لما سمعوه أثني على آلهتهم .

وما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه ، وأن النبي ﷺ كان تمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه .

وفي رواية أخرى : **«أَلَا يَنْزَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَنْفَرِهِمْ عَنْهُ ؟ وَذَكَرَ هَذِهِ الْقَصْةُ، وَأَنَّ جَبَرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ فَعَرَضَ عَلَيْهِ السُّورَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْكَلْمَتَيْنِ قَالَ لَهُ : مَا جَتَّكَ بِهِاتِيْنِ ؟ فَحَزَنَ لِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْلِيَةً لَهُ : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّيَّتِهِ فَيَنْسِخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »** [الحج : ٥٢]

وقوله : **«وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَتَخْذُلُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كَدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا»** [الإسراء : ٧٣ ، ٧٤] . فاعلم - أكرمك الله - أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين ؛ أحدهما : في توهين أصله ، والثاني : على تسليمه .

أما المأخذ الأول : فيكفيك أن هذا حديث لم يُخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ؛ وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بُلّي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير ؛ وتعلق بذلك المُلحدون مع ضعف نقلته وأضطراب روایاته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ؛ ففَقَائِل يقول : إنه في الصلاة ؛ وآخر يقول : قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة ؛ وآخر يقول : قالها وقد أصابته سُنَّة ؛ وآخر يقول : بل حدث نفسه فسَّها ؛ وآخر يقول : إنَّ الشَّيْطَانَ قَالَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا عَرَضَهَا عَلَى جَبَرِيلَ قَالَ : مَا هَذَا أَقْرَأْتُكَ ؛ وَآخَرٌ يَقُولُ : بَلْ أَعْلَمُهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَهَا ؛ فَلَمَّا بَلَّغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ قَالَ : « وَاللَّهِ مَا هَذَا نَزَّلَتْ » - إلى غير ذلك من اختلاف الرواية .

ومن حُكْمَتْ هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يستدِها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحبِ ، وأكثُرُ الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ؛ والمُرْفُوعُ فيه حديث شعبة : عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : فيما أَحَسْبَ - الشك في الحديث - أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بِمَكَةَ ... ذكر القصة .

قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمُ بِرُوَايَةِ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِسْنَادٍ مُتَّصلٍ يَجُوزُ ذِكْرَهُ إِلَّا هَذَا ، وَلَمْ يُسْنَدْ عَنْ شَعْبَةَ إِلَّا أُمِيَّةَ بْنَ خَالِدَ ؛ وَغَيْرُهُ يَرْسُلُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَرِ ؛ إِنَّمَا يَعْرِفُ عَنِ الْكَلَبِيِّ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ ؛ فَقَدْ بَيَّنَ لِكَ أَبُو بَكْرَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا يُعْرِفُ مِنْ طَرِيقٍ يَجُوزُ ذِكْرَهُ سُوَى هَذَا .

وَفِيهِ مِنَ الْضَّعْفِ مَا نَهَا عَلَيْهِ مَعَ وَقْعِ الشَّكِ فِيهِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَالَّذِي لَا يُؤْتَقُ بِهِ ، وَلَا حَقِيقَةَ مَعِهِ .

وَأَمَّا حَدِيثُ الْكَلَبِيِّ فَمِمَّا لَا تَجُوزُ الرَّوَايَةُ عَنْهُ وَلَا ذِكْرُهُ لِقُوَّةِ ضَعْفِهِ وَكَذْبِهِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَزَارُ - رَحْمَهُ اللَّهُ .

وَالَّذِي مِنْهُ فِي « الصَّحِيفَةِ » : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ : « وَالنَّجْمُ » وَهُوَ بِمَكَةَ ؛ فَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَنَ .

هذا توهينٌ من طريق النقل ، فاما من جهة المعنى : فقد قامت الحجّةُ ، وأجمعت الأمة على عصمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونراحته عن مثل هذه الرذيلة ؛ إما من تَمَّيَّهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا مِنْ مَدْحَ أَكْلَهُهُ اللَّهُ ، وَهُوَ كُفَّرٌ ؛ أَوْ أَنْ يَتَصَوَّرَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَيُشَبِّهَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَتَّى يَجْعَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مَعَهُ ، وَيَعْتَقِدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ مَعَهُ حَتَّى يَنْبَهَهُ جَبَرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُمْتَنَعٌ فِي حَقِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ يَقُولُ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ عَمَدًا ، وَذَلِكَ كُفُّرًا ؛ أَوْ سَهْرًا ، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ .

وقد فرّنا بالبراهين والإجماع عصمه عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ولا سهواً ، أو أن يُشبّه عليه ما يُلقى الملك مما يُلقى الشيطان ، أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله - لا عمداً ولا سهواً - ما لم ينزل عليه ؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَوْ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخْذَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » [الحقة : ٤٤ - ٤٦]

وقال تعالى : « إِذَا لَأَدْقَنَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا » [الإسراء : ٧٥] .

ووجه ثان : وهو استحاللة هذه القصة نظراً وعرفاً ؛ وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روی لكان بعيد الالتحام ، لكونه متناقض الأقسام ، ممترج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين من يخفى عليه ذلك ؛ وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه .

ووجه ثالث : أنه علم من عادة المنافقين ، ومعاندي المشركين ، وضعة القلوب ، والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة ، وتعيرهم المسلمين ، والشمات بهم القِيَّة بعد القِيَّة ، وارتدادُ من في قلبه مرضٌ من أظهر الإسلام لأدنى شبهة ، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولا قامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردةً ، وكذلك ما روی في قصة القضية ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وُجدت ، ولا تشغيب للمعادي حيثنـ أشد من هذه الحادثة لو أمكنـ ؟ فما روی عن معانـد فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسيـها بـنـ شـفـة ؛ فـدلـ على بـطـلـها واجـثـاثـ أـصـلـهاـ .

ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليُلْبِسْ به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع : ذكر الرواية لهذه القضية أن فيها نزلت : « وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُوكُمْ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَأَتَّخْذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتَنَاكَ لَقَدْ كَدِتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » [الإسراء : ٧٣ ، ٧٤] . وهاتان الآياتان تَرْدَان الخبر الذي رووه ؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يُفْتَنُونـ حتى يُفْتَرِيـ ، وأنه لو لا أن ثبـتـهـ لـكـادـ يـرـكـنـ إـلـيـهـ .

فمضمون هذا ومفهومه : أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يكن إليهم قليلا ؛ فكيف كثيرا ! وهم يررون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بذبح آلهتهم ، وأنه قال عليه السلام : « افترى على الله وقلت ما لم يقل » ؛ وهذا ضد مفهوم الآية ، وهي تضعف الحديث لو صح ، فكيف ولا صحة له !؟

وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى : «**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضْلُلُوكُمْ وَمَا يُضْلِلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ**» [ النساء : ١١٣ ].

وقد روى عن ابن عباس : كل ما في القرآن « كاد » فهو ما لا يكون ؛ قال الله تعالى : «**يَكَادُ سَنَا بِرْقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**» [ التور : ٤٣ ] ؛ ولم يذهب . و «**أَكَادُ أَخْفِيهَا**» [ طه : ١٥ ].

قال القشيري القاضي : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بالهتم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، ولا كان ليفعل .

قال ابن الأباري : ما قارب الرسول ولا ركن .

وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخرى ما ذكرناه من نص الله على عصمه رسوله رسوله سفاسفها ؛ فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمه وثبتته مما كاده به الكفار ، ورآمُوا من فتنته ؛ ومرأدُنا من ذلك تزييه وعصمه عليه السلام ؛ وهو مفهوم الآية .

وأما المأخذ الثاني : فهو مبني على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعادنا الله من صحته ، ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأرجوبة ؛ منها الغث والسمين ؛ فمنها ما روى قتادة ومقاتل : أن النبي عليه السلام أصابته سنة عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم .

وهذا لا يصح ؛ إذ لا يجوز على النبي مثله في حالة من أحواله ، ولا يخلقه الله على لسانه ، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمه في هذا الباب من جميع العمد والجهل .

وفي قول الكلبي : إن النبي عليه السلام حدث نفسه ؛ فقال ذلك الشيطان على لسانه .

وفي رواية ابن الشهاب ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن ؛ قال : وسأها ؛ فلما أخبر بذلك قال : « إنما ذلك من الشيطان ». .

وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي عليه السلام ، لا سهوا ولا قصدأ ، ولا يتقوله الشيطان

على لسانه .

وقيل : لعلَّ النبي ﷺ قال في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبخ للكفار ، كقول إبراهيم عليه السلام : «هذا ربي» [الأنعام : ٧٦] . على أحد التأويلات .

وك قوله : «بَلْ فَعْلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» [الأنبياء : ٦٣] بعد السكتِ وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .

وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد ، وأنه ليس من المتن ، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر .

ولا يعتري على هذا بما رُوي أنه كان في الصلاة ؛ فقد كان الكلام قبلُ فيها غير منوع .

والذي يظهر ويترجح في تأويله عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبي ﷺ كان - كما أمره ربِّه - يرتل القرآن ترتيلًا ، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته ، كما رواه الثقاتُ عنه ، فيمكن ترصدُ الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلفه من تلك الكلمات محاكيًا نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار ، فظنواها من قول النبي ﷺ وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحققوها من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيتها على ما عُرفَ منه .

وقد حكى موسى بن عُقبةَ في « مغازييه » نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعواها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم ؛ ويكون ما رُوي من حُزنِ النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة ، وسبب هذه الفتنة .

وقد قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الْقَوْمُ الشَّيْطَانُ فِي أَمْبِيَةٍ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ حَكِيمٌ » [الحج: ٥٢] . فمعنى « تَمَنَّى » : تلا ؛ قال الله تعالى : « لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا » [البقرة: ٧٨] ؛ أي : تلاوة .

وقوله : « فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ » ؛ أي : يذهبه ، ويزيل اللبس به ، ويُحَكِّم آياته . وقيل : معنى الآية هو ما يقع للنبي ﷺ من السهو إذا قرأ فيتبه لذلك ويرجع عنه . وهذا نحو قول الكلبي في الآية : إنه حدث نفسه ، وقال : « إِذَا تَمَنَّى » ؛ أي : حدث نفسه .

وفي رواية أبي بكر بن عبد الرحمن نحوه .

وهذا السهو في القرآن إنما يصح فيما ليس طريقه تغيير المعاني ، وتبديل الألفاظ ، وزيادة ما ليس من القرآن ؛ بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة ؛ ولكنه لا يُقرُّ على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكَّر به للحين ، على ما سندكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز .

وما يظهر في تأويله أيضاً أن مجاهداً روَى هذه القصة : « والغرانقة العُلَى » ؛ فإن سلمنا القصة قلنا : لا يُعُدُّ أن هذا كان قرآنًا ، المراد بـ « الغرانقة العُلَى » . وـ « إن شفاعتهن لترجُّبي » : الملائكة على هذه الرواية .

وبهذا فسر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة ؛ وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأولان والملائكة بذات الله ، كما حكى الله عنهم ورَدَّ عليهم في هذه السورة بقوله : « أَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأَثْنَى » [النجم: ٢١] ؛ فأنكر الله كل هذا من قولهم ؛ ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ، فلما تأولَه المشركون على أن المراد بهذا الذكر آهاتهم ، وليس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحکم آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبلاً للإلباس ، كما نسخ كثير من القرآن ورفعت تلاوته ؛ وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة ، وفي نسخه حكمة ؛ ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء ؛ وما يُضل به إلا الفاسقين ، وـ « لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْفَاسِيَّةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شَفَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْهِ سِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » [الحج: ٥٣ ، ٥٤] .

وقيل : إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر الالات والعزى ومنة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا في تلاوة النبي ﷺ ، ويشتّعوا عليه على عادتهم وقولهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمِعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ » [فصلت: ٢٦] .

ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه ، وأشاعوا ذلك وأذاعوه ، وأن النبي ﷺ قاله ؛ فحزنَ لذلك من كذبهم وافتراضهم عليه ، فسلاه الله تعالى بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمُّيَّتِهِ » [الحج: ٥٢] ،

ويبين للناس الحق من ذلك من الباطل ، وحفظ القرآن ، وأحكام آياته ، ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه تعالى من قوله : « إِنَّا نَحْنُ نَرَأُ لَنَا الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

[الحجر : ٩]

ومن ذلك ما روي من قصة يونس عليه السلام أنه وعد قومه بالعذاب عن ربه ، فلما تابوا كشف عنهم العذاب ، فقال : لا أرجع إليهم كذاباً أبداً ، فذهب مغاضباً .

فأعلم - أكرمك الله - أن ليس في خبر من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يُونس - عليه السلام - قال : إن الله مهلككم ، وإنما فيه أنه دعا عليهم بالهلاك ؛ والدعاء ليس بخبر يُطلب صدقه من كذبه ، لكنه قال لهم : إن العذاب مُصْبَحُكم وقت كذا وكذا ، فكان ذلك كما قال ثم رفع الله تعالى عنهم العذاب وتداركهم ؛ قال الله تعالى : « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةٌ آمَنَتْ فَنَعَمَّا إِيَّاهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسٌ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ » [يونس : ٩٨] .

ورُوي في الأخبار أنهم رأوا دلائل العذاب ومخايله ؛ قاله ابن مسعود .

وقال سعيد بن جُبَير : غَشَّاهُمُ الْعَذَابُ كَمَا يُغْشَى الثُّوبُ الْقَبْرَ .

فإن قلت : فما معنى ما رُوي : من أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ ، ثم ارتدَّ مشرِّكاً ، وصار إلى قريش ، فقال لهم : إني كنت أصرف محمداً حيث أريد ؛ كان يُمْلِي على « عزيز حكيم » فأقول : أو « عليم حكيم » ؟ فيقول : « نعم كل صواب » .

وفي حديث آخر : فيقول له النبي ﷺ : « اكتب كذا » ، فيقول أكتب كذا ؟ فيقول : « اكتب كيف شئت » . ويقول : « اكتب عليماً حكيمًا » فأقول : أكتب : « سمعياً بصيراً » ، فيقول له : « اكتب كيف شئت » .

وفي « الصحيح » - عن أنس بن مالك أن نصارىً كان يكتب للنبي ﷺ بعدما أسلم ثم ارتد ، وكان يقول : ما يدري محمد إلا ما كتب له .

فأعلم - ثبَّتنا الله وإياك على الحق ، ولا جعل للشيطان ولتبسيه الحق بالباطل إلينا سبيلاً . أن مثل هذه الحكاية أولاً لا توقع في قلب مؤمنٍ ربياً ؛ إذ هي حكاية عن ارتد وكفر بالله ، ونحن لا نقبل خبر المسلم المُتَّهَم ، فكيف بكافر افترى هو ومثله على الله ورسله ما هو أعظم من هذا ! .

والعجب لسليم العقل يشغل بمثل هذه الحكاية سره ، وقد صدرت من عدو كافر مُبغض للدين ، مُفترٍ على الله ورسوله ؛ ولم ترد عن أحد من المسلمين ، ولا ذكر أحدٌ من الصحابة أنه شاهد ما قاله وافتراء على نبي الله ، وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون.

وما وقع من ذكرها في حديث أنس رضي الله عنه وظاهر حكايتها ؛ فليس فيه ما يدل على أنه شاهدها ، ولعله حكى ما سمع .

وقد علل البزارُ حديثه ذلك ، وقال : رواه ثابت عنه ، ولم يتابع عليه ؛ ورواه حميد عن أنس ، قال : وأظن حميداً إنما سمعه من ثابت .

قال القاضي أبو الفضل - وفته الله : ولهذا ، والله أعلم ، لم يخرج أهل « الصحيح » حديث ثابت ولا حميد . وال الصحيح حديث عبد العزيز بن رُفيع عن أنس رضي الله عنه الذي خرجه أهل الصحة وذكرناه ، وليس فيه عن أنس قول شيء من ذلك من قبل نفسه ، إلا من حكايتها عن المرتد النصراني ، ولو كانت صحيحة لما كان فيها قدحٌ ولا توهيمٌ للنبي صلوات الله عليه فيما أوحى إليه ، ولا جواز للنسىان والغلط عليه والتحريف فيما بلغه ، ولا طعن في نظم القرآن ، وأنه من عند الله ؛ إذ ليس فيه - لو صح - أكثر من أن الكاتب قال له : « علیم حکیم » وكتبه ؛ فقال له النبي صلوات الله عليه : « كذلك هو » ، فسبقه لسانه أو قلمه لكلمة أو كلمتين مما نُزل على الرسول قبل إظهار الرسول لها ؛ إذ كان ما تقدم مما أملأه الرسول يدل عليها ويقتضي وقوعها بقوة قدرة الكاتب على الكلام ومعرفته به ؛ وجودة حسه وفطنته ، كما يتفق ذلك للعارف إذا سمع البيت أن يسبق إلى قافية ، أو مُبتدأ الكلام الحسن إلى ما يتم به ؛ ولا يتفق ذلك في جملة الكلام ، كما لا يتفق ذلك في آية ولا سورة .

وكذلك قوله صلوات الله عليه - إن صح : « كل صواب » ؛ فقد يكون هذا فيما كان فيه من مقاطع الآي وجهان وقراءتان أنزلتا جميماً على النبي صلوات الله عليه ، فأملأى إحداها ، وتوصل الكاتب بفطنته ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأخرى ، فذكرها للنبي صلوات الله عليه كما قدمته ؛ فصوبيها له النبي صلوات الله عليه ؛ ثم أحکم الله من ذلك ما أحکم ، ونسخ ما نسخ كما قد وجد ذلك في بعض مقاطع الآي مثل قوله تعالى : « إِن تُعذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » [المائدة: ١١٨] .

وهذه قراءة الجمهور ، وقد قرأ جماعةً : « فإنك أنت الغفور الرحيم » . وليس من المصحف .

وكذلك كلماتٌ جاءت على وجهين في غير المقاطع ، قرأ بها معاً الجمهورُ ، وثبتنا في المصحف ، مثل : « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا » [البقرة: ٢٥٩] - وَنُنْشِزُهَا . ويقضي الحق - « يَقُصُّ الْحَقَّ » [الأنعام: ٥٧] .

وكلُّ هذا لا يوجب ريباً ، ولا يسبّ للنبي ﷺ غلطًا ولا وهمًا .

وقد قيل : إن هذا يحتمل أن يكون فيما يكتبه عن النبي ﷺ إلى الناس غير القرآن ، فيصف القرآن ويسميه في ذلك كيف يشاء .

## الفصل السابع

### فيما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه

هذا القولُ فيما طريقه البلاغ ، وأما ما ليس سبيلَ البلاغ من الأخبار التي لا مُستند إلى الأحكام ، ولا أخبار المعاد ، ولا تضاف إلى وحي ، بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه ؛ فالذى يجب اعتقاده ترتیه النبي ﷺ أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره ، لا عمداً ولا سهواً ولا غلطًا ، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه ، وجده ومزحه ، وصحته ومرضه .

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه ، وذلك أننا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله ، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت ، وفي أي شيء وقعت ، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها ، ولا استثناتٌ عن حاله عند ذلك ؛ هل وقع فيها سهو أم لا ؟

ولما احتاج ابن أبي الحقيقة اليهودي على عمر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله ﷺ واحتاج عليه عمر رضي الله عنه بقوله عليه السلام : « كيف بك إذا أخرجت من خيبر ؟ » فقال اليهودي : كانت هُرْيَة من أبي القاسم ، فقال عمر : كذبت يا عدو الله .

وأيضاً فإن أخباره وأثاره وسيره وشمائله مُعْتَنِي بها مُستَقْصِي تفاصيلها ، ولم يرد في شيء منها استدراكه عليه السلام لغلط في قول قاله ، أو اعترافه بوهم في شيء أخبر به ، ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه السلام في رجوعه عليه السلام عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل وكان ذلك رأياً لا خبراً ، وغير ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب ؛ قوله عليه السلام : « وَالله لا أَحْلَفُ عَلَى مِنْ يَبْيَنُ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلْتُ الَّذِي حَلَفْتُ

عليه وكفرت عن يبني <sup>(١)</sup> .

وقوله : « إنكم تختصمون إلى ... » <sup>(٢)</sup> الحديث .

وقوله : « اسق يا زُبُر حتى يبلغ الماء الجدر » <sup>(٣)</sup> ؛ كما سنبين كلَّ ما في هذا من مشكل ما في هذا الباب والذي بعده إن شاء الله ، مع أشباههم .

وأيضاً فإن الكذب متى عُرف من أحد في شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان استُرِيب بخبره ، واتهام في حديثه ، ولم يقع قوله في النقوس موقعًا ؛ ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ ، وكثرة الغلط ، مع ثقته . وأيضاً فإن تعمد الكذب في أمور الدنيا معصية ، والإكثار منه كبيرة بإجماع ، مُسقط للمروة .

وكل هذا يُنْزَه عنه منصب النبوة ؛ والمرة الواحدة منه في ما يُسْتَبْشَعُ وُيُسْتَشْنَعُ ما يخل بصاحبها ، ويزري بقاتلها لاحقةً بذلك .

وأما فيما لا يقع هذا الموضع فإن عدناها من الصغائر فهل تجري على حكمها في الخلاف فيها ؟ مختلف فيه . والصواب تَزْيِهُ النبوة عن قليله وكثierre ، وسَهْوَه وعَمَدِه ؛ إذ عُمَدَ النبوة البلاغ والإعلام والتبيين ، وتصديق ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وتجويز شيء من هذا قادحٌ في ذلك ، ومشككٌ فيه ، مناقضٌ للمعجزة ؛ فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الآتية خُلُف في القول في وجه من الوجه ، لا بقصدٍ ولا بغيره قصد ، ولا تسامح مع من تسامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ ؛ نعم ، وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة ، ولا الاتسامُ به في أمورهم وأحوال دُنْيَاهُم ؛ لأن ذلك يُزري ويريب ، وينفر القلوب عن تصديقهم بعد .

وانظر أحوال أهل عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قريش وغيرها من الأمم وسؤالهم عن حاله في صدق لسانه ، وما عرفوا به من ذلك واعترفوا به مما عرف ، واتفق النقل على عصمة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وبعد ؛ وقد ذكرنا من الآثار فيه في الباب الثاني أول الكتاب ما يبين لك صحة ما أشرنا إليه .

(١) البخاري في الأيمان (٦٦٢١) عن عروة بن الزبير .

(٢) البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم في الأقضية (٤/١٧١٣) عن أم سلمة .

(٣) البخاري في الشرب (٢٣٥٩ ، ٢٣٦٠) ، ومسلم في الفضائل (١٢٩/٢٣٥٧) عن عبد الله بن الزبير .

## الفصل الثامن

### رد بعض الاعتراضات

فإن قلت : فما معنى قوله ﷺ في حديث السهو الذي حدثنا به الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر ، حدثنا القاضي أبو الأصبغ بن سهل ، حدثنا حاتم بن محمد ، حدثنا أبو عبد الله بن الفخار ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا عبد الله ، حدثنا يحيى ، عن مالك ، عن داود بن الحسين ، عن أبي سفيان مولى بن أبي أحمد أنه قال : سمعت أبا هريرة رض يقول : صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر ، فسلم في ركعتين ، فقام ذو اليدين ، فقال : يا رسول الله ، أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فقال النبي ﷺ : « كل ذلك لم يكن » <sup>(١)</sup> .

وفي الرواية الأخرى : « ما قصرتْ وما نسيتْ ... » والحديث بقصته ؛ فأخبره بتفني الحالتين ، وأنها لم تكن ، وقد كان أحدهما ذلك كما قال ذو اليدين : قد كان بعض ذلك يا رسول الله .

فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن للعلماء في ذلك أجوبة ، بعضها بصدق الإنصاف ؛ ومنها ما هو بنية التعسُّف والاعتساف ؛ وها أنا أقول :

أما على القول بتجويز الوهم والغلط مما ليس طريقه من القول البلاغُ ، وهو الذي زيفناهُ من القولين فلا اعتراض بهذا الحديث وشبيهه .

وأما على مذهب من يمنع السهو والنسيان في أفعاله جملة ، ويرى أنه في مثل هذا عامل لصورة النسيان لِيُسِنَّ ، فهو صادقٌ في خبره ؛ لأنَّه لم يَسِنْ ولا قُصِرَ ، ولكنه على هذا القول تعمد هذا الفعل في هذه الصورة لِيُسِنَّهُ مِنْ اعتراه مِثْلَه ؛ وهو قول مرغوبٌ عنه ونذكره في موضعه .

وأما على إحالة السهو عليه في الأقوال وتجويز السهو عليه فيما ليس طريقه القول - كما سنذكره - ففيه أجوبة ، منها :

أن النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره ؛ أما إنكار القصر فحقٌّ وصدقٌ باطناً وظاهراً . وأما النسيانُ فأخبر رض عن اعتقاده ، وأنه لم ينس في ظنه ؛ فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه وإن لم ينطق به ؛ وهذا صدق أيضاً .

(١) البخاري في السهو (١٢٢٩) ومسلم في المساجد (٥٧٣) / ٩٩ .

ووجه ثان : أنّ قوله : « ولم أنس » - راجع إلى السلام ؛ أي : إني سلمتُ قصداً ، وسهوت عن العدد ؛ أي : لم أسه في نفس السلام ؛ وهذا محتمل ؛ وفيه بعده .

ووجه ثالث : وهو أبعدها - ما ذهب إليه بعضهم ، وإن احتمله اللفظ من قوله : « كل ذلك لم يكن » ؛ أي لم يجتمع القصرُ والنسيان ؛ بل كان أحدهما ومفهوم اللفظ خلافه مع الرواية الأخرى الصحيحة ، وهو قوله : « ما قصرت الصلاة وما نسيت » .

هذا ما رأيت فيه لأنتما ، وكل من هذه الوجوه محتمل اللفظ على بعد بعضها وتعسف الآخر منها .

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله : والذي أقول - ويظهرُ لي أنه أقرب من هذه الوجوه كلها - أن قوله عليه السلام : « لم أنس » إنكار للفظ الذي نفاه عن نفسه ، وأنكره على غيره بقوله : « بشن ما لاحدكم أن يقول : نسيت آية كذا وكذا ، ولكنه نسيّ » (١) . ويقوله : في بعض روایات الحديث الآخر : « لستُ أنسى ، ولكن أنسى » (٢) .

فلما قال له السائلُ : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ أنكر قصرها كما كان ، ونسيانه هو من قبل نفسه ، وإن كان جرى شيء من ذلك فقد نسي حتى سأله غيره ؛ فتحقق أنه نسيّ ، وأجري عليه لك ليسنَ ؛ فقوله على هذا : « لم أنس ولم تُقصّر ؛ وكل ذلك لم يكن » صدق وحق ؛ لم تُقصّر ولم ينس حقيقة ، ولكنه نسيّ .

ووجه آخر استترته من كلام بعض المشايخ ؛ وذلك أنه قال : إن النبي صلوات الله عليه كان يسهو ولا ينسى ؛ ولذلك نفى عن نفسه النسيان ، قال : لأن النسيان غفلةٌ وآفة ؛ والسهو إنما هو شغل بال ؛ قال : فكان النبي صلوات الله عليه يسهو في صلاته ولا يغفل عنها ؛ وكان يشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة ، شغلاً بها لا غفلة عنها .

فهذا إن تحقق على هذا المعنى لم يكن في قوله : « ما قصرت ولا نسيت » خلف في قول .

وعندي أن قوله : « ما قصرت الصلاة وما نسيت » بمعنى الترك الذي هو أحد وجهي النسيان ؛ أراد - والله أعلم - أن لم أسلم من ركعتين تاركًا لإكمال الصلاة ، ولكنني نسيت ، ولم يكن ذلك من تلقاء نفسي .

(١) البخاري في فضائل القرآن (٥٣٢) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٠/٢٢٨) عن ابن مسعود .

(٢) مالك في الموطا ص ١٠٠ بلفظ : « إني لأنسى أو أنسى لأنسُنَ » .

والدليل على ذلك قوله في الحديث الصحيح : « إني لأنسٌ أو أنسٌ لأنسٌ » <sup>(١)</sup> . وأما قصة كلمات إبراهيم المذكورة في الحديث : « إنها كذباته الثلاث المنصوصة » <sup>(٢)</sup> ، في القرآن منها اثنان : قوله : « إني سقيم » [الصفات : ٨٩] ، قوله : « قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهِتَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلْتُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » [الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣] ، قوله للملك عن زوجته : إنها أختي فاعلم أكرمك الله أن هذه كلها خارجة عن الكذب ، لا فيقصد ولا في غيره ؛ وهي داخلة في باب المعارض التي فيها متذوقة عن الكذب . أما قوله : « إني سقيم » فقال الحسن وغيره : معناه سأسلم ، أي : أن كل مخلوق معرض لذلك ، فاعذر لقومه من الخروج معهم إلى عيدهم بهذا .

وقيل : بل سقيم بما قدر عليّ من الموت .

وقيل : سقيم القلب بما أشاهده من كفركم وعندكم .

وقيل : بل كانت الحمى تأخذه عند طلوع نجم معلوم ؛ فلما رأه اعتذر بعادته .

وكل هذا ليس فيه كذب ؛ بل هو خبر صحيح صدق .

وقيل : بل عرض بقسم حجته عليهم ، وضعف ما أراد بيانه لهم من جهة النجوم التي كانوا يستغلون بها ، وأنه أثناء نظره في ذلك ، وقبل استقامة حجته عليهم في حال سقم وحال مرض ، مع أنه لم يشك هو ولا ضعف إيمانه ، ولكنه ضعف في استدلاله عليهم وقسم نظره ، كما يقال : حجة سقيمة ، ونظر معلول ، حتى ألهمه الله باستدلاله وصحة حجته عليهم بالكواكب والشمس والقمر ما نصه الله تعالى ؛ وقد قدمنا بيانه .

وأما قوله : « بَلْ فَعَلْهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ » [الأنبياء : ٦٣] فإنه علق خبره بشرط نطقه ، كأنه قال : إن كان ينطق فهو فعله على طريق التكير لقومه . وهذا صدق أيضاً ، ولا خلف فيه .

وأما قوله : « أختي » : فقد بين في الحديث ، وقال : فإنك أختي في الإسلام ؛ وهو صدق ، والله تعالى يقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » [الحجرات : ١٠] .

فإن قلت : فهذا النبي ﷺ قد سماها كذبات ، وقال : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلات كذبات ». وقال : في حديث الشفاعة ؛ « ويدرك كذباته » فمعناه : أنه لم يتكلم بكلام

(١) انظر السابق .

(٢) البخاري في التفسير (٤٧١٢) عن أبي هريرة .

صَوْرَتَهُ صُورَةُ الْكَذَبِ وَإِنْ كَانَ حَقًّا فِي الْبَاطِنِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْكَلْمَاتِ .

وَلَا كَانَ مَفْهُومُ ظَاهِرِهَا خَلَافُ بَاطِنِهَا أَشْفَقَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ مِنْ مَوْاخِذِهِ بِهَا .

وَأَمَّا الْحَدِيثُ : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَأَى بَغِيرَهَا » فَلِيُسْ فِيهِ خَلْفٌ فِي الْقَوْلِ ؟ إِنَّمَا هُوَ سُرُّ مَقْصِدِهِ ؛ لِتَلَا يَأْخُذُ عَدُوَّهُ حَذْرَهُ ؛ وَكَتَمَ وَجْهَ ذَهَابِهِ بِذِكْرِ السُّؤَالِ عَنْ مَوْضِعِ آخَرِ وَالْبَحْثِ عَنْ أَخْبَارِهِ وَالْتَّعْرِيْضِ بِذِكْرِهِ ، لَا أَنَّهُ يَقُولُ : تَجْهِيزُهُمْ إِلَى غَزْوَةِ كَذَا ، أَوْ وَجْهَتِنَا إِلَى مَوْضِعِ كَذَا خَلَافَ مَقْصِدِهِ ؛ فَهَذَا لَمْ يَكُنْ ؛ وَالْأُولُّ لَيْسَ فِيهِ خَبْرٌ يَدْخُلُهُ الْخَلْفُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنِي قَوْلِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ سُئِلَ : أَيُّ النَّاسُ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ ؛ فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، إِذْ لَمْ يَرِدِ الْعِلْمُ إِلَيْهِ - الْحَدِيثُ ؛ وَفِيهِ : « قَالَ : بَلْ عَبْدُنَا بِمَجْمِعِ الْبَحْرَيْنِ أَعْلَمُ مِنْكُمْ » <sup>(١)</sup> .

فَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ بَعْضِ طَرْقَهِ الصَّحِيْحَةِ ، عَنْ أَبْنَى عَبَّاسٍ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكُمْ ؟

فَإِذَا كَانَ جَوَابَهُ عَلَى عِلْمِهِ فَهُوَ خَبْرٌ حَقٌّ وَصَدِيقٌ لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا شَبَهَ .

وَعَلَى الطَّرِيقِ الْآخَرِ فَمَحْمَلُهُ عَلَى ظَنِّهِ وَمُعْتَقَدِهِ ، كَمَا لَوْ صَرَحَ بِهِ ؛ لَأَنَّ حَالَهُ فِي النَّبِيَّةِ وَالْاَصْطَفَاءِ يَقْتَضِي ذَلِكَ ؛ فَيَكُونُ إِخْبَارُهُ بِذَلِكَ أَيْضًا عَنْ اعْتِقَادِهِ وَحِسْبَانِهِ صَدِيقًا لَا خَلْفَ بِهِ .

وَقَدْ يَرِيدُ بِقَوْلِهِ : « أَنَا أَعْلَمُ » بِمَا تَقْتَضِيهِ وَظَاهِرَ النَّبِيَّةِ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ ، وَأُمُورِ الشَّرِيْعَةِ ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ ، وَيَكُونُ الْخَضْرُ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَمْرِهِ أُخْرَى مَا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِيَاعِلَامِ اللَّهِ مِنْ عِلْمٍ غَيْرِهِ ؛ كَالْقَصْصِ الْمَذَكُورَةِ فِي خَبْرِهِمَا ، فَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمُ عَلَى الْجَمْلَةِ بِمَا تَقْدِمُ . وَهَذَا أَعْلَمُ عَلَى الْخَصُوصِ بِمَا أَعْلَمُ .

وَيَدْلِيُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَعَلِمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » [الْكَهْفُ : ٦٥] .

وَعَتَبَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ إِنْكَارُهُ هَذَا الْقَوْلُ عَلَيْهِ ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَرِدِ الْعِلْمُ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : « لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْنَانَا » [الْبَقَرَةُ : ٣٢] أَوْ لَأَنَّهُ لَمْ يَرِضْ قَوْلَهُ شَرِعًا .

(١) البخاري في العلم (١٢٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠ / ١٧٠) عن ابن عباس .

وذلك - والله أعلم - لثلا يقتدي به فيه من لم يبلغ كماله في ترکية نفسه وعلو درجته من أمته ؛ فلهك لما تضمنه من مدح الإنسان نفسه ، ودوره ذلك من الكبر والعجب والتعاطي والدعوى ، وإن نُزِّه عن هذه الرذائل الأنبياء فغيرهم بمدرجة سبيلها ودرك ليلها إلا من عصمه الله ؛ فالتحفظ منها أولى لنفسه ، وليرقتدي به ؛ ولذا قال ﷺ تحفظاً من مثل هذا ما قد علم به : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » (١) .

وهذا الحديث إحدى حجج القائلين بنبوة الخضر ؛ لقوله فيه : أنا أعلم من موسى ؛ ولا يكون الولي أعلم من النبي .

وأما الأنبياء فيتناضلون في المعرف .

ويقوله : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » [الكهف : ٨٢] ، فدل أنه بمحضه . ومن قال : إنه ليس ببني قال : يحتمل أن يكون فعله بأمر نبي آخر .

وهذا يضعف ؛ لأنه ما علمنا أنه كان في زمن موسىنبي غيره إلا آخاه هارون ؛ وما نقل أحد من أهل الأخبار في ذلك شيئاً يُعول عليه .

وإذا جعلنا « أعلم منك » ليس على العموم ؛ وإنما هو على الخصوص . وفي قضيابا مُعينة - لم يَحْتَجْ إلى إثبات نبوة الخضر ، ولهذا قال بعض الشيوخ : كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله ، والخضر أعلم فيما دُفع إليه من موسى .

وقال آخر : إنما أُلْجَى موسى إلى الخضر للتأنيف لا للتعليم .

## الفصل التاسع

### عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأفعال ، ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام والاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد ، وما قدمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات . ومستند الجمهور في ذلك الإجماع الذي ذكرناه .

وهو مذهب القاضي أبي بكر ؛ ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع ، وهو قول

(١) سبق تخرجه وهو في مسلم في الفضائل (٢٢٧٨ / ٣) عن أبي هريرة .

الكافة . واختاره الأستاذ أبو إسحاق .

وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والقصیر في التبليغ ؛ لأن كل ذلك يقتضي العصمة منه العجزة ، مع الإجماع على ذلك من الكافة .

والجمهور قائل بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله ، معتصمون باختيارهم وكسبهم ، إلا حُسينا النجار ، فإنه قال : لا قدرة لهم على المعاصي أصلا .

وأما الصغار فجוזها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء ؛ وهو مذهب أبي جعفر الطبرى وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين . وسنورد بعد هذا ما احتجوا به .

وذهب طائفة أخرى إلى الوقف ، وقالوا : العقل لا يحيل وقوعها منهم ؛ ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين .

وذهب طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغار عصمتهم من الكبائر ؛ قالوا : لاختلاف الناس في الصغار وتعيينها من الكبائر وإشكال ذلك ، وقول ابن عباس وغيره : إن كل ما عُصي الله به فهو كبيرة ، وإنه إنما سُمي منها الصغير بالإضافة إلى ما هو أكبر منه ؛ ومخالفة الباري في أي أمر كان يجب كونه كبيرة .

قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : لا يمكن أن يُقال : إن في معاشي الله صغيرة إلا على معنى أنها تُغترف باجتناب الكبائر ، ولا يكون لها حكم مع ذلك ، بخلاف الكبائر إذا لم يُتب منها فلا يُحيطها شيء . والمشيّة في العفو عنها إلى الله تعالى ؛ وهو قول القاضي أبي بكر وجماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء .

قال القاضي - رحمه الله : وقال بعض أئمتنا : ولا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغار وكثرتها ؛ إذ يُتحققها ذلك بالكبائر ؛ ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة ، وأسقطت المروءة ، وأوجبت الإزارء والخساسة ؛ فهذا أيضاً مما يُعصي عنه الأنبياء إجماعاً ؛ لأن مثل هذا يحط منصبه المتسّم به ، ويزري بصاحبه ، وينفر القلوب عنه ؛ والأنبياء متزهون عن ذلك . بل يُلحق بهذا ما كان من قبل المباح ؛ فأدّى إلى مثله ؛ لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر .

وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم من مُوافقة المكروه قصدًا .

وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغار بالمصير إلى امثال أفعالهم ، واتباع آثارهم وسيرهم مطلقاً .

وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة من غير التزام قرينة ، بل مطلقاً عند بعضهم ، وإن اختلفوا في حكم ذلك .

وحكى ابن خويز منداذ وأبو الفرج عن مالك التزام ذلك وجوباً ، وهو قول الأبهري وابن القصار وأكثر أصحابنا .

وقول أكثر أهل العراق وابن سريج ، والإصطخري ، وابن خيران من الشافعية . وأكثر الشافعية على أن ذلك ندب .

وذهب طائفة إلى الإباحة .

وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعلم به مقصد القرية .

ومن قال بالإباحة في أفعاله لم يُقيد .

قال : فلو جوزنا عليهم الصغار لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده من القرية أو الإباحة أو الحظر أو المعصية . ولا يصح أن يُؤمر بامتثال أمر لعله معصية ، لا سيما على من يرى من الأصوليين تقديم الفعل على القول إذا تعارضَا .

ونزيد هذا حجة بأن نقول : من جوز الصغار ومن نفاهما عن نبينا ﷺ مُجتمعون على أنه لا يقر على منكر من قول أو فعل ، وأنه متى رأى شيئاً فسكت عنه ﷺ دل على جوازه ، فكيف يكون هذا حاله في حق غيره ، ثم يجوز وقوعه منه في نفسه .

وعلى هذا المأخذ تجب عصمته من مواجهة المكروه ، كما قيل . وإذا الحظر أو الندب على الاقتداء بفعله ينافي الزجر والنهي عن فعل المكروه .

وأيضاً فقد عُلم من دين الصحابة قطعاً الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف توجهت ، وفي كل فن كالاقتداء بأقواله ؛ فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه ، وخلعوا نعالهم حين خلع ، واحتجاجهم برأية ابن عمر إيه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس .

وااحتج غير واحد منهم في غير شيء مما باهُ العبادة أو العادة بقوله : رأيت رسول الله ﷺ يفعله ؛ وقال : « هلا خبرتيها أني أقبل وأنا صائم » <sup>(١)</sup> وقالت عائشة محتاجة : كنت أفعله أنا رسول الله ﷺ .

وغضب رسول الله ﷺ على الذي أخبر بمثل هذا عنه ؛ فقال : « يحل الله لرسوله ما

(١) مالك في الموطا (ص: ٢٩١ ، ٢٩٢) .

يشاء ؛ إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده «(١)» .

والآثار في هذا أعظم من أن نحيط بها ، لكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واتداوهم بها . ولو جوزوا عليه المخالفه في شيء منها لما اتسق هذا ، ولنقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك ، ولما أنكر عليه على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه .

وأما المباحثات فجائز وقوعها منهم ؛ إذ ليس فيها قدح ، بل هي مأذون فيها ، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلطة عليها ، إلا أنهم ما خصوا به من رفيع المزلة ، وشرحت له صدورهم من أنوار المعرفة ، واصطفوا به من تعلق بالهم بالله والدار الآخرة ، لا يأخذون من المباحثات إلا الضرورات مما يتقوون به على سلوك طريقهم ، وصلاح دينهم ، وضرورة دُنياهم ، وما أخذَ على هذه السبيل التحق طاعة وصار قربة ، كما بينا منه أول الكتاب طرفاً في خصال نبينا عليه ؛ فبان لك عظيم فضل الله على نبينا وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام بأن جعل أفعالهم قربات وطاعات بعيدة عن وجه المخالفه ورسم المعصية .

## الفصل العاشر

### في عصمتهم قبل النبوة

وقد اختلف في عصمتهم في المعاصي قبل النبوة ؛ فمنعها قوم ، وجوزها آخرون ، والصحيح إن شاء الله تزيههم من كل عيب ، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب ؛ فكيف والمسألة تصورها كالممتنع ؛ فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع .

وقد اختلف الناس في حال نبينا عليه قبل أن يوحى إليه ، هل كن متبعاً لشرع قبل أم لا ؟ فقال جماعة : لم يكن متبعاً لشيء ؛ وهذا قول الجمهور فالمعاشي على هذا القول موجودة . ولا معتبرة في حقه حيثند ؛ إذا الأحكام الشرعية إنما تتعلق بالأوامر والنواهي وتقرر الشريعة ، ثم اختلفت حُجج القائلين بهذه المقالة عليها ؛ فذهب سيف السنة ومقتدى فرق الأمة القاضي أبو بكر إلى أن طريق العلم بذلك النقل وموارد الخبر من طريق السمع ؛ وحاجته أنه لو كان ذلك لنقل ، وما أمكن كتمه وستره في العادة ؛ إذ كان من مُهم أمره ؛ وأولى ما اهتُبَل به من سيرته ، ولفَحَرَ به أهل تلك الشريعة ، ولا احتاجوا به عليه ؛ ولم يُؤثر من ذلك جملة .

وذهب طائفة إلى امتناع ذلك عقلا ؛ قالوا لأنَّه يبعد أن يكون متبعاً من عُرف تابعاً؛ وبنوا هذا على التحسين والتقييم ؛ وهي طريقة غير سديدة ؛ واستناد ذلك إلى

(١) انظر السابق .

النقل كما تقدم للقاضي أبو بكر أولى وأظهر .

وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره ﷺ ، وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك ؛ إذ لم يُحل أحد الوجهين منها العقل ، ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل ؛ وهو مذهب أبي المعالي .

وقالت فرقة ثالثة : إنه كان عاملاً بشرع من قبله ؛ ثم اختلفوا : هل يتعين ذلك الشعْر أم لا ؟ فوقف بعضهم عن تعينه ، وأحجم وجسر بعضهم على التعين وصمم .

ثم اختلفت هذه المعنية فيمن كان يتبع ؛ فقيل : نوح ، وقيل : إبراهيم ، وقيل : موسى ، وقيل : عيسى صلوات الله عليهم . فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة .

والظاهر فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر ، وأبعدها مذاهب المعنين ؛ إذ لو كان شيء من ذلك لُقل كما قدمنا ، ولم يخف جملة ؛ ولا حجة لهم في أن عيسى آخر الأنبياء فلزالت شريعته من جاء بعدها إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى ؛ بل الصحيح أنه لم يكن النبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ ؛ ولا حجة أيضاً للآخر في قوله : «أَنَّ أَتَّبَعْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حِنِيفاً» [التحل : ١٢٣] ، ولا للآخرين في قوله تعالى : «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّيَّ بِهِ نُوحًا» [الشورى : ١٣] . فمحمل هذه الآية على اتباعهم في التوحيد ؛ كقوله تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِهِدَاهُمْ أَفْتَدَهُ» [الأنعام : ٩٠] .

وقد سُمِّيَ الله تعالى فيهم من لم يبعث ، ولم تكن له شريعة تخصه ؛ كيوسف بن يعقوب على قول من يقول : إنه ليس برسول .

وقد سُمِّيَ الله تعالى جماعة منهم في هذه الآية شرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها ؛ فدل أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى .

وبعد هذا فهل يلزم من قال بمنع الاتباع لهذا القول في سائر الأنبياء غير نبينا ﷺ ، أو يخالفون بينهم ؟

أما من منع الاتباع عقلاً فيطرد أصله في كل رسول بلا مرية .

وأما من مال إلى النقل فأينما تصور له وتقرر اتباعه .

ومن قال بالوقف فعلى أصله . ومن قال بوجوب الاتباع لمن قبله فيلزم بمساق حجته في كلنبي .

## الفصل الحادي عشر

### السهو والنسيان في الأفعال

هذا حكمٌ ما تكون المخالفة فيه من الأعمال عن قصدٍ؛ وهو ما يسمى معصية، ويدخلُ تحت التكليف. وأما ما يكون بغير قصدٍ وتعمدٍ؛ كالسهو والنسيان في الوظائف الشرعية مما تقرر الشرع بعدم تعلق الخطاب به، وترك المؤاخذة عليه؛ فأحوال الأنبياء في ترك المؤاخذة به، وكونه ليس بمعصية لهم مع أنهم سواه.

ثم ذلك على نوعين:

ما طريقه البلاغ، وتقديرُ الشرع، وتعلق الأحكام؛ وتعليم الأمة بالفعل، وأخذهم باتباعه فيه.

وما هو خارج عن هذا مما يختص بنفسه.

أما الأول: فحكمه عند جماعة من العلماء حكم السهو في القول في هذا الباب. وقد ذكرنا الاتفاق على امتناع ذلك في حق النبي ﷺ، وعصمته من جوازه عليه قصدًا أو سهوًا؛ فكذلك قالوا: الأفعال في هذا الباب لا يجوز طرُو المخالفة فيها لا عمداً ولا سهوًا؛ لأنها بمعنى القول من جهة التبليغ والأداء، وطرو هذه العوارض عليها يوجب التشكيك، ويسبب المطاعن.

واعتذروا عن أحاديث السهو بتوجيهات ذكرها بعد هذا. وإلى هذا مال أبو إسحاق. وذهب الأكثرون من الفقهاء والتكلمين إلى أن المخالفة في الأفعال البلاغية والأحكام الشرعية سهوًا وعن غير قصد منه جائزة عليه، كما تقرر من أحاديث السهو في الصلاة؛ وفرقوا بين ذلك وبين الأقوال البلاغية لقيام العجزة على الصدق في القول، ومخالفة ذلك ينافيها.

وأما السهو في الأفعال فغير منافق لها، ولا قادح في النبوة؛ بل غلطات الفعل وغفلات القلب من سمات البشر، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشرٌ، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»<sup>(١)</sup>، نعم، بل حالة النسيان والسهو هنا في حقه ﷺ سبب إفادة علم

(١) البخاري في العلم (٤٠١) ومسلم في صلاة المسافرين (٥٧٢/٩٢ مكرر، ٩٣، ٩٤).

وتقدير شرع ، كما قال ﷺ : « إني لأنسى أو أنسى لأنسنا » .  
بل قد رُوي : « لست أنسى ، ولكن أنسى لأنسنا » <sup>(١)</sup> .

وهذه الحالة زيادة في التبليغ ، وتمام عليه في النعمة بعيدة عن سمات التقصص وأغراض الطعن ؛ فإن القائلين بتجويز ذلك يشترطون أن الرسل لا تُقرُّ على السهو والغلط ؛ بل ينْهُون عليه ، ويعرّفون حكمه بالفور على قول بعضهم ، وهو الصحيح . وقبل انفراطهم على قول الآخرين .

وأما ما ليس طريقه البلاغ ، ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ ، وما يختصُّ به من أمور دينه وأذكار قلبه مما لم يفعله ليتبع فيه فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها ، ولو حوق الفترات والغفلات بقلبه ؛ وذلك بما كلفه من مقاساة الخلق ، وسياسات الأمة ، ومعاناة الأهل ، وملاحظة الأعداء ؛ ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال ؛ بل على سبيل الندور ، كما قال ﷺ : « إنه ليُغَانَ على قلبي ، فأستغفر الله » <sup>(٢)</sup> .

وليس في هذا شيء يَحُطُّ من رُتبته ويناقض معجزته .

وذهب طائفة إلى منع السهو والنسيان والغفلات والفترات في حقه <sup>ﷺ</sup> جملة .

وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات ، ولهم في هذه الأحاديث مذاهب نذكرها بعد هذا إن شاء الله .

## الفصل الثاني عشر

### في الكلام على الأحاديث المذكورة فيها السهو منه <sup>ﷺ</sup>

وقد قدمنا في الفصول قبل هذا ما يجوز فيه عليه السهو <sup>ﷺ</sup> وما يمتنع ، وأحلناه في الأخبار جملة ، وفي الأقوال الدينية قطعاً ، وأجزنا وقوعه في الأفعال الدينية على الوجه الذي رتبناه ، وأشارنا إلى ما ورد في ذلك ؛ ونحن نبسط القول فيه نقول : والصحيح من الأحاديث الواردة في سهوه <sup>ﷺ</sup> في الصلاة ثلاثة أحاديث :

أولها : حديث ذي اليدين في السلام من اثنين .

(١ ، ٢) سبق تخرّيجهما .

الثاني : حديث ابن بُحَيْنَةَ في القيام من اثنتين .

الثالث : حديث ابن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ صلى الله عز وجله عليه السلام خمساً<sup>(١)</sup> .

وهذه الأحاديث مبنية على السهو في الفعل الذي قررناه ، وحكمة الله فيه ليستَنَ به ؛ إذ البلاغ بالفعل أجلٍ منه بالقول ، وأرفع للاحتمال ؛ وشرطه أنه لا يُقرَّ على السهو ؛ بل يشعر به ليرتفع الالتباس ، وتظهر فائدة الحكمة فيه كما قدمناه ؛ فإن النسيان والسهو في الفعل في حقه ﷺ غير مضاد للمعجزة ، ولا قادح في التصديق ؛ وقد قال ﷺ : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ ؛ فَإِذَا نَسِيْتُ فَذَكَرُونِي »<sup>(٢)</sup> .

وقال ﷺ « رَحْمَةُ اللهِ فَلَانَا ، لَقَدْ أَذْكَرْنِي كَذَا وَكَذَا أَيْةً كُنْتُ أَسْقُطْهُنَّ »<sup>(٣)</sup> - ويروى : أَنْسَيْتُهُنَّ ». وقال ﷺ : « إِنِّي لَأَنْسَى ، أَوْ أَنْسَى ، لَأَسْنُ »<sup>(٤)</sup> .

قيل : هذا اللفظ شك من الراوي . وقد روي « إِنِّي لَأَنْسَى ، وَلَكِنْ أَنْسَى لَأَسْنُ ». وذهب ابن نافع وعيسى بن دينار أنه ليس بشك ؛ فإن معناه : التقسيم ؛ أي : أَنْسَى أنا ، أو يُنسِينِي الله .

قال القاضي أبو الوليد الجاجي : يحتمل ما قاله أن يُريد أنِّي أَنْسَى في اليقظة وأَنْسَى في النوم ، أو أَنْسَى على سبيل عادة البشر من الذهول عن الشيء والسهو ؛ وأَنْسَى مع إقبالِي عليه وتفرغِي له ؛ فأضاف أحد النسَيَانَيْنَ إلى نفسه ؛ إذ كان له بعض السبب فيه ، ونفى الآخر عن نفسه ؛ إذ هو فيه كالمضطرّ .

وذهب طائفة من أصحاب المعاني والكلام على الحديث إلى أن النبي ﷺ كان يسهو في الصلاة ولا يَنسِي ؛ لأن النسيانَ ذهولٌ وغفلةٌ وآفة ؛ قال : والنبي ﷺ مِنَّهُ مِنَّهُ عنها ؛ والسهو شُغْلٌ ؛ فكان النبي ﷺ يسهو في صلاته ، ويشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة ، شُغْلاً بها لا غفلة عنها .

واحتاج بقوله في الرواية الأخرى : « إِنِّي لَأَنْسَى » .

وذهب طائفة إلى منع هذا كله عنه ، وقالوا : إن سهوه عليه السلام كان عمداً وقصدًا ليسَ .

وهذا قولٌ مُرْغُوبٌ عنه ، مُتَنَاقِضٌ لِمَقاصِدِه ، لا يُحْلِي منه بظليل ؛ لأنَّه كَيْفَ يَكُونُ

متعمداً ساهياً في حال . ولا حجة لهم في قوله : إنه أمر بعمد صورة النسيان ليسَ ، لقوله : « إني لأنسى أو أنسى » . وقد أثبت أحد الوصفين ونفي مناقضة التعمد والقصد ، وقال : « إنما أنا بشرٌ مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني » .

وقد مال إلى هذا عظيم من المحققين ، من أمتنا ، وهو أبو المظفر الإسفارائي ، ولم يرضه غيره منهم ، ولا أرتضيه ، ولا حجة لهاتين الطائفتين في قوله : « إني لا أنسى ، ولكن أنسى » ، إذ ليس فيه نفي حُكْم النسيان بالجملة ، وإنما فيه نفي لفظه ، وكرامة لقبه ، كقوله : « بِسَمَا لَأَحْدَكُمْ أَنْ يَقُولَ : نَسِيَتْ آيَةً كَذَا ، وَلَكُنْهُ نُسِيَّ » ، أو نَفَيَ الْعَفْلَةُ وقلة الاهتمام بأمر الصلاة عن قلبه ، لكن شغل بها عنها ، ونسى بعضها ببعضها ، كما ترك الصلاة يوم الخندق حتى خرج وقتها ، وشغل بالتحرر من العدو عنها ؛ فشغل بطاعة عن طاعة .

وقيل : إن الذي تُرُك يوم الخندق أربع صلوات : الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وبه احتاج من ذهب إلى جواز تأخير الصلاة في الخوف ، إذا لم يتمكن من أدائها إلى وقت الأمان ، وهو مذهب الشاميين .

والصحيح أن حكم صلاة الخوف كان بعد هذا ، فهو ناسخ له .

فإن قلت : فما تقول في نومه ﷺ عن الصلاة يوم الوادي ، وقد قال : « إن عيني تنامان ولا ينام قلبي »؟ .

فاعلم أن للعلماء في ذلك أجوبة ، منها : أن المراد بأن هذا حُكْمُ قلبه عند نومه وعينيه في غالب الأوقات ، وقد يندرُ منه غير ذلك ، كما يندرُ من غيره خلاف عادته ، ويُصححُ هذا التأويل قوله ﷺ في الحديث نفسه : « إن الله قبض أرواحنا »<sup>(١)</sup> .

وقول بلال فيه : ما أُلقيت على نومةٍ مثلها قط ، ولكن مثل هذا إنما يكون منه لأمر يريده الله من إثبات حكم ، وتأسيس سُنَّة ، وإظهار شرع ، وكما قال في الحديث الآخر : « لو شاء الله لايقطنا ، ولكن أراد أن يكون ملن بعدكم » .

الثاني : أن قلبه لا يستغرقه النوم حتى يكون منه الحديث فيه ، لما روِي أنه كان محروساً ، وأنه كان ينام حتى ينفع حتى يسمع غَطْيَطَه ، ثم يُصلِّي ولا يتوضأ .

وحدث ابن عباس المذكور فيه وضوءه عند قيامه من النوم ، فيه نومه مع أهله ؛ فلا

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٧١)

يمكن الاحتجاج به على وضوئه بمجرد النوم ، إذ لعل ذلك ملامسته الأهل أو حدث آخر ، فكيف وفي آخر الحديث نفسه : « ثم نام حتى سمعتُ غَطِيطَه » <sup>(١)</sup> ثم أقيمت الصلاة فصلى ولم يتوضأ .

وقيل : لا ينام قلبه من أجل أنه يوحى إليه في النوم ، وليس في قصة الوادي إلا نوم عينيه عن رؤية الشمس . وليس هذا من فعل القلب ، وقد قال عليه السلام : « إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردها إلينا في حين غير هذا » .

فإن قيل : فلو لا عادته من استغراق النوم لما قال لبلال : « أَكْلَلَنَا الصُّبُحُ » .

فقيل في الجواب : إنه كان من شأنه عليه السلام التغليس بالصبح ؛ ومراعاة أول الفجر لا تصح من نامت عينه ؛ إذ هو ظاهر يدرك بالجوارح الظاهرة ؛ فوكل بلااً بمراعاة أوله ليعلم بذلك ، كما لو شغل بشغل غير النوم عن مراعاته .

فإن قيل : فما معنى نهيه عليه السلام عن القول : نسيت ، وقد قال عليه السلام : « إني أنسى كما تنسون ، فإن نسيت فذكروني ». وقال : « لقد أذكروني كذا وكذا آية كنتُ أنسيتها » .

فاعلم - أكرمك الله - أنه لا تعارض في هذه الألفاظ ؛ أما نهيه عن أن يقال نسيت آية كذا فمحمول على ما نسخ نقله من القرآن ، أي : أن الغفلة في هذا لم تكن منه ، ولكن الله تعالى أضطره إليها ليمحو ما يشاء ويبث ، وما كان من سهو أو غفلة من قلبه تذكرها صلح أن يقال فيه : أنسى .

وقد قيل : إن هذا منه عليه السلام على طريق الاستحباب أن يُضيّف الفعل إلى حالته ، والآخر على طريق الجواز لاكتساب العبد فيه ، وإسقاطه عليه السلام لما أسقط من هذه الآيات جائز عليه بعد بلوغ ما أمر ببلوغه ، وتوصيله إلى عباده ، ثم يستذكرها من أمته ، أو من قبل نفسه ، إلا ما قضى الله نسخه ومحوه من القلوب وترك استذكاره .

وقد يجوز أن ينسى النبي عليه السلام ما هذا سبileه كره ؛ ويجوز أن ينسيه منه قبل البلاع ما لا يغير نظماً ، ولا يخلط حكمًا ، مما لا يدخل خللاً في الخبر ، ثم يذكره إيه ، ويستحيل دوام نسيانه له ؛ لحفظ الله كتابه ، وتكليفه بلواغه .

### الفصل الثالث عشر

#### في الرد على من أجاز عليهم الصغائر، والكلام على ما احتجوا به في ذلك

اعلم أن المجوزين للصغائر على الأنبياء من الفقهاء والمحدثين ومن شايعهم على ذلك من المتكلمين ؛ احتجوا على ذلك بظواهر كثيرة من القرآن والحديث إن التزموا ظواهرها أفضت بهم إلى تجويز الكبائر وخرق الإجماع ، وهو ما لا يقول به مسلم ، فكيف وكل ما احتجوا به مما اختلف المفسرون في معناه ، وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه ، وجاءت أفاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموا من ذلك ، فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً وكان الخلاف فيما احتجوا به قديماً ، وقامت الدلالة على خطأ قولهم ، وصحة غيره ، وجب تركه والمصير إلى ما صح .

وها نحن نأخذ في النظر فيها إن شاء الله :

فمن ذلك : قوله تعالى لنبينا محمد ﷺ : « لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » [الفتح : ٢] .

وقوله : « وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ » [محمد : ١٩] .

وقوله : « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » [الشرح : ٣٢] .

وقوله : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَا أَذَنْتَ لَهُمْ » [التوبه : ٤٣] .

وقوله : « لَوْلَا كَتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكِمٍ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [التوبه : ٦٨] .

وقوله : « عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى » [عبس : ٢، ١] .

وما قص من قصص غيره من الأنبياء كقوله : « وَعَصَى آدُمْ رَبَّهُ فَغَوَى »

[طه : ١٢١]

وقوله : « فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ »

[الأعراف : ١٩٠]

وقوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

[الأعراف : ٢٣]

وقوله عن يونس : « سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » [الأنبياء : ٨٧] .  
وما ذكر من قصة داود ؛ وقوله : « وَظَنَّ دَاؤِدُ أَنَّمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبِّهِ وَخَرَأْكِعَا وَأَنَابَ . فَغَفَرَنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَابَ » [ص ٢٤ - ٢٥] .

وقوله : « وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهَمَ بِهَا » [يوسف : ٢٤] وما قص من قصته مع إخوته .

وقوله عن موسى : « فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُُضِلٌّ مُّبِينٌ » [القصص : ١٥] .

وقول النبي ﷺ في دعائه : « اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت » . ونحوه من أدعيته ﷺ .

وذكر الأنبياء في الموقف ذنوبهم في حديث الشفاعة .

وقوله : « إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ » .

وفي حديث أبي هريرة : « إِنِّي لَا سْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوْبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

وقوله تعالى عن نوح : « وَلَا تَغْفِرُ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [هود : ٤٧] ، وقد كان قال الله له : « وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوْا إِنَّهُمْ مُغْرَقُوْنَ » [هود : ٣٧] .

وقال عن إبراهيم : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطَّيْتِي يَوْمَ الدِّينِ »

[الشعراء : ٨٢]

وقوله عن موسى : « تُبْتُ إِلَيْكَ » [الأعراف : ١٤٣] .

وقوله : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ » [ص : ٣٤] . . . إلى ما أشبه هذه الظواهر .

قال القاضي - رحمه الله : فاما احتجاجهم بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ » [الفتح : ٢] . فهذا قد اختلف فيه المفسرون ؛ فقيل : المراد ما كان قبل النبوة وبعدها .

وقيل : المراد ما وقع لك من ذنب وما لم يقع . أعلمك أنه مغفور له .

وقيل : المتقدم ما كان قبل النبوة ، والتأخر عصمتك بعدها حكاه أحمد بن نصر .

وقيل : المراد بذلك أمته ﷺ .

وقيل : المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل ، حكاه الطبرى ، واختاره القشيري .

وقيل : ما تقدم لأبيك آدم ، وما تأخر من ذنوب أمتك ؛ حكاه السمرقندى والسلمى عن بن عطاء .

وبمثله والذى قبله يتأول قوله : « وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ » [ محمد : ١٩ ] ؛ قال مكى : مخاطبة النبي ﷺ هنا مخاطبة لأمته .

وقيل : إن النبي ﷺ لما أمر أن يقول : « وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » [ الأحتفاف : ٩ ] سُرّ بذلك الكفار ؛ فأنزل الله تعالى : « لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ » [ الفتح : ٢ ] . وبما المؤمنين في الآية الأخرى بعدها ؛ قاله ابن عباس .

فمقصد الآية : إنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان . قال بعضهم : المغفرة هنا تبرئة من العيوب .

وأما قوله : « وَوَضَعَنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » [ الشرح : ٢ ، ٣ ] ؛ فقيل : ما سلف من ذنبك قبل النبوة ؛ وهو قول ابن زيد والحسن ، ومعنى قول قتادة .

وقيل : معناه أنه حفظ قبل نبوته منها وعصم ؛ ولو لا ذلك لانقلت ظهره ؛ حكى معناه السمرقندى .

وقيل : المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى بلغها ؛ حكاه الماوردي ، والسلمى . وقيل : حططنا عنك ثقل أيام الجاهلية ؛ حكاه مكى .

وقيل : ثقل شغل سررك وحيرتك وطلب شريعتك حتى شرعنا ذلك لك ، وحكى معناه القشيري .

وقيل : معناه : خففنا عنك ما حملت بحفظنا لما استحفظت ، وحفظ عليك .

ومعنى : « أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » ؛ أي : كاد ينقضه ؛ فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قبل النبوة اهتمام النبي ﷺ بأمور فعلها قبل نبوته ، وحرمت عليه بعد النبوة ، فعدها أوزاراً وثقلت عليه ، وأشغف منها .

أو يكون الوضع عصمة الله له وكفايته من ذنوب لو كانت لأنقضت ظهره .  
أو يكون من ثقل الرسالة ؛ أو ما ثقل عليه وشغل قلبه من أمور الجاهلية ، وإعلام الله تعالى له بحفظ ما استحفظه من وحيه .

وأما قوله : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ » [التوبه : ٤٣] . فأمر لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله تعالى نهي فيُعد معصية ، ولا عَدَهُ الله تعالى عليه معصية ؛ بل لم يعده أهل العلم مُعاتبة . وغلطوا من ذهب إلى ذلك ؛ قال نفطويه : وقد حاشاه الله تعالى من ذلك ؛ بل كان مخيراً في أمرین ؛ قالوا : وقد كان له أَنْ يَفْعُلُ مَا شاء فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ فِيهِ وَحْيٌ ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَأَذْنَ لَمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » [النور : ٦٢] ، فلما أذن لهم أعلمهم الله بما لم يطلع عليه من سرِّهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل ، وليس « عَفَا » هنا بمعنى غفر ؛ بل كما قال النبي ﷺ « عَفَا اللَّهُ لَكُمْ عَنِ الصَّدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرِّقْبَيْنِ »<sup>(١)</sup> ، ولم تُحْبَطْ عَلَيْهِمْ قَطُّ ؛ أي : لم يُلْزِمُكُمْ ذَلِكَ .

ونحوه للقُشيري ؛ قال : وإنما يقول : العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب ؛ قال : ومعنى « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ » ؛ أي : لم يُلْزِمْكَ ذَنْبًا .  
قال الداودي : رُوِيَ أنَّهَا كَانَتْ تَكْرَمَةً .

وقال مكي : هو استفتاح كلام ؛ مثل : أصلحك الله وأعزك .

وحكى السمرقندى أن معناه عافاك الله .

وأما قوله في أسرى بدر : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [الأنفال : ٦٧ ، ٦٨] . فليس فيه إلزام ذنب للنبي ﷺ ؛ بل فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء ؛ فكأنه قال : ما كان هذا لنبي غيرك ؛ كما قال ﷺ : « أَحْلَتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحْلْ لِنَبِيٍّ قَبْلِيٍّ »<sup>(٢)</sup> .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ »

[الأنفال : ٦٧]

(١) الترمذى في الزكاة (٦٢٠) بلفظ : « قد عفوت » عن علي .

(٢) البخارى في فرض الخمس (٣١٢٢) عن جابر بن عبد الله .

قيل : المعنى الخطاب لمن أراد ذلك منهم وتجرد غرضه لغرض الدنيا وحده والاستكثار منها ، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عليه أصحابه ، بل قد روي عن الضحاك : أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتعل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال ، حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو .

ثم قال تعالى : « لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [الأنفال: ٦٨] فاختلاف المفسرون في معنى الآية ، فقيل : معناها : لو لا أنه سبق مني أن لا أذب أحداً إلا بعد النهي لعذبكم .

فهذا يعني أن يكون أمر الأسرى معصية .

وقيل : المعنى لو لا إيمانكم بالقرآن ، وهو الكتاب السابق فاستوجبتم به الصفع لعوقبتم على الغنائم .

ويزاد هذا القول تفسيراً وبياناً بأن يقال : لو لا ما كتتم مؤمنين بالقرآن ، وكتتم من أحلت لهم الغنائم لعوقبتم كما عوقب من تدعى .

وقيل : لو لا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتم .

فهذا كله ينفي الذنب والمعصية ؛ لأن من فعل ما أحل له لم يعص ؛ قال الله تعالى : « فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » [الأنفال: ٦٩] .

وقيل : بل كان ﷺ قد خير في ذلك ؛ وقد روي عن علي بن أبي طالب ، قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يوم بدر ، فقال خير أصحابك في الأساري ، إن شاؤوا القتل ، وإن شاءوا الفداء على أن يُقتل منهم في العام المقبل مثلهم فقالوا : الفداء ويقتل منا .

وهذا دليل على صحة ما قلناه ، وأنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه ؛ لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل ؛ فعوتبوا على ذلك ، وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم ؛ وكلهم غير عصاة ولا مذنبين ؛ وإلى هذا أشار الطبرى .

وقوله ﷺ في هذه القضية : « لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر » إشارة إلى هذا من تصويب رأيه ورأي من أخذ بما خذه ، وفي إعزاز الدين ، وإظهار كلامه ، وإيادة عدوه ، وأن هذه القضية لو استوجبت عذاباً نجا منه عمر : وعین عمر لأنه أول من

وأشار بقتلهم ؛ ولكن الله لم يُقدر عليهم في ذلك عذاباً خلقه لهم في ما سبق .

وقال الداودي : والخبر بهذا لا يثبت ، ولو ثبت لما جاز أن يظن أن النبي ﷺ حكم بما نص فيه ولا دليل من نص ، ولا جعل الأمر فيه إليه ؛ وقد نزهه الله تعالى من ذلك .

وقال القاضي بكر بن العلاء : أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلال الغنائم والفاء ؛ وقد كان قبل هذا فادوا في سرية عبد الله بن جحشن التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه ؛ فما عتب الله ذلك عليهم ؛ وذلك قبل بدر بأزيد من عام .

فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسرى كان على تأويل و بصيرة ، وعلى ما تقدم قبل مثله ؛ لم ينكره الله تعالى عليهم لكن الله تعالى أراد - لعظم أمر بدر وكثرة أسرها - والله أعلم - إظهار نعمته ، وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لهم ، لا على وجه عتاب وإنكار وتذبيب . هذا معنى كلامه .

وأما قوله : «عَبَسَ وَتَوَلََّيْ . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى» [عبس : ١ ، ٢] . فليس فيه إثبات ذنب له ﷺ ؛ بل إعلام الله أن ذلك المتصدي له من لا يتزكي ، وأن الصواب لا أولى - أو كُشف لك حال الرجلين - الإقبال على الأعمى .

وفعل النبي ﷺ لما فعل ، وتصديه لذلك الكافر ، كان طاعة الله وتبليغاً عنه ، واستثناؤه ، كما شرعه الله له ، لا معصية ، ولا مخالفة له .

وما قصة الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر عنده ، والإشارة إلى الإعراض عنه ، بقوله : «وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَرَكَ» [عبس : ٧] .

وقيل : أراد بـ «عَبَس» ، و «تَوَلَّ» الكافر الذي كان مع النبي ﷺ ، قاله أبو تمام . وأما قصة آدم عليه السلام ، وقوله تعالى : «فَأَكَلَا مِنْهَا» [طه : ١٢١] بعد قوله : «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَتَكُونُنَا مِنَ الظَّالِمِينَ» [البقرة : ٣٥] وقوله : «أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تُلْكُمَا الشَّجَرَةِ» [الأعراف : ٢٢] وتصريحة تعالى عليه بالمعصية بقوله تعالى : «وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى» [طه : ١٢١] أي : جهل .

وقيل : أخطأ ؛ فإن الله تعالى قد أخبر بعذرها بقوله : «وَلَقَدْ عَهَدْنَا إِلَيْ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزَمًا» [طه : ١١٥] ؛ قال ابن زيد : نسى عداوة إبليس له ، وما عهد

الله إليه من ذلك بقوله : «إِنَّ هَذَا عَدُوًّا لَكَ وَلِزَوْجِكَ» [طه : ١١٧] . وقيل : نسي ذلك بما أظهر لهما .

وقال ابن عباس : إنما سُمي الإنسان إنساناً لأنه عهد إليه فنسى .

وقيل : لم يقصد المخالففة استحللاً لها ، ولكنهما اغترأ بحلف إبليس لهما : «إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» [الأعراف : ٢١] ؛ وتوهما أن أحداً لا يحلف بالله حانثاً .

وقد روى عنر آدم بمثل هذا في بعض الآثار .

وقال ابن جُبَير : حلف بالله لهما حتى غرّهما ؛ والمؤمن يخدع .

وقد قيل : نسي ، ولم ينو المخالففة ؛ فذلك قال : «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» [طه : ١١٥] ؛ أي : قصدًا للمخالففة .

وأكثر المفسرين على أن العزم هنا الجزم والصبر .

وقيل : كان عند أكله سكران ؛ وهذا فيه ضعف ؛ لأن الله تعالى وصف خمر الجنة أنها لا تُسُكر ؛ فإذا كان ناسيًا لم تكن معصية ؛ وكذلك إن كان مُلبسًا عليه غالطاً ؛ إذ الاتفاق على خروج الناسي والساهي عن حكم التكليف .

وقال الشيخ أبو بكر بن فورك وغيره : إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة ؛ ودليل ذلك قوله تعالى : «وَعَصَى آدُمْ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» [طه : ١٢١] [١٢٢] ذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان .

وقيل : بل أكلها متأولاً ، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نُهِي عنها ؛ لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ؛ ولهذا قيل : إنما كانت التوبه من ترك التحفظ ، لا من المخالففة .

وقيل : تأول أن الله لم ينبه عنها نهي تحريم .

فإن قيل : فعلى كل حال فقد قال الله تعالى : «وَعَصَى آدُمْ رَبَّهُ فَغَوَى» ؛ وقال : «فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» . قوله في حلوث الشفاعة : ويدرك ذنبه ، وقال : إني نُهيت عن أكل الشجرة فعصيت ، فسيأتي الجواب عنه وأشباهه مُجملًا آخر الفصل إن شاء الله .

وأما قصة يونس فقد مضى الكلام على بعضها آنفًا ؛ وليس في قصة يونس نص على ذنب ؛ وإنما فيها : أبق وذهب مغاضبًا وقد تكلمنا عليه .

وقيل : إنما نقم الله عليه خروجه عن قومه فاراً من نزول العذاب .

وقيل : بل لما وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال : والله لا ألقاهم بوجه كذاب أبداً .

وقيل : بل كانوا يقتلون من كذب فخاف ذلك .

وقيل : ضعف عن حمل أعباء الرسالة . وقد تقدم الكلام أنه لم يكذبهم .

وهذا كله ليس فيه نص على معصية إلا على قول مرغوب عنه .

وقوله : **﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلُكِ الْمَشْحُونِ﴾** [الصافات: ١٤٠] قال المفسرون تباعد .

وأما قوله : **﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧] ؛ فالظلم وضع الشيء في غير موضعه ؛ فهذا اعتراف منه عند بعضهم بذنبه ؛ فإنما أن يكون خروجه عن قومه بغير إذن ربه ، أو لضعفه عما حمله ، أو لدعائه بالعذاب على قومه . وقد دعا نوح بهلاك قومه فلم يواخذ .

وقال الواسطي في معناه : نزه ربه عن الظل ، وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً . ومثل هذا قول آدم وحواء : **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾** [الأعراف: ٢٣] إذ كانا السبب في وضعهما غير الموضع الذي أنزلوا فيه ، وإخراجهما من الجنة وإنزالهما إلى الأرض .

وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ؛ ونقله بعض المفسرين . ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح . والذي نص الله عليه قوله :

**﴿وَظَنَّ دَاؤُودُ أَنَّمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَأِكِعًا وَأَنَابَ . فَغَفَرَنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسْنَ مَآبٍ﴾** [ص: ٢٤ ، ٢٥].

وقوله : فيه : **﴿أَوَّابٌ﴾** .

فمعنى فتنته : اختبرناه ، وأواب قال قتادة : مطيع .

وهذا التفسير أولى .

وقال ابن عباس ، وابن مسعود : ما زاد داود على أن قال للرجل : انزل لي عن أمراتك وأكفلنها ؛ فعاتبه الله على ذلك ، ونبهه عليه ، وأنكر عليه شغله بالدنيا ، وهذا الذي ينبغي أن يعول عليه من أمره .

وقيل : خطبها على خطبته .

وقيل : بل أحب بقلبه أن يُستشهد .

وحكى السمرقندى أن ذنبه الذى استغفر منه قوله لأحد الخصمين : « لَقَدْ ظَلَمْتَ بِسُؤَالِ نَعْجِنَكَ » [ص : ٢٤]. فظلمه بقول خصمه .

وقيل : بل لما خشي على نفسه ، وطن من الفتنة بما بسط به من الملك والدنيا . وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك - ذهب أحمد بن نصر ، وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين .

وقال الداودى : ليس في قصة داود وأوريا خبر ثبت ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم .

وقيل : إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في نعاج غنم ، على ظاهر الآية .

وأما قصة يوسف وأخوه فليس على يوسف فيها تعقب ، وأما إخوه فلم ثبت نبوتهم فيلزم الكلام على أفعالهم . وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء ليس صريحاً في كونهم من أهل الأنبياء .

قال المفسرون : ي يريد من نبئ من أبناء الأسباط .

وقد قيل إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صغار الأستان ؛ ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به ؛ ولهذا قالوا : أرسله معنا غداً نرتع ونلعب ، وإن ثبتت لهم نبوة بعد هذا ، والله أعلم .

وأما قول الله تعالى فيه : « وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » [يوسف : ٢٤] فعلى طريق كثير من الفقهاء والمحاذين أنهم النفس لا يؤاخذ به ؛ وليس سيئة ؛ لقوله ﷺ عن ربه : « إِذَا هُمْ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلُهَا كَتَبْتَ لَهُ حَسَنَةً » ، فلا معصية في همّه إذا .

وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإنهم إذا وُطنت عليه النفس سيئة ، وأما ما لم تُوطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المغفو عنه .

وهذا هو الحق ؛ فيكون - إن شاء الله - هم يوسف من هذا ؛ ويكون قوله : « وَمَا أَبْرَئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبَّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » [يوسف : ٥٣] . أي : ما أُبرئها من هذا الهم ؛ أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف

بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرئ ، كيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة - أن يوسف لم يهم ، وأن الكلام به تقديم وتأخير ؛ أي : ولقد همت به ؛ ولو لا أن رأى برهان ربه لهم بها ؛ وقد قال تعالى - عن المرأة : ﴿وَلَقَدْ رَأَوْدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمْ﴾ [يوسف: ٣٢] وقال تعالى : ﴿كَذَلِكَ لَنْصُرْفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿وَغَلَقْتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثَوِي﴾ [يوسف: ٢٣] .

قيل في «ربى» : الله تعالى . وقيل : الملك .

وقيل : هم بها ؛ أي : يزجرها ووعظها .

وقيل هم بها ؛ أي : غمها امتناعها عنها .

وقيل : هم بها : نظر إليها .

وقيل : هم بضررها ودفعها .

وقيل : هذا كله قبل نبوته .

وقد ذكر بعضهم : ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوة ؛ فشغلت هيبه كل من رأه عن حُسنه .

وأما خبر موسى عليه السلام من قتيله الذي وكزه فقد نص الله تعالى أنه من عدوه ، قال : كان من القبط الذين على دين فرعون .

ودليل السورة في هذا كله أنه قبل نبوة موسى .

وقال قنادة : وكزه بالعصا ، ولم يتعد قتلها ، فعلى هذا لا معصية في ذلك .

وقوله : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] . وقوله : ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] قال ابن جريج : قال ذلك من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر .

وقال النقاش : لم يقتله عن عمدٍ مُرِيداً للقتل ، وإنما وكزه وكزه يريدُ بها دفع ظلمه ، قال : وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوة ؛ وهو مقتضى التلاوة .

وقوله تعالى - في قصته : ﴿وَفَتَّاكَ فَتُونَا﴾ [طه: ٤٠] ، أي : ابتليناك ابتلاءً بعد ابتلاء . قيل في هذه القصة وما جرى له مع فرعون . وقيل : إلقاءه في التابوت واليم ، وغير ذلك .

وقيل : معناه أخلصناك إخلاصاً ؛ قاله ابن جُبُير ومجاهد ؛ من قولهم : فتنت الفضة في النار إذا خلصتها . وأصل الفتنة معنى الاختبار ، وإظهار ما بَطَنَ ، إلا أنه استعمل في عرف الشرع في اختبار أدى إلى ما يُكره .

ومن ذلك ما روي في الخبر الصحيح ؛ من أن ملك الموت جاءه فلطم عينه ففَقَأَهَا . . . . (١) الحديث .

ليس فيه ما يُحکم به على موسى بالتعدي وفعل ما لا يجب له ، إذ هو ظاهر الأمر ، يَبْيَنُ الوجه ، جائز الفعل ؛ لأن موسى دافع عن نفسه من أَنَّاهُ لِإِتَّلَافِهَا ، وقد تصور له في صورة آدمي ، ولا يمكنُ أنه علم حينئذ أنه ملك الموت ، فدافعه عنه نفسه مدافعة أَدَتَ إلى ذهاب عين تلك الصورة التي تصور له فيها الملك امتحاناً من الله له ، فلما جاءه بعده ، وأعلمته الله تعالى أنه رسوله إليه استسلم .

وللمتقدمين والمتاخرين على هذا الحديث أوجوبة هذا أَسْدُهَا عندي ، وهو تأويل شيخنا الإمام أبي عبد الله المازري .

وقد تأوله قدِيماً ابن عائشة وغيره على صكِه ولطمه بالحجارة ، وفَقَأَ عين حجته ، وهو كلام مستعمل في هذا الباب في اللغة معروف .

وأما قصة سليمان وما حكى فيها أهل التفاسير من ذنبه وقوله : «ولَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ» [ص : ٣٤] ؛ فمعناه ابتليناه ، وابتلاوه : ما حكى عن النبي ﷺ أنه قال : «لأطوفنَ الليلَةَ عَلَى مائةِ امْرَأَةٍ أَوْ تَسْعَ وَتَسْعِينَ كُلَّهُنَّ يَأْتِينَ بِفَارَسٍ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : قَلْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَلَمْ يَقُلْ . فَلَمْ تَحْمُلْ مِنْهُمْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشَقْ رَجْلٍ» .

قال النبي ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» (٢) .

قال أصحاب المعاني : والشَّقُّ هو الْجَسْدُ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى كَرْسِيهِ حِينَ عُرِضَ عَلَيْهِ ، وهو عقوبته ومحنته .

وقيل : بل مات فُلُقِيَ عَلَى كَرْسِيهِ مِيتاً .

وقيل : ذنبه حرصه على ذلك وتمنيه .

(١) البخاري في الجنائز (١٣٣٩) ، ومسلم في النضائل (٢٣٧٢ / ١٥٧ / ١٥٨) عن أبي هريرة .

(٢) البخاري في الأيمان (٦٦٣٩) عن أبي هريرة .

وقيل : لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص ، وغلب عليه من التمني .

وقيل : عقوبته أن سُلْب مُلكه ، وذنبه أن أحب بقلبه أن يكون الحق لأختانه على خصمهم .

وقيل : أخذ بذنب قارفه بعض نسائه . ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به ، وسلطه على ملكه ، وتصرفه في أمره بالجور في حكمه ؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا ؛ وقد عصم الأنبياء من مثله .

وإن سُئل : لم يقل سليمان في القصة المذكورة : إن شاء الله ؟ فعنده أوجوبة :

أحدها : ما روي في الحديث الصحيح أنه نسي أن يقولها ، وذلك لينفذ مراد الله تعالى .

والثاني : أنه لم يسمع صاحبه وشغل عنه .

وقوله : **هُوَهُبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْنِي لَأَحَدٌ مِّنْ بَعْدِي** [ص : ٣٥] . لم يفعل هذا سليمان **غَيْرَهُ** على الدنيا ولا نفاسة بها ؛ ولكن مقصده في ذلك - على ما ذكره المفسرون - ألا يسلط عليه أحدكم سلطان عليه الشيطان الذي سلبه إيهام مدة امتحانه على قول من قال ذلك .

وقيل : بل أراد أن يكون له من الله فضيلة وخاصة يختص بها كاختصاص غيره من أنبياء الله ورسله بخواص منه .

وقيل : ليكون لذلك دليلا وحججا على نبوته ؛ كلامه الحديد لأبيه ، وإحياء الموتى ليعيسى ، واختصاص محمد صلوات الله عليه بالشفاعة ، ونحو هذا .

وأما قصة نوح عليه السلام ظاهرة العذر ، وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر اللفظ ؛ لقوله تعالى : **وَأَهْلَكَ** [هود: ٤٠] ؛ فطلب مقتضى هذا اللفظ ، وأراد علم ما طُوي عليه من ذلك ؛ لا أنه شك في وعد الله تعالى ؛ فيبين الله عليه أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لکفه وعمله الذي هو غير صالح ؛ وقد أعلمته أنه مغرق الذين ظلموا ، ونهاه عن مخاطبته فيهم ؛ فؤخذ بهذا التأويل ، وعُتب عليه ، وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه ؛ وكان نوح **فِي** ما حكاه النقاش - لا يعلم بکفر ابنه .

وقيل في الآية **غَيْرُ** هذا ؛ وكل هذا لا يقتضي على نوح بمعصية سوى ما ذكرنا من تأويله وإقدامه بالسؤال فيما لم يؤذن له فيه ، ولا نهي عنه .

وما رُوي في الصحيح من أن نبِيَّ قرصته نَمَلٌ فحرقَ قرية النَّمَلِ، فأوحى الله إليه؛ أن «قرصتك نَمَلٌ أحرقت أَمَّةً مِنَ الْأَمَمِ تسبع» (١) . . . فليس في هذا الحديث أن هذا الذي أتى معصية؛ بل فعل ما رأه مصلحة وصواباً بقتل من يُؤذى جنسه، وينعِي المنفعة مما أباحه الله .

ألا ترى أن هذا النبي كان نازلاً تحت الشجرة، فلما آذته النملة تحول برجله عنها مخافة تكرار الأذى عليه وليس فيما أوحى الله إليه ما يوجب معصية؛ بل ندبه إلى احتمال الصبر وترك التشفي؛ كما قال تعالى: «وَلَئِنْ صَرَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» [النحل: ١٢٦]؛ إذ ظاهر فعله إنما كان لأجل أنها آذته هو خاصته؛ فكان انتقاماً لنفسه، وقطع مضرِّةً يتوقعها من بقية النمل هناك؛ ولم يأت في كل هذا أمر نهى عنه، فيُعصى به، ولا نص فيما أوحى الله إليه بذلك، ولا بالتوبه والاستغفار منه . والله أعلم .

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام: «ما من أحدٍ إلا ألم بذنبٍ أو كاد إلا يحيى ابن زكريا»، أو كما قال النبي ﷺ .

فالجواب عنه - كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصدٍ عن سهوٍ وغفلة .

## الفصل الرابع عشر

### حالة الأنبياء في خوفهم واستغفارهم

فإن قلت: فإذا نفيت عنهم - صلوات الله عليهم - الذنوب والمعاصي بما ذكرته من اختلاف المفسرين وتأويل المحققين - فما معنى قوله تعالى: «وَعَصَى آدُمْ رَبَّهُ فَغَوَى» [طه: ١٢١] وما تكرر في القرآن والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبيتهم واستغفارهم وبكائهم على ما سلف منهم، وإشفاقهم . وهل يشفق ويتاب ويستغفر من لا شيء؟

فاعلم - وفتنا الله وإياك - أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله ، وسته في عباده ، وعظم سلطانه ، وقوة بطيشه ، مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله ، والإشراق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأنهم - في تصرفهم بأمور لم يُنهوا عنها ، ولا أمروا بها ؛ ثم أخذذوا عليها ، وعوتبوا بسيها ، أو حذّروا من المؤاخذة بها ، وأنوتها على وجه

التأويل أو السهو ، أو تزيد من أمور الدنيا المباحة - خائفون وجلوس ، وهي ذنوب بالإضافة إلى علٰيٰ منصبهم ، ومعاصٰ بالنسبة إلى كمال طاعتهم ، لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصٰ بهم فإن الذنب مأخوذه من الشيء الذي الرذل ، ومنه ذنب كل شيء ؟ أي : آخره . وأذناب الناس رذالهم ، فكان هذه أدنى أفعالهم ، وأسوأ ما يجري من أحوالهم لتطهيرهم وتزكيتهم ، وعمارة مواطنهم وظواهرهم بالعمل الصالح ، والكلم الطيب ، والذكر الظاهر والخفى والخشية لله ، وإعظامه في السر والعلانية ، وغيرهم يتلوث من الكبائر والقبائح والفواحش ما تكون بالإضافة إليه هذه في حقه كالحسنات ، كما قيل : حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين ؛ أي : يرونها بالإضافة إلى علٰيٰ أحوالهم كالسيئات .

وكذلك العصيان الترك والمخالفة ؛ فعلى مقتضى اللفظة كيما كانت من سهو أو تأويل فهي مخالفة وترك .

وقوله تعالى : «فَغَوَى» ؛ أي : جهل أن تلك الشجرة هي التي نُهِي عنها ؛ والغُيُّ : الجهل .

وقيل : أخطأ ما طلب من الخلود ؛ إذ أكلها وhabitat أميته .

وهذا يوسف عليه السلام قد أخذ بقوله لأحد صاحبي السجن : «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَأَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضَعْ سِنِينَ» [يوسف : ٤٢] .

وقيل : أنسى يوسف ذكر الله .

وقيل : أنسى صاحبه أن يذكره لسيده الملك ؛ قال النبي ﷺ : لو لا كلمة يوسف ما لبث في السجن ما لبث .

قال ابن دينار : لما قال ذلك يوسف قيل له : اتخذت من دوني وكيلًا ؛ لأطيلن حبسك . فقال : يا رب ، أنسى قلبي كثرة البلوى .

وقال بعضهم : يؤخذ الأنبياء بمثاقيل الذرّ ، لمكانهم عنده ، ويجاوز عن سائر الخلائق لقلة مُبالاته بهم في أضعاف ما أتوا به من سوء الأدب .

وقد قال المحتاج للفرقة الأولى على سياق ما قلناه : إذا كان الأنبياء يؤخذون بهذا مما لا يؤخذون به غيرهم من السهو والنسيان ، وما ذكرته ، وحالهم أرفع فحالهم إذاً في هذا أسوأ حالاً من غيرهم .

فاعلم - أكرمك الله - أنا لا ثبت لك المؤاخذة في هذا على حد مؤاخذة غيرهم ؛ بل

نقول : إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا ، ليكون ذلك زيادة في درجاتهم ؛ ويُيتلون بذلك ، ليكون استشعارهم له سبباً لمنام رتبهم ، كما قال : « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » [طه : ١٢٢] ، وقال لداود : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَابٍ » [ص : ٢٥]

وقال - بعد قول موسى : « تَبَّتْ إِلَيْكَ » : « إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ » [الأعراف : ٤٤] وقال - بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته : « فَسَعَرَنَا لَهُ الرَّيْحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءُ حِثَّ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَابٍ » [ص : ٣٦ - ٤٠] .

وقال بعض المتكلمين : زلات الأنبياء في الظاهر زلات ، وفي الحقيقة كرامات ورُؤُلُف ؛ وأشار إلى نحو ما قدمناه .

وأيضاً فُلُينَبَهُ غيرهم من البشر منهم ، أو من ليس في درجتهم بمُؤاخذتهم بذلك ، فيستشعروا الخدر ؛ ويعتقدوا المحاسبة ليلتزموا الشكر على النعم ، وبُعدوا الصبر على المحن بـ ملاحظة ما وقع بأهل هذا النصاب الرفيع المعصوم ؛ فكيف بن سواهم ؛ ولهذا قال صالح المري : ذكر داود بـ سَطْهَةِ لِلْتَّوَابِينَ .

فقال ابن عطاء : لم يكن ما نص الله تعالى عليه من قضية صاحب الحوت نصاً له ، ولكن استزادة من نبينا ﷺ .

وأيضاً فيقال لهم : فإنكم ومنْ وافقكم تقولون بغفران الصغائر باجتناب الكبائر .

ولا خلاف في عصمة الأنبياء من الكبائر ، فما جوزتهم من وقوع الصغائر عليهم هي مغفورة على هذا ، فما معنى المؤاخذة بها إداً عندكم وخوف الأنبياء وتوبتهم منها ، وهي مغفورة لو كانت ؟

فما أجابوا به فهو جوابنا عن المؤاخذة بأفعال السهو والتأويل .

وقد قيل : إن كثرة استغفار النبي ﷺ وتوبته وغيره من الأنبياء على وجه ملازمة الخضوع والعبودية ، والاعتراف بالتصدير ، شكرًا لله على نعمه ؛ كما قال ﷺ وقد آمنَ من المؤاخذة مما تقدم وتتأخر : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » (١) ! وقال : « إِنِّي أَخْشَاكُمْ اللَّهَ

وأعلمكم بما أتّقى .

قال الحارثُ بن أسد : خوفُ الملائكة والأنبياء خوفُ اعظام وتعَبُّدُ الله ؛ لأنهم آمنون .  
وقيل : فعلوا ذلك ليُقْتَدِيَ بهم ، وتسنَّ بهم أُمُّهم ، كما قال ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيرتم كثيراً » .

وأيضاً فإن في التوبة والاستغفار معنى آخر لطيفاً أشار إليه بعضُ العلماء ، وهو استدعاء محبة الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » [ البقرة : ٢٢٢ ] .

فإِحداثُ الرسل والأنبياء الاستغفار والتوبة والإباتة والأوبة في كل حين - استدعاء محبة الله ! والاستغفار فيه معنى التوبة ، وقد قال الله لنبيه - بعد أن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر : « فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفَرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » [ النصر : ٣ ] .

## الفصل الخامس عشر

### فائدة ما مر من الفصول التي بحثت مسألة العصمة

قد استبان لك أيها الناظر بما قررناه ، ما هو الحق من عصمه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الجهل بالله وصفاته ، وكونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة - عقلاً وإجماعاً ، وقبلها سمعاً وشرعاً ، وعصمه عن الكذب وخلف القول منذ نبأ الله وأرسله قصداً أو غير قصد ، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً ونقلأ ، ولا بشيء مما قرره من أمور الشرع ، وأدأه عن ربه من الوحي قطعاً وعقلاً ، وعن الصغار تحقيقاً ، وعن استدامة السهو والغفلة ، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة ، وعصمه في كل حالاته؛ من رضا وغضب ، وجد ومزح ؛ فيجب عليك أن تتلقأه بِالْيَمِينِ ، وتشد عليه يد الصنَّين ، وتقدر هذه الفصول حق قدرها ، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها ؛ فإن من يجهل ما يجب للنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أو يجوز له ، أو يستحيل عليه ، ولا يعرف ، صور أحكامه ، لا يؤمن أن يعتقد في بعضها خلاف - ما هي عليه ، ولا يتزهه بما لا يجب أن يُضاف إليه ، فيهلك من حيث لا يدرى ، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار ؛ إذ ظنَّ الباطل به ؛ واعتقاده ما لا يجوز عليه يَحْلُّ بصاحبِه دارِ الْبَوَارِ .

ولهذا ما احتاط عليه السلام على الرجلين اللذين رأيَا ليلًا ، وهو معتكِفٌ في المسجد

مع صفة ، فقال لهم : « إنها صفة ». ثم قال لهم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ؛ ولاني خشيت أن يقذف في قلوبكم شيئاً فنهلكاً » .

هذه - أكرمك الله - إحدى فوائد ما تكلمنا عليه في الفصول ؛ ولعل جاهلاً لا يعلم بجهله إذا سمع شيئاً منها يرى أنَّ الكلام فيها جملة من فضول العلم ، وأنَّ السكوت أولى . وقد استبان لك أنه متعمد للفائدة التي ذكرناها .

وفائدة ثانية يُضطر إليها في أصول الفقه ، وتبني عليها مسائل لا تنعدُ من الفقه ، يُخلص بها من تشغيب مُختلفي الفقهاء في عدَّتها ؛ وهي الحكم في أقوال النبي ﷺ وأفعاله ؛ وهو باب عظيم ، وأصل كبير من أصول الفقه ؛ ولابد من بنائه على صدق النبي ﷺ في إخباره وبلاعه ؛ وأنه لا يجوز عليه السهو فيه ، وعصمته من المخالفة في أفعاله عمداً ؛ وبحسب اختلافهم في وقوع الصغائر وقع خلاف في امثال الفعل ، بُسط بيانه في كُتب ذلك العلم ؛ فلا نطويَّ به .

وفائدة ثالثة يحتاج إليها الحاكم والفتوى فيما يضاف إلى النبي ﷺ شيئاً من هذه الأمور ، ووصفه بها ؛ فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه ، وما وقع الإجماع فيه والخلاف ، كيف يصمم في الفتيا في ذلك ؛ ومن أين يدرِّي ؟ هل ما قاله فيه نقص أو مدح ؛ فيما أن يجرئ على سفك دم مسلم حرام ، أو يُسقط حقاً أو يُضيئ حرمة للنبي ﷺ .

وليسيل هذا ما قد اختلف أربابُ الأصول وأئمَّة العلماء والمحققين في عصمة الملائكة .

## الفصل السادس عشر

### في القول في عصمة الملائكة

أجمع المسلمين على أنَّ الملائكة مؤمنون فضلاء ؛ واتفق أئمَّة المسلمين أنَّ حكم المرسلين منهم حُكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه ، وأنهم في حقوق الأنبياء والتبلیغ إليهم كالأنبياء مع الأئمَّة .

واختلفوا في غير المرسلين منهم ؛ فذهب طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ » [التحريم : ٦] ، ويقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ »

[ الصافات : ١٦٤ - ١٦٦ ] ، وبقوله : « وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ » [ الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ ] ، وبقوله : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ » [ الأعراف : ٢٠٦ ] ، وبقوله : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » [ عبس : ١٦ ] و « لَا يَمْسِهِ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » [ الواقعة : ٧٩ ] ونحوه من السعييات .

وذهب طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمتربين . واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير ، نحن نذكرها إن شاء الله بعد ؛ ونبين الوجه فيها إن شاء الله .

والصواب عصمة جميعهم ، وتزئيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبهم ومتزلتهم عن جليل مقدارهم . ورأيت بعض شيوخنا أشار أن لا حاجة بالفقية إلى الكلام في عصمتهم ؛ وأنا أقول : إن للكلام في ذلك ما للكلام في عصمة الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها ، سوى فائدة الكلام في الأقوال والأفعال ، فهي ساقطة هنا . فمما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت ، وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقله المفسرون ؛ وما رُوي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلاهما .

فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يُروَ منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليس هو شيئاً يُؤخذ بقياس . والذى منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه ؛ وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سند ذكره . وهذه الأخبار من كتب اليهود وافتراهم ، كما نصَّ الله أول الآيات من افتراهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه . وقد انطوت القصة على شنع عظيمة . وها نحن نخبرُ في ذلك ما يكشفُ غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله . فاختلف أولاً في هاروت وماروت ؟ هل هما ملكان أو إنسان ؟ وهل هما المراد بالملكين أم لا ؟ وهل القراءة ملكين أو ملَكَيْن ؟ وهل ما في قوله : « وَمَا أَنْزَلْتَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ » ، « وَمَا يُعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ » [ البقرة : ١٠٢ ] نافية أو موجبة ؟ ! .

فأكثر المفسرين أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبينه ، وأن علمه كفتة ؛ فمن تعلم كفر ، ومن تركه آمن ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا نَحْنُ فَتَّةٌ » [ البقرة : ١٠٢ ] وتعليمهما الناس له تعلم إنذار ؛ أي : يقولان لمن جاء يطلب تعلمهم : لا تفعلوا كذا ؛ فإنه يفرق بين المرأة وزوجه ؛ ولا تتخيلوا بكتذا ؛ فإنه سحر فلا تكفروا .

فعلى هذا فعل الملkin طاعة ، وتصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية ؛ وهي لغيرهما

فتنة . وروى ابن وهب عن خالد بن أبي عمران - أنه ذُكِر عنده هاروت وماروت ، وأنهما يعلمان السحر ، فقال : نحن نُنْزِهُمَا عن هذا .

فقرأ بعضهم : ﴿ وَمَا أَنْزَلْ عَلَى الْمُلَكَيْنِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] قال خالد : لم ينزل عليهما . فهذا خالد على جلالته وعلمه نزههما عن تعليم السحر الذي ذكره غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشرطه أن يُبَيِّنَا أنه كفر ، وأنه امتحانٌ من الله وابتلاءٌ ؛ فكيف لا يُنَزِّهُما عن كبار المعااصي والكفر المذكور في تلك الأخبار .

وقولُ خالد : لم يُنزل : ي يريد أن «ما» نافية ؛ وهو قولُ ابن عباس ؛ قال مكيٌّ : وقدير الكلام : وما كفر سليمان - ي يريد بالسحر الذي افتعلته الشياطين ، فاتبعهم في ذلك اليهود ، وما أنزل على الملkin ؛ قال مكيٌّ : هما جبريلُ وميكائيل : ادعَى عليهمما المجيء به ، كما ادعَوا على سليمان ، فأذكربهم الله في ذلك . ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحرَ ببابَ هاروتَ وماروتَ قيل : هما رجالان تعلماءٌ .

قال الحسن : هاروت وماروت علجان من أهل بابل ؛ وما أنزل على الملائكة - بكسر اللام ، وتكون «ما» إيجاباً على هذا . وكذلك قراءة عبد الرحمن بن أبي زيد - بكسر اللام ؛ ولكنه قال : الملكان هنا داود وسليمان ، وتكون «ما» نفياً على ما تقدم .

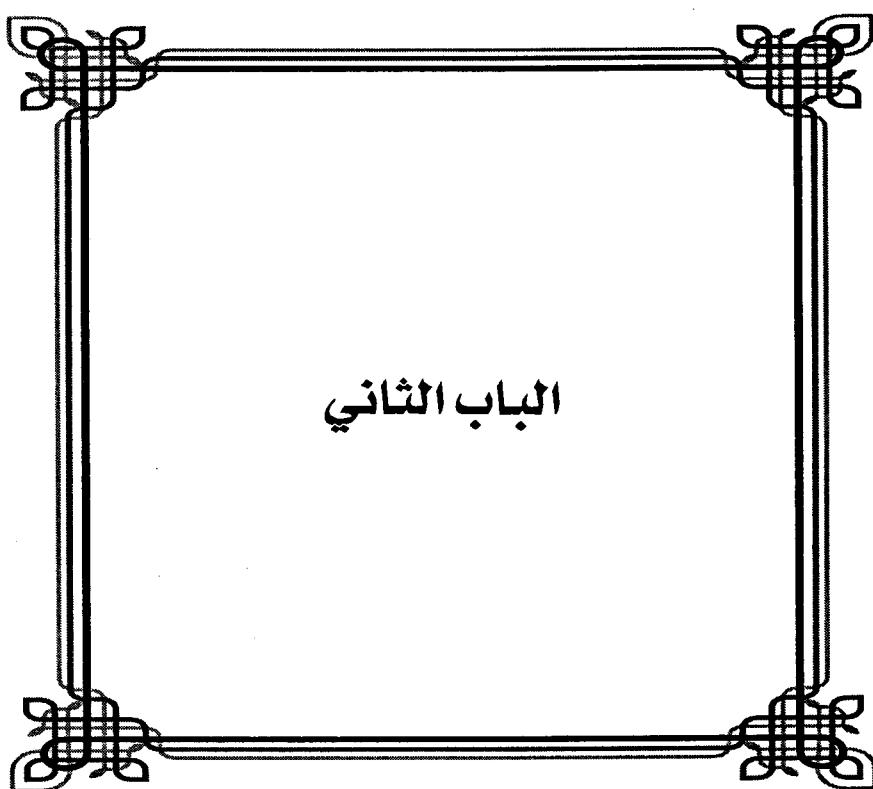
وقيل : كانا ملكين من بنى إسرائيل ، فمسخهما الله ، حكاه السمرقندى .

والقراءة بكسر اللام شادةً؛ فحمل الآية على تقدير أبي محمد مكي حسنٍ يزهُ الملائكة ويُذهبُ الرجسَ عنهم ، ويطهُرُهم تطهيرًا . وقد وصفهم الله بأنهم مطهرون : «**كَرَامَ بَرَّةٍ**» [عيسٰ : ١٦] و : «**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ**» [التحريم : ٦] .

وَمَا يَذَكِّرُونَهُ قَصْةً إِبْلِيسَ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَرَئِيسًا فِيهِمْ، وَمِنْ حُزُّانِ الْجَنَّةِ... إِلَيْ آخرِ مَا حُكِّمَ، وَأَنَّهُ اسْتَنَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِقُولِهِ: «فَسَجَّدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» [البقرة: ٣٤].

وهذا أيضاً لم يتفق عليه؛ بل الأكثرُ ينفون ذلك ، وأنه أبو الجنَّ ، كما أنَّ آدم أبو الإنس؛ وهو قولُ الحسن ، وقتادة ، وأبِن زيد . وقال شهر بن حوشب : كان من الجنَّ الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا؛ والاستثناء من غير الجنس شائعٌ في كلامَ العرب سائغٌ؛ وقد قال الله تعالى : «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ» [النساء : ١٥٧] .

وما رووه في الأخبار أن خلقا من الملائكة عصوا الله فحرقوها ، وأمروا أن يسجدوا لآدم - فأبوا ؛ فحرقوها ، ثم آخرون كذلك ، حتى سجد له من ذكر الله إلا إيليس ، في أخبار لا أصل لها تردها صحاح الأخبار ، فلا يُشتبه بها . والله أعلم .



الباب الثاني

## الفصل الأول

### فيما يخصهم في الأمور الدنيوية

#### ويطراً عليهم في العوارض البشرية

#### حالة الأنبياء بالنسبة للعوارض

قد قدمنا أنه ﷺ وسائر الأنبياء والرسل من البشر ، وأن جسمه وظاهره خالص للبشر ، يجوز عليه من الآفات والتغييرات ، والآلام والأسقام ، وتجزع كأس الحمام ما يجوز علي البشر ؛ وهذا كله ليس بحقيقة فيه ؛ لأن الشيء إنما يسمى ناقصاً بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه ؛ وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار : «*فِيهَا تَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ*» [الأعراف : ٢٥] ؛ وخلق جميع البشر بمدرجة الغير ؛ فقد مرض ﷺ ، واشتكى ، وأصابه الحرُّ والقرُّ ، وأدركه الجوعُ والعطشُ ، ولحقه الغضبُ والضجرُ ، وناله الإعياءُ والتعبُ ، ومسه الضعفُ وال الكبرُ ، وسقط فجُحشَ شقُّهُ ، وشجهُ الكفارُ ، وكسروا رباعيته ، وسقى السمَّ سُحْرُ ، وتداوي ، واحتجم ، وتنشر وتعود ، ثم قَضَى نحبه فُتُوفِيَ ﷺ ، ولحق بالرفيق الأعلى ، وتخلص من دار الامتحان والبلوى ؛ وهذه سمات البشر التي لا محيسن عنها ؛ وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظم منه ؛ فقتلوا قتلاً .

ورموا في النار ، ووُشِّروا بالمناشر . ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات . ومنهم من عصمه كما عصم بعد نبينا من الناس ؛ فلئن لم يكف نبينا ربه يد ابن قمئة يوم أحد ، ولا حجبه عن عيون عداه عند دعوته أهل الطائف ؛ فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور ، وأمسك عنه سيف غورث وحجر أبي جهل ، وفرس سراقة ؛ ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم فلقد وقاه ما هو أعظم ، من سُمَّ اليهودية .

وهكذا سائر أنبيائه مُبْتَلٍ ومعافي ؛ وذلك من تمام حكمته ، ليُظْهِر شرفهم في هذه المقامات وبين أمرهم ، ويتم كلمته فيهم ، وليحقق بامتحانهم بشربهم ، ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لثلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى ابن مريم ، ول يكن في محنهم تسلية لأنهم ، ووفور لأجورهم عند ربهم تماماً على الذي أحسن إليهم .

قال بعض المحققين : وهذه الطوارئ والتغييرات المذكورة إنما تختص بأجسامهم لأنّها عنهم ، وتلقّيها الولي منهن .

قال : وقد قال عليه السلام : « إن عيني تنانع ولا ينام قلبي » <sup>(١)</sup> .

وقال : « إني لست كهيتكم ؛ إني أبىت يطعني ربي ويسقيني » <sup>(٢)</sup> .

وقال : « لست أنسى ، ولكن أنسى ، ليُستن بي » <sup>(٣)</sup> .

فأخبر أن سره وباطنه وروحه بخلاف جسمه وظاهره ، وأن الآفات التي تحل ظاهره من ضعف وجوع ، وسهر ونوم ، لا يحل منها شيء باطنه بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن ؛ لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه ؛ وهو عليه السلام في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروساً من الحدث في نومه لكون قلبه يقطن كما ذكرناه .

وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمه ، وخارت قوته ، فبطلت بالكلية جملته ، وهو عليه السلام قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك ، وأنه بخلافهم ؛ لقوله : « لست كهيتكم ؛ إني أبىت يطعني ربي ويسقيني » <sup>(٤)</sup> .

وكذلك أقول : إنه في هذه الأحوال كلها ؛ من وصب ومرض وسحر وغضب ، لم يجر على باطنه ما يدخل به ، ولا فاض منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به ، كما يعتري غيره من البشر مما نأخذ بعده في بيانه .

## الفصل الثاني

### حالتهم بالنسبة للسحر

فإن قلت : فقد جاء الأخبار الصحيحة أنه عليه السلام سحر كما حدثنا الشيخ أبو محمد العتابي بقراءتي عليه ؛ قال : حدثنا حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن علي بن خلف ، حدثنا محمد بن أحمد ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا البخاري ، حدثنا عبيد بن إسماعيل ، قال : حدثنا أبوأسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سحر رسول الله عليه السلام حتى إنه ليُخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله <sup>(٥)</sup> .

(٤-١) سبق تخرّيجهما .

(٥) البخاري في الطب (٥٧٦٦) ومسلم في السلام (٤٣/٢١٨٩).

وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى : حَتَّىٰ كَانَ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا مِنَ التَّبَاسِ الْأَمْرِ عَلَىِ الْمَسْحُورِ فَكَيْفَ حَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ جَازَ عَلَيْهِ - وَهُوَ مَعْصُومٌ ؟ .

فَاعْلَمْ - وَفَقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ هَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ مُتَقَرَّبٌ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ طَعَنَتْ فِيهِ الْمُلْحَدَةُ، وَتَدَرَّعَتْ بِهِ لِسْخَفِ عُقُولِهَا وَتَلْبِيسِهَا عَلَىِ أَمْثَالِهَا إِلَىِ التَّشْكِيكِ فِي الشَّرْعِ ؛ وَقَدْ نَزَهَ اللَّهُ الشَّرْعُ وَالنَّبِيُّ ﷺ عَمَّا يَدْخُلُ فِي أَمْرِهِ لَبَسًا وَإِنَّمَا السَّحْرُ مَرْضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَعَارِضٌ مِنَ الْعُلُلِ ، يَجُوزُ عَلَيْهِ كَأْنَوْعَ الْأَمْرَاضِ مَا لَا يُنْكِرُ وَلَا يُقْدِحُ فِي نِبْوَتِهِ .

وَأَمَّا مَا وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ فَلِمَسْ فِي هَذَا مَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ دَاخِلَةً فِي شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ ، أَوْ يُقْدِحُ فِي صَدْقَهُ ؛ لِقِيَامِ الدَّلِيلِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَىِ عَصْمَتِهِ مِنْ هَذَا ؛ وَإِنَّمَا هَذَا فِيمَا يَجُوزُ طَرْوَاهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاٍ الَّتِي لَمْ يَعُثْ بِسَبِيلِهَا، وَلَا فُضْلٌ مِنْ أَجْلِهَا ؛ وَهُوَ فِيهَا عُرْضَةً لِلْأَفَاتِ كَسَائِرِ الْبَشَرِ ؛ فَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يُخَيِّلَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرَهَا مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، ثُمَّ يَنْجُلُ عَنْهُ ، كَمَا كَانَ .

وَأَيْضًا فَقَدْ فَسَرَ هَذَا الْفَصْلُ الْحَدِيثَ الْأَخْرَى مِنْ قَوْلِهِ : حَتَّىٰ يُخَيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيهِنَّ .

وَقَدْ قَالَ سَفِيَّانُ : وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السَّحْرِ ، وَلَمْ يَأْتِ فِي خَبْرٍ مِنْهَا أَنَّهُ نُقْلَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ قَوْلِ بَخْلَافِ مَا كَانَ أَخْبَرَ أَنَّهُ فَعَلَهُ وَلَمْ يَفْعَلْهُ ؛ وَإِنَّمَا كَانَتْ خَوَاطِرُ وَتَخْلِيلَاتُ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْمَرَادَ بِالْحَدِيثِ أَنَّهُ يَتَخَيِّلَ الشَّيْءَ أَنَّهُ فَعَلَهُ ، وَمَا فَعَلَهُ ، لَكِنَّهُ تَخَيِّلٌ لَا يَعْتَقِدُ صَحَّتِهِ ، فَنَكُونُ اعْتِقَادَاهُ كَلَهَا عَلَىِ السَّدَادِ ، وَأَتَوْالَهُ عَلَىِ الصَّحَّةِ .

هَذَا وَمَا وَقَفَتْ عَلَيْهِ لِأَئْمَنَتْنَا مِنَ الْأَجْوَبَةِ عَنِ هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ مَا أَوْضَحْنَاهُ مِنْ مَعْنَى كَلَامِهِمْ ، وَزَدْنَاهُ بِيَائِنَّا مِنْ تَلْوِيَحَاتِهِمْ . وَكُلُّ وَجْهٍ مِنْهَا مُقْنَعٌ ؛ لَكِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي فِي الْحَدِيثِ تَأْوِيلٌ أَجْلَى وَأَبْعَدُ مِنْ مَطَاعِنِ ذُوِّي الْأَصَالِيلِ يَسْتَفَادُ مِنْ نَفْسِ الْحَدِيثِ ؛ وَهُوَ أَنَّ عَبْدَ الرَّزَاقَ قَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ ابْنِ الْمُسِبِّبِ ، وَعُرْوَةَ بْنِ الزَّبِيرِ ، وَقَالَ فِيهِ عَنْهُمَا : سَحَرَ يَهُودُ بْنِي زَرِيقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلُوهُ فِي بَئْرٍ حَتَّىٰ كَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنْكَرَ بَصَرَهُ ثُمَّ دَلَّ عَلَىِ مَا صَنَعُوا فَاسْتَخْرَجَهُ مِنَ الْبَئْرِ . وَرَوَى نَحْوَهُ ، عَنِ الْوَاقِدِيِّ ، وَعَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ ، وَعُمَرِ بْنِ الْحَكْمَ .

وَذَكَرَ عَنِ عَطَاءِ الْخُرَاسَانِيِّ ، وَعَنِ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرْ : حُبْسُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ عَاشَةَ سَنَةَ ، فَيَبْنَا هُوَ نَائِمٌ أَتَاهُ مَلْكَانٌ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عَنْ رَأْسِهِ وَالْأَخْرَى عَنْ رَجْلِهِ . . . الْحَدِيثُ .

قَالَ عَبْدُ الرَّزَاقَ : حُبْسُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ عَاشَةَ خَاصَّةَ سَنَةٍ حَتَّىٰ أَنْكَرَ بَصَرَهُ .

وروى محمد بن سعد ، عن ابن عباس : مرض رسول الله ﷺ ، فحبس عن النساء والطعام والشراب فهبط عليه ملكان . . . وذكر القصة .

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما تسلط على ظاهره ، وجوارحه ، لا على قلبه واعتقاده وعقله ، وأنه إنما أثر في بصره ، وحبسه عن وطء نسائه وطعامه ، وأضعف جسمه وأمرضه ؛ ويكون معنى قوله ؛ يُخْيِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيهِنَّ ؛ أي : يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة على النساء ؛ فإذا دنا منهن أصابه أخذة السحر ، فلم يقدر على إتيانهن ، كما يعتري من أخذ واعتراض .

ولعله مثل هذا أشار سفيان بقوله : وهذا أشد ما يكون من السحر . ويكون قول عائشة في الرواية الأخرى : إنه ليُخْيِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ ، من باب ما احتل من بصره ، كما ذكر في الحديث ؛ فيظن أنه رأى شخصاً من بعض أزواجه ، أو شاهد فعلاً من غيره ، ولم يكن على ما يُخْيِلُ إِلَيْهِ لِمَا أَصَابَهُ فِي بَصَرِهِ وَضَعْفِ نَظَرِهِ ، لَا لَشَيْءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ فِي مَيْزِهِ .

وإذا كان هذا لم يكن فيما ذكر من إصابة السحر له وتأثيره فيه ما يُدخل لبسًا ولا يجد به المحدد المعارض أنساً .

### الفصل الثالث

#### أحواله في أمور الدنيا

هذه حاله في جسمه ، فاما أحواله في أمور الدنيا فنحن نسُبُّها على أسلوبنا المتقدم بالعقد والقول والفعل .

واما العقد منها فقد يعتقد في أمور الدنيا الشيء على وجه ويظهر خلافه ، أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع .

كما حدثنا أبو بحر سفيان بن العاصي وغيره واحد سماعاً وقراءة ؛ قالوا : حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر ، قال : حدثنا أبو العباس الرازي ، حدثنا أبو أحمد بن عمرويه ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم ، حدثنا عبد الله بن الرومي ، وعباس العنبرى ، وأحمد المعرقى ؛ قالوا : حدثنا النضر بن محمد ، قال : حدثني عكرمة ، حدثنا أبو النجاشي قال : حدثنا رافع بن خديج ؛ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل ، فقال :

«ما تصنعون؟» قالوا : كنّا نصنّعه . قال : «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» ؛ فتركوه ، فنَّقصَتْ فذكروا ذلك له ؛ فقال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذلوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» <sup>(١)</sup> وفي رواية أنس : «أنت أعلم بأمر دُنياكم» <sup>(٢)</sup> .

وفي حديث آخر : «إنما ظنتُ ظنا ، فلا تؤاخذوني بالظن» <sup>(٣)</sup> .

وفي حديث ابن عباس في قصة الحَرْص ؛ قال رسول الله ﷺ : «إنما أنا بشر فما حدثكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسك فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب» <sup>(٤)</sup> . وهذا على ما قررناه فيما قاله من قبل نفسه في أمور الدنيا وظنه من أحوالها ، لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده في شرع شرعه ؛ وسُنّة سنّها .

وكما حكى ابن إسحاق أنه ﷺ لما نزل بأدنى مياه بدر قال له الحُبَابُ بن المنذر : أهذا منزل أ LZ لـه الله ليس لنا أن نتقدمه ، أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة؟ قال : «لا ، بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة» . قال : فإنه ليس بمنزل ، انهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، فنزله ، ثم نُور ما وراءه من القلب ؛ فنشرب ولا يشربون . فقال : «أشَرَتْ بالرأي» ، وفعل ما قاله .

وقد قال له الله تعالى : «وَشَارِهِمْ فِي الْأَمْرِ» [آل عمران : ١٥٩] . وأراد مصالحة بعض عدوه على ثلث ثمر المدينة ، فاستشار الأنصار ، فلما أخبروه برأيهم رجع عنه . فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها ، يجوزُ عليه فيه ما ذكرناه ؛ إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة ؛ وإنما هي أمورٌ اعتيادية يعرفها من جربها ، وجعلها همةً ، وشغل نفسه بها ، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملأَنْ الجوارح بعلوم الشريعة ، مقيّد البال بمصالح الأمة الدينية والدينوية ، ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور ، ويجوز في النادر فيما سibileه لتدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها ، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة . وقد تواتر بالنقل عنه ﷺ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها ، وسياسة فرق أهلها ما هو معجز في البشر مما قد نبهنا عليه في باب «معجزاته» من هذا الكتاب .

(١) مسلم في الفضائل (٢٣٦٢ / ١٤٠) .

(٢) مسلم في الفضائل (٢٣٦٣ / ١٤١) .

(٣) مسلم في الفضائل (٢٣٦١ / ١٣٩) .

(٤) سبق تخريرجه .

## الفصل الرابع

### أحكام البشر الجارية على يديه

وأما ما يعتقد في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضياتهم ، ومعرفة الحق من المبطل ، وعلم المصلح من المفسد ، ف بهذه السبيل ؛ لقوله عليه السلام : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعِلْمٌ بِعِضْكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنْبُلُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِهِ مَا أَسْمَعْتُكُمْ ؛ فَمَنْ قُضِيَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْءٍ فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا ، إِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » (١) .

حدثنا الفقيه أبو الوليد - رحمه الله ؛ حديث الحُسْنَى بنَ مُحَمَّدَ الْحَافِظِ ، حدثنا أبو عمر ، حدثنا أبو محمد ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن هشام بن عُرُوة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أم سلمة ، قالت : قال رسول الله عليه السلام ... الحديث . وفي رواية الزهري ، عن عروة : « فَلَعْلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ مِنْ بَعْضٍ ؛ فَأَحْسِبْ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ » (٢) .

وتحري أحكامه عليه السلام على الظاهر ووجب غلبات الظن شهادة الشاهد ، وبيان الحالف ، ومراعاة الأشيء ، ومعرفة العفاص والوكاء ، مع مقتضى حكمة الله في ذلك ؛ فإنَّه تعالى لو شاء لأطلعه على سرائر عباده ، ومُخْبَاتِ ضمائر أمته ؛ فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو شبهة ؛ ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والاقتداء به في أفعاله وأحواله وقضياته وسيره ، وكان هذا لو كان مما يختص بعلمه ويوثره الله به ، لم يكن للأمة سبيلٌ إلى الاقتداء به في شيءٍ من ذلك ، ولا قامت حجة بقضيةٍ من قضياته لأحد في شريعته ، لأنَّا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية لحكمه هو إذاً في ذلك بالمعنى من إعلام الله له بما أطلعه عليه من سرائرهم ؛ وهذا ما لا تعلمه الأمة ؛ فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره من البشر؛ ليتم اقتداءُ أمته به في تعين قضياته ، وتنزيل أحكامه ، ويأتون ما أتوا من ذلك على علم ويقين من سنته ، إذ البيان بالفعل أوقع منه بالقول ، وأدفع لاحتمال اللفظ وتأويل المتأول ، وكان حكمه على الظاهر أجيلى في البيان ، وأوضح في وجوه الأحكام ،

(١) سبق تخرجه .

(٢) مسلم في الأقضية (١٧١٣ / ٥) عن أم سلمة .

وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام ، وليقتدي بذلك كله حُكْمَ أُمَّتِه ، ويستوثق بما يُؤْثِرُ عنه ، وينضبط قانون شريعته ، وطَيْ ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب فلا يظهر على غيه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فيعلم منه بما يشاء ، ويستأثر بما شاء ، ولا يقدح هذا في نبوته ، ولا يفصّم عروة من عصمه .

## الفصل الخامس

### أخباره الدنيوية

وأما أقواله الدنيوية من أخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله - فقد قدمنا أن الخُلُفَ فيها يمتنعُ عليه في كل حالٍ ، وعلى أي وجه ، من عمدٍ أو سهو ، أو صحةٍ أو مرض ، أو رضا أو غضب ، وأنه معصوم منه ﷺ . هذا فيما طرقه الخبر المحسن مما يدخله الصدق والكذب ؛ فاما المعارض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز وروودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لقصد المصلحة ، كثُورِيَّته عن وجه مغزايه لثلا يأخذ العدو حذر .

وكما روي من مُمازحَتِه ودُعَابَتِه لبسِ وتطييب قلوب المؤمنين من صاحبته ، وتأكيداً في تحبِّهم ومسرة نفوسهم ؛ كقوله : « لَأَحْمَلَنَّكَ عَلَى ابْنِ النَّاقَةِ »<sup>(١)</sup> وقوله للمرأة التي سأله عن زوجها : « أَهُوَ الَّذِي بَعَيْنَهُ بِيَاضِنَّ » . وهذا كله صدق ؛ لأن كل جمل ابن ناقَةَ، وكل إنسان بعنه بياض وقد قال ﷺ : « إِنِّي لَأَمْزِحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًا »<sup>(٢)</sup> .

وهذا كله فيما بابه الخبر ؛ فاما ما بابه غير الخبر مما صورته صورة الأمر والنهي في الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضاً ، ولا يجوزُ عليه أن يأمر أحداً بشيء أو ينهى أحداً عن شيء وهو يطعن خلافه .

وقد قال ﷺ : « مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَانِثَةُ الْأَعْيُنِ »<sup>(٣)</sup> . فكيف أن تكون له خيانة قلب . فإن قلت : فما معنى إذا قوله تعالى في قصة زيد : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمْتَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَتَقَ اللَّهُ وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » [الأحزاب : ٣٧] .

(١) الترمذى في البر والصلة (١٩٩١) عن أنس ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢) الترمذى في البر والصلة (١٩٩٠) عن أبي هريرة ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٣) أبو داود في الجهاد (٢٦٨٣) ، والحاكم في المستدرك (٤٣٦٠) على شرط مسلم .

فاعلم - أكرمك الله ، ولا تسترب في تزويج النبي ﷺ عن هذا الظاهر وأن يأمر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقها إياها ، كما ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسین - أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما شكاها إليه زيد قال له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَتْقِ اللَّهَ » [الأحزاب: ٣٧] . وأخفى في نفسه ما أعلمته الله به من أنه سيتزوجها مما الله مُبديه ومُظهره بتمام التزويج وتطليق زيد لها . وروى نحوه عمرو بن فائد ، عن الزهري ؛ قال : نزل جبريل على النبي ﷺ يعلمه أن الله يُزُوِّجُهُ زينب بنت جحش ؟ فذلك الذي أخفى في نفسه .

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا : « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً » [الأحزاب: ٣٧] ؛ أي: لابد لك أن تتزوجها . ويوضح هذا كله أن الله لم يُد من أمره معها غير زواجه لها ؛ فدلل أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمته به تعالى .

وقوله تعالى في القصة : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا » [الأحزاب: ٣٨] .

فدلل أنه لم يكن عليه حرج في الأمر .

قال الطبری : ما كان الله ليؤتی نبيه فيما أحل مثال فعله ملن قبله من الرسل ؛ قال الله تعالى : « سُنَّةُ اللَّهِ فِي الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلٍ » [الأحزاب: ٣٨] ؛ أي: من النبین فيما أحل لهم ؛ ولو كان على ما رُوی في حديث قنادة من وقوعها من قلب النبي ﷺ عندما أعجبته ، لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا ، ولكن هذا نفس الحس المذموم الذي لا يرضاه ولا يتسم به الأنقياء ، فكيف سيد الأنبياء ؟

قال القشيری : وهذا إقدام عظيم من قائله ، وقاله معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله . وكيف يقال : رأها فأعجبته وهي بنت عمته ، ولم ينزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ ، وهو زوجها لزيد ؟ وإنما جعل الله طلاق زيد لها ، وتزويج النبي ﷺ إياها ؛ لإزالة حرمة التبني ، وإبطال سنته ؛ كما قال : « مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدَ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ » [الأحزاب: ٤٠] . وقال : « لَكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَاهُمْ » [الأحزاب: ٣٧] . ونحوه لابن فورك .

وقال أبو الليث السمرقندی : فإن قيل : فما الفائدة في أمر النبي ﷺ لزيد بإمساكها ؟ فهو أن الله أعلم نبيه أنها زوجته ، فنهاء النبي ﷺ عن طلاقها ، إذ لم تكن بينهما ألفة ؛ وأخفى في نفسه ما أعلمته الله به ، فلما طلقها زيد خشى قول الناس : يتزوج امرأة ابنه ؛

فأمره الله بزواجهها ليباح مثل ذلك لأمته ، كما قال تعالى : « لَكُمْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعَيْتُهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » [الأحزاب: ٣٧]

وقد قيل : كان أمره لزيد بإمساكها قمعاً للشهوة ، ورداً للنفس عن هواها . وهذا إذا جوزنا عليه أنه رأها فجأة واستحسنها . ومثل هذا لا نُكَرَّةَ فيه ، لما طبع عليها ابن آدم من استحسانه للحسن ، ونظرة الفجاءة مغفو عنها ؛ ثم قمع نفسه عنها ، وأمر زيداً بإمساكها ، وإنما تذكر تلك الزيادات التي في القصة . والتعويل والأولى ما ذكرناه عن علي بن حُسين ، وحكاه السمرقندى ؛ وهو قول ابن عطاء ، وصححه واستحسن القاضي القشيري ؛ وعليه عول أبو بكر بن فورك ، وقال : إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير ؛ قال : والنبي ﷺ متزه عن استعمال النفاق في ذلك ، وإظهار خلاف ما في نفسه ؛ وقد نزهه الله عن ذلك بقوله تعالى : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ » [الأحزاب: ٣٨] ؛ قال : ومن ظن ذلك بالنبي ﷺ فقد أخطأ .

قال : ليس معنى الخشية هنا الخوف ؛ وإنما معناه الاستحياء ؛ أي : يستحيي منهم أن يقولوا : تزوج زوجة ابنه . وأن خشيته ﷺ من الناس كانت من إرجاد المنافقين واليهود وتشغيلهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء ، كما كان ؛ فتعبه الله على هذا ، ونزعه عن الالتفات إليهم فيما أحله له ، كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحرير بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَمْ تُحِرِّمْ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكَ تَبَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ أَفْوَرُ رَحِيمٌ » [التحريم: ١] . وكذلك قوله له ههنا : « وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » [الأحزاب: ٣٧] .

وقد روي عن الحسن وعائشة : لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً كتم هذه الآية لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه .

## الفصل السادس

### حديث الوصية

فإن قلت : قد تقررت عصمته ﷺ في أقواله في جميع أحواله ، وأنه لا يصح منه فيها خلف ولا اضطراب في عمد ولا سهو ، ولا صحة ولا مرض ، ولا جد ولا هزل ،

ولا رضا ولا غضب . ولكن ما معنى الحديث في وصيته عليه السلام الذي حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي - رحمه الله ؛ قال : حدثنا القاضي أبو الوليد ، حدثنا أبو ذر ، حدثنا أبو محمد وأبو الهيثم ، وأبو إسحاق ؛ قالوا : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا عبد الرزاق بن همام ، أئبنا معمرا ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ قال : لما اختُرِسَ رسول الله عليه السلام وفي البيت رجال فقال النبي عليه السلام : « هُلْمُوا أَكْتُبْ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ ». .

فقال بعضهم : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام قَدْ غَلَبَهُ الْوَجْعُ . . (١) الحديث .

وفي رواية : « ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ أَبْدًا » ؛ فتنازعوا ، فقالوا : مَا لَهُ أَهْجَر ! اسْتَفْهَمُوهُ ؛ فقال : « دَعُونِي ، فَإِنَّ الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ ». .

في بعض طرقه : أن النبي عليه السلام يهجر .

وفي رواية : هَجَرَ . وَيُرُوِي : أَهْجَرَ . وَيُرُوِي : أَهْجَرًا .

وفيه ؛ فقال عمر : إن النبي عليه السلام قد اشتدَّ بِهِ الْوَجْعُ ، وعندنا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا .

وَكَثُرَ اللَّغْطُ ؛ فقال : « قَوْمُوا عَنِي ». .

وفي رواية : وَاحْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَاحْتَصَمُوا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : قَرِبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام كِتَابًا .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ قَالَ أَتَمْتَنُّا فِي هَذَا الْحَدِيثَ : النَّبِيُّ عليه السلام غَير مَعْصُومٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ ، وَمَا يَكُونُ مِنْ عَوَارِضِهَا مِنْ شَدَّةِ وَجْعٍ وَغَشْيٍ وَنَحْوِهِ مَا يَطْرُأُ عَلَى جَسْمِهِ ، مَعْصُومٌ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَطْعَنُ فِي مَعْجِزَتِهِ ، وَيُؤْدِي إِلَى فَسَادِ فِي شَرِيعَتِهِ مِنْ هَذِيَانٍ وَاحْتَلَالِ كَلَامٍ .

وَعَلَى هَذَا لَا يَصْحُ ظَاهِرٌ رَوْيَةٌ مِنْ رَوْيَةٍ فِي الْحَدِيثِ : هَجَرَ ؛ إِذْ مَعْنَاهُ هَذِهِ ، يَقُولُ : هَجَرَ هَجْرًا ، إِذَا هَذِهِ . وَأَهْجَرَ هَجْرًا ؛ إِذَا أَفْحَشَ ؛ وَأَهْجَرَ تَعْدِيَةً هَجَرَ ؛ وَإِنَّا الْأَصَحُّ وَالْأُولَى : أَهْجَرَ ، عَلَى طَرِيقِ الإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ : لَا يَكْتُبْ .

وَهَكُذا رَوَيْتَنَا فِيهِ فِي صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ مِنْ رَوْيَةِ جَمِيعِ الرَّوَاةِ فِي حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ الْمُتَقْدِمِ ، وَفِي حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ ، عَنْ عَيْنَيْهِ ، وَهَكُذا رَوَيْنَاهُ الْأَصْبَرِيُّ بِخَطْهِ فِي كِتَابِهِ ، وَغَيْرِهِ مِنْ هَذِهِ الْطُرُقِ ، وَهَكُذا رَوَيْنَاهُ عَنْ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ سُفِيَّانَ ، وَعَنْ غَيْرِهِ .

وقد تُحمل عليه رواية من رواه هَجَرَ على حذف ألف الاستفهام ؛ والتقدير ؛ أَهْجَرَ ، أو أن يحمل قول القائل هَجَرَ أو أَهْجَرَ دهشة من قائل ذلك وحيرة لعظيم ما شاهد من حال الرسول ﷺ ، وشدة وجعه ، وهو المقام الذي اختلف فيه عليه ؛ والأمر الذي هم بالكتاب فيه ، حتى لم يضبط هذا القائل لفظه ، وأجرى الهُجُر مجرى شدة الوجع ، لا أنه اعتقد أنه يجوز عليه الهجر ، كما حملهم الإشفاق على حراسته ؛ والله تعالى يقول : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] . ونحو هذا .

وأما على رواية : أَهْجَرَ - وهي رواية أبي إسحاق المستملي في الصحيح في حديث ابن جُبِيرٍ ، عن ابن عباس ، من رواية قُتيبة - فقد يكون هذا راجعاً إلى المخالفين عنده ﷺ ، ومخاطبة لهم من بعضهم ؛ أي : جتتم باختلافكم على رسول الله ﷺ وبين يديه هُجُرًا ومنكراً من القول .

والهُجُرُ - بضم الهاء : الفُحش في المنطق .

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث ، وكيف اختلفوا بعد أمره لهم - عليه السلام - أن يأته بالكتاب ، فقال بعضهم : أَوْامِرُ النَّبِيِّ يُفْهَمُونَ إِيجاباًها مِنْ نَدِبِهَا مِنْ إِبَاحَتِهَا بِقَرَائِنَ ، فلعله قد ظهر من قرائين قوله ﷺ ما فَهَمُوا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ مِنْ عِزَمَةٍ ، بل أَمْرَ رَدِّهِ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وبعضاًهم لم يفهم ذلك ، فقال : اسْتَفْهَمُوهُ ، فلما اختلفوا كف عنه ، إذ لم يكن عزماً ، ولما رأوه من صواب رأي عُمَرَ ، ثم هُؤْلَاءَ قَالُوا : ويكون امتناع عمر إما إشفاقاً على النبي ﷺ من تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب ، أو أن تدخل عليه مشقة من ذلك ، كما قال : إِنَّ النَّبِيَّ أَشَدَّ بِهِ الْوَجْعَ (١) .

وقيل : خَشِيَّ عَمَرٌ أَنْ يَكْتُبْ أَمْرًا يَعْجِزُونَ عَنْهَا فَيَحْصُلُونَ فِي الْخُرُجِ بِالْمُخَالَفَةِ ، ورَأَى أَنَّ الْأَرْفَقَ بِالْأَمْمَةِ فِي تِلْكَ الْأَمْمَرِ سُعَةَ الْاجْتِهَادِ ، وَحِكْمَ النَّظَرِ ، وَطَلْبَ الصَّوَابِ فَيَكُونُ الْمُصِيبُ وَالْمُخْطَىءُ مَأْجُورًا .

وقد علم عمر تقرر الشرع ، وتأسيس المِلَّة ، وأن الله تعالى قال : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾ [المائدة : ٣] وقوله : «أَوْصَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَعَتَرْتَيْ» .

وقولُ عمر : حسبنا كتاب الله رد على من نازعه ، لا على أمر النبي ﷺ .

وقد قيل : إن عمر خشي تطرق المنافقين ومن في قلبه مرض لما كُتب في ذلك الكتاب

في الخلوة ، وأن يقولوا في ذلك الأقوال ، كادعاء الرافضة الوصية وغير ذلك .

وقيل : إنه كان من النبي ﷺ لهم على طريق المشورة والاختيار . هل يتفقون على ذلك أم يختلفون ؟ فلما اختلفوا تركه .

وقالت طائفه أخرى : أنَّ معنى الحديث أنَّ النبي ﷺ كان مُجِيباً في هذا الكتاب لِمَا طُلِبَ منه ؛ لا أنه ابْتَدَأَ بالأمر به ؛ بل اقتضاه منه بَعْضُ أَصْحَابِه ؛ فأجاب رغبهم ، وكره ذلك غيرهم للعلل التي ذكرناها .

واستدل في مثل هذه القصة بقول العباس لعلي عليه السلام : انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ؛ فإن كان الأمر فيما علمناه ، وكرهناه على عليه السلام هذا قوله : والله لا أفعل . . . الحديث<sup>(١)</sup> .

واستدل بقوله : « دعوني ؛ فإن الذي أنا فيه خير » ؛ أي : الذي أنا فيه خير من إرسال الأمر وترككم كتاب الله . وأن تدعوني بما طلبتهم .

وذكر أن الذي طلب كتابة أمر الخلقة بعده ، وتعيين ذلك .

## الفصل السابع

### دراسة أحاديث أخرى

فإن قيل : مما ووجه حديثه أيضاً الذي حدثناه الفقيه أبو محمد الخشنى بقراءاتي عليه ، حدثنا أبو علي الطبرى ، حدثنا عبد الغافر الفارسي ، حدثنا أبو أحمد الجلودى ؛ قال : حدثنا إبراهيم بن سفيان ، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا قتيبة ، حدثنا لىث ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن سالم مولى النصرىن ؛ قال : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنا نحمدك بشر ، يغضب كما يغضب البشر وإنى قد اتخذت عهداً لن تخلفني ، فأيما مؤمن آذنته أو سببته أو جلدته فاجعلها كفارة له ، وقربة تقربه إليك يوم القيمة »<sup>(٢)</sup> .

في رواية : « فأيما أحد دعوت عليه دعوة » .

وفي رواية : « ليس لها بأهل » .

(١) البخاري في الاستئذان (٦٦٦) .

(٢) سبق تخرجه .

وفي رواية : « فَإِنَّمَا رَجُلٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبَتْهُ أَوْ لَعْنَتْهُ أَوْ جَلْدَتْهُ فَاجْعَلُهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً ». .

وكيف يصح أن يلعن النبي ﷺ من لا يستحق اللعن ، ويسب من لا يستحق السب ويجلد من لا يستحق الجلد ، أن يفعل مثل ذلك عند الغضب ، وهو معصوم عن هذا كله؟

فأعلم - شرح الله صدرك - أن قوله ﷺ أولاً : ليس لها بأهل ؛ أي : عندك يا رب ، في باطن أمره ؛ فإن حُكْمَهُ عَلَى الظَّاهِرِ ، كما قال . وللحكمة التي ذكرناها ؛ فحكم <sup>ﷺ</sup> بجلده ، أو أدبه بسبه أو لعنه بما اقتضاه عنده حال ظاهره ؛ ثم دعا <sup>ﷺ</sup> لشفتيه على أمته ، ورأفته ورحمته للمؤمنين ، التي وصفه الله بها ، وحذر أن يتقبل الله فيما دعا عليه دعوته أن يجعل دعاءه ولعنه له رحمة ؛ فهو معنى قوله : ليس لها بأهل ، لا أنه <sup>ﷺ</sup> يحمله الغضبُ ويستفزه الضجر لأن يفعل مثل هذا من لا يستحقه من مُسلم .

وهذا معنى صحيح ، ولا يفهم من قوله : أَغْضَبْ كَمَا يَغْضِبُ الْبَشَرُ - أن الغضب حمله على ما لا يجب فعله ؛ بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حمله على معاقبته بلعنه أو سبه ؛ وأنه ما كان يحتمل ويجوز عفوه عنه ، أو كان مما خير بين المعاقبة فيه والعفو عنه .

وقد يُحمل على أنه خرج مخرج الإشراق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدد حدود الله تعالى .

وقد يُحمل ما ورد من دعائه هنا ، ومن دعواته على غير واحد في غير موطن ، على غير العقد والقصد بل بما جرت به عادة العرب ؛ وليس المراد بها الإجابة ؛ كقوله : « تربت يمينك ». « ولا أشبع الله بطنك ». « وَعَفْرَى حَلْقَى » وغيرها من دعواته .

وقد ورد في صفتة في غير حديث - أنه <sup>ﷺ</sup> لم يكن فحاشاً . وقال أنس لم يكن سبباً ، ولا فاحشاً ، ولا لعاناً ؛ وكان يقول لأحدنا عند المعتبة : « ماله ! تَرَبَّ جَيْنِهُ ». .

فيكون حمل الحديث على هذا المعنى ؛ ثم أشفق من موافقة أمثالها إجابة ، فعاهد ربها ، كما قال في الحديث ، أن يجعل ذلك للمقول زكاةً ورحمةً وقربةً .

وقد يكون ذلك إشافاً على المدعو عليه ، وتأييساً له ، لثلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي <sup>ﷺ</sup> ، وتقبل دعائه ، ما يحمله على اليأس والقنوط .

وقد يكون ذلك سؤالاً منه لربه لمن جلده ، أو سبّه على حق بوجه صحيح أن يجعل ذلك له كفارة لما أصابه ، وتمحية لما اجترم ، وأن تكون عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران ، كما جاء في الحديث الآخر : « ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقب به في الدنيا فهو له كفارة » <sup>(١)</sup> .

فإن قلت : فما معنى حديث الزبير وقول النبي ﷺ له حين تخاصمه مع الأننصاري في شراح الحَرَّةِ : « اسق يا زُبِيرَ حَتَّى يَلْعَجَ الْكَعْبَيْنَ » . فقال له الأننصاري : أن كان ابن عمتك يا رسول الله ! فتلَّوَ وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسق يا زبير ؛ ثم احبس حتى يَلْعَجَ الْجَدْرَ » <sup>(٢)</sup> . . . الحديث

فالجواب : أن النبي ﷺ متزه أن يقع بنفس مسلم منه في هذه القصة أمر يُرِيب ؛ ولكنه ﷺ ندب الزبير أولاً إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسيط والصلح ، فلما لم يرض بذلك الآخر ، ولجأ وقال ما لا يجب استوفى النبي ﷺ للزبير حقه . ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث : باب . إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم .

وذكر في آخر الحديث : فاستَوْعَى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلًا في قضيته .

وفي الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه ، وأنه - وإن نَهَى أن يقضي القاضي وهو غضبان ؛ فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء ؛ لكونه فيهما معصوماً . وغضب النبي ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه ، كما جاء في الحديث .

وكذلك الحديث في إقادته عكاشة من نفسه لم يكن لتعذر حمله الغضب عليه ؛ بل وقع في الحديث نفسه أن عكاشة قال له : وضررتني بالقضيب ، فلا أدرى أعمداً ، أم أردت ضرب الناقة ؟ فقال النبي ﷺ : « أعيذُك بالله يا عكاشة أن يتعمدك رسول الله » . وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابي حين طلب عليه السلام الاقتراض منه ، فقال

(١) البخاري في مناقب الانصار (٣٨٩٢) عن عبادة بن الصامت .

(٢) سبق تخرجه .

(٣) الهيثمي في المجمع (١٤٢٥٣) وقال : رواه الطبراني وفيه عبد المنعم بن إدريس وهو كذاب وضاع ؛ وهو جزء من حديث طويل .

الأعرابي : قد غفت عنك . وكان النبي ﷺ قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقته مرة بعد أخرى ، والنبي ﷺ ينهى ويقول له : « تُدْرِكَ حاجتك » وهو يأبى ، فضربه بعد ثلث مرات . وهذا منه ﷺ لمن لم يقف عند نهيه صوابٌ وموضع أدب ، لكنه عليه الصلاة والسلام أشفق إذ كان حق نفسه من الأمر حتى عفا عنه .

وأما حديث سواد بن عمرو : أتيت النبي ﷺ وأنا متخلق ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وَرَسْ ! وَرَسْ ! حُطْ ! حُطْ ! » وغضبني بقضيب في يده في بطني فأوجعني . قلت : القصاص يا رسول الله . فكشف لي عن بطنه .

ولما ضربه ﷺ لمنكر رأه به ؛ ولعله لم يرد بضربه بالقضيب إلا تنبئه ، فلما كان منه إيجاع لم يقصده طلب التخلل منه على ما قد قدمناه .

## الفصل الثامن

### أفعاله الدنيوية

وأما أفعاله ﷺ الدنيوية فحكمه فيها من توقي المعاصي والمكرهات ما قد قدمناه ، ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما ذكرناه .

وكله غير قادح في النبوة ، بلـى ، إن هذا فيها على التدور ؛ إذ عامة أفعاله على السداد والصواب ، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما بينـا إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته ، وما يقيم رمق جسمه ، وفيه مصلحة ذاته التي بها يبعد ربه ، ويقيم شريعته ، ويُسوس أمته ، وما كان فيما بينه وبين الناس من ذلك فيـن معروف يصنـعه ، أو بـر يُوسـعه ، أو كلام حـسن يقوله أو يـسمـعـه ، أو تـالـفـ شـارـدـ ، أو قـهـرـ معـانـدـ ، أو مـدـارـةـ حـاسـدـ ؛ وكلـهـ لـاـتـحـ بـصـالـحـ أـعـمـالـهـ ، مـتـظـمـ فيـ زـاكـيـ وـظـائـفـ عـبـادـاتـهـ ؛ وـقـدـ كـانـ يـخـالـفـ فيـ أـفـعـالـهـ الـدـنـيـوـيـةـ بـحـسـبـ اـخـلـافـ الـأـحـوـالـ ، وـيـعـدـ لـلـأـمـورـ أـشـاهـهـ ، فـيـرـكـبـ -ـ فـيـ تـصـرـفـهـ لـاـ قـرـبـ -ـ الـحـمـارـ ، وـفـيـ أـسـفـارـهـ الـراـحـلـةـ ، وـيـرـكـبـ الـبـغـلـةـ فـيـ مـعـارـكـ الـحـرـبـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ الثـبـاتـ ، وـيـرـكـبـ الـخـيلـ وـيـعـدـهـ لـيـومـ الـفـزـعـ إـجـاـبـةـ الصـارـخـ .

وكـذـلـكـ فـيـ لـبـاسـهـ وـسـائـرـ أـحـوـالـهـ بـحـسـبـ اـعـتـارـ مـصـالـحـهـ وـمـصـالـحـ أـمـتـهـ . وكـذـلـكـ يـفـعـلـ الفـعـلـ مـنـ أـمـورـ الـدـنـيـوـيـةـ مـسـاعـدـةـ لـأـمـتـهـ وـسـيـاسـةـ وـكـرـاهـيـةـ لـخـلـافـهـ ، وـإـنـ كـانـ قـدـ يـرـىـ غـيـرـهـ خـيـرـاـ مـنـهـ ، كـمـاـ يـتـرـكـ الـفـعـلـ بـهـذاـ ؛ـ وـقـدـ يـرـىـ فـعـلـهـ خـيـرـاـ مـنـهـ ،ـ وـقـدـ يـفـعـلـ هـذـاـ فـيـ الـأـمـورـ الـدـينـيـةـ

ما له الخيرة في أحد وجهيه ، كخروجه من المدينة لأحد ، وكان مذهبُ التحصن بها ، وتركه قتل المنافقين ، وهو على يقين من أمرهم مؤالفة لغيرهم ، ورعاية للمؤمنين من قرابتهم ، وكرامة لأن يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ؛ كما جاء في الحديث<sup>(١)</sup> ، وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاة لقلوب قريش وتعظيمهم لتغييرها ، وحذر من نثار قلوبهم لذلك ، وتحريك متقدم عداوتهم للدين وأهله ؛ فقال لعائشة في الحديث الصحيح : « لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم »<sup>(٢)</sup> .

وي فعل الفعل ثم يتركه ؛ لكون غيره خيراً منه ؛ كانتقاله من أدنى مياه بدر إلى أقربها للعدو من قريش ؛ وقوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدرت ما سُقْتُ الهدى »<sup>(٣)</sup> .

ويبيّن وجهه للكافر والعدو رجاء استثلافه .

ويصبر للجاهل ، ويقول : « إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره »<sup>(٤)</sup> ؛ وينذر له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه .

ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته ، ويستمدُّ في ملائته ، حتى لا يجد شيئاً من أطرافه ، وحتى كأن على رؤوس جلسايه الطير ؛ ويتحدث مع جلسايه بحديث أولئهم ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويضحك مما يضحكون منه ؛ قد وسعَ الناس بشره وعدله ، لا يستفزه الغضب ، ولا يُقصّر عن الحق ، ولا ييطن على جلسايه ؛ يقول : « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين » .

فإن قلت : فما معنى قوله لعائشة تعزّيزاً في الداخل عليه : « بنس ابن العشيرة » فلما دخل ألاّن له القولَ وضحكَ معه ، فلما سأله عن ذلك قال : « إنَّ من شرَّ الناس من اتقاه الناس لشره » .

وكيف جاز أن يُظهر له خلاف ما ييطن ، ويقول في ظهره ما قال ؟

فالجواب أن فعله تَكْلِيفاً كان استثلاقاً لثله ، وتطييباً لنفسه ، ليتمكن إيمانه ، ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه ، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام .

(١) البخاري في التفسير (٤٩٠٥) ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٤ / ٦٣) .

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٨) عن عائشة .

(٣) البخاري في العمرة (١٧٨٥) ، ومسلم في الحج (١٢١٦ / ١٤١) عن جابر .

(٤) البخاري في الأدب (٦٠٥٤) ، ومسلم في البر (٢٥٩١ / ٧٣) عن عائشة .

ومثل هذا على الوجه قد خرج من حدّ مُداراة الدنيا إلى السياسة الدينية .

وقد كان النبي يستألفهم بأموال الله العريضة فكيف بالكلمة اللينة ؟

قال صفوان : لقد أعطاني وهو أبغضُ الخلق إلى ، فما زال يُعطيوني حتى صار أحبُ الخلق إلى .

فقوله فيه : بئس ابنُ العشيرة - هو غير غيبة ؛ بل هو تعرِيفٌ ما علمه منه لمن لم يعلم ، ليحذر حاله ، ويحترز منه ، ولا يوثق بعجائب كل الثقة ، ولا سيما وكان مطاعاً متبعاً .

ومثل هذا إذا كان لضرورة ودفع مضرّة لم يكن بغيبة ، بل كاجائزًا ، بل واجبًا في بعض الأحيان كعادة المحدثين في تجريح الرواية والمزكيّن في الشهود .

فإن قيل : فما معنى المُعْضل الوارد في حديث بريّة من قوله عليه السلام لعائشة ؟ وقد أخبرته أن موالي بريّة أبوها إلا أن يكون لهم الولاء ؛ فقال لها عليه السلام : « اشتريها واشتري طي لهم الولاء ». ففعلت ، ثم قام خطيباً فقال : « ما بال أقوام يشتّرون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل »<sup>(١)</sup> والنبي عليه السلام قد أمرها بالشرط لهم ، وعليه باعوها ، لولاه - والله أعلم - لما باعوها من عائشة ، كما لم يبيعوها قبل حتى شرطوا ذلك عليها ؛ ثم أبطله عليه السلام ، وهو قد حرم الغش والخداعة .

فاعلم - أكرمك الله - أن النبي عليه السلام مُنْزهٌ عما يقع في بال الجاحد من هذا ، وللتذرّيه النبي عليه السلام عن ذلك ما قد أنكر قومٌ هذه الزيادة قوله : « اشتري طي لهم الولاء »؛ إذ ليست في أكثر طرق الحديث ؛ ومع ثباتها فلا اعتراض بها ؛ إذ يقع « لهم » بمعنى « عليهم » قال الله تعالى : « أُولئِكَ لَهُمُ الْعُنْتَةُ » [الرعد : ٢٥] وقال : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » [الإسراء : ٧] .

فعلى هذا اشتري طي عليهم الولاء لك ، ويكون قيام النبي عليه السلام ووعظه لما سلف من شرط الولاء لأنفسهم قبل ذلك .

ووجه ثان : أن قوله عليه السلام : اشتري طي لهم الولاء ، ليس على معنى الأمر ، لكن على معنى التسوية والإعلام بأن شرطه لهم ينفعهم بعد بيان النبي عليه السلام قبل أن الولاء لمن أعتق ؛ فكأنه قال : اشتري طي أو لا تشتري طي ، فإنه شرط غير نافع .

(١) مسلم في العتق (٤٥٠ / ٦ ، ٨) .

والى هذا ذهب الداودي وغيره ؛ وتبرير النبي ﷺ لهم ؛ وتبريرهم على ذلك يدل على علمهم به قبل هذا .

والوجه الثالث : أن معنى قوله : اشترطت لهم الولاء ؛ أي : أظهرت لهم حكمه ، وبيّن لهم سنته بأن الولاء إنما هو ملن أعتق . ثم بعد هذا قام هو ﷺ مبيناً بذلك وموبيحاً على مخالفة ما تقدم منه فيه .

فإن قيل : فما معنى فعل يوسف عليه السلام بأنحشه ؛ إذ جعل السقاية في رحله وأخذه باسم سرقتها ، وما جرى على إخوته في ذلك ؛ قوله تعالى : « إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ » [يوسف : ٧٠] ولم يسرقوا .

فاعلم - أكرمك الله - أن الآية تدل على أن فعل يوسف كان أمر الله ؛ لقوله تعالى : « كَذَلِكَ كَدَنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْمٌ » [يوسف : ٧٦] .

فإذا كان كذلك فلا اعتراض به ، كان فيه ما فيه .

وأيضاً فإن يوسف كان أعلم أخاه ، بأنني أنا أخوك فلا تبتتس ؛ فكان ما جرى عليه بعد هذا من وفاته ورغبتة ، وعلى يقين من عقبي الحير له به ، وإزاحةسوء والمضر عنه بذلك .

وأما قوله : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ » [يوسف : ٧٠] ؛ فليس من قول يوسف . فيلزم عليه جواب حل شبهه .

ولعل قائله إن حسنه له التأويل كائناً من كان ظن على صورة الحال ذلك .

وقد قيل : قال ذلك لفعلهم قبل يوسف وبيتهم له . وقيل غير هذا . ولا يلزم أن نقول الأنبياء ما لم يأت أنهم قالوه ، حتى يطلب الخلاص منه ، ولا يلزم الاعتذار عن زلات غيرهم .

## الفصل التاسع

### حكمة المرض والابتلاء لهم

فإن قيل : فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدةٌ لها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام ؟ وما الوجه في ما ابتلاهم الله به من البلاء ، وامتحانهم بما امتحنوا به ؛ كأيوب ، ويعقوب ، ودانياel ، ويعيبي ، وزكريا ، وعيسى ، وإبراهيم ، ويوسف ، وغيرهم . صلوات الله عليهم ، وهم خيرُه من خلقه وأحبابه وأصفياوه .

فأعلم - وفقنا الله وإياك - أنَّ أفعال الله تعالى كلها عدلٌ ، كلماته جميعها صدق ، لا مبدل لكلماته ، يتلي عباده كما قال تعالى لهم : « لَنَتَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » [يونس : ١٤] ، « لِيَلْوُكُمْ أَيْكُمْ أَحَسَنُ عَمَلاً » [هود : ٧] ، « وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » [آل عمران : ١٤] ، « وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ » [آل عمران : ١٤٢] ، « وَلَنُبَلُّنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنُبَلُّو أَخْبَارَكُمْ » [محمد : ٣١] .

فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادةً في مكانتهم ، ورفة في درجاتهم ، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضا ، والشكر والتسليم ، والتوكيل ، والتغويض ، والدعاء والتضرع منهم وتأكيد لصائرهم في رحمة الممتحنين ، والشفقة على المبتلين ، وتذكرة لغيرهم ، وموعظة لسوادهم ليتأسوا في البلاء بهم ؛ فيتسلىوا في المحن بما جرى عليهم ، ويقتدوا بهم في الصبر ، ومحو لهنات فرطت منهم ، أو غفلات سلفت لهم ، ليألفوا الله طيبين مهذبين ؛ وليكون أجرهم أكمل ، وثوابهم أوفر وأجزل .

حدثنا القاضي أبو على الحافظ ، حدثنا أبو الحسن الصيرفي وأبو الفضل بن خيرون ؛ قالا : حدثنا أبو يعلى البغدادي ، حدثنا أبو علي السننجي ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عيسى الترمذى ، حدثنا قتيبة ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم بن بهدلة ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه ، قال : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشدَّ بلاء ؟ فقال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثال ، يُتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسْبِ دِينِهِ ، مَا يَرِحُّ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتَرَكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » (١) .

وكما قال تعالى : « وَكَأَيْنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهُنَّا لِمَا أَصَابَهُمْ »

في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قوله إلا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين [آل عمران : ١٤٦] .

[ ١٤٨ ]

وعن أبي هريرة : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » (١) .

وعن أنس ، عنه رضي الله عنه : « إذا أراد الله بعده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوافي به يوم القيمة » (٢) .  
وفي حديث آخر : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليُسمع تضرعه » (٣) .

وحكى السمرقندى أن كل من كان أكرم على الله تعالى كان بلاء أشد كى يتبيّن فضله ، ويستوجب الثواب ؛ كما روى عن لقمان أنه قال : يا بني ؛ الذهب والفضة يختبران بالنار ، والمؤمن يختبر بالبلاء .

وقد حُكِي أن ابتلاء يعقوب بيوسف كان سببه التفاته في صلواته إليه ويوسف نائم محبة له .

وقيل : بل اجتمع يوماً هو وابنه يوسف على أكل حمل مشوي ، وهم يضحكان ، وكان لهم جارٌ يتيم ، فشم ريحه واشتهاه ويُبكي ، ويُبكي له عجوز لبكائه ، وبينهما جدار ، ولا علم عند يعقوب وابنه ؛ فعوقب يعقوب بالبكاء أسفًا على يوسف إلى أن سالت حدقته ، وابيضت عيناه من الحزن . لما علم بذلك كان بقية حياته يأمر منادياً على سطحه : ألا من كان مُفطراً فليتغذَّ عند آل يعقوب .

وعُوقب يوسف بالمحنة التي نصَّ الله عليها .

ورُوي عن الليث أن سبب بلاء أیوب أنه دخل مع أهل قريته على ملکهم ، فتكلّمه في ظلمه ، وأغلظوا له إلا أیوب ، فإنه رفق به مخافة على زرعه ، فعاقبه الله بيلائه .

(١) الترمذى في الزهد (٣٢٩٩) وقال : حسن صحيح .

(٢) أحمد ٤ / ٨٧ .

(٣) الجامع للسيوطى (٣٥٣) .

ومحنة سليمان لما ذكرناه من نيته في كون الحق في جنبة أصحابه ؛ أو للعمل بالمعصية في دراه ، ولا علم عنده . وهذه فائدة شدة المرض والوجع بالنبي ﷺ ؛ قالت عائشة : ما رأيتُ الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ .<sup>(١)</sup>

وعن عبد الله : رأيت النبي ﷺ في مرضه ، يوعك وعكاً شديداً ، فقلت : إنك لتوعك وعكاً شديداً قال : « أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ». قلت : ذلك أن لك الأجر مرتين ؛ قال : « أجل ، ذلك كذلك » .<sup>(٢)</sup>

وفي حديث أبي سعيد أن رجلاً وضع يده على النبي ﷺ فقال : والله ما أطيق أضيع يدي عليك من شدة حُماك . فقال النبي ﷺ : « إنما عشر الأنبياء يُضاعف لنا البلاء ، إن كان النبي يُتلى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبي يُتلى بالفقر ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء » .<sup>(٣)</sup>

وعن أنس عنه ﷺ : « إن عظَمَ الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ؛ فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .<sup>(٤)</sup>

وقد قال المفسرون في قوله تعالى : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ » [النساء : ١٢٣] : إن المسلم يُجزى بعذاب الدنيا ، فتكون له كفارة . وروي هذا عن عائشة ، وأبي ، ومجاهد .

وقال أبو هريرة ، عنه ﷺ : « من يُرُدُّ الله به خيراً يُصْبِّبُ منه » .<sup>(٥)</sup>

قال في رواية عائشة : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا يُكفرُ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها » .<sup>(٦)</sup>

وقال في رواية أبي سعيد : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حَزَن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خططيه » .<sup>(٧)</sup>

وفي حديث ابن مسعود : « ما من مُسْلِمٍ يُصْبِيْه أذى إلا حَاتَّ الله عنه خططيه كما

(١) البخاري في المرض (٥٦٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٤٤/٢٥٧٠) .

(٢) البخاري في المرض (٥٦٤٨) ، ومسلم في البر والصلة (٤٥/٢٥٧١) .

(٣) أحمد ٣ / ٩٤ .

(٤) الترمذى في الزهد (٢٣٩٦) وقال : حسن غريب .

(٥) البخاري في المرض (٥٦٤٥) .

(٦) مسلم في البر والصلة (٢٥٧٢) .

(٧) البخاري في المرض (٥٦٤٠) .

يُحَتُّ ورق الشجر «<sup>(١)</sup>».

وحكمة أخرى أودعها الله في الأمراض لأجسامهم ، وتعاقب الأوجاع عليها وشدتها عند مماتهم ، لتضعف قُوّى نفوسهم ، فيسهل خروجها عند قبضهم ، وتخفّ عليهم مؤنة التزعّج ، وشدة السكريات بتقدُّم المرض ، وضعف الجسم والنفس لذلك .

وهذا خلاف موت الفجاءة وأخذه ، كما يُشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين ، والصعوبة والسهولة . وقد قال عليه السلام : « مثل المؤمن مثل خامة الزرع تُفيتها الريح هكذا وهكذا » <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه : « من حيث أتتها الريح تكفوّها ؟ فإذا سكنت اعتدلت ؟ وكذلك المؤمن يُكفأ بالبلاء . ومثل الكفار كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمه الله » <sup>(٣)</sup> .

معناه أن المؤمن مرتَّأ ، مُصاب بالبلاء والأمراض ، راضٌ بتصريفه بين أقدار الله تعالى : منطاع لذلك ، لين الجانب برضاه وقلة سخطه ، كطاعة خامة الزرع وانقيادها للرياح ، وعمايلها لهبوبها وترنحها من حيث ما أتتها ، فإذا أراح الله عن المؤمن رياح البلايا ، واعتدلَّ صحيحاً كما اعتدلَّ خامة الزرع عند سكون رياح الجوّ رجع إلى شُكر ربه ومعرفة نعمته عليه برفع بلائه ، متظراً رحمته وثوابه عليه .

إذا كان بهذه السبيل لم يصعب عليه مرض الموت ، ولا نزوله ، ولا اشتدت عليه سكرياته ونزعه ، لعادته بما تقدم من الآلام ومعرفة ما له فيها من الأجر ، وتوطئنه نفسه على المصائب ورقتها وضعفها بتوالي المرض أو شدته ، والكافر بخلاف هذا : مُعافي في غالب حاله ، ممتع بصحّة جسمه ، كالأرزة الصماء حتى إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه على غرة ، وأخذه بعنة من غير لطف ولا رق ؟ فكان موته أشد عليه حسرة ، ومقاساة نزعه مع قوّة نفسه وصحّة جسمه أشدَّ ألمًا وعذابًا ، ولعذاب الآخرة أشد ، كالجعاف الأرزة . وكما قال تعالى : « فَأَخْذَنَا هُنَّا بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » [الأعراف : ٩٥] .

وكذلك عادة الله تعالى في أعدائه كما قال تعالى : « فَكُلًا أَخْذَنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

(١) البخاري في المرضى (٥٦٤٧).

(٢) البخاري في التوحيد (٧٤٦٦) عن أبي هريرة.

(٣) انظر السابق .

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَّفَنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقَنَا 》

العنكبوت : ٤٠ ، فَقَجَأَ جَمِيعَهُمُ الْمَوْتَ عَلَى حَالٍ عَتُّ وَغَفْلَةٍ ، وَصَبَّحُهُمْ بِهِ عَلَى غَيْرِ استعداد بعنته ، ولهذا ما ذُكر عن السلف أنهم كانوا يكرهون موت الفجاءة . ومنه في حديث إبراهيم : كانوا يكرهون أخذةً كأخذة الأسف ، أي : الغضب ، يريده موت الفجاءة .

وحكمة ثالثة : أن الأمراض نذير الممات ، وبقدر شدتها شدة الخوف من نزول الموت ، فيستعد من أصابته ، وعلم تعهدها له ، للقاء ربه ، ويعرض عن دار الدنيا الكثيرة الأنكاد ، ويكون قلبه معلقاً بالمعاد ، فيتتصل من كل ما يغشى تباعته من قبل الله ، وقبل العباد ، و يؤدي الحق إلى أهلها ، وينظر فيما يحتاج إليه من وصية فيمن يخلفه أو أمر يعهد له .

وهذا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغفور له ما تقدم وما تأخر ، قد طلبت التتصل في مرضه من كان له عليه مال أو حق في بدن ، وأقاد من نفسه وما له ، وأمكن من القصاص منه ، على ما ورد في حديث الفضل ، وحديث الوفاء ، وأوصى بالثقلين بعده : كتاب الله ، وعترته ، وبالأنصار عيته ؛ ودعا إلى كتب كتاب ثلاثة تضل أمته بعده ، إما في النص على الخلافة ، أو الله أعلم بمراده . ثم رأى الإمامسَةَ عنه أفضل وخيراً . وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقيين .

وهذا كله يُحرمه غالباً الكفار ، لإملاء الله لهم ؛ ليزدادوا إثماً ، وليستدرجهم من حيث لا يعلمون ؛ قال الله تعالى : 》مَا يَنْظَرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخْصِمُونَ فَلَا يَسْتَطِعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ 》 [ يس : ٤٩ ، ٥٠ ] .

ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رجل مات فجأة ؛ « سُبْحَانَ الله ! كَائِنٌ عَلَى غَضَبٍ ، المَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ وَصِيَّتَهُ » .

وقال : « موتُ الفجاءة راحة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر الفاجر » <sup>(١)</sup> ؛ وذلك لأن الموت يأتي المؤمن ، وهو غالباً مستعد له متظاهر حلوله ؛ فهان أمره عليه كيما جاء ، وأفضى إلى راحته من نصب الدنيا وأذاتها ؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مستريح ومستراح منه » <sup>(٢)</sup> . وتأتي الكافر والفاجر منيته على غير استعداد ولا أهبة ولا مقدمات مُنذِرة مُزِعِجة ، « بَلْ

(١) الجامع الصغير (٩١٢٠) ورمز إليه بالحسن .

(٢) البخاري في الرفاق (٦٥١٣) ، ومسلم في الجنائز (٩٥٠ / ٦١) عن أبي قتادة .

تَأْتِيهِمْ بَعْثَةٌ فَتَبَهَّهُمْ فَلَا يَسْتَطِعُونَ رَدَهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ [الأنبياء : ٤٠] فكان الموت أشدّ شيء عليه .

وفرق الدُّنْيَا أَفْطَعُ أَمْرِ صَدْمَهُ ، وأكَرِهَ شَيْءَ لَهُ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : «مَنْ أَحَبَ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَ اللَّهَ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهَ لِقَاءَهُ» <sup>(١)</sup> .



القسم الرابع  
في تصرف وجوه الأحكام  
فيمن تنقصه أو سبّه عليه الصلاة والسلام

## المقدمة

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه : قد تقدم من الكتاب والسنّة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي صلوات الله عليه ، وما يتعين من بر وتقدير ، وتعظيم وإكرام ؛ وبحسب هذا حرم الله تعالى أذاه في كتابه ، وأجمعـت الأمة على قتل مُتنقصـه من المسلمين وسابـه ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤذِّنَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَذَّهُمْ عَذَابًا مُهِينًا » [ الأحزاب : ٥٧ ].

وقال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤذِّنَوْنَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [ التوبـة : ٦١ ] وقال الله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤذِّنَوْنَ رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُو أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » [ الأحزاب : ٥٣ ].

وقال تعالى في تحريم التعرض به : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعَنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِكُفَّارِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [ البقرة : ١٠٤ ].

وذلك أن اليهود كانوا يقولون : رأـنا يا محمد ؛ أي : أرـعنا سـمعك ، واسـمعـنا ، ويعرضـونـ بالكلـمة ، يـريـدونـ الرـعـونـة ؛ فـنهـيـ اللهـ المؤـمـنـينـ عنـ التـشـبـهـ بـهـمـ ، وـقطـعـ الذـرـيعـةـ بـنـهـيـ المؤـمـنـينـ عنـهـاـ ، لـثـلاـ يـتوـصـلـ بـهـاـ الـكـافـرـ وـالـمـنـافـقـ إـلـىـ سـبـهـ وـالـسـتـهـزـاءـ بـهـ .

وقيل : بل لـمـاـ فيـهاـ مـشـارـكـةـ الـلـفـظـ ، لـأـنـهـ عـنـ الـيـهـودـ بـعـنـيـ اـسـمعـ لـاـ سـمعـتـ .  
وقيل : بل لـمـاـ فيـهاـ قـلـةـ الـأـدـبـ ، وـعـدـمـ تـوـقـيرـ النـبـيـ صلوات الله عليه وـتـعـظـيمـهـ ؛ لـأـنـهـ فيـ لـغـةـ الـأـنـصـارـ بـعـنـيـ اـرـعـنـاـ نـرـعـكـ ؛ فـنـهـواـ عنـ ذـلـكـ ؛ إـذـ مـضـمـنـهـ أـنـ لـاـ يـرـعـونـهـ إـلـاـ بـرـعـاـيـتـهـ لـهـ ، وـهـوـ صلوات الله عليه وـاجـبـ الرـعـاـيـةـ بـكـلـ حـالـ ؛ وـهـذـاـ هوـ صلوات الله عليه قـدـ نـهـيـ عنـ التـكـنـيـ بـكـيـتـهـ ، فـقـالـ : « تـسـمـواـ بـاسـمـيـ ، وـلـاـ تـكـنـوـ بـكـيـتـيـ » <sup>(١)</sup> ؛ صـيـانـةـ لـنـفـسـهـ ، وـحـمـاـيـةـ عـنـ أـذـاهـ ؛ إـذـ كـانـ صلوات الله عليه استـجـابـ لـرـجـلـ نـادـيـ : يـاـ أـبـاـ الـقـاسـمـ ؛ فـقـالـ : لـمـ أـعـنـكـ ، إـنـاـ دـعـوتـ هـذـاـ ، فـنـهـ حـيـنـتـدـ عنـ التـكـنـيـ بـكـيـتـهـ لـثـلاـ يـتـأـذـيـ بـإـجـابـةـ دـعـوـةـ غـيرـهـ لـمـ يـدـعـهـ ، وـيـجـدـ بـذـلـكـ الـنـافـقـونـ وـالـمـسـتـهـزـئـونـ ذـرـيعـةـ إـلـىـ أـذـاهـ وـالـإـزـراءـ بـهـ ، فـيـنـادـوـنـهـ ، فـإـذـاـ التـفـتـ قـالـواـ : إـنـاـ أـرـدـنـاـ هـذـاـ لـسـوـاـ .ـ تـعـنـيـتـاـ لـهـ ، وـاسـتـخـفـافـاـ بـحـقـهـ عـلـىـ عـادـةـ الـمـجـانـ وـالـمـسـتـهـزـئـينـ ، فـحـمـيـ صلوات الله عليه حـمـيـ أـذـاهـ بـكـلـ وـجـهـ ؛ فـحـمـلـ مـحـقـقـوـ الـعـلـمـاءـ نـهـيـهـ عـنـ هـذـاـ عـلـىـ مـدـةـ حـيـاتـهـ ، وـأـجـازـوـهـ بـعـدـ وـفـاتـهـ

(١) البخاري في البيوع (٢١٢٠) ، ومسلم في الآداب (٢١٣٤ / ٨) عن أنس .

لارتفاع العلة .

وللناس في هذا الحديث مذاهبٌ ليس هذا موضعها ؛ وما ذكرناه هو مذهبُ الجمّهور، والصوابُ إن شاء الله . وإن ذلك على طريق تعظيمه وترقيره ، وعلى سبيل التذبّح والاستحباب ، لا على التحرير ؛ ولذلك لم ينْهَ عن اسمه ؛ لأنَّه قد كان الله منع من ندائِه به بقوله : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءٍ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » [النور : ٦٣] ؛ وإنما كان المسلمين يدعونه برسول الله ، وبنبي الله ، وقد يدعُوه - بكتبه أبا القاسم - بعضهم في بعض الأحوال .

وقد روَى أنسُ رضي الله عنه ، ما يدلُّ على كراهة التسمي باسمه ، وتنزيهه عن ذلك ؛ إذا لم يوقَر ، فقال : « تسمُّون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم » (١) .

ورُوي أنَّ عمرَ رضي الله عنه كتب إلى أهل الكوفة : لا يُسمى أحدٌ أحد باسم النبي صلوات الله عليه ، حكاه أبو جعفر الطبرى . وحکى محمد بن سعد أنه نظر إلى رجل اسمه محمد ورجل يسُّبه ويقول له فعل الله بك يا محمد وصنع . فقال عمر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب : لا أرى محمداً صلوات الله عليه يسبُّ بك ؛ والله لا تُدعى محمداً ما دمتُ حيّاً ؛ وسماء عبد الرحمن ؛ وأراد أن يمنع أن يُسمى أحدٌ بأسماء الأنبياء إكراماً لهم بذلك ، وغير أسماء جماعة تسمُّوا بأسماء الأنبياء ، ثم أمسك .

والصواب جواز هذا كله بعده صلوات الله عليه ، بدليل إبطاق الصحابة على ذلك .

وقد سمى جماعة منهم ابته محمد وكتاه بأبي القاسم .

وروي أنَّ النبي صلوات الله عليه أذن بذلك لعلي رضي الله عنه .

وقد أخبر صلوات الله عليه أنَّ ذلك اسمُ المهدى وكتبه .

وقد سمى به النبي صلوات الله عليه محمد بن طلحة ، ومحمد بن عمرو بن حزم ، ومحمد بن ثابت بن قيس ، وغير واحد ؛ وقال : ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة .

وقد فصلتُ الكلام في هذا القسم على بابين كما قدمناه .

(١) الجامع الصغير (١٠٣٣) ورمز إلىه بالصحة .

## الباب الأول

### الفصل الأول

فِي بِيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ  
 سَبُّ أَوْ نَقْصٌ، مِنْ تَعْرِيْضٍ أَوْ نَصٍّ  
**الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فِيمَنْ سَبَ النَّبِيَّ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> أَوْ تَنَقْصَهُ**

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن جميع من سبَّ النَّبِيَّ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> أو عَابَهُ ، أو أَلْحَقَ بِهِ نَقْصًا في نفسه أو نَسْبَهُ أو دِينِهِ ، أو خَصْلَةً مِنْ خَصَالِهِ ، أو عَرَضَ بِهِ ، أو شَبَهَهُ بِشَيْءٍ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ لَهُ أَوْ الإِزْرَاءِ عَلَيْهِ ، أو التَّصْغِيرِ لِشَانِهِ ، أو الغَضْنُّ مِنْهُ ، وَالْعَيْبُ لَهُ ؛ فَهُوَ سَابٌ لَهُ ؛ وَالْحُكْمُ فِيهِ حُكْمُ السَّابِ ، يُقْتَلُ كَمَا نُبَيِّنُهُ ؛ وَلَا نَسْتَنِي فَصْلًا مِنْ فَصُولِ هَذَا الْبَابِ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ ، وَلَا غَرَبِي فِيهِ تَصْرِيْحًا كَانَ أَوْ تَلْوِيْحًا .

وَكَذَلِكَ مَنْ لَعَنَهُ أَوْ دَعَا عَلَيْهِ ، أَوْ تَمَنَّى مَضْرَرًا لَهُ ، أَوْ نَسْبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصَبِهِ عَلَى طَرِيقِ النَّدِمِ ، أَوْ عَبَثَ فِي جَهَتِهِ الْعَزِيزَةِ بِسَخْفِ مِنَ الْكَلَامِ وَهُجُورِ ، وَمُنْكَرِ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورِ ، أَوْ عَيْرَهُ بِشَيْءٍ مَا جَرَى مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمَحْنَةِ عَلَيْهِ ، أَوْ غَمَّصَهُ بِعَصْبِ الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ الْجَاهِزَةِ وَالْمَعْهُودَةِ لَدَيْهِ .

وَهَذَا كُلُّهُ إِجْمَاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَئِمَّةِ الْفَتْوَىِ مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَى هَلَمَّ جَرَأَ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْمُنْذِرَ : أَجْمَعَ عَوَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> يُقْتَلُ ؛ وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ أَنْسٍ ، وَاللَّيْثِ ، وَأَحْمَدَ ، وَإِسْحَاقَ ؛ وَهُوَ مَذَهَبُ الشَّافِعِيِّ . قَالَ الْقَاضِيُّ أَبُو الْفَضْلِ - وَهُوَ مُقْتَضِيُّ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> : وَلَا تَقْبِلْ تَوْبَتِهِ عَنْ هُؤُلَاءِ الْمَذَكُورِينَ .

وَبِهِنْلَهُ قَالَ أَبُو حِنْفَةَ ، وَأَصْحَابَهُ ؛ وَالثُّورِيُّ وَأَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَالْأَوْزَاعِيُّ فِي الْمُسْلِمِينِ ، لَكُنْهُمْ قَالُوا : هِيَ رِدَّةٌ .

وَرَوَى مُثَلِّهِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ مَالِكٍ .

وحكى الطبرى مثله عن أبي حنيفة وأصحابه فمن تنقصه بِنَيَّتُهُ ، أو بري منه أو كذبه .  
وقال سُحنون فيمن سبّه : ذلك ردة كالزنقة .

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتکفیره ؟ وهل قتله حَدٌ أو كُفَرٌ ، كما سُبِّينه في الباب الثاني ؟ إن شاء الله تعالى ، ولا نعلم خلافا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة ؛ وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتلة وتکفیره ، وأشار بعض الظاهيرية - وهو أبو محمد علي بن أحمد الفارسي إلى الخلاف في تکفیر المستخف به .

والمعرف ما قدمناه ؛ قال محمد بن سُحنون : أجمع العلماء أن شاتم النبي بِنَيَّتُهُ المُتنقص له كافر . والوعيد جار عليه بعذاب الله ؛ وحكمه عند الأمة القتل ، ومن شك في كفره وعذابه كَفَرَ .

واحتاج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نُويرة لقوله - عن النبي بِنَيَّتُهُ : صاحبكم .

وقال أبو سليمان الخطابي : لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلما .

وقال ابن القاسم ، عن مالك في كتاب ابن سُحنون ، والمبسوط والعتبة ؛ وحكاه مُطرف عن مالك في كتاب ابن حبيب : من سبَّ النبي بِنَيَّتُهُ من المسلمين قُتل ، ولم يستتب .

قال ابن القاسم في العتبة : من سبَّه أو شتمه أو عابه أو تَنَقَّصَه فإنه يقتل ، وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق .

وقد فرض الله تعالى توقيره وبره ، وفي المبسوط عن عثمان بن كَتَانَة : من شتم النبي بِنَيَّتُهُ من المسلمين قُتل أو صُلُب حيَا ولم يستتب والإمام مُخِير في صلبه حيَا أو قتله .

ومن رواية أبي المصعب وابن أُويس : سمعنا ملِكَا يقول : من سبَّ رسول الله بِنَيَّتُهُ ، أو شتمه ، أو عابه ، أو تَنَقَّصَه - قتل مسلماً كان أو كافراً ، ولا يستتاب .

وفي كتاب محمد : أخبرنا أصحاب مالك أنه قال : من سبَّ النبي بِنَيَّتُهُ أو غيره من النبّين من مسلم أو كافر قُتل ولم يستتب .

وقال أصيغ: يُقتل على كل حال أسر ذلك أو أظهره؛ ولا يُستتاب؛ لأن توبته لا تعرف.

وقال عبد الله بن الحكم: من سبَّ النبي بِنَيَّتُهُ من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب .

وحكى الطبرى مثله عن أشيه ، عن مالك .

وروى ابن وهب ، عن مالك : منْ قال : إن رداء النبي ﷺ - ويروى زر النبي ﷺ  
وَسَخْ أراد عيه - قُتل .

وقال بعض علمائنا : أجمع العلماء على أن من دعا على النبي من الآباء بالويل ، أو  
بشيء من المكروه - أنه يُقتل بلا استتابة .

وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن قال في النبي ﷺ : الجمال يتيم أبي طالب بالقتل .  
وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بقتل رجل سمع قوماً يتذاكرون صفة النبي ﷺ إذ مرّ  
بهم رجل قبيح الوجه واللحية ؛ فقال لهم : تريدون تعرفون صفتة ؟ هي في صفة هذا  
المار في خلقه ولحيته . قال : ولا تقبل توبته .

وقد كذب - لعنة الله ؛ وليس يخرج من قلب سليم الإيمان .

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سُحنون : مَنْ قال : إن النبي ﷺ كان أسودَ يُقتل .  
وقال في رَجُلٍ قيل له : لا ، وحق رسول الله . فقال : فعل الله برسول الله كذا  
وكذا - وذكر كلاماً قبيحاً -، فقيل له : ما تقولُ يا عَدُوَّ الله ؟ فقال أشدَّ من كلامه الأول ؛  
ثم قال : إنما أردت برسول الله العَرْبَ . فقال ابنُ أبي سليمان للذى سأله : أشهد عليه  
وأنا شريكُك يريدُ في قتله وثواب ذلك .

قال حبيب بن الربيع : لأن ادعاه التأويل في لفظ صراح لا يقبل ؛ لأنَّه امتهانٌ ،  
وهو غير معزز لرسول الله ﷺ ، ولا موقر له ؛ فوجب إباحة دمه .

وأفتى أبو عبد الله بن عتاب في عشار ؛ قال لرجل : أَدُّو اشْكَ إلى النبي ﷺ ؛  
وقال : إن سأّلتُ أو جعلت فقد جَهَلَ وسأّلَ النبي ﷺ - بالقتل .

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المُتَفَقَّهَ الطَّلَيْطَلِيَّ وصلبه لما شهد عليه به من  
استخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إيه أثناه مناظرته باليتيم ، وختن حِيدَرَة ، وزعمه أن  
رُهده لم يكن قصداً ؛ ولو قدر على الطيبات أكلها ، إلى أشيه لهذا .

وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سُحنون بقتل إبراهيم الفزارى ، وكان شاعراً مُتفناً  
في كثير من العلوم ، وكان من يحضر مجلس القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة ،  
فرفعت عليه أمورٌ منكرةٌ من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبائاته ونبينا ﷺ ، فأحضر له  
القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء ، وأمر بقتله وصلبه ، فطُعن بالسكين ، وصلبَ

منكساً ؛ ثم أنزل وأحرق بالنار .

وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت خشبة ، وزالت عنها الأيدي استدارت ، وحولته عن القبلة ، فكان آية للجميع ، وكبر الناس ، وجاء كلبٌ فولغَ في دمه ، فقال يحيى بن عمر : صدق رسول الله ﷺ ، وذكر حديثاً عنه ﷺ أنه قال: لا يلغُ الكلبُ في دم مسلم . وقال القاضي أبو عبد الله بن المرابط : من قال : إنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُرْمٌ يُسْتَابُ ، فإنَّ تابَ إِلَّا قُتِلَ ؛ لَأَنَّهُ تَنَفَّصُ ؛ إِذَا لَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي خَاصَّتِهِ ، إِذَا هُوَ عَلَى بَصِيرَةِ مَنْ أَمْرَهُ وَيَقِينُ مَنْ عَصَمَهُ .

وقال حبيب بن ربيع القروي : مذهبُ مالك وأصحابه أنَّ من قال فيه ﷺ ما فيه نقص قُتل دون استتابة .

وقال ابن عتاب : الكتابُ والسنة موجبان أنَّ من قصدَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَذْيٍ أو نَقْصٍ ، معرضاً أو مصرياً ، وإنْ قُلَّ - فقتله واجبٌ ؛ فهذا البابُ كُلُّهُ مَا عَدَهُ الْعُلَمَاءُ سَبَّاً أو تَنَقْصَاً يَجِبُ قَتْلَ قَاتِلِهِ ، لَمْ يَخْتَلِفْ فِي ذَلِكَ مُتَقْدِمُهُمْ وَلَا مُتَأْخِرُهُمْ ، وإنْ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ قَتْلِهِ عَلَى مَا أَشْرَنَا إِلَيْهِ وَنَبَيَّنَاهُ بَعْدَ .

وكذلك أقول حكم من غمصهُ أو عَيْرَه برعایة الغنم أو السهو أو النسيان أو السحر ، أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه ، أو أذى من عدوه ، أو شدة من زمه ، أو بالليل إلى نسائه ؛ فَحُكْمُ هَذَا كَلِهِ مَنْ قَصَدَ بِهِ نَقْصَهُ الْقَتْلُ .

وقد مضى من مذاهب العلماء في ذلك ، ويأتي ما يدل عليه .

## الفصل الثاني

### في الحجة في إيجاب قتل من سب أو عابه ﷺ

فمن القرآن لعنهُ تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة ، وقرانه تعلى أذاهُ بأذاه ، ولا خلاف في قتل من سبَّ الله ، وأنَّ اللعنَ إنما يستوجبه من هو كافر ، وحكم الكافر القتل ؛ فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب : ٥٧].

وقال - في قاتل المؤمن مثل ذلك ؛ فمن لعنه في الدنيا القتل ؛ قال الله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغَرِّيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلَعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أَخْدُوا وَقُتُلُوا تَقْتِيلًا » [الأحزاب : ٦١] .

وقال - في المحاربين ، وذكر عقوبهم : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُصْلَبُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خَرْزٌ فِي الدُّنْيَا » [المائدة : ٣٣] .

وقد يقع القتل بمعنى اللعن ؛ قال الله تعالى : « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ » [الذريات : ١٠] و « قَاتَلُوكُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » [المافقون : ٤] ، أي : لعنهم الله ؛ ولأنه فرق بين أذاهم وأذى المؤمنين ؛ وفي أذى المؤمنين ما دون القتل ؛ من الضرب والنكال : فكان حُكْمُ مُؤْذِي الله ونبيه أشدَّ من ذلك ؛ وهو القتل . وقال تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » [النساء : ٦٥] .

فسلُبُ اسْمِ الإِيمَانِ عَنْ مَنْ وَجَدَ فِي صُدُرِهِ حَرْجًا مِنْ قَضَائِهِ ، وَلَمْ يَسْلِمْ لَهُ ؛ وَمَنْ تَنَصَّبَهُ فَقَدْ نَاقَضَ هَذَا .

وقال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَجْبَطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » [الحجرات : ٢] .

وَلَا يُجْبِطُ الْعَمَلُ إِلَّا الْكُفْرُ ؛ وَالْكَافِرُ يُقْتَلُ .

وقال تعالى : « وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَوْكَ بِمَا لَمْ يُحِيكَ بِهِ اللَّهُ » [المجادلة : ٨] « حَسِبْهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ » [المجادلة : ٨] .

وقال تعالى : « وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنُنَ قُلْ أَذْنُنَ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمُ وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [التوبه : ٦١] .

وقال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَحْوَنَا وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولَهُ كُنُّتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » [التوبه : ٦٥ ، ٦٦] .

قال أهل التفسير : كفّرتم بقولكم في رسول الله ﷺ .

وأما الإجماع فقد ذكرناه .

وأما الآثار : فحدثنا الشيخ أبو عبد الله أحمد بن غلبون ، عن الشيخ أبي ذر الھروي إجازة ، قال : حدثنا أبو الحسن الدارقطني ، وأبو عمر بن حيّة ، حدثنا محمد بن نوح ، حدثنا عبد العزيز بن محمد بن الحسن بن زبالة ، حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر ، عن عليّ بن موسى ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن الحسين بن عليّ ، عن أبيه - أنَّ رسول الله ﷺ قال : « من سبَّ نبِيًّا فاقتُلُوهُ ، ومن سبَّ أَصْحَابِي فاضْرِبُوهُ » (١) .

وفي الحديث الصحيح : أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف . وقوله : « مَنْ لَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ ! فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (٢) . ووجه إلينه مَنْ قتله غَيْلَهُ دون دعوه ، بخلاف غيره من المشركين ؛ وعللَ قتله بأذاته له ؛ فدلَّ أنَّ قتله إيمانه لغير الإشراك ؛ بل للأذى .

وكذلك قُتل أبا رافع ؛ قال البراء : وكان يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه (٣) .

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريته اللتين كانتا تُغْنِيان بسبه ﷺ .

وفي حديث آخر أن رجلاً كان يسبه ﷺ فقال : « مَنْ يَكْفِيَنِي عَدُوِّي ؟ » فقال خالد : أنا ، فبعثه ﷺ فقتله .

وكذلك لم يقلْ جماعة من كان يؤذيه من الكفار ويسبه ، كالنضر بن الحارث ، وعقبة ابن أبي مُعْيَط .

وعهد بقتل جماعة منهم قبل الفتح وبعده ، فقتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل القدرة عليه .

وقد روى البزار ، عن ابن عباس - أن عقبة بن أبي مُعْيَط نادى : يا عشر قريش ، مالي أُقتل من بينكم صيرًا ! فقال له النبي ﷺ : « بِكُفْرِكَ وَافْتَرَائِكَ » على رسول الله ﷺ (٤) .

(١) الجامع الصغير (٨٧٣٥) ورمز إلىه بالضعف .

(٢) البخاري في الجهاد (٣٠٣١) . (٣) البخاري في المغازي (٤٣٩) .

(٤) مجمع الزوائد (١٠٠١٦) وقال : رواه البزار وفيه يحيى بن سلمة بن كهيل ، وهو ضعيف ، وقد وثّق ابن حبان .

وذكر عبد الرزاق أن النبي ﷺ سبه رجل فقال : « من يكفيني عدوِي ؟ » فقال الزبير : أنا ؛ فبارزه فقتله الزبير .

وروى أيضًا أن امرأة كانت تسبه ﷺ ، فقال : « من يكفيني عدوِي ؟ » فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها .

وروى أن رجلاً كذب على النبي ﷺ فبعث علية والزبير إليه يقتلاه .

وروى ابن قانع أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله سمعت أبي يقول فيك قولاً قبيحًا فقتلته ! فلم يُشُقْ ذلك على النبي ﷺ .

وبلغ المهاجر بن أبي أمية أميرَ اليمن لأبي بكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن امرأة هناك في الردة غنت بسب النبي ﷺ ، فقطع يدها ، ونزع ثيتيها ، فبلغ أبا بكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك ؛ فقال له : لو لا ما فعلت لأمرتك بقتلها ، لأنَّ حدَّ الأنبياء يشبهُ الحدود .

وعن ابن عباس : هجت امرأة من خطمة النبي ﷺ فقال : من لي بها ؟ فقال رجلٌ من قومها : أنا يا رسول الله . فنهض فقتلها ، فأخبر النبي ﷺ فقال : « لا ينتفع فيها عَزَانٌ ». .

عن ابن عباس أنْ أعمى كانت له أم ولد تسبُّ النبي ﷺ فيزجرها فلا تنزجر ، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فقتلها ، وأعلم النبي ﷺ بذلك ، فأهدر دمها .

وفي حديث أبي بزرة لأسلمي : كنت يوماً جالساً عند أبي بكر الصديق ، فغضب على رجل من المسلمين - وحكى القاضي إسماعيل وغيره واحدٌ من الأئمة في هذا الحديث أنه سبَّ أبا بكر .

رواه النسائي : أتتْ أبا بكر ، وقد أغاظ لرجل فردَّ عليه ؛ قال : فقلتْ : يا خليفةَ رسول الله ، دعني أضربُ عنقه . فقال : اجلسْ ، فليس ذلك لأحدٍ إلا لرسول الله ﷺ .

قال القاضي أبو محمد بن نَصْرٍ : ولم يخالف عليه أحدٌ ؛ فاستدلَّ الأئمة بهذا الحديث على قتل من أغضب النبي ﷺ بكلِّ ما أغضبه أو آذاهُ أو سبه .

ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة ، وقد استشاره في قتل رجل

سبّ عمر رضي الله عنه ؛ فكتب إليه عمر : إنه لا يحل قتل امرئ مسلم بسبّ أحدٍ من الناس إلا رجلاً سبّ رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ؛ فمن سبّه فقد حلّ دمه .

وسائل الرشيد مالكاً في رجلٍ شتم النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ؛ وذكر له أن فقهاء العراق أفتوا به بجلده؛ فغضبَ مالك ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما بقاء الأمة بعد شتم نبّيها ! منْ شتم الأنبياء قتل ، ومنْ شتم أصحاب النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه جلد .

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله تعالى : كذا وقع في هذه الحكاية ، رواها غيرُ واحدٍ من أصحاب مناقب مالك ومؤلفي أخباره وغيرهم ؛ ولا أدرى من هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكرَ وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله ، ولعلهم من لم يشهرْ بعلم ، أو من لا يوثق بفتواه ، أو يميلُ به هواء ، أو يكون ما قاله يُحمل على غير السبّ ؛ فيكون الخلاف : هل هو سبّ أو غير سبّ ؟ أو يكون رجع وتاب عن سبه ، فلم يُقلُّه مالك على أصله ؛ وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه .

ويبدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أنَّ من سبه أو تنقصه صلوات الله عليه وآله وسلامه فقد ظهرت علامة مرض قلبه ، ويرهان سرّ طويته وكفره ؛ ولهذا ما حكم له كثيرٌ من العلماء بالردة ، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي ، وقول الثوري ، وأبو حنيفة ، والковفين .

والقول الآخر أنه دليل على الكفر ، فيقتل حداً ، وإن لم يحكم له بالكفر إلا أن يكون متمادياً على قوله ، غير منكر له ، ولا مُقلِّع عنه ؛ فهذا كافر ؛ وقوله : إما صريحُ كُفُر كالتكذيب ونحوه ، أو من كلمات الاستهزاء والذمّ ؛ فاعترافه بها وتركُ توبته عنها دليلٌ استحلاله لذلك ، وهو كفرٌ أيضاً ؛ فهذا كافر بلا خلاف ؛ قال الله تعالى في مثله : **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةُ الْكُفُرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾** [التوبه : ٧٤] .

قال أهل التفسير : هي قولهم : إن كان ما يقول محمد حقاً لنجن شر من الحمير .

وقيل : قولُ بعضهم : ما مثلنا ومثل محمد إلا قول القائل : سمنْ كلبك يأكلك ؛ ولئنْ رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل .

وقد قيل : إن قائل مثل هذا إن كان مُستَرّاً به إن حُكْمُهُ حُكْمُ الزنديق يُقتل ، ولأنه قد غير دينه ، وقد قال صلوات الله عليه وآله وسلامه : «من غير دينه فاضربوا عنقه» ولأن حكم النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه في الحرمة مزية على أمته ؛ وساب الحر من أمته يُحدُّ ، فكانت العقوبة لمن سبه صلوات الله عليه وآله وسلامه القتل ، لعظيم قدره ، وشفوف منزلته على غيره .

### الفصل الثالث

#### أسباب عفو النبي ﷺ عن بعض من آذاه

فإن قلتَ : فلم لم يقتل النبي ﷺ اليهودي الذي قال له : السَّامُ عَلَيْكُمْ ؟ وهذا دعاء عليه ؛ ولا قتل الآخر الذي قال له : إن هذه لقَسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ وَقَدْ تَأْذَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَقَالَ : « قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » <sup>(١)</sup> ؛ ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان .

فأعلم - وفقنا الله وإياك - أن النبي ﷺ كان أول الإسلام يستألف عليه الناس ، ويُمْيلُ قلوبهم ، ويُحِبُّ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ ، ويُزِينُهُمْ فِي قلوبهم ، ويُدَارِيُّهُمْ ، ويُقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « إِنَّمَا بُعْثَمْ مُبَشِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُنْفَرِينَ » <sup>(٢)</sup> .

ويُقُولُ : « يُسْرُوا وَلَا تُعْسِرُوا ، وَسُكُّنُوا وَلَا تُنْفِرُوا » <sup>(٣)</sup> .

ويُقُولُ : « لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتَلُ أَصْحَابَهِ » <sup>(٤)</sup> .

وكان ﷺ يُدَارِيُّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَيَجْعَلُ صَحْبَتَهُمْ ، وَيُغْضِيُّهُمْ ، وَيَحْتَمِلُ مِنْ آذَاهُمْ ، وَيَصْبِرُ عَلَى جُفَانِهِمْ مَا لَا يَجُوزُ لَنَا الْيَوْمُ الصَّبْرُ لَهُمْ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ يُرْفَقُهُمْ بِالْعَطَاءِ وَالْإِحْسَانِ ؛ وَبِذَلِكَ أَمْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَقَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَرَالْ تَطَّلِعُ عَلَى حَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفِحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » [المائدة : ١٣] .

وقال تعالى : « ادْفِعْ بِمَا تِيَ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا أَذْلَى الَّذِي بَيْتَكَ وَبَيْتَهُ عَدَاوَةً كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٍ » [فصلت : ٣٤] .

وذلك لحاجة الناس للتآلف أول الإسلام ، وجمع الكلمة عليه ؛ فلما استقرَّ وأظهرَهُ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ كله قتل من قدرَ عَلَيْهِ ، وَاشْتَهِرَ أَمْرُهُ ، كفَعَلَهُ بَابُ خَطْلٍ ، وَمِنْ عَهْدِ بَقْتَلِهِ يَوْمَ الْفَتْحِ ، وَمِنْ أُمْكَنَتْهُ قَتْلَهُ غَيْلَةً مِنْ يَهُودَ وَغَيْرِهِمْ ؛ أَوْ غَلْبَةً مِنْ لَمْ يُنْظِمْهُ قَبْلَ سَلْكِ صَحْبَتِهِ ، وَالانْخِرَاطُ فِي جَمْلَةِ مُظْهَرِيِّ الْإِيمَانِ لَهُ مَنْ كَانَ يُؤْذِيهِ ، كَابِنُ الْأَشْرَفِ ، وَأَبِي رَافِعِ الْأَنْصَارِ ، وَعَقْبَةَ .

(١) البخاري في الأدب (٦١٠٠) ، ومسلم في الزكاة (٦٢٠) عن ابن مسعود .

(٢) البخاري في الوضوء (٢٢٠) عن أبي هريرة .

(٣) البخاري في العلم (٦٩) عن أنس .

(٤) سبق تخرجه .

وكذلك نذر دم جماعة سواهم ؛ كعب بن زهير ، وابن الزبعرى وغيرهما ، من آذاء حتى ألقوا بأيديهم ولقوه مسلمين . وبواطن المنافقين مسترة ، وحكمه عليه السلام على الظاهر ، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائل منهم خفية ومع أمثاله ، ويحلقون عليها إذا نُميت ، وينكرونها ، ويحلقون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ؛ وكان مع هذا يطمع في فِيَّتِهِمْ ، ورجوعهم إلى الإسلام ، وتوبيتهم ؛ فيصبر عليه السلام على هنَّاَتِهِمْ وجفوتهم ، كما صبر أولو العزم من الرسل حتى فاءَ كثيرون منهم باطنًا ، كما فاءَ ظاهراً ، وأخلص سراً كما أظهر جهراً ، ونفع الله بعدهُ بكثير منهم ؛ وقام منهم للدين وزراءً وأعوانٌ وحاماً وأنصار كما جاءت به الأخبار . وبهذا أجاب بعضُ أئمتنا رحمة الله عن هذا السؤال .

وقال : لعله لم يثبت عنده عليه السلام من أقوالهم ما رُفع ؛ وإنما نقله الواحدُ ومن لم يصلِّ رُتبة الشهادة في هذا الباب ؛ من صبيٍّ أوْ عَبْدٍ أوْ امرأةٍ ؛ والدماءُ لا تُسْبَحُ إِلَّا بَعْدَ لِيْلَيْنِ .

وعلى هذا يُحْمَلُ أَمْرُ الْيَهُودِيِّ في السلام ، وأنهم لرواً أَسْتَهْمُ ، ولم يبيّنوه ، ألا ترى كيف نبهت عليه عائشةً ؛ ولو كان صرخَ بذلك لم يتفرد بعلمه ؛ وهذا نبه النبي عليه السلام أصحابه على فعلهم وقلة صدقهم في سلامهم ، وخيانتهم في ذلك ليَا بالستهم وطعنا في الدين ؛ فقال : «إِذَا سَلَمَ أَحَدُهُمْ فَإِنَّمَا يَقُولُ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقُولُوا ، عَلَيْكُمْ» .

وكذلك قال بعضُ أصحابنا البغداديين : إنَّ النَّبِيَّ عليه السلام لم يَقْتُلُ المنافقين بعلمه فيهم ؛ ولم يأتِ أنه قامت بِيَنَّةٍ على تفاصيلهم ؛ فلذلك تركهم . وأيضاً فإنَّ الأمر كان سراً وباطنًا ، وظاهرهم الإسلام والإيمان ، وإن كان من أهل الذمة بالعهد ، والجوار ، والناسَ قريبٌ عهدهم بالإسلام ، ولم يتميز بعد الخبيث من الطيب . وقد شاع عن المذكورين في العرب كونُ من يُتَّهم بالتفاق من جملة المؤمنين وصحابة سيد المرسلين ، وأنصار الدين بحكم ظاهرهم ؛ فلو قتلهم النبي عليه السلام لنفاقهم وما يدرُّ منهم علمه بما أسروا في أنفسهم لوجد المفرُّ ما يقول ، ولا راتب الشارد ، وأرجف المعاندُ ، وارتاع من صحة النبي عليه السلام والدخول في الإسلام غير واحد ، ولزعم الزاعمُ ، وظن العدو الظالمُ أن القتل إنما كان للعداوة وطلب أخذ التّرة . وقد رأيتُ معنى ما حررَته منسوباً إلى مالك بن أنس - رحمة الله - ولهذا قال عليه السلام : «لا يتحدثُ الناسُ أنَّ مُحَمَّداً يقتلُ أصحابه» <sup>(١)</sup> .

وقال : «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم» <sup>(٢)</sup> .

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا والقتل ، وشبيهه ،

لظهورها واستهواه الناس في علمها .

وقد قال محمد بن الموز : لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي ﷺ ; وقاله القاضي أبو الحسن بن القصار .

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعَرَيَنَكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونَنِي أَيْنَمَا ثُقُفُوا أَخِذُوهُ وَقُتُلُوا تَقْتِيلًا . سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢] .

قال : معناه إذا أظهروا النفاق .

وحكى محمد بن مسلمة في المبسوط ، عن زيد بن أسلم - أن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي جَاهَ الدُّكْفَارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبه : ٧٣] ، نسخها ما كان قبلها .

وقال بعض مشايخنا : لعل القائل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، وقوله : اعدل - لم يفهم النبي ﷺ منه الطعن عليه والتهمة له ؛ وإنما رأها من وجه الغلط في الرأي ، وأمور الدنيا ، والاجتهاد في مصالح أهلها ؛ فلم ير ذلك سببا ، ورأى أنه من الأذى الذي له العفو عنه والصبر عليه ؛ فلذلك لم يعاقبه .

وكذلك يقال في اليهود إذا قالوا : السام عليكم - ليس فيه صريح سب ولا دعاء إلا بما لابد منه من الموت الذي لابد من لحاقه جميع البشر .

وقيل : بل المراد تسمون دينكم . والسام والسامة : الملال .

وهذا دعاء على سامة الدين ليس بصريح سب ، ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث : باب - إذا عرض الذمي أو غيره بسب النبي ﷺ .

قال بعض علمائنا : وليس هذا بتعريض بالسب ؛ وإنما هو تعريض بالأذى .

قال القاضي أبو الفضل : قد قدمنا أن الأذى والسب في حقه ﷺ سواء .

قال القاضي أبو محمد بن نصر مجيئا عن هذا الحديث ببعض ما تقدم ؛ ثم قال : ولم يذكر في الحديث هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمة أو الحرب ، ولا يترك موجب الأدلة للأمر المحتمل .

وال الأولى في ذلك كله والأظهر من هذه الوجوه . مقصد الاستئلاف والمداراة على

الدين لعلهم يؤمنون . ولذلك ترجم البخاري على حديث القسمة والخوارج : باب - من ترك قتال الخوارج للتألف . ولئلا ينفر الناس عنه ، ولما ذكرنا معناه عن مالك ، وقرنناه قبل . وقد صبر لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سِرْحَرَه على سِرْحَرَه وسمه ، وهو أعظم من سبّه إلى أن نصره الله عليهم ، وأذن له في قتل من حينه <sup>(١)</sup> منهم وإنزالهم من صياصيهم ، وقدف في قلوبهم الرعب ، كتب على من شاء منهم الجلاء ، وأخرجهم من ديارهم ، وخرب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وكاففهم بالسبب ؛ فقال : يا إخوة القردة والخنازير ، وحكم فيهم سيف المسلمين وأجلائهم من جوارهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلة .

فإن قلت : فقد جاء في الحديث الصحيح ، عن عائشة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سِرْحَرَه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سِرْحَرَه : ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قطُّ ، إلا أن تُتَهَكْ حُرْمَةُ الله ، فيتنتقم الله <sup>(٢)</sup> .

فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم من سبه أو آذاه أو كذبه ، فإنَّ هذه من حرمات الله التي انتقم لها ؛ وإنما يكون ما لا ينتقم له فيما تعلق بسوء أدب أو معاملة من القول أو الفعل بالنفس والمال مما لم يقصد فاعله به آذاه ، لكن مما جُبِلَتْ عليه الأعرابُ من الجفاء ، والجهل ، أو جُبِلَ عليه البشر من الغفلة ، كجذب الأعرابي إزاره حتى آثرَ في عنفه ، وكرفع صوت الآخر عنده ، وكجذب الأعرابي شراءه منه فرسه التي شهد فيها خُزيمة ؛ ولما كان من تظاهر زوجيه عليه ، وأشباه هذا مما يحسن الصفحُ عنه .

وقد قال بعض علمائنا : إن أذى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سِرْحَرَه حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره ، وأما غيره فيجوز بفعل مباح ما لا يجوز للإنسان فعله ، وإن تأذى به غيره . واحتاج بعموم قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعْنُهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » [الأحزاب : ٥٧] ، وبقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سِرْحَرَه في حديث فاطمة : « إنها بضعة مني ، يؤذيني ما يؤذينها ، ألا وإنني لا أحقر ما أحل الله » <sup>(٣)</sup> . ولكن لا تجتمع ابنةُ رسول الله وابنة عدو الله عند رجل أبداً . أو يكون هذا مما آذاه به كافر رجأ بعد ذلك إسلامه ؛ كعفوه عن اليهودي الذي سحره ؛ وعن الأعرابي الذي أراد قتله ، وعن اليهودية التي سمته . وقد قيل : قتلها .

ومثل هذا مما يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين ؛ فصفح عنهم رجاء استئلافهم واستئلاف غيرهم كما قررناه قبل ، وبالله التوفيق .

(١) حينه : من أراد إهلاكه ، والحين : الهلاك .

(٢) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧١٤) .

(٣) البخاري في الحدود (٦٧٨٦) .

## الفصل الرابع

### حكم من فعل ذلك دون قصد أو اعتقاد

تقدم الكلام في قتل القاصد لسبه والإذراء به ، وغمصيه بأي وجه كان من ممكن أو محال ؛ فهذا وجه بين لا إشكال فيه.

الوجه الثاني : لاحق به في البيان والجلاء ، وهو أن يكون القائل لما قال في جهته بِعَنْهِ غير قاصد للسب والإذراء ، ولا معتقد له ، ولكنه تكلم في جهته بِعَنْهِ بكلمة الكفر ؛ من لعنه أو سبه أو تكذيبه أو إضافة ما لا يجوز عليه ، أو نفي ما يجب له ما هو في حقه بِعَنْهِ نقيصة ؛ مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة ، أو مداهنة في تبليغ الرسالة ، أو في حكم بين الناس ، أو يغتصب من مرتبته ، أو شرف نسبه ، أو وفور علمه أو زهده ، أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها بِعَنْهِ وتوارد الخبر به عنه عن قصد لرد خبره ، أو يأتي بسفه من القول ، وقبح من الكلام ، نوع من السب في جهته ، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يتعمد ذمه ، ولم يقصد سبه ، وإنما لجهالة حملته على ما قاله ، أو لضجر أو سكر اضطرب إليه ، أو قلة وضبط للسانه وعجرفة وتهور في كلامه ، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول القتل دون تعلُّم ؛ إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة ، ولا بدعوى زلل اللسان ، ولا بشيء مما ذكرناه ، إذ كان عقله في فطرته سليماً ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزهد عن رسول الله بِعَنْهِ قدمناه .

وقال محمد بن سُحْنون - في المأسور يسب النبي بِعَنْهِ في أيدي العدو : يُقتل إلا أن يعلم تصره أو إكراهه .

وعن أبي محمد بن أبي زيد : لا يُعذر بدعوى زلل اللسان في مثل هذا .

وأفتى أبو الحسن القابسي - فيمن شتم النبي بِعَنْهِ في سكره يُقتل ؛ لأنه يظن به أنه يعتقد هذا ويفعله في صحوه .

وأيضاً فإنه حد لا يسقطه السكر ؛ كالقتل ، والقتل ، وسائر الحدود ، لأنه أدخله على نفسه ؛ لأن من شرب الخمر على علم من زوال عقله بها ، وإتيان ما ينكر منه ، فهو كالعامد لما يكون بسببه .

وعلى هذا أ Zimmerman الطلاق والعتاق ، والقصاص والحدود .

ولا يعترض على هذا بحديث حمزة وقوله للنبي ﷺ : وهل أنت إلا عبيد لأبي ! قال : فعرف النبي ﷺ أنه ثَمِّلٌ فانصرف ، لأن الخمر كانت حِينَثِدُ غير محرمة ، فلم يكن في جناباتها إثم ، وكان ما يحدث عنها معفوا عنه كما يحدث من التوم وشرب الدواء المأمون .

## الفصل الخامس

### حقيقة قائل ذلك هل هو كافر أو مرتد

الوجه الثالث : أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به ، أو ينفي نبوته أو رسالته ، أو وجوده ﷺ أو يكفر به ؛ انتقل بقوله ذلك إلى دين آخر غير ملته أم لا ؟ فهذا كافر بإجماع ، يجب قتله ثم ينظر فإن كان مُصرّحاً بذلك كان حكمه أشبه بحكم المرتد ، وقوى الخلاف في استتابته .

وعلى القول الآخر لا يُسقط القتل عنه توبته لحق النبي ﷺ ، إن كان ذكره بنتيجة في ما قاله من كذب أو غيره ؛ وإن كان مُستَرًا بذلك فحكمه حكم الزنديق لا تُسقط قتله التوبة عندنا كما سنبيه .

قال أبو حنيفة وأصحابه : من برأ من محمد ، أو كذبَ به ، فهو مرتد حلال الدم إلا أن يرجع .

وقال ابن القاسم - في المسلم إذا قال : إن محمداً ليسنبيّ ، أو لم يُرسل ، أو لم ينزل عليه قرآن ، وإنما هو شيء تقوله : يُقتل .

قال : ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين ، فهو بمنزلة المرتد ، وكذلك من أعلن بتكذيبه أنه كالمُرتد يُستتاب .

وكذلك قال فيمن تبأ ، وزعم أنه يوحى إليه ، وقاله سُحْنُون .

قال ابن القاسم : دعا إلى ذلك سراً وجمهراً .

قال أصيغ : وهو كالمُرتد ؛ لأنَّه قد كفر بكتاب الله مع الفرية على الله .

وقال أشهب - في يهودي تبأ أو زعم أنه أُرسل إلى الناس ، أو قال : بعد نبيكم نبيّ - أنه يُستتاب إن كان مُعلنا بذلك ؛ فإن تاب وإلا قتل ، وذلك لأنَّه مكذب للنبي ﷺ في قوله : لا نبيّ بعدي ، ومفتر على الله في دعواه عليه الرسالة والنبوة .

وقال محمد بن سحنون : من شكَّ في حرفٍ مما جاء به النبي ﷺ عن الله فهو كافرٌ جاحدٌ .

قال : منْ كذبَ النبي ﷺ كان حُكْمُهُ عند الأُمَّةِ القتلَ .

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سُحنون : من قال إن النبي ﷺ أسود - قُتل ؛ ولم يكن النبي ﷺ بأسود .

وقال نحوه أبو عثمان الحداد ، قال : لو قال : إنه مات قبل أن يُلْتَحِي ، أو إنه كان بتاهَرْتَ ولم يكن بتهمة قتل ؛ لأن هذا نفي .

قال حبيب بن ربيع : تبديل صفته ومواضعه كفر ، والظاهر له كافر الاستتابة والمرء له زنديق ، يقتل دون استتابة .

## الفصل السادس

### الحكم فيما لو كان الكلام يحتمل السبّ وغيره

الوجه الرابع : أن يأتي من الكلام بِجُمْلَةٍ ، ويلفظ من القول بمشكل يمكن حمله على النبي ﷺ أو غيره ، أو يتزدد في المراد به من سلامته من المكره أو شره ؛ فههنا متردّد النظر وحيرة العبر ، ومظنة اختلاف المجتهدين ، ووقفة استبراء المقلدين ، ليهلك من هلك عن بيته ، ويحيى من حيَّ عن بيته ؛ فمنهم من غالب حرمة النبي ﷺ ، وحمى حمى عرضه ، فجسر على القتل ؛ ومنهم من عظم حرمة الدم ، ودرا الحد بالشبهة لاحتمال القول .

وقد اختلف أئمتنا في رجل أغضبه غريئه ؛ فقال له : صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدَ ؛ فقال له الطالبُ : لا صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدَ ؛ فقيل لسحنون : هل هو كمن شتم النبي ﷺ ، أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه ؛ قال : لا ، إذا كان على ما وصفت من الغضب ، لأنَّه لم يكن مضمرا الشتم .

وقال أبو إسحاق البرقي ، وأصيغ بن الفرج : لا يقتل ؛ لأنَّه إنما شتم الناس ؛ وهذا نحو قول سحنون : لأنَّه لم يعذره بالغضب في شتم النبي ﷺ ولكنَّه لما احتمل الكلام عنده ، ولم تكن معه قرينة على شتم النبي ﷺ ، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم ؛ ولا مقدمة يحملُ عليها كلامه ؛ بل القرينة تدل على أن مراده الناس غير هؤلاء ، لأجل قول الآخر له : صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدَ ؛ لأنَّه لم يُصلِّي عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غضبه .

هذا معنى قول سحنون ؛ وهو مطابق لعلة صاحبيه .

وذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيره في مثل هذا إلى القتل .

وتوقف أبو الحسن القابسي في قتل رجل قال : كل صاحب فُندقٍ قرآنٌ ، ولو كاننبياً مرسلاً ؛ فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه حتى تستفهم البينة عن جملة ألفاظه ، ومايدل على مقصده ، هل أراد أصحاب الفنادق الآن ؛ فمعلوم أنه ليس أنه فيهم النبي مرسلاً ؛ فيكون أمره أخف .

قال : ولكن ظاهر لفظه العموم لكل صاحب فُندقٍ من المتقدمين والمتاخرين وقد كانفيمن تقدم من الأنبياء والرسل من اكتسب المال .

قال : ودم المسلم لا يقدم عليه إلا بأمر بين . وما ترد إليه التأويلات لابد من إمعان النظر فيه . هذا معنى كلامه .

وحكى عن أبي محمد بن أبي زيد - رحمه الله - فيمن قال : لعن الله العرب ، ولعن الله بنى إسرائيل ، ولعن الله بنى آدم ، وذكر أنه لم يرد الأنبياء ، وإنما أردت الظالمين منهم - أن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان .

وكذلك أفتى - فيمن قال : لعن الله من حرم المُسْكِر ، وقال : لم أعلم من حرمه . وفيمن لعن حديث : « لا يُبْعِدُ حاضرُ لِبَادٍ » <sup>(١)</sup> . ولعن من جاء به - أنه إن كان يُعذَرُ بالجهل وعدم معرفة السنن فعليه الأدب الوجيع ؛ وذلك أنَّ هذا لم يقصد بظاهر حاله سب الله ولا سب رسوله ؛ وإنما لعن من حرمه من الناس على نحو فتوى سحنون وأصحابه في المسألة المتقدمة .

ومثل هذا ما يجري في كلام سُفهاء الناس في قول بعضهم لبعض : يا بن ألف خنزير ، وابن مائة كلب ، وشبيهه من هُجُر القول .

ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء ، ولعل بعض هذا العدد منقطع إلى آدم عليه السلام ، فينبغي الزجر عنه ، وتبيين ما جهله قائله منه وشدة الأدب فيه .

ولو علم أنه قصد سبّ من في آبائه من الأنبياء على علم لقتل .

وقد يضيقُ القولُ في نحو هذا لو قال لرجلٍ هاشمي : لعن الله بنى هاشم - وقال :

أردتُ الظالمين منهم ؛ أو قال لرجل من ذرية النبي ﷺ قوله قيحاً في آبائه أو من نسله أو ولده على علم منه أنه من ذرية النبي ﷺ ، ولم تكن قرينة في المتألتين تقتضي تخصيص بعض آبائه ، وخارج النبي ﷺ من سبه منهم .

وقد رأيت لأنبي موسى بن مناس - فيمن قال لرجل : لعنة الله إلى آدم عليه السلام - أنه إن ثبت عليه ذلك قتل .

وقد كان اختلف شيوخنا فيمن قال لشاهد شهد عليه بشيء ثم قال له : تهمني ؟ قال له الآخر : الأنبياء يتهمون ، فكيف أنت ؟ فكان شيخنا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله ، ل بشاعة ظاهر اللفظ .

وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاحتمال اللفظ عنده أن يكون خبراً عن اتهمهم من الكفار .

وأفتى فيها قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج بنحو هذا .

وشدد القاضي أبو محمد تأصيفه ، وأطّال سجنه ، ثم استخلصه بعد على تكذيب ما شهد به عليه ؛ إذ دخل في شهادة بعض من شهد عليه وهن ، ثم أطلقه .

وشاهدت شيخنا القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى أيام قضائه أتى برجل هاترَ رجلا ، ثم قصد إلى كلب فضربه برجله وقال له : قم يا محمد ، فأنكر الرجل أن يكون قال ذلك ، وشهد عليه لفيف من الناس ؛ فأمر به إلى السجن ، وتنقصى عن حاله ، وهل يصح من يستراب بدينه ؟ فلما لم يجد ما يقوى الريبة باعتقاده ضربه بالسوط وأطلقه .

## الفصل السابع

### حكم من وصف نفسه بصفة من صفات الأنبياء

### رفعاً ل شأنه أو استصغاراً ل شأنهم صلوات الله عليهم

الوجه الخامس : ألا يقصد نفطاً ، ولا يذكر عيناً ولا سباً ، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه ، أو يستشهد ببعض أحواله بـ ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل ، والجحّة ل نفسه أو لغيره ، أو على التشبيه به أو عند هضيمة نالته ، أو غضاضة لحنته ، ليس على طريق التأسي وطريق التحقيق؛ بل على مقاصد الترفيع ل نفسه أو لغيره ، أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه بـ ﷺ ، أو على قصد الهزل والتذير بقوله ، كقول القائل : إن قيل

في السوء فقد قيل في النبي ، أو إن كُذبَتْ فقد كُذبَ الانبياءُ ، أو إن أذُنْبَتْ فقد أذنُبوا ، أو أنا أسلَمْ من ألسِنةِ الناس ولم يسلِّمْ منهم أنبياءُ الله ورسُلِه ، أو قد صبرت كما صبر أولُو العزم ، أو كصبر أيوب ، أو قد صبر نبِيُّ الله عن عدَاهُ ، وحَلَمَ على أكثر ما صبرت ؛ وکقول المتنبي :

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكَهَا      اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودٍ

ونحوه من أشعار المتعجّرين في القول ، المتساهلين في الكلام ؛ كقول المعرّي :

كَنْتَ مُوسَى وَافْتَهَ بَنْتَ شَعْبَيْنَ      غَيْرَ أَنْ لِيْسَ فِيْكُمَا مِنْ فَقِيرٍ

على أن آخرَ الْبَيْتِ شدِيدٌ ، وداخلُ في بابِ الإِزْرَاءِ وَالْتَّحْقِيرِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَفْضِيلِ حَالِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ .

وكذلك قوله :

لَوْلَا انْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدُ مُحَمَّدٍ      قَلَنَا مُحَمَّدٌ مِنْ أَيْهِ بَدِيلٍ

هُوَ مِثْلُهِ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ      لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةِ جَبَرِيلٍ

فصدر الْبَيْتُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْفَصْلِ شدِيدٌ ، لِتَشْيِيهِ غَيْرِ النَّبِيِّ فِي فَضْلِهِ بِالنَّبِيِّ ، وَالْعَجَزُ مُحْتَمَلٌ لِوَجْهِيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْفَضْيَلَةَ . نَقَصَتِ الْمَدْوَحُ ، وَالْأُخْرُ اسْتَغْنَأَهُ عَنْهَا وَهَذَا أَشَدُّ .

ونحوُّ منه قول الآخر :

وَإِذَا رُفِعْتَ رِيَاتُهُ      صَفَقَتْ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبَرِيلٍ

وقول الآخر من أهل العصر :

فَرَّ مِنَ الْخَلُدِ وَاسْتَجَارَ بِنَا      فَصَبَرَ اللَّهُ قَلْبَ رَضْوَانِ

وَكَوْلُ حَسَانِ الْمَصِيْصِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبَادِ الْمَعْرُوفِ بِالْمُعْتَمِدِ وَوَزِيرِهِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زَيْدِوْنَ :

كَانَ أَبَا بَكْرَ أَبُو بَكْرِ الرَّضَا      وَحَسَانُ حَسَانٌ وَأَنْتَ مُحَمَّدُ

إِلَى أَمْثَالِ هَذَا .

وَإِنَّا أَكْثَرَنَا شَاهِدَهَا مَعَ اسْتِقْالَنَا حَكَايَتَهَا لِتَعْرِيفِ أَمْثَالِهَا وَلِتَسَاهِلِ كَثِيرَ مِنَ النَّاسِ فِي وَلُوْجِ هَذَا الْبَابِ الضَّئِيلِ ، وَاسْتَخْفَافِهِمْ فَادِحَ هَذَا الْعَبَءُ ، وَقَلْةُ عِلْمِهِمْ بِعَظِيمِ مَا فِيهِ مِنْ

الوزرٍ ، وكلامِهم منه بما ليس لهم به علمٌ ، ويَحْسِبُونَه هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ؛ لَا سِيمَا الشُّعْرَاءِ وَأَشَدُهُمْ فِيهِ تَصْرِيحاً ، وَلِلْسَّانِهِ تَسْرِيحاً ابْنُ هَانَى الْأَنْدَلُسِيُّ ، وَابْنُ سَلِيمَانَ الْمَعْرِيُّ ؛ بَلْ قَدْ خَرَجَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِهِمَا إِلَى حَدِّ الْإِسْخَافِ وَالنَّقْصِ وَصَرْيَحِ الْكُفْرِ .

وَقَدْ أَجَبْنَا عَنْهُ ، وَغَرَضْنَا الآنَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْفَصْلِ الَّذِي سُقْنَا أُمْثَلَتِهِ ؛ فَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا لَمْ تَضْمِنْ سِبَا ، وَلَا أَضَافَتْ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ نَقْصاً . وَلَسْتُ أَعْنِي عَجْزِي بِيَتِي الْمَعْرِيُّ ، وَلَا قَصْدِ قَائِلَهَا إِزْرَاءً وَغَضَاءً ، فَمَا وَقَرَ النَّبُوَةُ ، وَلَا عَظَمُ الرِّسَالَةِ ، وَلَا عَزَّرَ حَرَمَةُ الْإِصْطَفَاءِ ، وَلَا عَزَّرَ حُظْوَةُ الْكَرَامَةِ حَتَّى شَبَهَ مِنْ شَبَهَ فِي كِرَامَةِ نَالَهَا ، أَوْ مَعْرَةَ قَصْدِ الْإِنْتَقَاءِ مِنْهَا ، أَوْ ضَرَبَ مِثْلَ لَتَطِيبِ مَجْلِسِهِ ، أَوْ إِغْلَاءَ فِي وَصْفِ لِتَحْسِينِ كَلَامِهِ مِنْ عَظَمِ اللَّهِ خَطْرَهُ ، وَشَرْفِ قَدْرَهُ ، وَأَلْزَمَ تَوْقِيرَهُ وَبِرَهُ ، وَنَهَى عَنْ جَهَرِ القَوْلِ لَهُ ، وَرَفَعَ الصَّوْتَ عَنْهُ .

فَحَقُّ هَذَا إِنْ دُرِئَ عَنِ الْقَتْلِ : الْأَدْبُ وَالسِّجْنُ وَقُوَّةُ تَعْزِيرِهِ بِحَسْبِ شُنْعَةِ مَقَالَهُ ، وَمَفْتَضَى قَبْحِ مَا نَطَقَ بِهِ ، وَمَأْلُوفُ عَادَتِهِ لِثَلَهُ ، أَوْ نَدُورِهِ ، وَقَرِينَةِ كَلَامِهِ ، أَوْ نَدَمَهُ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُ ؛ وَلَمْ يَزِلَّ الْمُتَقْدِمُونَ يَنْكِرُونَ مِثْلَ هَذَا مِنْ جَاءَ بِهِ ؛ وَقَدْ أَنْكَرَ الرَّشِيدُ عَلَى أَبِي نَوَاسَ قَوْلَهُ :

فَإِنْ يَكُ بِأَقِي سَحْرُ فَرْعَوْنَ فِيْكُمْ      فَإِنْ عَصَمَا مُوسَى بِكَفِّ خَصِيبٍ

وَقَالَ لَهُ : يَا بْنَ الْلَّخَنِاءِ ، أَنْتَ الْمُسْتَهْزَئُ بِعَصَمَا مُوسَى ! وَأَمْرَ بِإِخْرَاجِهِ عَنْ عَسْكَرِهِ مِنْ لِيلَتِهِ .

وَذَكَرَ الْقَيْتَبِيُّ أَنَّ مَا أَخْذَ عَلَيْهِ أَيْضًا ، وَكُفِرَ فِيهِ ، أَوْ قَارَبَ - قَوْلَهُ فِي مُحَمَّدِ الْأَمِينِ وَتَشْبِيهِهِ إِيَّاهُ بِالْقَيْتَبِيِّ تَكَبَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، حَيْثُ قَالَ :

تَنَازَعَ الْأَحْمَدَانِ الشَّبَهُ فَاشْتَبَهَا      خَلَقَا وَخُلِقَا كَمَا قُدِّ الشَّرَّا كَانَ

وَقَدْ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلَهُ :

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلِ      مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ نَفْرِهِ

لَاْنَ حَقُّ الرَّسُولِ وَمُوجِبُ تَعْظِيمِهِ وَإِنَافَةُ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ ، وَلَاْ يُضَافَ .

فَالْحَكْمُ فِي أَمْثَالِ هَذَا مَا بَسْطَنَاهُ فِي طَرِيقِ الْفَتِيَّا عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ جَاءَتْ فَتِيَا إِمَامَ مَذْهَبِنَا مَالِكَ بْنَ أَنْسَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - وَأَصْحَابَهُ .

فِي النَّوَادِرِ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ أَبِي مَرِيمٍ عَنْهُ فِي رَجُلٍ عَيْرَ رَجُلًا بِالْفَقْرِ ؛ فَقَالَ : تُعَيَّرُنِي

بالفقر وقد رعى النبي ﷺ الغنم ؟ فقال مالك : قد عرض بذكر النبي ﷺ في غير موضعه ؛ أرى أن يؤدب ؛ قال : ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عُتبوا أن يقولوا : قد أخطأت الأنبياء قبلنا .

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل : انظر لنا كاتباً يكون أبوه عربياً . فقال كاتب له : قد كان أبو النبي كافراً ، فقال : جعلت هذا مثلاً ؟ فعزله ؛ وقال : لا تكتب لي أبداً .

وقد كره سخنون أن يصلي على النبي ﷺ عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب ؛ توقيراً له وتعظيمًا ؛ كما أمرنا الله .

وسئل القابسي عن رجل قال لرجل قبيح كأنه وجه نكير ، ولرجل عبوس كأنه وجه مالك الغضبان ؛ فقال : أي شيء أراد بهذا ، ونكير أحد فتاني القبر ، وهمما ملكان ، فما الذي أراد ؟ أروع دخل عليه حين رأه من وجهه ، أم عاف النظر إليه لدمامة خلقه ؟ فإن كان هذا فهو شديد ، لأنه جرّ التحقيق والتهوين ؛ فهو أشد عقوبة ، وليس فيه تصريح بالسب للملك ؛ وإنما السب واقع على المخاطب .

وفي الأدب بالسوط والسبعين نكال للسفهاء ؛ قال : وأما ذاكر مالك خازن النار فقد جفوا الذي ذكره عندما أنكر حاله من عبوس الآخر إلا أن يكون العبس له يد فيرعب بعبيته ، فيشبهه القائل على طريق الذم لهذا في فعله ، ولزومه في ظلمه صفة مالك الملك الطيع لربه في فعله ، فيقول كأنه لله يغضب غصب مالك ، فيكون أخف ؛ وما كان ينبغي له التعرض مثل هذا ؛ ولو كان أثني على العبوس بعبيته ، واحتج بصفة مالك كان أشد ويعاقب العاقبة الشديدة ؛ وليس في هذا ذم للملك ، ولو قصد ذمه لقتل .

وقال أبو الحسن أيضًا في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئاً ، فقال الرجل : اسكت ؛ فإنك أمي . فقال الشاب : أليس كان النبي ﷺ أمي ؟ فشُنِعَ عليه مقاله ، وكفره الناس ؛ وأشفق الشاب مما قاله ، وأظهر الندم عليه ؛ فقال أبو الحسن : أما إطلاق الكفر عليه فخطأ ، لكنه مخطئ في استشهاده بصفة النبي ﷺ ؛ وكون النبي أمي آية له ؛ وكون هذا أميًا نقيصة فيه وجهالة .

ومن جهاله احتجاجه بصفة النبي ﷺ ، لكنه إذا استغفر وتاب ، واعترف وجلأ إلى الله فيترك ؛ لأن قوله لا ينتهي إلى حد القتل ، وما طريقة الأدب فطّر فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه .

ونزلت أيضًا مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن

منصور - رحمه الله - في رجل تنقصه آخر بشيء ؛ فقال له : إنما تُريد نقضي بقولك ، وأنا بشر ، وجميع البشر يلحقهم النقص حتى النبي ﷺ ، فأفاته بإطالة سجنه ، وإيجاع أدبه ؛ إذ لم يقصد السب ، وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله .

### الفصل الثامن

#### حكم الناقل والحاكي لهذا الكلام عن غيره

الوجه السادس : أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره ، وأثراً عن سواه ؛ فهذا يُنظر في صورة حكايته وقرينته مقالته ؛ ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه : الوجوب ، والندب ، والكرامة ، والتحريم ، فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله ، والإنكار والإعلام بقوله ، والتنفير منه ، والتجريح له - فهذا ما ينبغي امثاله - ويحمد فاعله ، وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقض على قائله ، وللفتيا بما يلزمـه .

وهذا منه ما يجب ، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكى عنه ؛ فإن كان القائل لذلك من تصدّى لأن يؤخذ عنه العلم أو رواية الحديث ، أو يقطع بحكمه أو شهادته ، أو فتياه في الحقوق - وجب على سماعه الإشادة بما سمع منه والتنفير للناس عنه ، والشهادة عليه بما قاله ، ووجب على من بلغه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره ، وبيان كفره ، وفساد قوله ؛ لقطع ضرره عن المسلمين ، وقياماً بحق سيد المرسلين ؛ وكذلك إن كان من يعظ العامة ، أو يؤدب الصبيان فإن من هذه سريرته لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتاًكـد في هؤلاء الإيجاب بـحق النبي ﷺ ولـحق شريـعـته .

وإن لم يكن القائل بهذه السـيـل فالـقـيـام بـحقـالـنـبـيـ ﷺ واجـبـ ، وـحـمـاـيـةـ عـرـضـهـ مـعـتـنـىـ ، وـنـصـرـتـهـ عـنـ الـأـذـىـ حـيـاـ وـمـيـتـاـ مـسـتـحـقـ عـلـىـ كـلـ مـؤـمـنـ ؛ لـكـهـ إـذـ قـامـ بـهـذـاـ مـنـ ظـهـرـ بـالـحـقـ ، وـفـصـلـتـ بـهـ القـضـيـةـ ، وـبـاـنـ بـهـ الـأـمـرـ سـقـطـ عـنـ الـبـاقـيـ الـفـرـضـ ، وـبـقـىـ الـاسـتـحـبابـ فـيـ تـكـثـيرـ الشـهـادـةـ عـلـيـهـ ، وـعـضـدـ التـحـذـيرـ مـنـهـ .

وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث ، فكيف بمثل هذا ؟ وقد سُئل أبو محمد بن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى : أيسعه ألا يؤذى شهادته ؟ قال : إن رجـاـ نـفـاذـ الـحـكـمـ بـشـهـادـهـ فـلـيـشـهـدـ .

وكذلك إن علم أنـ الحـاـكـمـ لاـ يـرـىـ القـتـلـ بـماـ شـهـادـ بـهـ ، وـيـرـىـ الـاـسـتـابـةـ وـالـاـدـبـ فـلـيـشـهـدـ

ويلزم ذلك .

وأما الإباحةُ حكاية قوله لغير هذين المقصدين ، فلا أرى لها مدخلًا في هذا الباب ،  
فليس التفكك بعرض رسول الله ﷺ ، والتمضمض بسوء ذكره لأحد ، لا ذاكراً ولا آثراً  
لغير غرض شرعي بمحاج .

وأما للأغراض المتقدمة فمتردّد بين الإيجاب والاستحباب .

وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسle في كتابه على وجه الإنكار  
لقولهم ، والتحذير من كفرهم ، والوعيد عليه ، والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم  
كتابه .

وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي ﷺ الصحيحة على الوجه المتقدمة ،  
وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفر والملحدين في كتبهم  
ومجالسهم ليبيّنوا للناس ، وينقضوا شبهها عليهم ، وإن كان ورد لأحمد بن حنبل إنكار  
بعض هذا على الحارث بن أسد ؛ فقد صنع أحمد مثله في رده على الجهمية والقائلين  
بالمخلوق .

هذه الوجوه السائفة الحكاية عنه ؛ فاما ذكرها على غير هذا من حكاية سبب والإزراء  
بنصبه على وجه الحكايات والأسمار والطرف وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث  
والسمين ، ومضاحك المجان ، ونواذر السخفاء ، والخوض في قيل وقال ، وما لا يغنى -  
فكل هذا منوع ، وبعضاً أشد في المتع والعقوبة من بعض ، فما كان من قائله الحاكي له  
على غير قصد أو معرفة بمقدار ما حكاها ، أو لم تكن عاداته ، أو لم يكن الكلام من  
ال بشاعة حيث هو ، ولم يظهر على حاكيه استحسانه واستصوابه - زجر عن ذلك ، ونهي  
عن العودة إليه ؛ وإن قوماً ببعض الأدب فهو مستوجب له ، وإن كان لفظه من البشاعة  
حيث هو كان الأدب أشد .

وقد حكى أن رجلاً سأله مالكاً عنمن يقول : القرآن مخلوق . فقال مالك : كافر  
فاقتلوه . فقال : إنما حكيته عن غيري . فقال مالك : إنما سمعناه منك .

وهذا من مالك على طريق الزجر والتغليظ ، بدليل أنه لم ينفذ قتله .

وإن اتهم هذا الحاكي في ما حكااه أنه اختلفه ، ونسبة إلى غيره ، أو كانت تلك عادة  
له ، أو ظهر استحسانه لذلك ، أو كان مولعاً بمثله ، والاستخفاف له ، أو التحفظ لمثله ،

وطلبه ، ورواية أشعار هجوه عليه السلام وسبه ؛ فحكم هذا حكم الساب نفسه ، يؤاخذُ بقوله ، ولا تنفعه نسبته إلى غيره ، فيبادرُ بقتله ويعجل إلى الهاوية أمه .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام - فيمن حفظ شطر بيت ما هجي به النبي عليه السلام فهو كفر .

وقد ذكر بعض من أللّ في الإجماع - إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجي به النبي عليه السلام وكتابته وقراءته ، وتركه متى وجد دون محو ؛ ورحم الله أسلافنا المتقدن المحرزين لدينهم ؛ فقد أسقطوا من أحاديث المغاري والسير ما كان هذا سبile ، وتركوا روایته إلا أشياء ذكروها بسيرة وغير مُستبشعه ، على نحو الوجه الأول ، ليرُو نعمة الله من قائلها ، وأخذه المفترى عليه بذنبه .

وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - قد تحرى فيما اضطر إلى الاستشهاد به من أهagi أشعار العرب في كتبه ، فكثي عن اسم المهجو بوزن اسمه ؛ استبراءً لدینه ، وتخفظاً من المشاركة في ذم أحد بروايته أو نشره ؛ فكيف بما يتطرق إلى عرض سيد البشر عليه السلام .

## الفصل التاسع

### ذكر الحالات التي تجوز عليه عليه السلام على طريق التعليم

الوجه السابع : أن يذكر ما يجوز على النبي عليه السلام ، أو يختلف في جوازه عليه ، وما يطراً من الأمور البشرية به ، وتمكن إضافتها إليه ، أو يذكر ما امتحن به ، وصبر في ذات الله على شدته من مقاساة أعدائه ، وأذاهم له ؛ ومعرفة ؛ ابتداء حاله وسيرته ، وما لقيه من بؤس زمانه ، ومرّ عليه من معاناة عيشه ؛ كل ذلك على طريق الرواية ، ومذكرة العلم ، ومعرفة ما صحت منه العصمة للأنباء ، وما يجوز عليهم - فهذا فن خارج عن هذه الفنون الستة ؛ إذ ليس فيه غمضاً ولا نقصاً ، ولا إزراء ولا استخفاف ، لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصود اللألفظ ؛ لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفهماء طلبة الدين من يفهم مقاصده ، ويتحققون فوائده ؛ ويتجنب ذلك من عساه لا يفقهه ، أو يخشنى به فنتنه ؛ فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف ، لما انطوت عليه من تلك القصص لضعف معرفتهن ، ونقص عقولهن وإدراهن ؛ فقد قال عليه السلام مخبراً عن نفسه باستيجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله ؛ وقال : « ما من نبي إلا وقد رعى الغنم » .

وأخبرنا الله تعالى ذلك عن موسى عليه السلام ؛ وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة لمن ذكره على وجهه ، بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير ؛ بل كانت عادة جميع العرب .

نعم ، في ذلك للأئمّة حكمة بالغة ، وتدريج الله تعالى لهم إلى كرامته ، وتدريب برعايتها لسياسة أئمّهم من خلائقه بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ، ومتقدم العلم .

وكذلك قد ذكر الله يُتّمَّه وعَيْلَتَه على طريق المَنَّةِ عَلَيْهِ ، والتعرّيف بكرامته له ؛ فذكر الذاكر لها على وجه تعرّيف حاله ، والخبر عن مبتدئه ، والتعجب من منح الله قبله ، وعظيم منته عنه ليس فيه غضاضة ؛ بل فيه دلالة على نبوّته وصحّة دعوته ؛ إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومن ناؤه من أشرافهم شيئاً فشيئاً ، وغنى أمره حتى قهرهم ، وتمكن من ملك مقاليدهم ، واستباحة مالك كثير من الأمم غيرهم ؛ ياظهار الله تعالى له ، وتأييده بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، وإمداده بالملائكة المسمّين ؛ ولو كان بـان ملك أو ذا أشياع متقدمين لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجب ظهوره ، ومقتضى علوه ؛ ولهذا قال هرقل - حين سأّل أبا سفيان عنه : هل في آبائه من ملك ؟ فقال : لا . ثم قال : ولو كان في آبائه ملك لـقـلـنا : رـجـلـ يـطـلـبـ مـلـكـ أـبـيـهـ ، إـذـ الـيـتـمـ من صفتـهـ إـحـدـىـ عـلـامـاتـهـ فـيـ الـكـتـبـ الـمـتـقـدـمـةـ وـأـخـبـارـ الـأـمـمـ السـالـفـةـ .

وكذا وقع ذكره في كتاب أرميا ، وبهذا وصفه ابن ذي يزن لعبد المطلب ، وبحيث لا يبي طالب .

وكذلك إذا وصف بأنه أمي كما وصفه الله به - فهي مـدـحـةـ له وفضيلة ثابتة فيه ، وقاعدة معجزته ؛ إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعرفة والعلوم ، مع ما مـنـحـ يـعـلـيـ اللهـ ، وفضل به من ذلك ، كما قدمناه في القسم الأول .

ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يُدارس ولا لـقـنـ مـقـضـىـ العـجـبـ وـمـتـهـىـ الـعـبـرـ ، وـمـعـجـزـةـ الـبـشـرـ .

وليس في ذلك نقيصة ؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة ؛ وإنما هي آلة لها ، وواسطة موصولة إليها غير مراده في نفسها ؛ فإذا حصلت الشمرة والمطلوب استغني عن الواسطة والسبب .

والآمـيـةـ فيـ غـيـرـهـ نـقـيـصـةـ ؛ لـأـنـهـ سـبـ الجـهـالـةـ ، وـعـنـوـانـ الغـبـاوـةـ ؛ فـسـبـحـانـ منـ باـيـنـ أمرـهـ منـ أمرـ غـيـرـهـ ، وـجـعـلـ شـرـفـهـ فـيـماـ فـيـهـ مـحـطـةـ سـوـاهـ ، وـجـعـلـ حـيـاتـهـ فـيـماـ فـيـهـ هـلـاـكـ منـ

عداه؛ هذا شقُّ قلبه ، وإخراج حشوته ، كان تمام حياته ، وغاية قوة نفسه ، وثبات روعه؛ وهو فيمن سواه متته هلاكه وحتم موته وفنائه ، وهلم جرا إلى سائر ما رُوي من أخباره وسيره ، وتقلله من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب ، وتواضعه ومهنته نفسه في أموره ، وخدمة بيته زهداً ورغبة عن الدنيا ، وتسوية بين حقيرها وخطيرها؛ لسرعة فناء منها مورده وقصد بها مقصده كان حسناً ، ومن أورد ذلك على غير وجهه ، وعلم منه بذلك سوء قصده لحق بالقصول التي قدمناها .

وكذلك ما ورد من أخباره وأخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث مما في ظاهره إشكالٌ يقتضي أموراً لا تليق بهم بحالٍ ، ويحتاج إلى تأويلٍ وترددٍ احتمال؛ فلا يجب أن يُتحدث عنها إلا بالصحيح ، ولا يروى منها إلا المعلوم الثابت .

ورحم الله مالكا؛ فلقد كره التحدث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى؛ وقال: ما يدعو الناس إلى التحدث بمثل هذا؟ فقيل له: إن ابن عجلان يحدث بها؛ فقال: لم يكن من الفقهاء، وليت الناس وافقوه على ترك الحديث بها، وساعدوه على طيبها؛ فأكثرها ليس تحته عمل .

وقد حُكِي عن جماعة من السلف ، بل عنهم على الجملة - أنهم كانوا يكرهون الكلام في ما ليس تحته عمل ، والنبي ﷺ أوردها على قومٍ عربٍ يفهمون كلام العرب على وجهه ، وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه ، واستعارته ، وبلغه وإيجازه ، فلم تكن في حقهم مشكلة ، ثم جاء من غلبت عليه العجمة ، وداخلته الأمية؛ فلا يكاد يفهم من مقاصد العرب إلا نصها وصريحها ، ولا يتحقق بإشاراتها إلى غرض الإيجاز ، ووحيها وتبلighها ، وتلويحها ، فتفرقوا من تأويلها وحملها على ظاهرها شذر مذر؛ فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر .

فاما ما لا يصح من هذه الأحاديث فواجب لا يذكر منها شيءٌ في حق الله ولا في حق أنبيائه ، ولا يتحدث بها ، ولا يتكلف الكلام على معانها . والصواب طرحها ، وترك الشغل بها إلا أن تذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المقاد واهية الإسناد .

وقد أنكر الأشياخُ عَلَى أبي بكر بن فورك تكلفة في مشكلة الكلام على أحاديث ضعيفة موضوعة لا أصل لها ، أو مقلولة عن أهل الكتاب الذين يلبسون الحق بالباطل كان يكفيه طرحها ، ويعنيه عن الكلام التنبية على ضعفها؛ إذ المقصود بالكلام على مشكل ما فيها إزالة الملبس ، واجتنابها من أصلها ، وطرحها أكثفُ للبسِ وأشفَّ للنفس .

## الفصل العاشر

### الأدب اللازم عند ذكر أخباره

وما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي ﷺ وما لا يجوز ؛ والذاكر من حالاته ما قدمناه في الفصل قبل هذا على طريق المذاكرة والتعليم - أن يلتزم في كلامه - عند ذكره ﷺ ، وذكر تلك الأحوال - الواجب من توقيره وتعظيمه ، ويراقب حال لسانه ، ولا يُهمله ، وتنظر عليه علامات الأدب عند ذكره ؛ فإذا ذكر ما قاساه من الشدائدين ظهر عليه الإشراق والارتفاع<sup>(١)</sup> ، والغيط على عدوه ، ومودة الفداء للنبي ﷺ لو قدر عليه ، والنصرة لو أمكنته .

وإذا أخذ في أبواب العصمة ، وتكلم على مجري أعماله وأقواله ﷺ تحرى أحسن اللفظ وأدب العبارة ما أمكنه ، واجتنب بشيء ذلك ، وهجر من العبارة ما يقبح ؛ كلفة الجهل والكذب والمعصية ؛ فإذا تكلم في الأقوال قال : هل يجوز عليه الخلاف في القول والإخبار بخلاف ما وقع سهواً أو غلطًا ، ونحوه من العبارة ، ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة .

وإذا تكلم على العلم قال : هل يجوز إلا يعلم إلا ما علم ؟ وهل يمكن إلا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه ؛ ولا يقول بجهل ؛ لقبح اللفظ وبشاعته .

وإذا تكلم في الأفعال قال : هل يجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والتواهي ومواقة بعض الصفات ؟ فهو أولى وأدب من قوله : هل يجوز أن يعصي أو يُذنب أو يفعل كذا وكذا ، ومن أنواع المعاصي ؟ فهذا من حق توقيره ﷺ ، وما يجب له من تعزيز وإعظام .

وقد رأيت بعض العلماء لم يتحفظ من هذا ، فقبح منه ، ولم يستصوب عبارته فيه ووجدت بعض الجائزين قوله لأجل ترك تحفظه في العبارة ما لم يقله ؛ وشنع عليه بما يأبه ويكره قائله .

وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملًا في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم ، فاستعماله في حقه ﷺ أوجب ، والتزامه أكدر .

(١) الارتفاع : شدة الفلق .

فجودة العبارة تُقبح الشيء أو تُحسنه ، وتحريتها وتهذيبها تُعظّم الأمر أو تهونه ؛  
ولهذا قال عليه السلام : « إن من البيان لسحراً » <sup>(١)</sup> .

فأمّا ما أورده على جهة النفي عنه والتزييه فلا حرج في تسریع العبارة وتصريحها فيه  
كتقوله : لا يجوز عليه الكذب جملة ، ولا إثبات الكبائر بوجهه ، ولا الجور في الحكم على  
حال ؛ ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه عند ذكره مجرداً ؛ فكيف عند ذكر مثل  
هذا .

وقد كان السلف تظہر عليهم حالات شديدة عند مجرد ذكره ، كما قدمناه في القسم

الثاني .

وقد كان بعضهم يتلزم مثل ذلك عند تلاوة آي من القرآن ، حكى الله تعالى فيها  
مقال عدّاه ؛ ومن كفر بآياته ، وافتوى عليه الكذب ؛ فكان يخفض بها صوته إعظاماً  
لربه ، وإنجلالاً له ، وإشفاقاً من التشبه بمن كفر به .

(١) البخاري في النكاح (٥١٤٦) عن ابن عمر .



الباب الثاني

## الفصل الأول

### في حكم سابه وشانئه ومنتقده

### ومؤديه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته

### الأقوال والأراء في حكم من سب النبي ﷺ أو تنقصه

قد قدمنا ما هو سب وأذى في حقه ﷺ ، وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك وقاتله ، أو تخير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه ، وقررنا الحجج عليه .

وبعد فاعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه ، وقول السلف وجمهور العلماء قتله حدا لا كفراً إن أظهر التوبية منه ؛ ولهذا لا تقبل عندهم توبته ، ولا تنفعه استقالته ولا فيئته كما قدمناه قبل ، وحكمه حكم الزنديق ، ومُسِرُ الكفر في هذا القول ؛ وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله ، أو جاء تائياً من قبل نفسه ؛ لأنه حد وجوب لا تسقطه التوبية كسائر الحدود .

قال الشيخ أبو الحسن القابسي - رحمه الله: إذا أقرَ بالسبَ ، وتاب منه ، وأظهر التوبة - قتل بالسب ؛ لأنَّه هو حُدُّه .

وقال أبو محمد بن أبي زيد في مثله ، وأما ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه .

وقال ابن سحنون : من شتم النبي ﷺ من الموحدين ، ثم تاب عن ذلك لم تزل توبته عنه القتل .

وكذلك لقد اختلف في الزنديق إذا جاء تائياً ؛ فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين :

قال : من شيوخنا من قال : أُقْتُلُه بِاقْرَارِه ؛ لأنَّه كان يقدِّرُ على ستر نفسه ، فلما اعترف خِفْنا أنه خَشِيَ الظهور عليه فبادرَ لذلك .

ومنهم من قال : أُفْلِي توبته ؛ لأنَّي أُسْتَدِلُّ على صحتها بِجِيئِه ؛ فكأننا وقمنا على باطنه ، بخلاف من أَسْرَته البَيْنة .

قال القاضي أبو الفضل : وهذا قول أصيغ ، ومسألة سب النبي ﷺ أقوى ، لا يتصورُ فيها الخلاف على الأصل المقدم ؛ لأنَّه حق متعلق للنبي ﷺ ولأمته بسيط لا تسقطه

التوبةُ كسائر حقوق الأدميين . والزنديق إذا تاب بعد القدرة عليه فعند مالك ، والليث ، وإسحاق ، وأحمد ، لا تقبل توبته .  
وعند الشافعي تقبل .

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف .

وحكى ابن المنذر ، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : يُستتابُ .

قال محمد بن سُحنون : ولم يزل القتل عن المسلم بالتوبة من سبِّ عَنْكَ اللَّهَ ؛ لأنَّه لم ينتقل من دين إلى غيره ، وإنما فعل شيئاً حده عندنا القتل لا عفو فيه لأحد ، كالزنديق ؛ لأنَّه لم ينتقل من ظاهر إلى ظاهر .

وقال القاضي أبو محمد بن نصر مُحْتاجاً لسقوط اعتبر توبته : والفرق بينه وبين من سبَ الله تعالى على مشهور القول باستتابته - أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر ، والبشر جنس تلحّقه المعرفة إلا من أكرمه الله بنبوته ، والبارئ تعالى مُنْزه عن جميع المعايب قطعاً ، وليس من جنس تلحّق المعرفة بجنسه ، لا حق فيه لغيره من الأدميين ؛ فقبلت توبته . ومن سبَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعلق فيه حق لآدمي ، فكان كالمُرتد يقتل حين ارتداده أو يُقذف ؛ فإنَّ توبته لا تسقط عنه حد القتل والقذف .

وأيضاً فإنَّ توبَةَ المُرتد إذا قُبِلَت لا تسقط ذنبه من زنا وسرقة وغيرها ، ولم يُقتل ساب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكتفه ، لكن لمعنى يرجع إلى تعظيم حرمة وزوال المعرفة به ، وذلك تسقطه التوبة .

قال القاضي أبو الفضل : يُرِيدُ - والله أعلم : لأنَّ سبَهُ لم يكن بكلمة تقتضي الكفر ، ولكن بمعنى الإزراء والاستخفاف ؛ أو لأنَّ توبته وإظهار إِنَّابَتَه ارتفع عنه اسم الكفر ظاهراً ، والله أعلم بسريرته ، وبقى حُكْمُ السبِّ عليه .

وقال أبو عمران القابسي : من سبَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم ارتدَ عن الإسلام قُتل ولم يُستتبْ ؛ لأنَّ السبَّ من حقوق الأدميين التي لا تسقط عن المُرتد . وكلام شيوخنا هؤلاء مبني على القول بقتله ؛ حدا لا كفراً ؛ وهو يحتاج إلى تفصيل .

وأما على رواية الوليد بن مسلم عن مالك ومن وافقه على ذلك من ذكرناه وقال به من أهل العلم - فقد صرَّحوا أنه رَدَّةٌ ؛ قالوا : يُستتابُ منها ؛ فإنَّ تابَ نُكْلُ ، وإنَّ أبي قُتلَ ، فحكم له بحكم المُرتد مطلقاً في هذا الوجه .

والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه ، ونحو نبسط الكلام فيه ؛ فنقول : من لم يره ردة فهو يوجب القتل فيه حدا ؛ وإنما نقول ذلك مع فصلين : إما مع إنكاره ما شهد به عليه ؛ وإظهاره الإلقاء والتوبة عنه ؛ فقتله حدا لثبات كلمة الكفر عليه في حق النبي ﷺ ، وتحقيقه ما عظم الله من حقه ؛ وأجرينا حكمه في ميراثه .

وغير ذلك حكم الزنديق إذا ظهر عليه وأنكر أو تاب .

فإن قيل : فكيف تثبتون عليه الكفر ، ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابتها !

قلنا : نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر فلا نقطع عليه بذلك ؛ لإقراره بالتوحيد والنبوة ، وإنكاره ما شهد به عليه ، أو زعمه أن ذلك كان منه وهلاً ومعصية ، وأنه مُقلع عن ذلك نادم عليه ، ولا يمتنع إثبات بعض أحكام الكفر على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه ؛ كقتل تارك الصلاة . وأما من علم أنه سبه معتقداً استحلاله فلا شك في كفره بذلك . وكذلك إن كان سبه في نفسه كفر ، كتكذيبه أو تكفيه ونحوه ، فهذا مما لا إشكال فيه ، ويقتل وإن تاب منه ، لأننا لا نقبل توبته ، ونقتله بعد التوبة حدا ؛ لقوله ، ومتقدمة كفره ؛ وأمره بعد إلى الله المطلع على صحة إلقاءه ، العالم بسره .

وكذلك من لم يظهر التوبة ، واعترف بما شهد به عليه ، وصمم عليه - فهذا كافر بقوله وباستحلاله هتك حرمة الله وحرمة نبيه ﷺ يقتل كافراً بلا خلاف .

فعلى هذه التفصيات خذ كلام العلماء ونزل مختلف عباراتهم في الاحتجاج عليها ، وأجر اختلافهم في الموارثة وغيرها على ترتيبها تتضح لك مقاصدهم إن شاء الله تعالى .

## الفصل الثاني

### حكم المرتد إذا تاب

إذا قلنا بالاستتابة حيث تصح فالاختلاف فيها على الاختلاف في توبة المرتد ؛ إذ لا فرق .

وقد اختلف السلف في وجوبها وصورتها ومدتها ؛ فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرتد يُستتاب .

وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة ،

ولم ينكره واحد منهم ؛ وهو قول عثمان ، وعليّ ، وابن مسعود ؛ وبه قال عطاء بن أبي رباح ، والنخعي ، والثوري ، ومالك ، وأصحابه ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأصحاب الرأي .

وذهب طاوس ، ومحمد بن الحسن ، وعبيد بن عمير ، والحسن في إحدى الروايتين عنه - أنه لا يُستتاب ؛ و قاله عبد العزيز بن أبي سلمة ، وذكره عن معاذ ؛ وأنكره سُحنون عن معاذ ؛ وحکاه الطحاوي عن أبي يوسف ؛ وهو قول أهل الظاهر ؛ قالوا : وتنفعه توبته عند الله ؛ ولكن لا ندراً القتل عنه ؛ لقوله عليه السلام : « من بدل دينه فاقتلوه » (١) .  
وحيكى أيضاً عن عطاء : إن كان من ولد في الإسلام لم يُستتب ، و يُستتاب الإسلامي .

وجمهور العلماء على أن المرتد والمرتدة في ذلك سواء .

وروي عن علي عليه السلام : لا تُقتل المرتدة ، و تُسترق ؛ و قاله عطاء ، و قتادة .

وروي عن ابن عباس : لا تُقتل النساء في الردة ؛ وبه قال أبو حنيفة .

قال مالك : والحرُّ والعبدُ والذكر والأنثى في ذلك سواء .

وأما مُدتها فمذهب الجمهور ، وروي عن عمر ، أنه يُستتاب ثلاثة أيام يُحبس فيها ؛ وقد اختلف فيه عمر ؛ وهو أحد قولي الشافعي ، وقول أحمد ، وإسحاق ، واستحسن مالك ؛ وقال : لا يأتي الاستظهار إلا بخير ، وليس عليه جماعة الناس .

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد : يريد في الاستئناء ثلاثة .

وقال مالك أيضاً : الذي أخذ به في المرتد قول عمر : يُحبس ثلاثة أيام ، ويعرض عليه كل يوم ؛ فإن تاب وإلا قتل .

وقال أبو الحسن بن القصار في تأثیره ثلاثة رواياتان عن مالك : هل ذلك واجب أو مستحب ؟ واستحسن الاستتابة والاستئناء ثلاثة أصحاب الرأي .

وروي عن أبي بكر الصديق أنه استتاب امرأة فلم تتب فقتلها ؛ و قاله الشافعي مرة ، فقال : إن لم يتتب قتل مكانه . واستحسن المزني .

وقال الزهري : يدعى إلى الإسلام ثلاثة مرات ، فإن أبي قتل .

وروي عن علي رضي الله عنه : يستتاب شهرين .

وقال النخعي : يستتاب أبداً ، وبه أخذ الثوري ما رجيت توبيه . وحكى ابن القصار عن أبي حنيفة - أنه يستتاب ثلاث مرات في ثلاثة أيام أو ثلاثة جموع كل يوم أو جموعة مرة .

وفي كتاب محمد ، عن القاسم : يُدعى المرتد إلى الإسلام ثلاث مرات ؟ فإن أبي ضربت عنقه . وانختلف على هذا هل يُهدى أو يُشدد عليه أيام الاستتابة ليتوب أم لا ؟ فقال مالك : ما علمت في الاستتابة تجويعاً ولا تعطيشاً ، وبيؤتى منه الطعام بما لا يضره .

وقال أصيغ : يخوف أيام الاستتابة بالقتل ، ويعرض عليه الإسلام .

وفي كتاب أبي الحسن الطابشي : يوعظ في تلك الأيام ، ويدرك بالجنة ، ويخوف بالنار .

قال أصيغ : وأي الموضع حُبس فيها من السجون مع الناس أو وحده إذا استوثق منه سواء ، ويوقف ماله إذ خيف أن يتلفه على المسلمين ، ويُطعم منه ، ويُسقى . وكذلك يستتاب كلما رجع وارتد أبداً ، وقد استتاب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه بهان الذي ارتد أربع مرات أو خمساً .

وقال ابن وهب ، عن مالك : يستتاب أبداً كلما رجع ؛ وهو قول الشافعي ، وأحمد ، و قاله ابن القاسم .

وقال إسحاق : يُقتل في الرابعة .

وقال أصحاب الرأي : إن لم يتب في الرابعة قتل دون استتابة ، وإن تاب ضُرب ضرباً وجيناً ، ولم يخرج من السجن حتى يظهر عليه خشوع التوبة .

قال ابن المنذر : ولا تعلم أحداً أوجب على المرتد في المرة الأولى أدباً إذا رجع . وهو على مذهب مالك والشافعي والковي .

### الفصل الثالث

#### حكم المرتد إذا اشتبه ارتداده

هذا حكم من ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوته من إقرار أو عدول لم يُدفع فيهم ؛ فاما من لم تتم الشهادة عليه بما شهد عليه الواحد أو اللفيف من الناس ؛ أو ثبت قوله لكن

احتمل ولم يكن صريحاً . وكذلك إن تاب على القول بقبول توبته فهذا يدرأ عنه القتل ، ويسلط عليه اجتهد الإمام بقدر شهرة حاله ، وقوة الشهادة عليه ، وضعفها ، وكثرة السماع عنه ، وصورة حاله ، من التهمة في الدين والنبر<sup>(١)</sup> بالسفه والمجون ؛ فمن قوى أمره أذاقه من شديد النكال من التضييق في السجن ، والشد في القيد إلى الغاية التي هي متنه طاقته بما لا يمنعه القيام لضرورته ، ولا يقعده عن صلاته ، وهو حكم كل من وجب عليه القتل ، لكن وقف عن قتله لمعنى أوجبه ، وتربيص به لإشكال وعائق ارتضاه أمره ؛ وحالات الشدة في نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله .

وقد روى الوليد عن مالك والأوزاعي أنها ردة ؛ فإذا تاب نكل .

ولمالك في العتبية وكتاب محمد ، من رواية أشهب : إذا تاب المرتد فلا عقوبة عليه . وقاله سحنون . وأفتى أبو عبد الله بن عتاب فيمن سب النبي ﷺ ، فشهد عليه شاهدان عدل أحدهما - بالأدب الموجع والتنكيل والسجن الطويل حتى تظهر توبته .

وقال القابسي في مثل هذا : ومن كان أقصى أمره القتل فعاق عائق أشكال في القتل لم ينفع أن يطلق من السجن ؛ ويُستطال سجنه ، ولو كان فيه من المدة ما عسى أن يقيمه ، ويحمل عليه من القيد ما يطيق . وقال في مثله من أشكال أمره : يشد في القيد شدا ، ويضيق عليه في السجن حتى يُنظر فيما يجب عليه .

وقال في مسألة أخرى مثلها : ولا تهراق الدماء إلا بأمر الواضح ، وفي الأدب بالسوط والسجن نكال لسفهاء ، ويعاقب عقوبة شديدة ؛ فاما إن لم يشهد عليه سوى شاهدين ، فثبتت من عداوتهما أو جرحتهما ما أسقطهما عنه ، ولم يسمع ذلك من غيرهما فأمره أخف لسقوط الحكم عنه ، وكأنه لم يشهد عليه ، إلا أن يكون مما لا يليق به ذلك ، ويكون الشاهدان من أهل التبرير فأسقطهما بعداوة ؛ فهو وإن لم ينفذ الحكم عليه بشهادتهما فلا يدفع الظن صدقهما ؛ وللحاكم هنا في تنكيله موضع اجتهد . والله ولي الإرشاد .

(١) النبر : التلقين .

## الفصل الرابع

### حكم الذمي في ذلك

هذا حكم المسلم ، فأما الذمي إذا صرخ بسبه أو عرض ، أو استخف بقدره ، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به - فلا خلاف عندنا في قتله إن لم يُسلم ؛ لأننا لم نعط الذمة أو العهد على هذا ؛ وهو قول عامة الفقهاء ، إلا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة ، فإنهم قالوا : لا يقتل ، ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدب ويُعزر .

واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى : «**وَإِنْ تَكُثُرَا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتُلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُمَانَ لَهُمْ لَعْنَهُمْ يَتَهَوَّنُ**» [التوبه : ١٢] .

ويستدل عليه أيضاً بقتل النبي ﷺ لابن الأشرف وأشيهه ؛ ولأننا لم نعاهم ، ولم نعطيهم الذمة على هذا ؛ ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم ؛ فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضوا ذمتهم ، وصاروا كفاراً يقتلون لکفرهم .

وأيضاً فإن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم ؛ من القطع في سرقة أموالهم ، والقتل لمن قتلوه منهم ، وإن كان ذلك حلالاً عندهم فكذلك سبهم للنبي ﷺ يقتلون به . ووردت لاصحابنا ظواهر تقتضي الخلاف إذا ذكره الذمي بالوجه الذي كفر به ، ستتفق عليها من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعد .

وحكى أبو المصعب الخلاف فيها عن أصحابه المدینين .

واختلفوا إذا سبه ثم أسلم ؛ فقيل : يُسقط إسلامه قتله ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب ؛ لأننا نعلم باطنه الكافر في بغضه له ، وتنقصه بقلبه ؛ لكننا منعناه من إظهاره ، فلم يزدنا ما أظهره إلا مخالفة للأمر ، ونقضا للعهد ؛ فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله ؛ قال الله تعالى : «**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْهَا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**» [الأنفال : ٣٨] .

وال المسلم بخلافه ؛ إذ كان ظننا باطنه حكم ظاهره ، وخلاف ما بدا منه الآن ؛ فلم نقبل بعد رجوعه ، ولا استئمننا إلى باطنه ؛ إذ قد بدت سرائره ، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لا يسقطها شيء .

وقيل : لا يسقط إسلام الذي الساب قتله ؛ لأنّه حق للنبي ﷺ وجب عليه لانتهاكه حُرْمَتَه ، وقصده إلحاق النقصة والمعرة ؛ فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه ، كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل وقدف ؛ وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فإننا لا نقبل توبة الكافر أولى .

وقال مالك في كتاب ابن حبيب، والمبسوط ، وابن القاسم ، وابن الماجشون ، وابن عبد الحكم ، وأصيغ - فيمن شتم نبينا من أهل الذمة أو أحداً من الأنبياء عليهم السلام قتل إلا أن يُسلم ؛ وقاله ابن القاسم في العتبية ، وعند محمد ، وابن سحنون .

وقال سحنون وأصيغ : لا يقال له أسلم ، ولا لا تسلم تسلم ؛ ولكن إن أسلم فذلك له توبة .

وفي كتاب محمد : أخبرنا أصحاب مالك أنه قال : من سب رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب .  
وروي لنا عن مالك : إلا أن يُسلم الكافر .

وقد روى ابن وهب عن ابن عمر - أن راهبا تناول النبي ﷺ فقال ابن عمر : فهلا قتلتّموه ! . وروى عيسى عن ابن القاسم في ذمي قال : إن محمداً لم يرسل إلينا ، إنما أرسل إليّكم ، وإنما نبينا موسى أو عيسى ، ونحو هذا : لا شيء عليهم ؛ لأن الله تعالى أقرّهم على مثله .

وأما إن سبَّه فقال : ليسبني ، أو لم يرسل ، أو لم ينزل عليه قرآن ؛ وإنما هو شيء تقوله أو نحو هذا فيقتل .

وقال ابن القاسم : وإذا قال النصراني ديننا خير من دينكم وإنما دينكم دين الحمير ، ونحو هذا من القبيح ، أو سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال كذلك يعطيكم الله؛ ففي هذا الأدب الموجع والسجن الطويل .

وقال : وأما إن شتم النبي ﷺ شتمًا يعرف فإنه يقتل إلا أن يُسلم ؛ قاله مالك غير مرّة ولم يقل يستتاب .

قال ابن القاسم : ومحمّل قوله عندي إن أسلم طائعاً .

وقال ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم في اليهودي يقول للمؤذن ، إذا تشهدَ : كذبت - يعاقب العقوبة الموجعة مع السجن الطويل .

وفي النواذر من رواية سحنون عنه : من شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يسلم .

قال محمد بن سحنون : فإن قيل : لم قتلته في سب النبي ﷺ ومن دينه سبه وتکذیبه ؟ قيل : لأنّا لم نعطعم العهد على ذلك ، ولا على قتلتنا ، وأخذ أموالنا ، فإذا قتل واحداً منا قتلناه ، وإن كان من دينه استحلله ؛ فكذلك إظهاره لسب نبينا ﷺ .

قال سحنون : كما لو بذل لنا أهل الحرب الجزية على إقرارهم على سبه لم يجز لنا ذلك في قول قائل .

كذلك ينتقض عهد من سب منهم ، ويحل لنا دمه ؛ فكما لم يحصل الإسلام من سبه من القتل كذلك لا تحصله الذمة .

قال القاضي أبو الفضل : ما ذكره ابن سحنون عن نفسه وعن أبيه مخالف لقول ابن القاسم فيما خفف عقوبهم فيه بما به كفروا ؛ فتأمله .

ويدل على أنه خلاف ما روی عن المدینین في ذلك ؛ فحكى أبو المصعب الزهري ؛ قال : أتیت بنصراني قال : والذی اصطفی عیسی علی محمد ؛ فاختلف علی فیه ، فضریته حتی قتلته ، او عاش یوماً ولیلة ، وأمرت من جر برجله ، وطرح علی مزبلة ، فأكلته الكلاب .

وسئل أبو المصعب عن نصراني قال : عیسی خلق محمدًا . فقال : يُقتل .

وقال ابن القاسم : سأّلنا مالکا - عن نصراني بمصر شهد عليه أنه قال : مسکین محمد ، يخبركم أنه في الجنة ؟ ما له لم یتفع نفسه ؟ إذ كانت الكلاب تأكل ساقيه ، لو قتلوه استراح منه الناس .

قال مالک : أرى أن تُضرب عنقه .

قال : ولقد كدت ألا أتكلم فيها بشيء ؛ ثم رأيت أنه لا يسعني الصمت .

قال ابن كنانة في المسوطة : من شتم النبي ﷺ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أن يحرقه بالنار ، وإن شاء قتله ثم حرق جثته ، وإن شاء أحرقه بالنار حيّاً إذا تهافتو في سبه .

ولقد كُتب إلى مالك من مصر - وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة ؛ قال : فأمرني مالك ، فكتبت بأن يقتل ، وأن يضرب عنقه ؛ فكتبت ، ثم قلت : يا أبا عبد الله ؟

وأكتب : ثم يحرق بالنار ؟ فقال : إنه لحقيقة بذلك ، وما أولاه به .  
فكتبه بيدي بين يديه ، فما أنكره ولا عابه ، ونفذت الصحيفة بذلك فقتل وحرق .  
وأفتي عبيد الله بن يحيى وابن لبابة في جماعة سلف أصحابنا الأندلسين بقتل  
نصرانية استهلت بنفي الربوبية وبُنْوَةَ عيسى لله ، وبتكذيب محمد في النبوة . ويبقول  
إسلامها ودرء القتل عنها به .

وبه قال غير واحد من المتأخرین منهم القابسي ، وابن الكاتب .  
وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه ؛ من سَبَّ الله ورسوله من مسلم أو كافر قتل  
ولا يُستتاب .

وحكى القاضي أبو محمد في الذمي يسب - روايتين في درء القتل عنه بإسلامه .  
وقال ابن سحنون : وحد القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي  
إسلامه ؛ وإنما يسقط عنه بإسلامه حدود الله .

فاما حد القذف فحق للعباد ؛ كان ذلك لنبي أو غيره ؛ فأوجب على الذمي إذ قذف  
النبي ﷺ ثم أسلم حد القذف .

ولكن انظر ماذا يجب عليه ؟ هل حد القذف في حق النبي ﷺ ، وهو القتل لزيادة  
حرمة النبي ﷺ على غيره ، أم هل يسقط القتل بإسلامه ، ويُحدِّث ثمانين ، فتأمله .

## الفصل الخامس

### في ميراث من قُتل بسب النبي ﷺ وغسله والصلاحة عليه

اختلف العلماء في ميراث من قتل بسب النبي ﷺ ؛ فذهب سحنون إلى أنه لجماعة  
المسلمين من قبل أن شتم النبي ﷺ كفرٌ يشبه كفر الزنادقة .

وقال أصيغ : ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مُستسراً بذلك ، وإن كان مظهراً له  
مستهلاً به فميراثه لل المسلمين ، ويقتل على كل حال ولا يُستتاب .

وقال أبو الحسن القابسي : إن قتل وهو منكر للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما  
أظهر من إقراره - يعني لورثته ؛ والقتل حد ثبت عليه ليس من الميراث في شيء .

وكذلك لو أقر بالسب وأظهر التوبة لقتل ؛ إذ هو حده . وحكمه في ميراثه ، وسائر أحكامه حكم الإسلام .

ولو أقر بالسب ونادى عليه ، وأبى التوبة منه ، فقتل على ذلك كان كافراً ، وميراثه لل المسلمين ؛ ولا يغسل ولا يصلى عليه ، ولا يكفن وتنسق عورته ويوارى كما يفعل بالكافار .

وقول الشيخ أبي الحسن في المجاهر التمادي **بَيْنَ لَا يَكُنُ الْخَلَافُ فِيهِ** ؛ لأنَّه كافر مرتد غير تائب ولا مقلع .

وهو مثل قول أصبع ؛ وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق يتمادي على قوله . ومثله لابن القاسم **العُتْبِيَّة** ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيما أعلن كفره مثله .

قال ابن القاسم : وحكمه حكم المرتد لا يرثه ورثته من المسلمين ولا من أهل الدين الذي ارتدَّ إليه ، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه ؛ وقاله أصبع ، قتل على ذلك أو مات عليه . وقال أبو محمد بن أبي زيد : وإنما يختلف في ميراث الزنديق الذي يُستهيل بالتوبة ، فلا تقبل منه ؛ فاما التمادي فلا خلاف أنه لا يورث .

وقال أبو محمد فيما سبَّ الله تعالى ثم مات ولم تُعَدَّ عليه بُيَّنة ، أو لم تقبل : إنه يصلى عليه .

وروى أصبع عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيما كذَّب رسول الله ﷺ ، وأعلن دينا ما يفارق به الإسلام - أن ميراثه لل المسلمين .

وقال بقول مالك : إن ميراث المرتد لل المسلمين ، ولا ترثه ورثته - ربيعة ، والشافعي ، وأبو ثور ، وابن أبي ليلى ، وخالف فيه عن أحمد .

وقال عليّ بن أبي طالب **ثُوْبَانَ** ، وابن مسعود ، وابن المسيب ، والحسن ، والشعبي ، وعمر بن عبد العزيز ، والحكم ، والأوزاعي ، والليث ، وإسحاق ، وأبو حنيفة - ترثه ورثته من المسلمين .

وقيل ذلك فيما كسبه قبل ارتداده ، وما يكسبه في الارتداد لل المسلمين .

قال القاضي أبو الفضل : وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه حسن بين ، وهو على

رأى أصبع ، وخلاف قول سحنون ؛ واختلافهما على قولي مالك في ميراث الزنديق ؛ فمرة ورثه ورثه من المسلمين قامت عليه بذلك بينة فأنكرها ، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة .

وقال أصبع ، ومحمد بن مسلمة ، وغير واحد من أصحابه ، لأنّه مظهر للإسلام بإنكاره أو توبته ؛ وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ .

وروى ابنُ نافع عنْه في العتبة ، وكتاب محمد - إن ميراثه لجماعة المسلمين ؛ لأن ماله تَبَعُ لدمه .

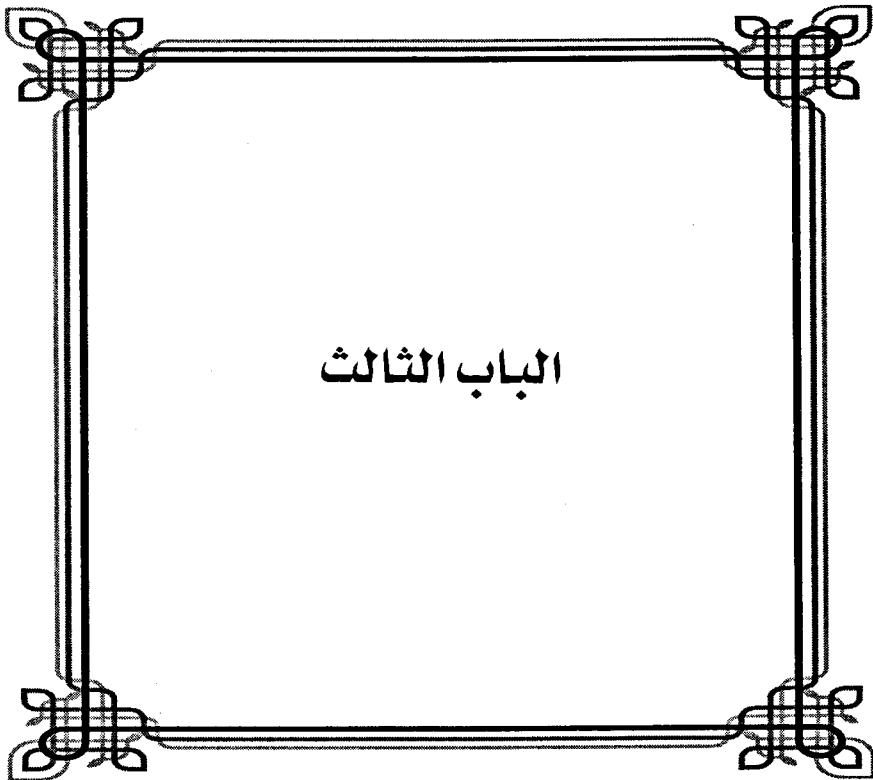
وقال به أيضًا جماعة من أصحابه ؛ و قاله أشهب ، والمغيرة ، و عبد الملك ، و محمد ، و سحنون .

وذهب ابن القاسم في العتبة إلى أنه اعترف بما شهد عليه به وتاب فقتل فلا يورث . وإن لم يُقرَ حتى قتل أو مات ورث .

قال : وكذلك كل من أسرَّ كفراً فإنهم يتوارثون بوراثة الإسلام .

وسئل أبو القاسم بن الكاتب عن النصراوي يسبُ النبي ﷺ . فيقتل ؛ هل يرثه أهل دينه أم المسلمين ؟

فأجاب بأنه للMuslimين ليس على جهة الميراث ؛ لأنّه لا توارث بين أهل ملتين ، ولكن لأنّه من فيئهم ، لنقضه العهد ، هذا معنى قوله و اختصاره .



الباب الثالث

## الفصل الأول

### في حكم من سبَّ الله تعالى وملائكته

وكتبه وأنبيائه وآل النبي ﷺ وأزواجه وصحابه

حكم سابِّ الله تعالى وحكم استتابته

لا خلاف أن سابِّ الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم ، واحتلَّ في استتابته ؛  
فقال ابن القاسم في المسوط ، وفي كتاب ابن سحنون ، ومحمد ، ورواه ابن القاسم عن  
مالك في كتاب إسحاق بن يحيى : من سبَّ الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب إلا أن  
يكون افتراء على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتاب ، وإن لم يظهره لم يستتب .  
وقال في المسوط : مطرفٌ عبد الملك مثله .

وقال المخزومي ، ومحمد بن مسلمة ، وابن أبي حازم : لا يقتل المسلم بالسبٌّ حتى  
يستتاب .

وكذلك اليهودي والنصراني ، فإن تابوا قبل منهم ، وإن لم يتوبوا قتلوا ، ولا بد من  
الاستتابة ، وذلك كله كالردة ، وهو الذي حكاه القاضي بن نصر عن المذهب .

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد فيما حكى عنه رجل لعن رجلاً ولعن الله ؛ فقال : إنما  
أردت أن لعن الشيطان فزلَّ لساني ؛ فقال : يُقتل بظاهر كفره ، ولا يقبل عذرها .  
وأما فيما بينه وبين الله تعالى فمعدور .

واختلف فقهاءُ قرطبة في مسألة هارون بن حبيب أخي عبد الملك الفقيه ، وكان  
ضيقَ الصدر ، كثير التبرُّم ، وكان قد شُهِدَ عليه بشهادات ، منها أنه قال عند استقلاله منْ  
مرض : لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أباً بكر وعمر لم أستوجب هذا كله .

فأفتى إبراهيم بن حُسين بن خالد بقتله ، وإن مُضمنَ قوله تجوير الله تعالى وتظلم  
منه؛ والتعریض فيه كالتصريح .

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب ، وإبراهيم بن حسين بن عاصم ، وسعيد بن  
سلیمان القاضي بطرح القتل عنه ؛ إلا أن القاضي رأى عليه التشقيل في الحبس ، والشدة  
في الأدب ، لاحتمال كلامه ، وصرفه إلى التشكي ؛ فوجه من قال في سابِ الله

بالاستابة - إن كفر وردةً محضة لم يتعلّق بها حق لغير الله ، فأئمّته قصد الكفر بغير سب الله ، وإظهار الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام .

ووجه ترك استتابته أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قبل اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له ؛ إذ لا يستأهل في هذا أحد ؛ فحكم له بحكم الزنديق ، ولم تقبل توبته ، وإذا انتقل من دين إلى آخر ، وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه خلع ربيبة الإسلام من عنقه ، بخلاف الأول المتمسك به ، وحكم هذا حكم المرتد : يُستتاب على مشهور مذاهب أكثر أهل العلم ؛ وهو مذهب مالك وأصحابه على ما ي بيانه قبل ، وذكرنا الخلاف في فصوله .

## الفصل الثاني

### حكم إضافة ما لا يليق به تعالى عن طريق الاجتهاد والخطأ

وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق السب ولا الردة وقصد الكفر ؛ ولكن على طريق التأويل والاجتهاد والخطأ المفضي إلى الهوى والبدعة ؛ من تشبيهه أو نعت بجراحته أو نفي صفة كمال ؛ فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقداته .

واختلف قول مالك وأصحابه في ذلك ، ولم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة ، وأنهم يُستتابون ؛ فإن تابوا وإن قتلوا . وإنما اختلفوا في المنفرد منهم ، وأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم ، وترك قتالهم ، والبالغة في عقوبهم ؛ وإطالة سجنهم ، حتى يظهر إقلالعهم ، وتستثنى توبتهم ، كما فعل عمر رضي الله عنه بصبيغ .

وهذا قول محمد بن الموارج وعبد الملك بن الماجشون ، وقول سحنون في جميع أهل الأهواء ، وبه فسر قول مالك في الموطأ ، وما رواه عن عمر بن عبد العزيز وجده وعمه ، من قولهم في القدرية يُستتابون ؛ فإن تابوا وإن قتلوا .

وقال عيسى ، عن ابن القاسم - في أهل الأهواء من الإباضية والقدرية وشبههم من خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف ، لتأويل كتاب الله : يُستتابون أظهروا ذلك أو أسروه . فإن تابوا وإن قتلوا ، وميراثهم لورثتهم .

وقال مثله أيضًا ابن القاسم في كتاب محمد في أهل القدر وغيرهم ، قال : واستتابتهم أن يقال لهم : اتركوا ما أنتم عليه .

ومثله له في المبسوط في الإباضية والقدريّة وسائر أهل البدع ؛ قال : وهم مسلمون ؛ وإنما قُتلوا لرأيهم السوء ، وبهذا عمل عمر بن عبد العزيز .

قال ابن القاسم : من قال : إن الله لم يكلم موسى تكليماً استتب ، فإن تاب وإلا قتل وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى تكفيرون وتکفیر أمثالهم من الخوارج والقدريّة والمرجئة .

وقد روى أيضاً عن سحنون مثله فيمن قال : ليس الله كلام ، إنه كافر واختلف الروايات عن مالك ، فأطلق في رواية الشاميين : أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري الكفر عليهم ، وقد شُوّر في زواج القدري ، فقال : لا تزوجه ؛ قال الله تعالى : « ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبْكُمْ » [ البقرة : ٢٢١ ] .  
ورُوي عنه أيضاً : أهل الأهواء كلهم كفار .

وقال : من وصف شيئاً من ذات الله تعالى ؛ وأشار إلى شيء من جسده يد ، أو سمع ، أو بصر ، قطع ذلك منه ؛ لأنه شبه الله بنفسه .

وقال فيمن قال : القرآن مخلوق - كافر فاقتلوه .

وقال أيضاً - في رواية ابن نافع : يجلد ، ويوجع ضرباً ، ويحبس حتى يتوب .

وقال رواية بشر بن بكر التنيسي عنه : يقتل ولا تقبل توبته .

قال لقاضي أبو عبد الله البرنکاني ، والقاضي أبو عبد الله التستري من أئمة العراقيين : جوابه مختلف ، يقتل المستنصر الداعية .

وعلى هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة الصلاة خلفهم .

وحكى ابن المنذر ، عن الشافعى : لا يستتاب القدري .

وأكثر أقوال السلف تكفيرون ؛ ومن قال به الليث ، وابن عيينة وابن لهيعة ؛ وروى عنهم ذلك فيمن قال بخلق القرآن ؛ وقاله ابن المبارك ، والأودي ، ووكيع ، وحفص بن غياث ، وأبو إسحاق الفزارى ، وهشيم ، وعَلَى بن عاصم في آخرين ، وهو من قول أكثر المحدثين والفقهاء والمتكلمين فيهم وفي الخوارج والقدريّة وأهل الأهواء المضلة وأصحاب البدع المتأولين ؛ وهو قول أحمد بن حنبل ؛ وكذلك قالوا في الواقعه والشاكه في هذه الأصول .

ومن روى عنه معنى القول الآخر بترك تكفيرون علي بن أبي طالب ، وابن عمر ،

والحسن البصري ؛ وهو رأي جماعة من الفقهاء والنظراء والتكلمين ؛ واحتجوا بتوريث الصحابة والتابعين ورثة أهل حُرُوراء ، ومن عُرُف بالقدر من مات منهم ، ودُفِنُهم في مقابر المسلمين ، وجرى أحكام الإسلام عليهم .

قال إسماعيل القاضي : وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل البدع : يُستتابون ؛ فإن تابوا وإن قتلوا ؛ لأن من الفساد في الأرض ، كما قال في المحارب : إن رأي الإمام قتله ، وإن لم يقتل ، قتله ؛ وفساد المحارب إنما هو في الأموال ومصالح الدنيا ، وإن كان قد يدخل أيضاً في أمر الدين من سبيل الحج والجهاد ؛ وفساد أهل البدع معظمها على الدين ؛ وقد يدخل في أمر الدنيا بما يلقوه بين المسلمين من العداوة .

### الفصل الثالث

#### في تحقيق القول في إكفار المتأولين

قد ذكرنا مذاهب السلف في إكفار أهل البدع والأهواء المتأولين من قال قولًا يؤدِّيه مساقه إلى كفر ، وهو إذا وقف عليه لا يقول بما يؤدِّيه قوله إليه .

وعلى اختلافهم اختلف الفقهاء والتكلمون في ذلك ؛ فمنهم من صوب التكفير الذي قال به الجمهور من السلف ؛ ومنهم من أباه ولم ير إخراجهم من سواد المؤمنين ؛ وهو قول أكثر الفقهاء المتكلمين ؛ وقالوا : هم فساقٌ عصاةٌ ضُلّالٌ ، ونوارتهم من المسلمين ، ونحكم لهم بأحكامهم ، ولهذا قال سحنون : لا إعادة على من صلّى خلفهم ؛ قال : وهو قول جميع أصحاب مالك كلهم : المغيرة ، وابن كنانة ، وأشهب ؛ قال : لأنَّه مسلم ؛ وذنبه لم يخرجه من الإسلام .

واضطرب آخرون في ذلك ، ووقفوا عن القول بالتكفير وضده . واحتلاف قوله مالك في ذلك ، وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم منه . وإلى نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق ؛ وقال : إنها من المَعِصَمَاتِ<sup>(١)</sup> ؛ إذ القوم لم يصرحوا بالكفر ؛ وإنما قالوا قولًا يؤدِّي إليه .

واضطرب قوله في المسألة على نحو اضطرب قوله إمامه مالك بن أنس حتى قال في بعض كلامه ؛ إنهم على رأي من كفرهم بالتأويل لا تحل منا كحتهم ولا أكل ذبائحهم ،

(١) المَعِصَمَاتِ : استخراج ما يصعب معناه .

ولا الصلاة على ميتهم .

ويختلف في موارثهم على الخلاف في ميراث المرتد .

وقال أيضاً : ثُورث ميَّتهم ورثتهم من المسلمين ، ولا نورثهم من المسلمين ؟ وأكثر ميله إلى ترك التكبير بالمال ؛ وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري ، وأكثر قوله ترك التكبير ، وأن الكفر خصلة واحدة ، وهو الجهل بوجود الباري تعالى .

وقال مرة : من اعتقد أن الله جسم ، أو المسيح ، أو بعض من يلقاء في الطرق ، فليس بعارف به وهو كافر .

ولمثل هذا ذهب أبو المعالي - رحمه الله - في أجوبته لأبي محمد عبد الحق ، وكان سأله عن المسألة ، واعتذر له بأن الغلط فيها يصعب ، لأن إدخال كافر في الله ، أو إخراج مسلم عنها عظيم في الدين .

وقال غيرهما من المحققين : الذي يجب الاحتراز من التكبير في أهل التأويل ، فإن استباحة الموحدين خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك مخجمة من دم مسلم واحد .

وقد قال عليه السلام : « فإذا قالوها - يعني الشهادة - عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » <sup>(١)</sup> .

فالعصمة مقطوع بها من الشهادة ، ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع ، ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه .

وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب مُعرضة للتأويل ؛ فما جاء منها في التصريح بغير القدرة ، قوله : لا سهم لهم في الإسلام ، وتسميه الرافضة بالشرك ، وإطلاق اللعنة عليهم ، وكذلك في الخارج وغيرهم من أهل لأهواء ، فقد يحتاج بها من يقول بالتكفير ، وقد يجيب الآخر عنها بأنه قد ورد في الحديث مثل هذه الألفاظ في غير الكفرة على طريق التغليظ ، وكفر دون كفر ، وإشراك دون إشراك .

وقد ورد مثله في الرياء وحقوق الوالدين ، والزوج ، والزور ، وغير معصية .

وإذا كان محتملاً للأمررين فلا يقطع على أحدهما إلا بدليل قاطع .

وقوله في الخارج : هم من شر البرية ، وهذه صفة الكفار .

(١) البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٢١ / ٣٦) .

وقال : شر قبيل تحت أديم السماء ، طوى لمن قتلهم أو قتلوا .

وقال : فإذا وجدتهم فاقتلوهم قتل عاد .

فظاهر هذا الكفر لا سيما مع تشبيههم بعاد ، فيحتج به من يرى تكفيتهم ، فيقول له الآخر : إنما ذلك من قتلهم لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم ، بدليل من الحديث نفسه : يقتلون أهل الإسلام ؛ فقتلهم هنا حد لا كفر .

وذكر عاد تشبيه للقتل وحله لا للمقتول ، وليس كل من حكم بقتله يحكم بکفره .

ويعارضه بقول خالد في الحديث : دعني أضرب عنقه يا رسول الله . فقال : «الله يصلي» .

فإن احتجوا بقوله ﷺ : «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم» <sup>(١)</sup> فأخبر أن الآيات لم يدخل قلوبهم .

وكذلك قوله : «يُنْرِقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرْوِقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ» ، ثم لا يعودون إليه حتى يعود السهم على فوقه <sup>(٢)</sup> .

ويقوله : «سبق الفرث والدم» <sup>(٣)</sup> يدل على أنه لم يتعلق من الإسلام بشيء .

أجابه الآخرون : إن معنى لا يجاوز حناجرهم : لا يفهمون معانيه بقلوبهم ، ولا تنشرح له صدورهم ، ولا تعمل به جوارحهم ، وعارضوهم بقوله ، ويتمارى في الفوق . وهذا يقتضي التشكيك في حاله .

واحتجوا بقول أبي سعيد الخدري في هذا الحديث : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يخرج في هذه الأمة» - ولم يقل : من هذه ؛ وتحrir أبي سعيد الرواية ، وإنقانه اللفظ .

أجابهم الآخرون بأن العبارة بـ «في» لا تقتضي تصريحاً بكونهم من غير الأمة ، بخلاف لفظة «من» التي هي للتبسيط . وكونهم من الأمة مع أنه قد روى عن أبي ذر ، وعلى ، وأبي أمامة وغيرهم في هذا الحديث : يخرج من أمتي ، وسيكون من أمتي ، وحرف المعاني مشتركة ؛ فلا تعويل على إخراجهم من الأمة بـ «في» ، ولا على إدخالهم فيها بـ «من» ؛ لكن أبي سعيد رض أجاد ما شاء في التنبية الذي نبه عليه . وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة وتحقيقهم للمعنى واستبطاطها من الألفاظ ، وتحrirهم لها ، وتوقيهم في الرواية هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة .

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) ، ومسلم في الزكاة (١٤٣ / ١٠٦٤) عن أبي سعيد .

(٢) مسلم في الزكاة (١٤٨ / ١٠٦٤) عن أبي سعيد .

ولغيرهم من الفرق فيها مقالات كثيرة مضطربة سخيفة ؛ أقربها قول جهم ، ومحمد ابن شبيب : إن الكفر بالله الجهل به ، لا يكفر أحد بغير ذلك .

وقال أبو الهذيل : إن كل متأول كان تأويله تشبيهاً لله بخلقه ، وتجويراً له في فعله ، وتكذيباً لخبره فهو كافر .

وكل من أثبت شيئاً قدّيماً لا يقال له الله فهو كافر .

وقال بعض المتكلمين : إن كان من عرف الأصل وبنى عليه ، وكان فيما هو من أوصاف الله فهو كافر ، وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق ، إلا أن يكون من لم يعرف الأصل فهو مخطئ غير كافر .

وذهب عبيد الله بن الحسن العنبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين فيما كان عرضاً للتّأویل ، وفارق في ذلك فرق الأمة ؛ إذ أجمعوا سواه على أن الحق في أصول الدين في واحد ، والمخطئ فيه آثم عاصٍ فاسق وإنما الخلاف في تكفيه .

وقد حكى القاضي أبو بكر الباقياني مثل قول عبد الله عن داود الأصبهاني ؛ قال : وحکى قوم عنهمما أنهمما قالا ذلك في كل من علم الله سبحانه من حاله استفراغ الوسع في طلب الحق من أهل ملتنا أو من غيرهم .

وقال نحو هذا القول الباحظ وثيامة ، في أن كثيراً من العامة والنساء والبله ومقلة النصارى واليهود وغيرهم لا حجة لله عليهم ؛ إذ لم تكن لهم طباع يمكن معها الاستدلال .

وقد نحا الغزالى قريباً من هذا المنحى في كتاب التفرقة .

وقائل هذا كله كافر بالإجماع على كفر من لم يُكفر أحداً من النصارى واليهود وكل من فارق دين المسلمين ، أو وقف في تكفيتهم ، أو شك .

قال القاضي أبو بكر : لأن التوقيف والإجماع على كفرهم ؛ فيمن وقف في ذلك فقد كذبَ النص ، والتوقيف ، أو شك فيه . والتکذیب أو الشك فيه لا يقع إلا من كافر .

## الفصل الرابع

### في بيان ما هو من المقالات كفر، وما يتوقف أو يختلف فيه، وما ليس بكفر

اعلم أن تحقيق هذا الفصل وكشف الالتباس فيه مورده الشرع ، ولا مجال للعقل فيه ؛ والفصل البين في هذا أن كل مقالة صرحت بنفي الربوبية أو الوحدانية أو عبادة أحد غير الله ، أو مع الله - فهو كفر ، مقالة الدهرية ، وسائر فرق أصحاب الاثنين من الديسانية أو المانوية وأشباههم من الصابئين والنصارى والمجوس ، والذين أشركوا بعبادة الأوثان أو الملائكة ، أو الشياطين ، أو الشمس ، أو النجوم أو النار أو حد - غير الله من - مشركي العرب ، وأهل الهند والصين والسودان وغيرهم من لا يرجع إلى كتاب .

وكذلك القراءة وأصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية والطيارية من الرافضة والجناحية والبيانية والغرافية .

وكذلك من اعتراف بالإلهية الله ووحدانيته ، ولكن اعتقاد أنه غير حي أو غير قديم ، وأنه محدث أو مصور ، أو ادعى له ولدًا أو والدا ، أو أنه متولد من شيء ، أو كائن عنه ، أو أن معه في الأزل شيئاً قدماً غيره ؛ أو أن ثم صانعاً للعالم سواه ، أو مدبراً غيره ، كذلك كله كفر بإجماع المسلمين ؛ كقول الإلهيين من الفلاسفة والمنجمين والطبايعين . وكذلك من ادعى مجالسة الله ، والعروج إليه ومكالته ، أو حلوله في أحد الأشخاص ؛ كقول بعض المتصوفة والباطنية ، والنصارى ، والقراءة .

وكذلك نقطع على كفر من قال بقدم العالم ، أو بقائه ، أو شك في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية ، أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبداً الآباء في الأشخاص ، وتعذيبها أو تعنيمتها فيها بحسب زكائتها وخطبها . وكذلك من اعترف بالإلهية والوحدانية ، ولكنه جحد النبوة من أصلها عموماً ، أو نبوة نبينا صلوات الله عليه خصوصاً ، أو أحد من الأنبياء الذين نص الله عليهم بعد علمه بذلك ؛ فهو كافر بلا ريب ؛ كالبراهمة ، ومعظم اليهود والأروسية من النصارى ، والغرافية من الروافض الزاعمين أن علياً كان المعوث إليه جبريل ، وكالمعطلة والقراءة والإسماعيلية والعنبرية من الرافضة ، وإن كان بعض هؤلاء قد أشركوا في كفر آخر مع من قبلهم .

وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوة ، ونبوة نبينا صلوات الله عليه ، ولكن جوز على الأنبياء

الكذب في ما أتوا به ، ادعى في ذلك المصلحة بزعمه أو لم يدّعها فهو كافر ياجماع ؛ كالمتكلّسين ، وبعض الباطنية ، والروافض ، وغلاة المتصوّفة ، وأصحاب الإباحة ؛ فإنّ هؤلاء زعموا أنّ ظواهر الشّرع ، وأكثر ما جاءت به الرّسل من الأخبار عما كان ويكون من أمور الآخرة والحسن والقِيامَة ، والجنة والنّار ، ليس منها شيء على مقتضى لفظها ومفهوم خطابها ؛ وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم ؛ إذ لم يمكنهم التصرّف لقصور أفهمهم ؛ فمُضمنُ مقالاتهم إبطالُ الشرائع ، وتعطيل الأوامر والتواهي ، وتكذيب الرّسل ، والارتياح فيما أتوا به .

وكذلك من أضاف إلى نبينا صلوات الله عليه وآله وسلامه تعمد الكذب فيما بلغه وأخبر به ، أو شك في صدقه ، أو سبّه ، أو قال : إنه لم يبلغ ؛ أو استخف به ، أو بأحد من الأنبياء ، أو أزرى عليهم ، أو آذاهم ، أو قتل نبياً ، أو حاربه ، فهو كافر ياجماع .

وكذلك نكفر من ذهب مذهب القدماء في أن كل جنس من الحيوان نذيرًا أو نبيًا من القردة والخنازير والدواب والدود . ويصحّ بقوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَفَ فِيهَا نَذِيرٌ » [فاطر : ٢٤] . إذ ذلك يؤدي إلى أن يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة . وفيه من الإزراء على هذا التّنّصُّب المُنْفِي ما فيه ، مع إجماع المسلمين على خلافه ، وتكذيب قائله .

وكذلك نكفر من اعترف من الأصول الصحيحة بما تقدم ، وبنبوة نبينا صلوات الله عليه وآله وسلامه ؛ ولكن قال : كان أسود ، أو مات قبل أن يلتّحي ، وليس الذي كان بمكة والهجرة ، أو ليس بقرشي ؛ لأنّ وصفه بغير صفات المعلوّمة نفي له وتكذيب به .

وكذلك من ادعى نبوة أحد من نبينا صلوات الله عليه وآله وسلامه أو بعد ، كالعيساوية من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب ، وكالخرمية القائلين بتواتر الرّسل ، وكأكثـر الرافضة القائلين بمشاركة علي في الرسالة للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وبعده ؛ وكذلك كل إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجّة ؛ وكالبزيغية والبيانية منهم القائلين بنبوة بزيغ وبيان وأشباه هؤلاء . أو من ادعى النبوة لنفسه ، أو جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها ؛ كالفلسفـة وغلاة المتصوّفة .

وكذلك من ادعى منهم أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة ، أو أنه يصعد إلى السماء ويدخل إلى الجنة ويأكل من ثمارها ، ويعانق الحور العين ؛ فهو لاء كلهم كفار مكذبون للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه لأنّه أخبر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أنه خاتم النبيين ، لا نبي بعده ». وأخبر عن الله تعالى أنه

خاتم النبيين ، وأنه أرسل كافة للناس .

وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره ، وأن مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص ؛ فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعاً إجماعاً وسمعاً .

وكذلك وقع الإجماع على تكبير كل من دافع نص الكتاب ، أو خص حديثاً مجمعاً على نقله مقطوعاً به ، مجمعاً على حمله على ظاهره ؛ كتكفير الخوارج بإبطال الرجم ؛ ولهذا نكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل ، أو وقف فيهم ، أو شك ، أو صلح مذهبهم ، وإن أظهر مع ذلك الإسلام ، واعتقد ، واعتقد إبطال كل مذهب سواه ؛ فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك .

كذلك نقطع بتكبير كل قائل قال قوله يتوصل به إلى تضليل الأمة وتكفير جميع الصحابة ؛ كقول الكميلية من الرافضة بتكبير جميع الأمة بعد النبي ﷺ ؛ إذ لم تقدم علياً . وكفرت علياً ، إذ لم يتقدم ويطلب حقه في التقديم ؛ فهو قاتلوا من وجوه ، لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها ؛ إذ قد انقطع نقلها ونقل القرآن ؛ إذ نقلوه كفراً على زعمهم ؛ وإلى هذا - والله أعلم - أشار مالك في أحد قوله بقتل من كفر الصحابة .

ثم كفروا من وجه آخر بسبب النبي ﷺ على مقتضى قولهم وزعمهم أنه عهد إلى علي بن أبي طالب وهو يعلم أنه يكفر بعده على قولهم ، لعنة الله عليهم ، وصلى الله على رسوله وأله .

وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمين أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان صاحبه مصرياً بالإسلام مع فعله ذلك الفعل ؛ كالسجود للصنم ، وللشمس والقمر ، والصلب والنار ، والسعى إلى الكنائس والبيع مع أهلها بزيتهم : من شد الزناة ، وفحص الرؤوس ؛ فقد أجمع المسلمين على أن هذا الفعل لا يوجد إلا من كافر ، وأن هذه الأفعال علامة على الكفر وإن صرخ فاعلها بالإسلام .

وكذلك أجمع المسلمين على تكبير كل من استحل القتل أو شرب الخمر أو الزنا مما حرم الله بعد علمه بتحريمه ؛ ك أصحاب الإباحة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة .

وكذلك نقطع بتكبير كل من كذب وأنكر قاعدة من قواعد الشرع ، وما عرف يقيناً بالقل المواتر من فعل الرسول ، ووقع الإجماع المتصل عليه ؛ كمن أنكر وجوب الصلوتان الخمس أو عدد ركعاتها وسجاداتها ؛ ويقول : إنما أوجب الله علينا في كتابه الصلاة على الجملة ؛ وكونها خمساً ، وعلى هذه الصفات والشروط لا أعلم ؛ إذ لم يرد

فيه في القرآن نص جلي ، والخبر به عن رسول الله ﷺ خبر واحد .

وكذلك أجمع المسلمين على تكبير من قال من الخوارج : إن الصلاة طرف النهار ؟ وعلى تكبير الباطنية في قولهم : إن الفرائض أسماء رجال أمروا بولايتهم ، والخبيث والمحارم أسماء رجال أمروا بالبراءة منهم .

وقول بعض المتصوفة : إن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم ، ورفع عهد الشرائع عنهم .

وكذلك إن أنكر منكر مكة ، أو البيت ، أو المسجد الحرام ، أو صفة الحج ، أو قال : الحج واجب في القرآن ، واستقبال القبلة كذلك ؛ ولكن كونه على هذه الهيئة المتعارفة ، وأن تلك البقعة هي مكة والبيت والمسجد الحرام ، لا أدرى هي تلك أو غيرها ؛ ولعل الناقلين أن النبي ﷺ فسرها بهذه التفاسير غلطوا ووهبوا ، فهذا ومثله لا مرية في تكفيه إن كان من يُظن به علم ذلك ؛ ومن يخالف المسلمين ، وامتدت صحبته لهم ، إلا أن يكون حديث عهد بإسلام ؟ فيقال له : سبّيك أن تسأل عن هذا الذي لم تعلمه بعد كافة المسلمين ، فلا تجد بينهم خلافا ، كافة عن كافة ، إلى معاصرى الرسول ﷺ . أن هذه الأمور كما قيل لك : وأن تلك البقعة هي مكة والبيت الذي فيها هو الكعبة ، والقبلة التي صلى لها الرسول ﷺ وال المسلمين ، وحجوا إليها ، وطافوا بها ؛ وأن تلك الأفعال هي صفة عبادة الحج ، والمراد به ، وهي التي فعلها النبي ﷺ وال المسلمين ، وأن صفات الصلاة المذكورة هي التي فعلها النبي ﷺ ، وشرح مراد الله بذلك ، وأبان حدودها ؛ فيقع لك العلم كما وقع لهم ، ولا ترتاب بذلك ، بعد ، والمرتاب في ذلك أو المنكر بعد البحث وصحبة المسلمين كافر باتفاق ، لا يعذر بقوله : لا أدرى ، ولا يصدق فيه ، بل ظاهره التستر عن التكذيب ، إذ لا يمكن أنه لا يدرى .

وأيضاً فإنه إذا جوز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك ، وأجمعوا أنه قول الرسول و فعله و تفسير مراد الله - أدخل الاسترابة في جميع الشريعة ؛ إذ هم الناقلون لها وللقرآن ، وانحلت عرى الدين كرّة ، ومن قال هذا كافر .

وكذلك من أنكر القرآن ، أو حرقاً منه ، أو غير شيئاً منه ، أو زاد فيه ، ك فعل الباطنية والإسماعيلية ، أو زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ ، أو ليس فيه حجة ولا معجزة ؛ كقول هشام الفوطي ، ومعمر الصيمرى : إنه لا يدل على الله ، ولا حجة فيه لرسوله ، ولا يدل على ثواب ولا عقاب ، ولا حكم ؛ ولا محالة في كفرهما بذلك القول .

وكذلك تكفيهما بإنكارهما أن يكون فيسائر معجزات النبي ﷺ حجة له ، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله ، لخالفتهم الإجماع والنقل المتواتر عن النبي ﷺ باحتاججه بهذا كله وتصريح القرآن به .

وكذلك من أنكر شيئاً مما نص القرآن - بعد علمه - أنه من القرآن الذي في أيدي الناس ومصاحف المسلمين ، ولم يكن جاهلاً به ، ولا قريب عهد بالإسلام ، واحتج بإنكاره إما بأنه لم يصح النقل عنده ، ولا بلغه العلم به ؛ أو لتجويفه الوهم على ناقليه ؛ فنكره بالطريقين المتقدمين ؛ لأنَّه مكذب للقرآن ، مكذب للنبي ﷺ ، لكنه تستر بدعوه .

وكذلك من أنكر الجنة أو النار ، أو البعث أو الحساب أو القيمة فهو كافر بإجماع للنص عليه ، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً ؛ وكذلك من اعترف بذلك ، ولكنه قال : إن المراد بالجنة والنار ، والجحش والنشر ، والثواب والعقاب - معنى غير ظاهره ، وإنها لذات روحانية ، ومعان باطنية ؛ كقول الصارى والفلسفه والباطنة وبعض المتصوفة ، وزعمهم أن معنى القيمة الموت أو فناء محض ، وانتقاد هيئة الأفلاك ، وتحليل العالم ؛ كقول بعض الفلاسفة .

وكذلك نقطع بتكفيير غلاة الرافضة في قولهم : إن الأئمة أفضل من الأنبياء .

فأما من أنكر ما عرف بالتواتر من الأخبار والسير والبلاد التي لا ترجع إلى إبطال شريعة ، ولا تفضي إلى إنكار قاعدة من الدين ؛ كإنكار غروة تبوك أو مؤتة ، أو وجود أبي بكر وعمر ، أو قتل عثمان ، وخلافة علي ، مما علم بالنقل ضرورة ؛ وليس في إنكاره جحد شريعة ؛ فلا سبيل إلى تكفييره بجحده ذلك ، وإنكاره وقوع العلم له ؛ إذ ليس في ذلك أكثر من المباحثة ؛ كإنكار هشام وعبد وقعة الجمل ، ومحاربة علي من خالقه .

فاما إن ضعف ذلك من أجل تهمة الناقلين ، ووهم المسلمين أجمع ، فنكره بذلك لسريانه إلى إبطال الشريعة .

فاما من أنكر الإجماع المجرد الذي ليس طريقة النقل المتواتر عن الشارع فأكثر المتكلمين من الفقهاء والنظر في هذا الباب قالوا بتكفيير كل من خالف الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المنافق عليه عموماً .

وحجتهم قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبَعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [ النساء : ١١٥] .

وقوله عليه السلام : « من خالف الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه » <sup>(١)</sup> .

وحكوا الإجماع على تكبير من خالف الإجماع .

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكبير من خالف الإجماع الذي يختص بنقله العلماء .

وذهب آخرون إلى التوقف في تكبير من خالف الإجماع الكائن عن نظر ؛ كتكفير النظام بإنكاره الإجماع ؛ لأنّه بقوله هذا مخالف إجماع السلف على احتجاجهم به ، خارق للإجماع .

قال القاضي أبو بكر : القول عندي أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده ؛ والإيمان بالله هو العلم بوجوده ، وأنه لا يكفر أحد يقول ولا رأي إلا أن يكون هو الجهل بالله ، فإن عصى بقول أو فعل نص الله ورسوله ، أو أجمع المسلمون أنه لا يوجد إلا من كافر ، أو يقوم دليل على ذلك ، فقد كفر ، ليس لأجل قوله أو فعله ، لكن لما يقارنه من الكفر ، فالكفر بالله لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور : أحدها الجهل بالله تعالى . والثاني أن يأتي فعلًا أو يقول قوله يخبر الله ورسوله ، أو يُجمع المسلمون ، أن ذلك لا يكون إلا من كافر ؛ كالسجود للصنم ، والمشي إلى الكنائس بالتزام الزنار مع أصحابها في أعيادهم ؛ أو أن يكون ذلك القول أو الفعل لا يمكن معه العلم بالله تعالى .

قال : فهذا الضربان وإن لم يكونا جهلاً بالله فهما علم أن فاعلهما كافر منسلخ من الإيمان ؛ فاما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية ، أو جحدهما مستبصراً في ذلك ، كقوله : ليس بعالم ولا قادر ولا مريد ولا متكلم ، وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة له تعالى ؛ فقد نص أئمتنا على الإجماع على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها ، وأعراه عنها .

وعلى هذا حمل - قول سحنون : من قال : ليس لله كلام ، فهو كافر ، وهو لا يكفر المتأولين كما قدمناه .

فاما من جهل صفة من هذه الصفات فاختلَفَ العلماء هاهنا ؛ فكفره بعضهم ، وحكي ذلك عن أبي جعفر الطبرى وغيره ، وقال به أبو الحسن الأشعري مرة .

وذهب طائفة إلى أن هذا لا يخرجه عن اسم الإيمان ؛ وإليه رجع الأشعري ؛ قال :

(١) الترمذى في الأمثال (٢٨٦٣) عن الحارث الأشعري ، وقال الترمذى : حسن صحيح ، وأحمد . ١٣٠ / ٤

لأنه لم يعتقد ذلك اعتقداً يقطع بصوابه ، ويراه ديناً وشرعًا وإنما نكفر من اعتقد أن مقاله حق .

واحتاج هؤلاء بحديث السوداء ، وأن النبي ﷺ إنما طلب منها التوحيد لا غير؛ وب الحديث القائل : لئن قدر الله عليّ - في رواية فيه: لعلّي أضل الله . ثم قال: فغفر الله له . قالوا : ولو بُوْحَثَ أكثر الناس عن الصفات وكوشفوا عنها لما وجد من يعلمها إلا الأقل .

وقد أجاب الآخر عن هذا الحديث بوجوه ؛ منها أن قدرًا يعني قدرًا ، ولا يكون شكه في القدرة على إحيائه ؛ بل في نفس البعث الذي لا يعلم إلا بشرع ؛ ولعله لم يكن ورد عندهم به شرع يقطع عليه ؛ فيكون الشك به حيتنـذـ فيـ كـفـرـاـ .

فأما ما لم يرد به شرع فهو من مجوزات العقول ؛ أو يكون قدرًا يعني ضيق ، ويكون ما فعله بنفسه إزراء عليها وغضباً لعصيـانـهاـ .

وقيل : قال ما قاله وهو غير عاقل لـ كـلامـهـ ولا ضـابـطـ لـ لـفـظـهـ ما استولـىـ عـلـيـهـ منـ الجـزـعـ والخشـيـةـ التـيـ أـذـهـبـتـ لـهـ فـلـمـ يـؤـاخـذـ بـهـ .

وقيل : كان هذا في زمن الفترة ، وحيث ينفع مجرد التوحيد .

وقيل : بل هذا من مجاز كلام العرب الذي صورـتـهـ الشـكـ ، وـمـعـنـاهـ التـحـقـيقـ ؛ وـهـوـ يـسـمـىـ تـجـاهـلـ الـعـارـفـ ؛ وـلـهـ أـمـثـلـةـ فـيـ كـلـامـهـ ؛ كـوـلـهـ تـعـالـىـ : « فـقـولـاـ لـهـ قـوـلـاـ لـيـنـاـ لـعـلـهـ يـتـذـكـرـ أـوـ يـخـشـيـ » [ طه : ٤٤ ] وـقـولـهـ : « وـإـنـاـ أـوـ إـيـاـكـمـ لـعـلـىـ هـدـىـ أـوـ فـيـ ضـلـالـ مـيـنـ » [ سـيـاـ : ٢٤ ] .

فـأـمـاـ مـنـ أـبـتـ الـوـصـفـ وـنـفـيـ الصـفـةـ فـقـالـ : أـقـولـ عـالـمـ وـلـكـنـ لـاعـلـمـ لـهـ ، وـمـتـكـلـمـ وـلـكـنـ لـاـ كـلـامـ لـهـ . وـهـكـذـاـ فـيـ سـائـرـ الصـفـاتـ عـلـىـ مـذـهـبـ الـمـعـتـزـلـةـ فـمـنـ قـالـ بـالـمـالـ لـمـ يـؤـدـيـهـ إـلـيـهـ قـوـلـهـ ، وـيـسـوـقـهـ إـلـيـهـ مـذـهـبـهـ - كـفـرـهـ ؛ لـأـنـهـ إـذـاـ نـفـيـ الـعـلـمـ اـنـفـيـ وـصـفـ عـالـمـ ؛ إـذـ لـاـ يـوـصـفـ بـعـالـمـ إـلـاـ مـنـ لـهـ عـلـمـ ؛ فـكـأـنـهـمـ صـرـحـواـ عـنـهـ بـمـاـ أـدـىـ إـلـيـهـ قـوـلـهـمـ . وـهـكـذـاـ عـنـ هـذـاـ سـائـرـ فـرـقـ أـهـلـ التـأـوـيلـ مـنـ الـمـشـبـهـةـ وـالـقـدـرـيـةـ وـغـيـرـهـمـ .

وـمـنـ لـمـ يـرـ أـخـذـهـ بـالـقـوـلـهـ ، وـلـاـ أـلـزـمـهـ مـوـجـبـ مـذـهـبـهـ ، لـمـ يـرـ إـكـفـارـهـ ؛ قـالـ : لـأـنـهـ إـذـاـ وـقـفـواـ عـلـىـ هـذـاـ قـالـواـ : لـاـ نـقـولـ لـيـسـ بـعـالـمـ ، وـنـحـنـ نـتـفـيـ مـنـ القـوـلـ بـالـمـالـ الـذـيـ أـلـزـمـتـهـ لـنـاـ ، وـنـعـتـقـدـ نـحـنـ وـأـنـتـ أـنـهـ كـفـرـ ؛ بـلـ نـقـولـ : إـنـ قـوـلـنـاـ لـاـ يـؤـولـ إـلـيـهـ عـلـىـ مـاـ أـصـلـنـاـ .

فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل ؛ وإذا فهمته اتضح لك الموجب لا خلاف الناس في ذلك.

والصواب ترك إكفارهم والإعراض عن الحتم عليهم بالخسran وإجراء حكم الإسلام عليهم في قصاصهم ووراثتهم ، ومناكماتهم ، ودياتهم ، والصلة عليهم ، ودفنهم في مقابر المسلمين ، وسائر معاملاتهم ؛ لكنهم يغلوظ عليهم بوجيع الأدب ، وشديد الزجر والهجر ، حتى يرجعوا عن بدعهم .

وهذه كانت سيرة الصدر الأول فيهم ؛ فقد كان نشأ على زمان الصحابة وبعدهم في التابعين من قال بهذه الأقوال من القَدَر ورأي الخوارج والاعتزال ، فما أزاحوا لهم قبراً ، ولا قطعوا لأحد منهم ميراثاً ؛ لكنهم هجروهم وأدبوهم بالضرب والتنفي والقتل على قدر أحوالهم ؛ لأنهم فساق ضلال عصاة أصحاب كبار عند المحقدين وأهل السنة من لم يقل بکفرهم منهم خلافاً لمن رأى غير ذلك . والله الموفق للصواب .

قال القاضي أبو بكر : وأما مسائل الوعد والوعيد ، والرؤبة والملحوظ ، وخلق الأفعال ، وبقاء الأعراض ، والتولد وشبهها من الدقائق فلنن في إكفار المتأولين فيها أوضح ؛ إذ ليس في الجهل بشيء منها جهل بالله تعالى ، ولا أجمع المسلمين على إكفار من جهل شيئاً منها .

وقد قدمنا في الفصل قبله من الكلام وصورة الخلاف في هذا ما أغني عن إعادةه بحول الله تعالى .

## الفصل الخامس

### حكم الذمي إذا سب الله تعالى

هذا حُكم المسلم الساب لله تعالى . وأما الذمي فروي عن عبد الله بن عمر في ذمي تناول من حرمة الله تعالى غير ما هو عليه من دينه ، وحاج فيه ، فخرج ابن عمر عليه بالسيف فطلبته فهرب .

وقال مالك في كتاب ابن حبيب والمبسوطة ، وابن القاسم في المبسوط ، وكتاب محمد وابن سحنون : من شتم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفر به قتل ولم يُستتبْ .

قال ابن القاسم : إلا أن يُسلم . قال في المسوطة : طوعاً .

قال أصيغ : لأن الوجه الذي به كفروا هو دينهم ، وعليه عُهدو من دعوى الصاحبة والشريك والولد .

وأما غير هذا من الغرية والشتم فلم يعاهدوا عليه ؛ فهو نقض للعهد .

قال ابن القاسم في كتاب محمد : ومن شتم من غير أهل الأديان الله تعالى بغير الوجه الذي ذكر في كتابه قتل إلا أن يسلم .

وقال المخزومي في المسوطة ، ومحمد بن مسلمة ، وابن أبي حازم : لا يقتل حتى يستتاب مسلماً كان أو كافراً ، فإن تاب وإلا قتل .

وقال مطرف وعبد الملك مثل قول مالك .

وقال أبو محمد بن أبي زيد : من سبَّ الله تعالى بغير الوجه الذي به كفر قتل إلا أن يسلم .

وقد ذكرنا قول ابن الجلاب قبل ، وذكرنا قول عبيد الله وابن لبابة ، وشيخ الأندلسين في النصرانية وفتياهم بقتلها لسبها ؛ بالوجه الذي كفرت به ، الله والنبي ، واجماعهم على ذلك ، وهو نحو القول الآخر فيمن سبَّ النبي ﷺ منهم بالوجه الذي كفر به ، ولا فرق في ذلك بين سب الله وسب نبيه ، لأننا عاهدناهم على ألا يظهروا لنا شيئاً من كفرهم ، وألا يسمعونا شيئاً من ذلك ، فمتي فعلوا شيئاً منه فهو نقض لعهدهم . وخالف العلماء في الذمي إذا تزندق ، فقال مالك ، ومطرف ، وابن عبد الحكم ، وأصيغ : لا يُقتل ، لأنه خرج من كفر إلى كفر .

وقال عبد الملك بن الماجشون : يُقتل ، لأنه دين لا يقر عليه أحد ، ولا تؤخذ عليه جزية .

قال ابن حبيب : وما أعلم من قاله غيره .

## الفصل السادس

### حكم ادعاء الإلهية أو الكذب والبهتان على الله

هذا حكم من صرخ بسبه وإضافة ما لا يليق بجلاله وإلهيَّته ؛ فاما مُفترى الكذب

عليه تبارك وتعالى بادعاء الإلهيّة أو الرسالة أو النافي أن يكون الله خالقه أو ربّه ، أو قال : ليس ربّ ، أو المتكلم بما لا يعقل من ذلك من سكره أو غمرة جنونه فلا خلاف في كفر قائل ذلك ومدعشه مع سلامه عقله كما قدمناه ، لكنه تقبل توبته على المشهور ، وتنفعه إثباته ، وتنجيه من القتل فياته ، لكنه لا يسلم من عظيم التكال ، ولا يُرُفَّه عن شديد العقاب ؛ ليكون ذلك زجراً لثله عن قوله ؛ وله عن العودة لفكره أو جهله ، إلا من تكرر منه ذلك ، وعرف استهانته بما أتى به ؛ فهو دليلاً على سوء طويته ، وكذب توبته ، وصار كالزنديق الذي لا تأمن باطنه ، ونقب رجوعه وحكم السكران في ذلك حكم الصاحي .

وأما الجنون والمعتوه فما علم أنه قاله من ذلك في حال غمرته وذهاب ميذه بالكلية فلا نظر فيه ، وما فعله من ذلك في حال ميز وإن لم يكن معه عقله وسقط تكليفه أدب على ذلك ليترجّز عنه ، كما يؤدب على قبائح الأفعال ، ويوالي أدبه على ذلك حتى ينكشف عنه ، كما تؤدب البهيمة على سوء الخلق حتى تُراض .

وقد حرق عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من ادعى له الإلهيّة ، وقد قتل عبد الملك بن مروان الحارث المتّبّي وصلبه ، وفعل غير واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم .

وأجمع علماء وقتهم على صواب فعلهم ، والمخالف في ذلك من كفرهم كافر .

وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر من المالكية وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج وصلبه ؛ لدعواه الإلهيّة ، والقول بالحلول ؛ وقوله : أنا الحق مع تمسكه في الظاهر بالشريعة ، ولم يقبلوا توبته .

وكذلك حكموا في ابن أبي الغرّاقيد ، وكان على نحو مذهب الحلاج بعد هذا أيام الراضي بالله ، وقاضي بغداد يومئذ أبو الحسّين بن أبي عمر المالكي .

وقال ابن عبد الحكم في المبسوط : من تَبَأَ قُتُلَ .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : من جحد أن الله تعالى خالقه أو ربّه ؛ أو قال : ليس لي ربّ ، فهو مرتد .

وقال ابن القاسم في كتاب ابن حبيب ، ومحمد في العتبة فيمن تَبَأَ يُستتاب أسر ذلك أو أعلنه ؛ وهو كالمرتد .

وقاله سحنون وغيره ، وقاله أشهب في يهودي تَبَأَ ، وادعى أنه رسول إلينا إن كان مُعلن بذلك استتاب ، فإن تاب وإن قُتُلَ .

وقال أبو محمد بن أبي زيد فيمن لعن بارئه ، وادعى أن لسانه زل وإنما أراد لعن الشيطان - يُقتل بكتفه ، ولا يقبل عذرها .

وهذا على القول الآخر من أنه لا تُقبل توبته .

وقال أبو الحسن القابسي في سكران ؛ قال : أنا الله ، أنا الله ، وإن تاب أدب ، فإن عاد إلى مثل قوله طوالب مطالبة الزنديق ؛ لأن هذا كفر الملاعبين .

## الفصل السابع

### حكم من تعرض بساقط قوله

### وسخيف لفظه بجلال ربه دون قصد

وأما من تكلم من سقط القول وسخف اللفظ من لم يضبط كلامه وأهمل لسانه بما يقتضي الاستخفاف بعظمة ربه وجلاله مولاه ؛ أو تمثل في بعض الأشياء ببعض ما عظم الله من ملكته ، أو نزع من الكلام لخلقوق بما لا يليق إلا في حق خالقه غير قادر للكفر والاستخفاف ، ولا عAMD للاحاد ، فإن تكرر هذا منه ، وعرف به ، دل على تلاعبه بدنيه ، واستخفافه بحرمة ربه ، وجهله بعظيم عزته وكبرياته . وهذا كفر لا مرية فيه .  
وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتقصص لربه .

وقد أفتى ابن حبيب وأصيغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بابن أخي عجب ، وكان خرج يوما ، فأخذه المطر ، فقال : بدأ الخرآز يرش جلوده .

وكان بعض الفقهاء بها : أبو زيد صاحب الشَّمَانِيَّة ، وعبد الأعلى بن وهب ، أبان بن عيسى ، قد توقفوا عن سفك دمه ، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب .

وأفتى بثله القاضي حيئذ موسى بن زياد ؛ فقال ابن حبيب : دمه في عنقي ، أيشتم ربيا عبدهناه ، ثم لا ننتصر له ، إنما إدأ لعيid سوء وما نحن له بعابدين ؛ وبكى ، ورفع المجلس إلى الأمير بها عبد الرحمن بن الحكم الأموي .

وكانت عجب عمّة هذا المطلوب من حظاياه ، وأعلم باختلاف الفقهاء ، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبها ؛ وأمر بقتله ، فقتل وصلب بحضورة الفقيهين ، وعزل القاضي لتهمته باللداهنة في هذه القصة ، ووبخ بقية الفقهاء وسبّهم .

وأما من صدرت عنه من ذلك الهنة الواحدة والفلة الشاردة ، ما لم تكن تنقصاً وإزاراً - فيعاقب عليها ويؤدب بقدر مقتضها وشدة معناها ، وصورة حال قائلها ، وشرح سببها ومقارنها .

وقد سئل ابن القاسم - رحمة الله - عن رجل نادى رجلاً باسمه ، فأجابه : ليك ، اللَّهُمَّ ليك .

قال : إن كان جاهلاً ، أو قاله على وجه سفه فلا شيء عليه .

قال القاضي أبو الفضل : وشرح قوله أنه لا قتل عليه ، والجاهل يُزجر ويُعلم ، والسفه يُؤدب ، ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه لکفر .

هذا مقتضى قوله .

وقد أسرف كثير من سُخفاء الشعراء ومتّهميهم في هذا الباب ، واستخفوا عظيم هذه الحرمة ، فأتوا من ذلك بما نزه كتابنا ولساننا وأفلامنا عن ذكره ، ولو لا أنا قصدنا نص مسائل حكينها ما ذكرنا شيئاً مما يثقل ذكره علينا مما حكيناه في هذه الفصول .

فاما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغالط اللسان ؛ كقول بعض الأعراب :

ربَّ الْعَبَادِ مَا لَنَا وَمَا لَكَا      قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا فَمَا بَدَا لَكَا

أَنْزُلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ لَا أَبَا لَكَا

وفي أشباه لهذا من كلام الجهال .

ومن لم يقوه ثقافٌ تأديب الشريعة والعلم في هذا الباب ؛ فقلما يصدرُ إلا من جاهل يجب تعليمه وزجره والإغلاظُ له عن العودة إلى مثله .

قال أبو سليمان الخطابي : وهذا تهور من القول ، والله متزه عن هذه الأمور .

وقد رويانا عن عون بن عبد الله أنه قال : ليعظم أحدكم ربّه أن يذكر اسمه في كل شيء حتى يقول : أخزى الله الكلب ، وفعل به كذا وكذا .

قال : وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلا في ما يتصل بطاعته . وكان يقول للإنسان : جُزِيتَ خيراً . وقل ما يقول : جزاك الله خيراً ؛ إعظاماً لاسمك تعالى أن يُمتهن في غير قربة .

وحدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاشي كان يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم فيه

تعالى وفي ذكر صفاته ؛ إجلالاً لاسمـه تعالى ، ويقول : هؤلاء يتمنـدون بالله عـز وجـل . ويـنزل الكلـام فيـ هذا الـباب تـزيلـه فيـ بـاب سـاب النـبـي ﷺ عـلـى الـوجـوه الـتـي فـصلـناـهـاـ . وـالـلهـ الـمـوـقـفـ .

### الفصل الثامن

#### حكم سبّ بقية الأنبياء والملائكة

وـحـكـمـ منـ سـبـ سـائـرـ أـنـبـيـاءـ اللـهـ تـعـالـىـ وـمـلـائـكـتـهـ ،ـ وـاستـخـفـ بـهـمـ أـوـ كـذـبـهـمـ فـيـماـ أـتـواـ بـهـ ،ـ أـنـكـرـهـمـ وـجـحـدـهـمـ ،ـ حـكـمـ نـبـيـناـ ﷺ عـلـىـ مـسـاقـ ماـ قـدـمـنـاـهـ ؛ـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ :ـ «ـ إـنـ الـذـيـنـ يـكـفـرـوـنـ بـالـلـهـ وـرـسـلـهـ وـيـرـيـدـوـنـ أـنـ يـفـرـقـوـاـ بـيـنـ اللـهـ وـرـسـلـهـ وـيـقـولـوـنـ نـؤـمـنـ بـعـضـ وـنـكـفـرـ بـعـضـ وـيـرـيـدـوـنـ أـنـ يـتـخـذـوـاـ بـيـنـ ذـلـكـ سـبـيـلـاـ .ـ أـوـلـىـكـ هـمـ الـكـافـرـوـنـ حـقـاـ وـأـعـتـدـنـاـ لـلـكـافـرـيـنـ عـذـابـاـ مـهـيـنـاـ »ـ [ـ النـسـاءـ :ـ ١٥٠ـ ،ـ ١٥١ـ ]ـ .ـ

وـقـالـ تـعـالـىـ :ـ «ـ وـقـالـوـاـ كـوـنـوـاـ هـوـدـاـ أـوـ نـصـارـاـئـ تـهـتـدـوـاـ قـلـ بـلـ مـلـةـ إـبـرـاهـيمـ حـنـيـفـاـ وـمـاـ كـانـ مـنـ الـمـشـرـكـيـنـ .ـ قـوـلـوـاـ آمـنـاـ بـالـلـهـ وـمـاـ أـنـزـلـ إـلـيـاـ وـمـاـ أـنـزـلـ إـلـيـ إـبـرـاهـيمـ وـإـسـمـاعـيلـ وـإـسـحـاقـ وـيـعـقـوبـ وـالـأـسـبـاطـ وـمـاـ أـوـتـيـ مـوـسـىـ وـعـيـسـىـ وـمـاـ أـوـتـيـ الـبـيـبـوـنـ مـنـ رـبـهـمـ لـاـ نـفـرـقـ بـيـنـ أـحـدـ مـنـهـمـ وـنـحـنـ لـهـ مـسـلـمـوـنـ »ـ [ـ الـبـقـرـةـ :ـ ١٣٦ـ ]ـ .ـ

وـقـالـ :ـ «ـ كـلـ آمـنـ بـالـلـهـ وـمـلـائـكـتـهـ وـكـبـيـهـ وـرـسـلـهـ لـاـ نـفـرـقـ بـيـنـ أـحـدـ مـنـ رـسـلـهـ »ـ [ـ الـبـقـرـةـ :ـ ٢٨٥ـ ]ـ .ـ

قـالـ مـالـكـ فـيـ كـتـابـ اـبـنـ حـبـيـبـ ،ـ وـمـحـمـدـ ،ـ وـقـالـ اـبـنـ القـاسـمـ وـابـنـ الـمـاجـشـونـ وـابـنـ عـبـدـ الـحـكـمـ وـأـصـبـغـ وـسـحـنـونـ فـيـمـ شـتـمـ الـأـنـبـيـاءـ أـوـ أـحـدـ مـنـهـمـ أـوـ تـنـقـصـهـ قـتـلـ وـلـمـ يـسـتـبـ .ـ وـمـنـ سـبـهـمـ مـنـ أـهـلـ الـذـمـةـ قـتـلـ إـلـاـ أـنـ يـسـلـمـ .ـ

وـرـوـيـ سـحـنـونـ عـنـ اـبـنـ القـاسـمـ :ـ مـنـ سـبـ الـأـنـبـيـاءـ مـنـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ بـغـيرـ الـوـجـهـ تـقـدـمـ بـهـ كـفـرـ ضـرـبـتـ عـنـقـهـ إـلـاـ أـنـ يـسـلـمـ .ـ وـقـدـ تـقـدـمـ الـخـلـافـ فـيـ هـذـاـ الـأـصـلـ .ـ

وـقـالـ القـاضـيـ بـقـرـطـبـةـ سـعـيدـ بـنـ سـلـيـمـانـ فـيـ بـعـضـ أـجـوـبـتـهـ :ـ مـنـ سـبـ اللـهـ وـمـلـائـكـتـهـ قـتـلـ .ـ

وقال سحنون : من شتم ملّاكاً من الملائكة فعليه القتل .

وفي التوادر عن مالك فيمن قال : إن جبريل أخطأ بالوحى ، وإنما كان النبي ﷺ على بن أبي طالب استتب ، فإن تاب وإلا قتل .

ونحوه عن سحنون . وهذا قول الغرابة من الروافض ؛ سموا بذلك لقولهم : كان النبي ﷺ أشبه بعليٍّ من الغراب بالغراب .

وقال أبو حنيفة وأصحابه على أصلهم : من كذب بأحد من الأنبياء ، أو تنقص أحداً منهم ، أو بري منه فهو مرتد .

وقال أبو الحسن القابسي في الذي قال لآخر ، كأنه وجه مالك الغضبان ، لو عرف أنه قصد ذم الملك قتل .

قال القاضي أبو الفضل : وهذا كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبين ، أو على مُعين من حققنا كونه من الملائكة والنبين من نص الله عليه في كتابه ، أو حققنا علمه بالخبر المتواتر ، والمشهور المتفق عليه بالإجماع القاطع ؛ كجبريل ، وميكائيل ، ومالك ، وخزنة الجنة ، وجهنم ، والزبانية ، وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة ، ومن سُمي فيه الأنبياء ، وكعزرايل ، إسرافيل ، ورضوان ، والحفظة ، ومنكر ونكير من الملائكة المتفق على قول الخبر بهما ؛ فأما من لم تنبت الأخبار بتعيينه ، ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة أو الأنبياء ؛ كهاروت وماروت في الملائكة ، والخضر ، ولقمان ، وذى القرنين ، ومريم ، وآسية ، وخالد بن سنان بالذكور أنه نبي أهل الرس ، وزرآدشت الذي يدعى المجوس المؤرخون نبوته ، فليس الحكم في ساهمهم والكافر بهم كالحكم فيمن قدمناه إذ لم تثبت لهم تلك الحُرمة ، ولكن يُزجر من تنقصهم وأذاهم ، ويُؤدب بقدر حال المقول فيهم ، لا سيما من عرفت صِدِيقَتُه وفضله منهم ؛ وإن لم تثبت نبوته .

وأما إنكار نبوتهم أو كون الآخر من الملائكة فإن كان المتكلم في ذلك من أهل العلم فلا حرج لاختلاف العلماء في ذلك .

وإن كان من عوام الناس زُجر عن الخوض في مثل هذا ؛ فإن عاد أدب ؛ إذ ليس لهم الكلام في مثل هذا .

وقد كره السلف الكلام في مثل هذا مما ليس تحته عمل لأهل العلم ، فكيف للعامة .

## الفصل التاسع

### الحكم بالنسبة للقرآن

اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه ، أو سبهما ، أو جحده ، أو حرفاً منه أو آية ، أو كذب به أو بشيء منه ، أو كذب بشيء مما صرخ به فيه من حكم أو خبر ؛ أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك ، أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع ، قال الله تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢ 】 [فصلت : ٤٢] .

حدثنا الفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد - رحمه الله ، حدثنا أبو علي حدثنا ابن عبد البر ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا ابن داسة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « المَرْءُ فِي الْقُرْآنِ كَفَرٌ ١) ». تؤول بمعنى الشك وبمعنى الجدال .

وعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « مَنْ جَحَدَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ حَلَّ ضرَبُ عُنْقِهِ ٢) ». وكذلك إن جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة ، أو كفر بها ، أو لعنها ، أو سبها أو استخف بها فهو كافر .

وقد أجمع المسلمون أن القرآن المتلوا في جميع أقطار الأرض المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين ، مما جمعه الدَّفَّاتِارُ من أول : الحمد لله رب العالمين إلى آخر قل أعود برب الناس - أنه كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ ؛ وأن جميع ما فيه حق ، وأن من نقص منه حرفاً قاصداً لذلك ، أو بدله بحرف آخر مكانه ، أو زاد فيه حرفاً مما لم يستعمل عليه المصحف الذي وقع الإجماع عليه ، وأجمع على أنه ليس من القرآن عامداً لكل هذا - أنه كافر .

ولهذا رأى مالك قتل من سبّ عائشة رضي الله عنها بالفريدة ؛ لأنه خالف القرآن ؛ ومن خالف القرآن قتل ؛ لأنه كذب بما فيه .

(١) أبو داود في السنة (٤٦٠٣) ، وأحمد / ٢ ٣٠٠ .

(٢) ابن ماجه في الحدود (٢٥٣٩) وفي الزوائد : إسناده ضعيف .

وقال ابن القاسم : من قال إن الله تعالى لم يكلم موسى تكليماً يُقتل ؟ و قال عبد الرحمن بن مهدي .

وقال محمد بن سحنون فيمن قال : المعوذتان ليستا من كتاب الله يُضرب عنقه إلا أن يتوب .

وكذلك لكل من كذب بحرف منه . قال : وكذلك إن شهد شاهد على من قال : إن الله لم يكلم موسى تكليماً ؛ وشهد آخر عليه أنه قال : إن الله ما اتّخذ إبراهيم خليلاً ؛ لأنهما اجتمعوا على أنه كذب النبي ﷺ .

وقال أبو عثمان بن الحداد : جميع من يتّحّلُ التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كفر .

وكان أبو العالية إذا قرأ عنده رجل لم يقل له ليس كما قرأت ، ويقول : أما أنا فأقرأ كذا ، بلغ ذلك إبراهيم ؛ فقال أراه سمع أنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وقال أصيغ بن الفرج : من كذب ببعض القرآن فقد كذب به كله ، ومن كذب به فقد كفر به ، ومن كفر به فقد كفر بالله .

وقد سئل القابسي عن خاصم يهودياً فحلف له بالتوراة ، فقال الآخر : لعن الله التوراة ، فشهد عليه بذلك شاهد ؛ ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية فقال : إنما لعنت توراة اليهود ؛ فقال أبو الحسن : الشاهد الواحد لا يوجب القتل ، والثاني علق الأمر بصفة تحتمل التأويل ؛ إذ لعله لا يرى اليهود متّمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتحريفهم .

ولو اتفق الشاهدان على لعن التوراة مجردًا لضيق التأويل .

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المُقرئ أحد أئمة المقرئين المتصرّفين بها مع ابن مجاهد ؛ لقراءته وإقرائه بشوادٍ من الحروف مما ليس في المصحف ، وعقدوا عليه بالرجوع عنه والتوب عنه سجلاً أشهد فيه بذلك على نفسه في مجلس الوزير أبي علي بن مقلة سنة ثلث عشر وثلاثمائة ؛ وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره .

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بالأدب فيمن قال الصبي : لعن الله معلمك وما علمك .  
وقال : أردت سوء الأدب ، ولم أرد القرآن .

قال أبو محمد : وأما من لعن المصحف فإنه يُقتل .

## الفصل العاشر

### الحكم في سب آل البيت والأزواج والأصحاب

وبسب آل بيته وأزواجه وأصحابه عليهم السلام وتنقصهم حرام ملعون فاعله .

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمة الله ، حدثنا أبو الحسين الصيرفي ، وأبو الفضل العدل ، حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو علي السنجي ، حدثنا ابن محبوب ، حدثنا الترمذى ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا عيدة بن أبي رابطة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن مُغفل ؛ قال : قال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الله ، الله في أصحابي ، لا تخدوهم غرضاً بعدي ؛ فمن أحبهم فيحبني أحبهم ، ومن أبغضهم فيبغضني أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذني » (١) .

وقال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا تسبوا أصحابي ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » (٢) .

وقال صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا تسبوا أصحابي ، فإنه يجيء قوم في آخر الزمان يسبون أصحابي فلا تصلوا عليهم ، ولا تصلوا معهم ، ولا تناكحوه ، ولا تجالسوهم ، وإن مرضوا فلا تعودهم » (٣) .

وعنه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « من سب أصحابي فاضربوه » (٤) .

وقد أعلم النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن سبهم وأذاهم يؤذيه ، وأذى النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرام ، فقال : « لا تؤذوني في أصحابي ، ومن آذاهم فقد آذاني » .

وقال : « لا تؤذوني في عائشة » .

وقال في فاطمة : « بضعة مني يؤذيني ما آذها » (٥) .

وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فمشهور مذهب مالك في ذلك الاجتهاد والأدب الموجع ؟ قال مالك - رحمة الله - : من شتم النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتل ، ومن شتم أصحابه أدب . وقال

أيضاً: من شتم أحداً من أصحاب النبي ﷺ: أبا بكر ، أو عمر ، أو عثمان ، أو معاوية ، أو عمرو بن العاص ؛ فإن قال : كانوا على ضلال وكفر قُتل ؛ وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نُكل نكالاً شديداً .

وقال ابن حبيب : من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدباً شديداً ؛ ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد ، ويكرر ضربه ، ويطال سجنه حتى الموت ، ولا يبلغ به القتل إلا في سبّ النبي ﷺ .

وقال سحنون : من كفر أحداً من أصحاب النبي ﷺ: علينا أو عثمان ، أو غيرهما يُوجع ضرباً . وحکى أبو محمد بن أبي زيد ، عن سحنون : من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ : إنهم كانوا على ضلاله وكفر قُتل . ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل ذلك نُكل النكال الشديد .

ورُوي عن مالك : من سبّ أبا بكر جلد ، ومن سبّ عائشة قُتل . قيل له : لم ؟ قال من رمَّها فقد خالف القرآن .

وقال ابن شعبان عنه : لأن الله يقول : « يعظكم الله أن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينْ » [النور : ١٧] . فمن عاد لثله فقد كفر .

وحكى أبو الحسن الصقلي أن أبا بكر بن الطيب قال : إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سُبّ نفسه ؛ كقوله : « وَقَالُوا أَتَخَدَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » [الأنياء : ٢٦] .

وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة قال : « وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » [النور : ١٦] .

وهذا يشهد لقول مالك في قتل من سب عائشة .

ومعنى هذا ، والله أعلم ، أن الله لما عظم سبّها كما عظم سبّه ، وكان سبّها سبّ لنبيّه ، وقرن سبّ نبيّه وأذاه بأذاه تعالى ؛ وكان حُكْمُ مؤذيه تعالى القتلَ كان مؤذني نبيه كذلك كما قدمناه . وشتم رجلٌ عائشة بالكوفة ، فقد إلى موسى بن عيسى العباسي ؛ فقال : من حضرَ هذا ؟ فقال ابن أبي ليلٍ : أنا ؛ فجلَّده ثمانين ، وحلق رأسه ، وأسلمه إلى الحجاجين .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه نذر قطع لسان عبيد الله بن عمر ؛ إذ شتم المقداد بن الأسود ، فكلم في ذلك : فقال دعوني أقطع لسانه حتى لا يشتم أحد بعد أصحاب النبي ﷺ . وروى أبو ذر الهروي أن عمر بن الخطاب أتى بأعرابي يهجو الأنصار ، فقال : لو لا أن له صحبة لكتفيته .

قال مالك : من انتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ فليس له في هذا الفيء حق ، قد قسم الله الفيء في ثلاثة أصناف ، فقال : ﴿للُّفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَعْغَلُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر : ٨]

ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَّاصَةً﴾ [الحشر : ٩] .  
وهؤلاء هم الأنصار .

ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلَا إِخْرَانَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غَلَّ لِلَّذِينَ آتَمُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] . فمن انتقصهم فلا حق له في المسلمين .

وفي كتاب ابن شعبان : من قال في واحد منهم إنه ابن زانية وأمه مسلمة حُد عند بعض أصحابنا حدين : حُدًا له ، وحدًا لأمه ؛ ولا أجعله كفاذ الجماعة في كلمة لفضل هذا على غيره ، ولقوله ﷺ : « من سبَّ أصحابي فاجلدوه » قال : ومن قذف أم أحدهم وهي كافرة حُد حَد الفرية ؛ لأنَّه سبَّ له ؛ فإنَّ كان أحد من ولد هذا الصحابي حيًّا قام بما ي يجب له ، وإلا فمن قام به من المسلمين كان على الإمام قبول قيامه ؛ قال : وليس هذا كحقوق غير الصحابة لحرمة هؤلاء بنبيهم ﷺ ، ولو سمع الإمام ، وأشهد عليه ، وكان ولِي القيام به ؛ قال : ومن سبَّ غير عائشة من أزواج النبي ﷺ فيفها قولان : أحدهما : يُقتل ؛ لأنَّه سبَّ النبي ﷺ بسبَ حليلته .

والآخر : أنها كسائر الصحابة ؛ يُجلد حَد المفترى ؛ قال : وبالأول أقول .

وروي أبو مصعب ، عن مالك - فيمن انتسب إلى بيت النبي ﷺ يضرب ضرباً وجيعاً ، ويُشهر ويُحبس طويلاً حتى تظهر توبته ؛ لأنَّه استخفاف بحق الرسول ﷺ .

وأفتى أبو المطرَّف الشعبيَّ فقيه مالِقة في رجل أنكر تخليف امرأة بالليل ؛ وقال : لو

كانت بنت أبي بكر الصديق ما حلفت إلا بالنهار ، وصوب قوله بعض المتس敏ين بالفقه ؛ فقال أبو المطرّف : ذكرُ هذا لابنة أبي بكر في مثل هذا يوجب عليه الضرب الشديد والسجن الطويل .

والفقه الذي صوب قوله أحق باسم الفسق من اسم الفقه ؛ فيتقدم له في ذلك ، ويُزجر ، ولا تقبل فتواه ولا شهادته ، وهي جُرحة ثابتة فيه ، ويُبغض في الله .

وقال أبو عمران في رجل قال : لو شهد عليًّا أبو بكر الصديق : أنه إنْ كان في مثل هذا لا يجوز فيه الشاهد الواحد ، فلا شيء عليه ؛ وإنْ كان أراد غير هذا فيضرب ضرباً يُبلغ به حد الموت ؛ وذكرواها رواية .

قال القاضي أبو الفضل : هنا انتهى القولُ بنا في ما حررناه ، وانتجز الغرضُ الذي انتهينا ، واستوفى الشرط الذي شرطناه ، مما أرجو أن يكون في كل قسم منه للمردُّ مَقْنَعٌ ؛ وفي كل باب منهجٌ إلى بُغْيَته وَمَنْزَعٍ .

وقد سُفِرت فيه عن نُكَّتٍ تُسْتَغَرِّبُ وَتَسْتَبْدَعُ ، وَكَرَّعْتُ في مشارب من التحقيق لم يورد لها قبل في أكثر التصانيف مَشَرْعٌ ، وأودعته غير ما فضليٍّ ، وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه ، أو مقتدى يفديني عن كتابه أو فيه ، لاكتفي بما أرويه عما أرويه .

إلى الله تعالى جزيل الضراعة في المنة بقبول ما منه لوجهه ، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره ، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه لما أودعنا من شرف مصطفاه ، وأمين وحيه ، وأسهرنا به جفوننا لتبיע فضائله ، وأعملنا فيه خواطernنا من إبراز خصائصه ووسائله ويحمي أغراضنا عن ناره المقدة لحمايتنا كريم عرضه ، و يجعلنا من لا يُذَادُ إذا ذيد المُبْدُلُ عن حوضه ؛ و يجعله لنا ولن تهم باكتتابه واكتسابه سبيلاً يصلنا بأسبابه ، وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا نَحْوُزُ بها رضاه ، وجزيل ثوابه؛ ويخصنا بخاصيسي زمرة نبينا وجماعته ، ويحشرنا في الرعيل الأول ، وأهل الباب الأئمَّ من أهل شفاعته ؛ ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جمّعه وألهم ، وفتح بصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهم ، ونستعينه جل اسمه من دعاء لا يُسْمَعُ ، وعلم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ؛ فهو الجoward الذي لا يخيب من أمله ، ولا ينتصر من خذله ، ولا يرد دعوة القاصدين ، ولا يصلح عمل المفسدين ؛ وهو حسينا ونعم الوكيل ؛ وصلاته على سيننا ونبينا محمد خاتم النبّيين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً .





محتويات الكتاب



## محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

### القسم الثاني

٢٥٩ في ما يجب على الأنام من حقوقه بِعَدَتْهُ

#### الباب الأول

٢٥٩ الفصل الأول : في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

٢٦٠ الفصل الثاني : [ في وجوب طاعته ]

٢٦٢ الفصل الثالث : في وجوب اتباعه ، وامتثال أمره ، والاقتداء بهديه

٢٦٤ الفصل الرابع : في ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه  
وسيرته

٢٧٠ الفصل الخامس : في أن مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال

#### الباب الثاني

٢٧١ الفصل الأول : في لزوم محبتة بِعَدَتْهُ

٢٧٢ الفصل الثاني : في ثواب محبتة بِعَدَتْهُ

٢٧٤ الفصل الثالث : في ما رُوي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي بِعَدَتْهُ  
وشوّقهم له

٢٧٦ الفصل الرابع : في علامة محبتة بِعَدَتْهُ

٢٧٩ الفصل الخامس : في معنى المحبة للنبي بِعَدَتْهُ وحقيقةها

٢٨١ الفصل السادس : في وجوب مناصحته بِعَدَتْهُ

#### الباب الثالث

٢٨٤ الفصل الأول : في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره

٢٨٦ الفصل الثاني : في عادة الصحابة في تعظيمه بِعَدَتْهُ وتوقيره وإجلاله

٢٨٨ الفصل الثالث : في تعظيم النبي بِعَدَتْهُ بعد موته

٢٩٠ الفصل الرابع : في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله بِعَدَتْهُ وسُنْتُهُ

٢٩٢ الفصل الخامس : في توقيره ، وبر آله ، وذريته ، وأمهات المؤمنين أزواجه

٢٩٦ الفصل السادس : في توقيره وبره توقير أصحابه وبرهم

٢٩٩ الفصل السابع : ومن إعظامه وإكباره

## الباب الرابع

الفصل الأول : في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته ٣٠٢

الفصل الثاني : حكم الصلاة على النبي ٣٠٣

الفصل الثالث : في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ٣٠٥

الفصل الرابع : في كيفية الصلاة عليه والتسليم ٣٠٩

الفصل الخامس : في فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له ٣١٣

الفصل السادس : في ذم من لم يصل على النبي ٣١٥

الفصل السابع : في تخصيصه ، بتبليغ صلاة من صلى عليه وسلم من الأنام ٣١٧

الفصل الثامن : في الاختلاف في الصلاة على غير النبي ٣١٩ وسائر الأنبياء عليهم السلام

الفصل التاسع : في حكم زيارة قبره ٣٢١ ، وفضيلة من زاره وسلم عليه وكيف يسلم ويدعوه له

الفصل العاشر : آداب دخول المسجد النبوي الشريف وفضل المدينة ومكة . ٣٢٦

٣٣١

٣٣٢

مقدمة القسم الثالث

## القسم الثالث

### الباب الأول

في ما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة نبينا وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم ٣٣٤

الفصل الأول : في حكم عقد قلب النبي ٣٣٥ من وقت نبوته

الفصل الثاني : في عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك ٣٤٥

الفصل الثالث : في حكم عقد النبي في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية ٣٤٩

الفصل الرابع : في إجماع الأمة على عصمة النبي ٣٥١ من الشيطان

الفصل الخامس : في عصمة النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله ٣٥٦

الفصل السادس : في ما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه ٣٦٥

الفصل الثامن : رد بعض الاعتراضات ٣٦٧

الفصل التاسع : عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر ٣٧١

الفصل العاشر : في عصمتهم قبل النبوة ٣٧٤

٣٧٦	الفصل الحادي عشر : السهو والنسيان في الأفعال
٣٧٧	الفصل الثاني عشر : الأحاديث المذكور فيها السهو منه <small>عَنْهُ</small>
٣٨١	الفصل الثالث عشر : الرد على من أجاز عليهم من الصغائر والكلام على ما احتجوا به في ذلك
٣٩٣	الفصل الرابع عشر : حالة الأنبياء في خوفهم واستغفارهم
٣٩٦	الفصل الخامس عشر :فائدة ما مر من الفصول التي بحثت مسألة العصمة
٣٩٧	الفصل السادس عشر : في القول في عصمة الملائكة
٤٠١	<b>الباب الثاني</b>
٤٠٢	الفصل الأول : في ما يخصهم في الأمور الدينية ويطرأ عليهم في العوارض البشرية
٤٠٣	الفصل الثاني : حالتهم بالنسبة للسحر
٤٠٥	الفصل الثالث : أحواله في أمور الدنيا
٤٠٧	الفصل الرابع : أحكام البشر الجارية على يديه
٤٠٨	الفصل الخامس : أخباره الدينية
٤١٠	الفصل السادس : حديث الوصية
٤١٣	الفصل السابع : دراسة أحاديث أخرى
٤١٦	الفصل الثامن : أفعاله الدينية
٤٢٠	الفصل التاسع : حكمة المرض والابتلاء لهم
٤٢٦	<b>القسم الرابع</b>
٤٢٦	في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سببها عليه الصلاة والسلام
٤٢٧	المقدمة
٤٢٩	<b>الباب الأول</b>
٤٢٩	الفصل الأول : في بيان ما هو - في حقه <small>عَنْهُ</small> - سب أو نقص ، من تعريض أو نص
٤٣٢	الفصل الثاني : في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه <small>عَنْهُ</small>
٤٣٧	الفصل الثالث : أسباب عفو النبي <small>عَنْهُ</small> عن بعض من آذاه
٤٤١	الفصل الرابع : حكم من فعل ذلك دون قصد أو اعتقاد
٤٤٢	الفصل الخامس : حقيقة قائل ذلك هل هو كافر أو مرتد
٤٤٣	الفصل السادس : الحكم في ما لو كان الكلام يحتمل السب وغيره
	الفصل السابع : حكم من وصف نفسه بصفة من صفات الأنبياء رفعاً لشأنه أو

٤٤٥	استصحاباً لشأنهم صلوات الله عليهم
٤٤٩	الفصل الثامن : حكم الناقل والحاكي لهذا الكلام عن غيره
٤٥١	الفصل التاسع : ذكر الحالات التي تجوز عليه <small>بِعِلَّةٍ</small> على طريق التعليم
٤٥٤	الفصل العاشر : الأدب اللازم عند ذكر أخباره <small>بِعِلَّةٍ</small>
٤٥٦	<b>الباب الثاني</b>
٤٥٧	الفصل الأول: في حكم سابه وشأنه ومتناقضه ومؤذنه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته
٤٥٩	الفصل الثاني : حكم المرتد إذا تاب
٤٦١	الفصل الثالث : حكم المرتد إذا اشتبه ارتداده
٤٦٣	الفصل الرابع : حكم الذي في ذلك
٤٦٦	الفصل الخامس : في ميراث من قُتلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ <small>بِعِلَّةٍ</small> وغسله والصلة عليه
٤٦٩	<b>الباب الثالث</b>
٤٧٠	الفصل الأول : في حكم من سب الله تعالى وملائكته وكتبه وأنبياءه وأل النبي <small>بِعِلَّةٍ</small> وأزواجها وصحبه
٤٧١	الفصل الثاني : حكم إضافة ما لا يليق به تعالى عن طريق الاجتهاد والخطأ
٤٧٣	الفصل الثالث : في تحقيق القول في إكفاره المتأولين
٤٧٧	الفصل الرابع : في بيان ما هو من المقالات كفر ، وما يتوقف أو يختلف فيه ، وما ليس بکفر
٤٨٤	الفصل الخامس : حكم الذي إذا سب الله تعالى
٤٨٥	الفصل السادس : حكم ادعاء الإلهية أو الكذب والبهتان على الله
٤٨٧	الفصل السابع : حكم من تعرض بساقط قوله وسخيف لفظه بحلال ربه دون قصد
٤٨٩	الفصل الثامن : حكم سب بقية الأنبياء والملائكة
٤٩١	الفصل التاسع : الحكم بالنسبة للقرآن
٤٩٣	الفصل العاشر : الحكم في سب آل البيت والأزواج والأصحاب
٤٩٧	<b>فهرس المحتويات</b>